

الفرق بين
حبي

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصاوي

انتشارات فرهنگ اسلامي



مرکز تحقیق تکاپویر علوم اسلامی

الفُرُقَانِی

۲۲ - ۲۳

الكتاب	الفرقان في تفسير القرآن
المؤلف	الدكتور الشيخ محمد الصادقي
الجزء	الثاني والعشرون - الثالث والعشرون
	سورة: يس، الصافات، ص، الزمر
الطبعة	الثانية
المطبعة	مطبعة أمير - قم
الناشر	انتشارات فرهنگ اسلامي - طهران
	تلفن: ۶۲۰۰۸۴
سنة الطبع	۱۴۰۶ هـ ق - ۱۳۶۵ هـ ش
عدد المطبوع	۳۰۰۰ نسخة

مَكَّاهُ الْمُحَرَّفُ الْمُحَرَّفَةُ وَمُجَنَّدَةُ

سماعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروق

في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

الجزء ٢٢ - ٢٣

سورة يس - غافر

دار الفوائد الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع

ببغداد - لبنان

(۳۱) سُوْرَةُ بَسْمِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثٌ وَشَاوُونَ



مرکز تحقیق تکاپویر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ
 الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ④ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ
 الرَّحِيمِ ⑤ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرُوا أَبَاوَهُمْ فَهُمْ
 غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَهِيَ إِلَى
 الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
 وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨
 وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩
 إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ
 فَبَشِيرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى
 وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
 فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ⑫

سورة تبتنى من تفاصيل الأصول الثلاثة ما تميزها في حقولها عن سائر السور التي تحويها، مبتدأة بدعائمي هذه الرسالة السامية: القرآن ونبي القرآن، ثم المبدأ، ومن ثم المعاد، حيث الأوليان تعرفان الرسالة وتبينان أصلي المبدء والمعاد.

ولأن هذه الأصول هي القرآن كله، وهي قلب القرآن وريحانته، إذاً فياسين هي القرآن كله^(١) وهي قلب القرآن^(٢) وريحانته^(٣) بل هي قلب القلب^(٤) حيث القرآن قلب الكتب كلها!

وإنها ذات الفواصل القصيرة، والإيقاعات السريعة اليسيرة، ملتحمة بملاحم عميقة الإبحاء من براهين بارعة في مختلف الحقول، تدق على الفطر والحواس والعقول دقات متوالية متعالية، تعمل على مضاعفات آثارها في أعماق الضمائر والألباب.

﴿يَسْ﴾^(١) هي من الحروف المقطعة - وعلى حدّ تعبير الأمير (عليه السلام): «من مفاتيح كنوز القرآن» المغيبة عن غير أهل بيت القرآن، ولكنها من بينها قد تلمح إلى معناها، وتلمع فيها مغزاها، فد «إنك لمن المرسلين» تلمح لذكر سابق عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يسبق إلا «يَسْ» إذ أفهي نداء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بيائها،

(١ و ٢) الدر المنثور ٥ : ٢٥٦ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لكل شيء قلب وقلب القرآن يس ومن قرأ يس فكانما قرأ القرآن عشر مرات، وفي ثواب الاعمال باسناده الى ابي عبد الله (عليه السلام) مثله إلا في ذيله .

(٣) تفسير البرهان ٤ : ٣ في مجالس الشيخ باسناده قال: قال ابو عبد الله (عليه السلام): علموا اولادكم يس فانها ريحانة القرآن .

(٤) الدر المنثور عن انس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ان لكل شيء قلباً وقلب القلب يس .

وتسمية له (صلى الله عليه وآله وسلم) بحرف من صفة الرسالة ، السابقة عليها ، المعبدة الطريق إليها ، كـ «السامع الوحي»^(١) «والقرآن الحكيم» واقع موقع البرهان على سماع الوحي النبوة وبث الوحي الرسالة ، وإن كانت في صيغة الحلف .

فكما أن «ن» اسم من اسمائه وعلها اختصار عن نبوته ، كذلك «س» عن سماعه الوحي^(٢) وقد تفرقان ان الاولى مقسم بها والثانية منادى ، مهما تشتركان في اشارة النبوة وسماع الوحي ! فهو بكيانه ككل ، بقلبه وسمعه سماع واستداعة للوحي ومن ثم إذاعة له ، وهما في افضل مراتبهما وأكملهما .

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾^٣ هي في صورة الحلف وسيرة البرهان ، وكما هي السنة الدائمة في أحلاف القرآن ، فالقرآن بحكمته البارعة أدبياً بأعلى قمم الفصاحة والبلاغة ، ومعنوياً بأرقى درجات اللباقة ، يكفي شاهد صدق على رسالة من جاء به : «أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم» (٢٩ : ٥١) .

(١) البرهان ٤ : ٣ - ابن بابويه بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) قال له يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما معنى قول الله عز وجل : يس ؟ قال : اسم من اسماء النبي ومعناه ايها السامع الوحي ، أقول واحتمال أنه «يا إنسان» عن ابن عباس ، أم «يا رجل» عن الحسن وابن العالية ، أم «يا محمد» عن سعيد بن جبير ومحمد بن صفينة أم «يا سيد» لا دليل عليه ولا سيما الذي ليس فيه «سين» حتى تكون إشارة إليه .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٣٧٤ ج ١٠ في كتاب الخصال عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : إن لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عشرة اسماء خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن فاما التي في القرآن فمحمد واحد وعبد الله ويس ، أقول ومنها في القرآن «طه» كأنها ساقطة من قلم الناسخ .

دليل واحد حكيم بين مدلولين اثنين ، بين سين رمزاً إلى سماع الوحي النبوة و«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» في تصريحه الرسالة على صراطٍ مستقيم ، فحكمة القرآن في بيانه وتبينه قد سَدَّتْ دونه ثغرات وإحتمالات أنه من عند غير الله ، فمهما بلغ الكلام من غير الله إلى مطلق الحكمة ، ليس ليبلغ إلى حكمة مطلقة دون أية هفوة وثغرة ، حيث الكمال القمة اللانهاية هي التي تقتضي الحكمة القمة ، فكل درجة من حكمة الكلام دليل على نفس الدرجة من حكمة المتكلم حتى تبلغ إلى الدرجة القمة التي لا تدانيها حكمة ، فهي - إذاً - من حكمة الله لا سواه ، حكمة ملأت قلب الرسول نبوة: «يَسَّ» ثم تخطته إلى العالمين رسالةً في أعلى درجاتها: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» على صراطٍ مستقيم .

فالقرآن حكيم لا مدخل فيه بأية شعرة في مثلث الزمان من أي إنس والجان ، وفي أي حقل من حقوله المتمازجة على مختلف أبعادها ، حيث تخلق على كل العلوم في كل أبعاد الزمان ، لا عَوَج فيه ولا ريب يعتريه ، فلا انفصام لعروته «نورٌ لا يطفأ مصابيحُه وسراجٌ لا يُخبوء توقده ، وبحرٌ لا يُدرك قعره ، ومنهاجٌ لا يضلُّ نهجُه ، وشعاعٌ لا يُظلم ضوءُه ، وفرقانٌ لا يُحمد برهانه ، وتبيانٌ لا تُهدم أركانه ... حبلاً وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً ذروته .. (١)» .

وما أحسنه برهاناً حكمة القرآن ، توجيهاً إليها بصورة الحلف ، ولكي يعيش الناس تدبراً فيه وإمعاناً في ألفاظه ومعانيه ، دون أن يوضَّح جناب حكمته فلا تتحرك العقول ، فتبوء إلى عطالة دون حراك !

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ رسالة عليا ، على

(١) من خطب الامام امير المؤمنين في النهج ١٩٣ ص ٣٠٢ .

صراط مستقيم أعلى، حيث الحكمة القرآنية أعلى الحكم فلا أعلى منه ولا تدانيها حكمة ، فالصراط المستقيم الذي لا عوج له هو طبيعته وماهيته .

إنه «على صراط مستقيم» في «الصورة الإنسانية»^(١) والعبودية : «إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» (٣ : ٥١) والإيمان والإعتصام بالله «فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة وفضل ويهديهم صراطاً مستقيماً» (٤ : ١٧٤) «ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم» (٣ : ١٠١) «قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم. ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (٦ : ١٦١) .

ولأنه مليء من الصراط المستقيم فـ «إنك لتهدي إلى صراط مستقيم» (٤٢ : ٥٢) هداية أصيلة بالكتاب : «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم» (٥ : ١١٦) وأخرى هامة بسبب القاطعة: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول»

فهو «على صراط مستقيم» في شخصه ورسالته ، في الصورة الإنسانية ، وصراط العبودية والإيمان ، والإعتصام بالله ، وفي هدي كتاب الله ، وفي رسالته ، وإسلامه ، وتوحيده لله ، سبعة كاملة بأفضل درجاتها ، منقطعة النظر بين كل بشير ونذير في ملائ العالمين من الملائكة والجنة والناس اجمعين^(٢) .

«إِنَّكَ .. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «إنك لمن المرسلين على صراط

(١) تفسير الصافي عن الامام الصادق (عليه السلام) .

(٢) راجع تفسير الآية «اهدنا الصراط المستقيم» ج ١ الفرقان .

مستقيم في بعدين فالمراد يستقيم البعد الأول من الصراط لم يستقم الثاني : «افمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون» فقد كان الرسول على صراط الإنسانية المستقيم، وصراط العبودية حتى اصطفاه الله على صراط مستقيم من الوحي والرسالة والنبوة باكمل درجاتها .

وقد يعني «القرآن الحكيم» إلى جانب قرآن محمد - محمد القرآن لأنه تجسيد لحكمة القرآن وأحكامه ومعارفه، وقد كان خلقه القرآن^(٢) فهو الثقلان مهما كان القرآن أكبر الثقلين، فهو عقله وقلبه القرآن الحكيم بما فيها من تفاصيل المعارف الإلهية، ما يحتاجه ويحتاجه العالمون أجمعون إلى يوم الدين .

وقد يتأيد بما يأتي من إجابة المرسلين: «قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» حيث استندوا لإثبات رسالتهم بظواهر التربية الخاصة الرسالية فيهم .

وأوضح من ذلك آية ثانية في يس: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو القرآن المبين كما القرآن مبين، بل هو أبين لأنه يجسده بكل مظاهره، ويفسره بستره .

فالقرآن دون الرسول كما الرسول دون القرآن جناح واحد في الدعوة ينقص ثانية، المحلق بهما في اجواء الهداية الكاملة .

(١) «على صراط مستقيم» على الأول خبر ثان وعلى الثاني متعلق بالمرسلين .

(٢) وكما سئل ابن عباس ما كان خلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : كان خلقه القرآن .

﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾^١ ولأنه تنزيل العزيز فهو عزيز : «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (٤١ : ٤١) عزيز لا يُغلب بنسخ أو تحريف، أو تحوير وتجديف، وفي «تنزيل» مصدراً منصوباً إشارتان إلى عظم موقف القرآن، فلا يوصف بالتنزيل إذ هو فوق الوصف الذي ليس لازماً لموصوفه،^(١) والتنزيل لزام القرآن وكيانه، ليس له وراء «تنزيل العزيز الرحيم» موقف حتى يوصف به، إذا فالوصف هنا هو الموصوف، والموصوف هو الوصف دون فارق!

ثم المصدر دليل ثان على ذلك الكيان المجيد للقرآن، أنه من عزة الله ورحمته المنزلة على خلقه، فلا يحمل كياناً إلا ربوبياً في أعلى مظاهره. وقد يعني «تنزيل» نبي القرآن مع القرآن فإنه منزل «قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً» (٦٥ : ١٠) ومنزل حيث الدرجات المتتالية منزلة عليه من العزيز الحكيم منذ كان فطياً حتى بلوغه وحتى رسالته وإلى قضاء نجه.

فمحمد القرآن وقرآن محمد هما تنزيل العزيز الرحيم، كما هما على صراط مستقيم، وكما يحملان مع بعض، هذه الرسالة القمة دون فكاك. ولأنه تنزيل الرحيم فهو كتاب رحيم يعم برحمته وكما رسوله «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (٢١ : ١٠٧).

كتاب عزيز رحيم، تنزيل العزيز الرحيم على رسول عزيز رحيم، عزة في التنذير ورحمة في التبشير وفي كلما يتطلب عزة ورحمة.

(١) فإن تنزيل منصوب اما على الاختصاص او على المدح او انه مفعول اعني.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٦) علةٌ غائبةٌ للإرسال والتنزيل .

صحيح أن القرآن لإنذار الناس أجمعين ، من أنذر آباءهم وأنفسهم أم لم ينذروا : «قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين» (١١ : ٢٥) ولا الناس فقط بل العالمين : «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (٢٥ : ١) ولكن المحور الأول لإنذاره «قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون» فانهم أصلد وأصلب ، فغيرهم أقوى تأثيراً وأعبء ولقد يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً» (١٩ : ١٧) لُداً في عروبتهم ، ولُداً إذا لم ينذروا من قبل ولا آباءهم ، أم لم ينذروا مهما أنذر آباءهم «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون» (٣٢ : ٣) «لعلهم يتذكرون» (٢٨ : ٤٦) «وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير» (٣٤ : ٤٤) .

فالذين أنذروا ، هم وآباءهم ، ثم الذين أنذر آباءهم دونهم ، ثم من أنذروا هم دون آبائهم ، ثم من لم ينذروا هم ولا آباءهم ، هم كلهم من العالمين تشملهم آية الفرقان ، ولكنها العرب الذين لم ينذروا ، هم ولا آباءهم ، فيهم عراقييل ثلاث وجاء إنذار القرآن ، وإذا كانت عزة القرآن ورحمته لحد تؤثر في هؤلاء بعراقيلهم الثلاث ، فبأحرى تأثيرها فيمن دونهم عرقلةً ، فالتحلل عن القوميات يعبد ، وإنذار الآباء يعبد ، وإنذارهم أنفسهم يعبد ، تعبيدات ثلاث لتقبل الإنذار على سهولة ويسر .

ولأن هذه الغفلة ليست لحد يسقط معها التكليف ، فواجب الإنذار بوجهٍ إليهم على صعوباته وعراقيله .

فثالث الغفلة التامة ، الطامة أنفسهم ، الناتجة عن هذه الثلاث ، تجعل منهم معاندين متعتين لحد :

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧) لا يؤمنون لأنهم غافلون ثم ولا يريدون الهدى فهم قاصرون ومقصرون، فقد حقت على أكثرهم كلمة العذاب، والقلة الباقية بين قاصر مطلق دون تقصير، وبين من يؤمن رغم الغفلة الحاكمة، ويا لهذه القلة الثانية من براعة ونصوع الإيمان إذ يجتازون ثالث الغفلة إلى نور الإنتباه :

أترى «فهم لا يؤمنون» تفريع على حق القول على الأكثرية العاتية ؟ وهو جبر وتسيير على عدم الإيمان !

أم إن حق القول من مخلفات «فهم لا يؤمنون» والفاء إجابة عن سؤال السبب في حق القول ، فلأنهم بغفلتهم يتعتنون فلا يؤمنون «لقد حق القول على أكثرهم» ، وإن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون «(١٠ : ٩٦) لا تعني إلا حق الكلمة على الذين يعلم الله أنهم لا يؤمنون تخيراً ، فعلمه بأنهم لا يؤمنون حتى الموت حقت عليهم كلمة العذاب قبل الموت ، وليس العلم علة العصيان ، بل هو كشف سابق عن العصيان ! كما الكشف المقارن أو اللاحق ، فإنها سواء أن ليس العلم علة ، بل هو انكشاف عما حصل أو يحصل أو هو حاصل بأسبابه ، إن غييراً فمخيراً وإن مسيراً فمسيراً .

ف «قد حق القول على أكثرهم» لأنهم لا يؤمنون ، أم حيث حق القول على أكثرهم ، لأن الله يعلم أنهم لا يؤمنون «فهم لا يؤمنون» ، وحق القول هنا كاشف أنهم لا يؤمنون .

وكلما كثرت وتتابعت عوامل الغفلة تثاقلت الذكرى بطبيعة الحال ، دون انسداد مطلق لطريق الهدى ، حيث الفطرة التي فطر الله الناس عليها تظل حجة دائمة تطارد العوامل الخارجية والدخيلة ، وكثير هؤلاء الذين تؤثر عليهم تلكم العوامل الجارفة ، وقليل هؤلاء الذين يطاردونها

ويتخلصون عن المعركة ، والغفلة ما لم تكن عامدة لا تحقق القول على أصحابها ، فمن لم يُنذروا من قبل ، ولا آباءهم ، فهم في غفلة قاصرة ، فإذا أنذروا هم أنفسهم يمثل هذه الرسالة السامية القرآنية بحجتها البالغة ، التي تزيل كل غفوة وغفلة ، ثم لم ينتبهوا ، فهم إذاً في غفلة عامدة ، «فهم غافلون» إذاً له بعدان قصوراً وتقصيراً ، وليس حق القول إلا على أكثرهم وهم المقصرون في غفلتهم بعدما أنذروا ، وأما القاصرون وباحرى المؤمنون ، فهم القلة الناجية التي لم تحق عليها القول ، إلا مغفرة ورضواناً أم وإيماناً!

و«القول» كما في سائر القرآن هو وعد العذاب «ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين» (٢٩ : ٧١) (١).

«إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَبَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ» (٨).

ولماذا «لا يؤمنون» ؟ لأنهم بما لم يُنذروا ولا آباءهم غافلون ، ولأنهم لما أنذروا ثبتوا على الغفلة عامدين ، فقد تجاوزت العوامل الخارجية : «ما أنذر آباءهم» قصوراً ، والعوامل الداخلية تقصيراً ، فتعمقت الغفلة فيهم وتعمقت لحد أصبحوا غفلة على غفلة «ظلمات بعضها فوق بعض» «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» كما زاغوا ، ومثلهم في زيغهم عن الحق وعماهم عن مشاهدة الحق ، واستكبارهم على شاهد الحق «إنا جعلنا ...» .

وعلى الأول تمثيل عن الغفلة الأنفسية ، والثاني هي الأفقية ، فلم

(١) «بل كنتم قوماً طاغين . فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون» (٣٧ : ٢١) «ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وإن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون» (١٦ : ١٠٨).

يتبين لهم أنه الحق بما زاغوا عن الآيتين :

فهب إنهم لم يُنذروا ولا آباءهم ، فلماذا لم ينظروا إلى الآفاق حتى يعتبروا ، ولماذا لم ينظروا إلى أنفسهم حتى يتبصروا ؟ فلما ركزت في أنفسهم عوامل الغفلة العارضة أنساهم الله أنفسهم «فهم مقمحون» وأعماهم عن آفاقهم فهم لا يبصرون «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم» (٥٩ : ١٩) «كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكذلك اليوم تنسى» (٢٠ : ١٢٦) .

«إنا جعلنا» بجمعية صفات الجلال الإنتقام يوم الدنيا «في أعناقهم أغلالاً» وليس على أعناقهم ، وإنما «في» المشيرة إلى أن «أغلالاً» جعلت دواخل أعناقهم ، وتملكه ذواتهم فلا يملكون فكها ، ثم «فهي إلى الأذقان» أغلالاً متراكبة طول الأعناق إلى الأذقان ، فلا مجال لهم في حراكها على أية حال «فهم مقمحون» : رافعون رؤوسهم كالمشائي ، كبعير قامح ، يرفع رأسه تأنفاً فلا يشرب ماءً ولا يأكل كلاءً ، وكأنهم شَبَّهوا- في تكارههم للإيمان وتضاييق صدورهم لسماع القرآن- بقوم عوقبوا فجذبت أذقانهم بالأغلال إلى صدورهم ، مضمومة إليها أيمانهم ، ثم رفعت رؤوسهم ليكون ذلك أشد لإيلامهم وأبلغ في عذابهم !

هؤلاء الحمقى الطغاة الغافلون البغاة أصبحوا رافعي الرؤوس كأنهم لا يملكون إنحناء وإن لصالح أنفسهم ، متأين عن شربة ماء الحياة ، ولا يملكون النظر إلى أنفسهم ليدركوا آياتها ، ويلمسوا حاجاتها ، حارمين أنفسهم عن النظر إليها وإلى آيات الله فيها ، ولَيْتَهُمْ لم يُجرموا النظر إلى آياته في الآفاق ، كي يتبصروا بها ويرجعوا إلى أنفسهم متبهيين ، ولكن :

﴿وَجَعَلْنَا مَنْ يَتَّبِعُ آيَاتِهِمْ سُدًّا وَمَنْ خَلْفَهُمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩) إنهم سُدَّتْ عليهم منافذ الرؤية للآفاق كما سُدَّتْ عليهم

انفسهم ، و«بين ايديهم ومن خلفهم» تشمل الجهات كلها حيث «فاغشيناهم» هي غشية تشملهم دون إبقاء ، لم تبق لهم منفذاً من منافذ الإدراك للأفاق سمعاً ولا بصرأ ولا حساً ، عقلاً ولا قلباً ولا فطرة ولا أية نافذة قلباً أو قالبا^(١) «فاغشيناهم فهم لا يبصرون» .

ذلك الإقماح وهذا السد ليس على ظاهر أبدانهم ، بل على باطن قلوبهم «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . . .» توصيفاً لما كان عليه هؤلاء عند سماع القرآن من تنكيس أذقانهم ، ولي أعناقهم ، ذهاباً عن الرشد ، واستكباراً عن الإنقياد للحق ، وضيق صدور بما يرد عليهم من مواقع البيان وقوارع القرآن .

وعلى «بين أيديهم» تعني-فيما عنت-مستقبل الحياة وهي الأخرى ، «وما خلفهم» تعني الحياة الأولى ، فهم مغشون عن النظر إلى الحياتين وصالحهما لأنفسهم : «قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا» (١٨ : ١٠٤) .

قد يحرم الإنسان إبطاره إلى آيات آفاقية ، ويُمنح آيات أنفسية ، باطنة

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٧٦ ج ١٩ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى «وجعلنا من بين ايديهم . . .» الهدى اخذ الله سمعهم وابصارهم وقلوبهم واعمالهم عن الهدى ، نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من اهل بيته وذلك ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قام يصلي وقد حلف ابو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي لهدمغه فبجاءه ومعه حجر والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه اثبت الله عز وجل يده الى عنقه ولا يدور الحجر بيده فلما رجع الى اصحابه سقط الحجر من يده ثم قام رجل آخر وهو رهنه فقال : انا اقتله فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فارعب فرجع الى اصحابه فقال : حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت أن اتقدم .

من الروح على فطرته وعقله ، وظاهرة من جسمه بأعضائه ، وقد يُحرم آيات أنفسية ويمنع الأفاقية ، فله مجال على أية حال أن يتبصر ، فإذا حُرِمَ الإبصار إلى جمعي الآيات «فهم لا يبصرون» وصولاً إلى حقائق المبشرات مبدئاً ومعاداً ، فيجمدون عليها دون تبصر ، «فمن أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أغمته» وأما إذا اهتدى إليهما ككل فقد هدي إلى صراط مستقيم .

فيا ويله إن وصلت حال الإنسان الى هذه الدركات و«ذلك بما قدمت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد» حيث لا يبقى له منفذ إلى النور ، مُقْمَح في ذاته ، مسدود مغشي عن آفاقه «فهم لا يبصرون» .

ولقد حصلت شعبة من هذه التعمية على أبي جهل لما أراد ان يسمع النبي وهو يصلي^(١) وعلى قريش لما اجتمعوا ببابه ينتظرون خروجه ليؤذوه^(٢) وكذلك على الذين مكروا به (صلى الله عليه وآله وسلم) - وهو منهم - فمكر الله والله خير الماكرين اذ قرأ عليهم آية السجد فسجد عليهم فهم لا يبصرون^(٣) .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) كما في الدر المنثور ٥ : ٢٥٩ - اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمعت قريش بباب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ينتظرون خروجه ليؤذوه فشق ذلك عليه فاتاه جبرئيل بسورة يس وامره بالخروج عليهم فاخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذر التراب على رؤوسهم فما رأوه حتى جاز فجعل احدهم يلمس رأسه فيجد التراب وجاء بعضهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا ننتظر محمداً فقال : لقد رأيت داخل المسجد قالوا قوموا فقد سحركم .

(٣) نور الثقلين ٤ : ٣٧٧ ج ٢١ القمي في بيان خروج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) «سواء عليهم»
إذ لا يؤمنون ، لا عليك ، فان عليك الإنذار كما على الرسل «عذراً أو
نذراً» ولا يعني «سواء عليهم» إلا بيان الواقع وتسلية لحاطر النبي الأقدس
لكيلا يحزن عليهم فـ «إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» .

ليس للمنذر-إرشاداً أو امراً ونهياً- أن يترك إنذاره بحجة أنهم لا
يؤمنون ، فعلهم يؤمنون رغم حسابك حيث الواقع قد يتخلف عن العلم
غير المحيط بالواقع ، وحتى إذا كان قطعاً ، أم وتبين أن الإنذراء كان عليهم
سواء لم يسقط وجوبه عن المنذرين ، إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجة .

وواقع اللاإيمان من هؤلاء الأنكاد هو من الملاحم الغيبية القرآنية فهم

«وسلم» من بيته الى الغار وفيه : وامر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يفرش
له قفرش له فقال لعلي بن ابي طالب (صلى الله عليه وآله وسلم) افندي بنفسك قال :
نعم يا رسول الله ، قال : يا علي ! نم على فراشي والتحف ببردي فتام علي (عليه
السلام) على فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتحف ببردته وقد جاء
جبرئيل واخذ بيد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاخرجه على قريش وهم نيام
وهو يقرء عليهم «وجعلنا . . .» وفي كتاب الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن
ابيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال : ان يهودياً من يهود الشام
واحبارهم قال لامير المؤمنين (عليه السلام) فان ابراهيم (عليه السلام) حجب عن
غمرود بحجب ثلاث ؟ قال علي (عليه السلام) : لقد كان كذلك ومحمد (صلى الله عليه
وآله وسلم) حجب عمن اراد قتله بحجب خمس ثلاث بثلاثة واثنتان فضل ، فان
الله عز وجل وهو يصف محمداً قال : «وجعلنا من بين ايديهم سداً» فهذا الحجاب
الاول «ومن خلفهم سداً» فهذا الحجاب الثاني «فاغشيناهم فهم لا يبصرون» فهذا
الحجاب الثالث ثم قال «واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة
حجاباً مستوراً» فهذا الحجاب الرابع ثم قال «فهي إلى الاذقان فهم مقمحون» فهذه
حجب خمس .

على استكبارهم وإصرارهم لإبطال حجة القرآن لم يؤمنوا ولو على ظاهر الحال تكذيباً للحممة قرآنية ، وكانوا أشخاصاً خصوصاً عُرفوا بين الجموع بالكفر الصامد والجحود العامد .

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (١١) .

إن تأثير الإنذار منحسر عنهم ، منحصر في «من اتبع الذكر» : من إذا ذكروا تذكروا دون عناد ، وهم المتقون الذين إذا وقوا عن الشر اتقوه ، فهم الأحياء بروح الذكر والتقوى : «لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين» (٧٠) ، وقد يلمح المضي في «اتبع .. وخشي» لسابق هذه الحالة السابغة فيهم قبل الذكر فهم مهملات كانوا قبل الذكر من الغافلين ، ولا سيما إذ «ما أنذر آبائهم» من قبل ولا أنذروا ، هم أنفسهم ، ولكن الغفلة حيث كانت قاصرة دون تقصير ، فكانوا يفتشون عن ذكر حتى يتذكروا ، أم - ولأقل تقدير - كانوا لا يعاندون الحق على غفلتهم ، فهما - إذاً - «من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب» منذ الغابر وحتى الوقت الحاضر ، عائشين إتباع الذكر، فهم - دوماً - عنه يتبعون !

وهذا شكٌ مقدس وغفلة غير مقصرة ، لا ينقصه إلا عدم بلوغ الحجة البالغة ، وهؤلاء هم الذين يؤثر فيهم الإنذار .

فـ «من اتبع الذكر» يعرف الرحمن كأصل أول في حقل الذكر ، فيخشي الرحمن بالغيب ، يخشاه وهو تعالى «بالغيب» ثم يخشاه «بالغيب» عمن سواه دون رثاء ، ويخشاه بغيث ضميره وسريرة قلبه ، فتظهر الخشية في أفعاله - إذاً - فهو في شهوده أخشى .

وكما اتباع الذكر درجات ، كذلك خشية الرحمن بالغيب درجات : بغيته تعالى ، ثم بالغيب عن خلقه ، ثم بغيث ضميره ، كما ولكلٍّ من

هذه الثلاث أيضاً درجات !

فلما أثر الإنذار يأتي - إذا - دور التبشير «فبشره بمغفرة» عما سلف «قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف» (٢ : ٢٨) ومغفرة حين اتباع الذكر ، وخشية الرحمن عن تقصيرات او قصورات ، إذ لا يخلوا أي مكلف عن لم إلا السابقين والمقربين ، ثم «وأجر كريم» : واسع ، أوسع عما يستحقه ويرجوه ، فهو أجر كريم من إله كريم ، إلى عبد كريم ، وأين كريم من كريم ؟ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢) -

هنا جموع ثلاثة مؤكدة بحرف التأكيد تؤكد إحياء الموتى في جمعية الصفات^(١) وجمع الجموع أولاً في الذكر وهو آخر في الواقع ، كما وتؤكد كتابة ما قدموا وآثارهم وليس إلا في حياة التكليف ، كذلك وإحصاء كل شيء في إمام مبين وهو يتسبها ، وليس عكس الترتيب إلا بحساب ترتيب الأهمية ، فالمحور الرئيسي في هذه الثلاث هو إحياء الموتى ، ويلحقه إنذار : «ونكتب ما قدموا وآثارهم» ثم يتم الإنذار ويظم « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » .

(١) ولا يعني الجمع في مثله جمع الله وملائكته آمن ذا إذ لا يجعل الله نفسه المقدسة مع عبده ولا سيما في الأفعال الخاصة به ، فقول الصدر الشيرازي في تفسير يس ص ٣٩ : أي هو تعالى أو ضرب من ملائكته المقربين المهيمين الذين فعلهم مطوي في فعل الحق لفناء ذواتهم بغلبة سلطان النور الكامس الأزلي على انوارهم واقتفاء اشعة تأثراتهم العقلية تحت شعاع الضوء القيومي - مردود إلى قائلة - ومن الغريب اعترافه بفناء ذواتهم ثم تفسير اجمع «انا نحن» بظهورهم بجانب الحق لحد صنعوا بجانبه ، وظهروا بجانبه !

لا محيي للأحياء يوم الإحياء إلا هو ، ولا كاتب لأعمالهم في حياة التكليف إلا هو ، ولا محصي لكل شئ يقبل شيئه إلا هو . توحيداً في مثلث الأفعال مبدأ ومعاداً و بين المبدء والمعاد فـ«إنا لله وإنا إليه راجعون» .

وعلى «الموتى» نعم بُعدي الموت ، قبل الحياة الدنيا وبعد الموت عنها : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون» (٢ : ٢٨) : نحي موتى الأجنة بعد موتها الكائن «فأحياكم» ثم نحي موتاهم بعد حياتهم وموتهم «ثم يميتكم ثم يحييكم» .

فالإحياء الأول قضية الفضل واقعٌ مكرور على أبة حال ، ملموس غير منكور بحال ، فبأحرى الإحياء الثاني قضية العدل وهو أهون عليه «وهو الذي يبدأوا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» (٣٠ : ٢٧) .

ثم «ونكتب ما قدموا وآثارهم» في الحياة الدنيا تثبيتاً لها في ظروف عدّة ، حجة لهم وعليهم يوم يقوم الأشهاد ، كتابة في أعناقهم وفوات أنفسهم بتسجيل الصور والأصوات : «وكل إنسان ألزمناه طائفة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (١٧ : ١٤) وكتابة في أرضهم بأجوائها وأشياؤها بأشياهم : «يومئذ تحدث أخبارها . بان ربك أوحى لها» (٩٩ : ٥) «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» (٤٥ : ٢٩) وكتابة بكرام كاتيين مؤثرين من قبل رب العالمين «كراماً كاتيين . يعلمون ما تفعلون» (٨٢ : ١٢) وكتابة في سجلات ضمائر الشاهدين : «ويوم نبعث من كل أمة شهيداً على أنفسهم وجئنا بك على هولاء شهيداً» (١٦ : ٨٤) كتابات أربع تجمع كافة الشهادات العينية وما دونها .

وترى ما هو الفارق بين «ما قدموا وآثارهم» ؟ والأعمال كلها مقدّمة

لأنها كلها مكتوبة متطابقة دون إبقاء ! علَّ الفارق بينهما أن «ما قدموا» هي الأعمال المنقطعة بعد ما عملت منها سُجِّلَتْ ، إذ لا يبقى لها أثر يُتَّبَع ، وأما «آثارهم» فهي الباقية بعد ما عملت من سنة حسنة أو سيئة تُتَّبَع وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١) وذلك كعلم يتتبع به أو يضر ، وبناء مسجد أو مفسدة ، وولد خلف أو متخلف ، أمّاذا ومَن ؟ من أثر خير أو شر يُتَّبَع ، فإنه مكتوب قدر ما يتبع ، كما أن ما قدموا يُكتب كما قدَّم ، بل وآثارهم في وجهه هي مما قدَّمت ، وإنما افردت بالذكر بعد «ما قدموا» تنبيهاً أنها تحسب بحساب صاحب الآثار منها انقطع العمل ، لأنه من عواملها إذ سنّها وعبَّد طريقها .

وقد تشبه الآية «يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» (٧٥ : ١٣) ف«ما قدم» هو ما قدموا ، وما «أخَّر» هو آثارهم .

وقد تعم «آثارهم» الأنفسية منها بجانب الأفاقية ، فقد يعمل خيراً أو شراً منقطع الأثر نفسياً وخارجياً ، وأخري له أثر في نفسه نتيجة الإصرار والتكرار ، فيصبح ملكة بعدما كان حالاً وعملاً ، وثالثة له أثر خارجي لا نفسي كملكة ، ورابعة له الأثران ، فـ «آثارهم» قد تعم الثلاثة الأخيرة مهما اختلفت درجاتها أو دركاتها ، فإنها مشتركة في بقاء آثار للأعمال بعد انقطاعها ، ومثالاً للأثر النفسي خيراً «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه» (٥٨ : ٣٢) وآخر لها شراً «بل طبع الله عليها بكفرهم»

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٦٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله اليملي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من ايجورهم ومن سن سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من اوزارهم شيء ثم تلا هذه الآية «ونكتب ما قدموا وآثارهم» .

(٤ : ١٥٥) فتلك من كبائر الحسنات ، وهذه من كبائر السيئات .

فالأعمال - إذاً - مكتوبة لا هي فحسب ، بل بمفعولياتها وفاعلياتها ، الباقية بعد انقطاعها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا هو السرّ في زيادة العقوبات زمناً على السيئات - أحياناً - ونقيصتها عنها أخرى - حيث العمل يوزن - يوم الوزن - بمخلفاته ، لا فحسب بذاته ، فالخلود أبدياً وغير أبدي ، وهما محدودان لأصل الحد في العمل بمخلفاته وخلفياته ، ذلك الخلود لا تجب موازاته زمناً وفي مادة العذاب بنفس العمل مادة وزماً ، بل وكما يكتب «ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء» من العمل وآثاره «أحصيناه في إمام مبین» !

وقد تشمل «آثارهم» آثار أقدامهم إلى حسنات^(١) أو سيئات ، فإنها ليست مما قدموا كأصول الأعمال ، فلا تشملها «ما قدموا» ولأنها من سنن تتبع حسنات أو سيئات فهي من آثارهم .

«وكل شيء» مما قدموا وآثارهم أما إذا من شيء كائنات العالم كله ، وأفعالها وأحوالها ما ظهر منها وما بطن ، كل ذلك دوناً إبقاء «أحصيناه في إمام مبین» والإحصاء هو العلم التفصيلي ، والإمام المقتدى ، والمبين هو المظهر ، فما هو الإمام المبین ؟

لا نجد الإمام المبین إلا هنا وفي الحجر «وإنها لإمام مبین» (٧٩)

(١) المصدر اخرج ابن أبي شيبة واحمد وابن مردويه عن انس قال : اراد بنو سلمة ان يبيعوا دورهم ويتحولوا قريب المسجد فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكره ان تعرى المدينة فقال يا بني سلمة اما تحبون ان تكتب آثاركم الى المسجد قالوا بل فاقاموا وعن ابن عباس فارادوا ان ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت «ونكتب ما قدموا وآثارهم» فقالوا : بل نمكث مكاننا أقول واخرج ما في معناه جماعة آخرون .

وهما أصحاب لوط وأصحاب الأيكة بما انتقم الله منهم ، فعَلَّهُ صيغة أخرى عن اللوح المحفوظ وأم الكتاب ، والكتاب المبين ، تعبيرات أربعة عن علمه التفصيلي بكل شيء ، فهم وما قدموا وآثارهم ، وكل شيء سواهم ، وكل فعل بجزائه ، كل ذلك سابق في علم الله حتى وإحياء الموتى وكتابة ما قدموا وآثارهم ، ولكنه ليس تقدير التسيير ، وإنما تقدير العلم الكاشف عما سيكون كما يكون ، بتسيير أو تخيير ، فليس إحصاء الأعمال التكليفية في كتاب مبين بالذي يقدرها تسييراً ، وإنما هو كشف عنها كما يحصل تخييراً .

ولأن ذلك الإحصاء لكل شيء لا يعزب عنه شيء فقد ينحصر بالله الذي يعلم كل شيء ويقدره ، منحسراً عما سوى الله وإن كان الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) وذويه ، فليس عندهم الإحصاء المطلق كما عند الله ، إلا مطلق الإحصاء مما علمهم الله ، فهم - إذاً - المصدق الثاني للإمام المبين^(١) واللوحة المحفوظ وأم الكتاب

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٧٩ ح ٢٧ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « وكل شيء احصيناه في امام مبين » قام ابو بكر وعمر من مجلسهما وقالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو التوراة ؟ قال : لا قالوا فهو الانجيل ؟ قال : لا قالوا فهو القرآن قال : لا قالوا فأقبل امير المؤمنين (عليه السلام) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو هذا انه الامام الذي احصى الله فيه تبارك وتعالى علم كل شيء .
اقول : انه تفسير بمصدق ثان ناطق في الخلق واوله رسول الله ثم اوله الصامت كتاب الله وكل الثلاث من المصاديق التالية لعلم الله .

وفي تفسير البرهان ٤ : ٧ ح ٨ الشيخ في مصابيح الانوار بإسناده عن رجاله مرفوعاً إلى الفضل بن عمر قال : دخلت على الصادق (عليه السلام) ذات يوم فقال لي يا مفضل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين (صلى الله عليهم . . وسلم) كنه معرفتهم ؟ قلت يا سيدي ما كنه معرفتهم ؟ قال يا مفضل عرفت تعلم انهم في طير الخلائق بجانب

والكتاب المبين «ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء» .

وعَلَّ التنكير في «إمام مبین» يلمح لذلك الشمول جرياً للعلم المطلق على مطلق العلم، فكما يفسر هكذا الصراط المستقيم بأمر المؤمنين (عليه السلام) كذلك الأمر في إمام مبین، فإنهما من تفسير التطبيق على مصاديق دون المصادق المطابق المعني في أصل الكلام

ولأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعه عترته المعصومون (عليهم السلام) من شهداء الأعمال، والله يحصي فيهم أعمال العباد كلهم، فهم ممن يُكتب فيهم «ما قدموا آثارهم» وكما يكتب فيهم سائر العلم إلا ما اختص الله بعلمه .

الروضة الخضراء فمن عرفهم كنه معرفتهم كان معنا في السنام الاعلى قال قلت عرفني ذلك يا سيدي؟ قال: يا مفضل تعلم انهم علموا ما خلق الله عز وجل وذراه وبراه وانهم حكمة التقوى وخزناء السماوات والأرضين والجبال والرمال والبحار وعرفوا كم في السماء نجم وملك ووزن الجبال وكيل ماء البحار وانهارها وغيونها وما تسقط من ورقة إلا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين وهو في علمهم وقد علموا ذلك فقلت: يا سيدي قد علمت ذلك واقررت به وآمنت قال: نعم يا مفضل نعم يا مكرم نعم يا طيب نعم يا محبوب طبت وطابت لك الجنة ولكل مؤمن بها وح ٩ عنه رواه عن ابي ذر في كتاب مصباح الانوار قال كنت سائراً في اغراض امير المؤمنين (عليه السلام) اذ مررنا بواد النمل وغله كالسيل سار فذهلت مما رأيت فقلت: الله اكبر جل محصيه فقال امير المؤمنين (عليه السلام) ولا تغل ذلك يا ابا ذر ولكن قل جل باريه فوالذي صورك اني احصي عددهم واعلم الذكر من الانثى باذن الله و١٠ عن عمار بن ياسر قال كنت مع امير المؤمنين (عليه السلام) في بعض غزواته فمررنا بواد مملوء ثملاً فقلت يا امير المؤمنين (عليه السلام) ترى يكون احد من خلق الله يعلم كم عدد هذا النمل قال نعم يا عمار انا اعرف رجلاً يعلم كم عدده وكم فيه ذكر وكم فيه انثى فقلت من ذلك يا مولاي الرجل فقال يا عمار، قرأت سورة يس «وكل شيء احصيناه في امام مبين» فقلت: بلى يا مولاي قال انا ذلك الامام المبين .

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ
 جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
 فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
 تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾
 وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمْ
 لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
 قَالُوا طَهِّرْ كُمْ مَعَكُمْ هُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِلَآئِمٌ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾
 وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْتَقِمُ أَتَّبِعُوا
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ
 مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَا تَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ
 بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾

إِنِّي إِذْ أَلْفَى ضَلَّالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكَ
فَاسْتَمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرْتُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
* وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ
مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لُتَّا
بِجَمِيعِ دِينِنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) .
«واضرِب لهم مثلاً» بطيئات إنذارك «أصحاب القرية» مثلاً يشبه هذه
الدعوة والمدعوين في كونهم قوماً لداً وحجاجهم اللدود ومصيرهم العسير
يوم الدنيا ويوم الدين .

وعدم الإفصاح عن إسم القرية وسمة أهلها مما يفصح أنها لا يزيدان

في دلالة القصة وأبحاثها إلى ما يرام منها ، فلا يهنا أنها «انطاكية» كما تقول الروايات أم غيرها ، وكما لم يفصح عن أسماء الرسل ، حيث الرسالات طبيعتها واحدة ، كما المرسل إليهم ، مهما اختلفت مواد الدعوة في بعض صورها وأزمته وأمكتتها ، ولذلك لا نرى من أسماء الألف من الرسل إلا زهاء ستة وعشرين رسولاً في القرآن ، كان ذكرهم لازماً في هذه الرسالة الأخيرة .

وقد تلمح «إذ أرسلنا» لرسالة دون وسيط من رسول الإنسان^(١) مهما كان رسول الرسول بأمر الله رسولاً من الله ، فلا تنافيه الرواية القائلة أنهم رسل المسيح (عليه السلام)^(٢) اللهم إلا بولص الخائن إذ لم يكن من الحواريين ولم يؤمن بالمسيح إلا غدرأ بعد صعوده (عليه السلام) فلم يكن المسيح ليرسل رسولاً إلا بإذن الله ، وإذ لم يصدق «إذ أرسلنا» فمن المستحيل أن يرسله الله على علمه أنه خائن^(٣).

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾^(١٤) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٧٩ ج ٣٠ - تفسير القمي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سألت عن تفسير هذه الآية فقال : بعث الله عز وجل رجلين إلى أهل مدينة انطاكية فجاءهم بما لا يعرفون فغلظوا عليها فاخذاهما وجسوما في بيت الأصنام فبعث الله الثالث فدخل المدينة ...

(٢) المصدر عن المجمع قال وهب بن منبه بعث عيسى هذين الرسولين إلى انطاكية ... فلما كذب الرسولان وضربا بعث عيسى (عليه السلام) شمعون الصفا رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما ...

(٣) الدر المنثور ٥ : ٢٦١ - اخرج ابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : اسم الرسولين الذين قال : إذ أرسلنا إليهم اثنين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولص !

«فكذبوهما» كما كُذِّبَت أمم قبلهم وبعدهم ومعهم بعذرهم البائس المتكرر: «إن أنتم إلا بشر مثلنا...» «فعرزنا» الرسولين برسالتيهما «بثالث» فإن في تلاحق الحجج مزيداً من الاعتزاز للحق «فقالوا» جميعاً بكلمة واحدة: «إنا إليكم مرسلون» صيغة سائغة صارمة بتأكيد «إنا» وتقدم الظرف الموحى للاختصاص: «إليكم» مع التعزيز بثالث.

فقبل الثالث «كذبوهما» بإجمال دونما عناية وإعتداد، فلما عززنا بثالث فصرمت الحجة، أخذوا في سرد الرد عليهم بعرض عريض إذ عرفوا تلاحق الرسالة في تعزيز دونما وقفة، فحاولوا في نكرانها واحتالوا في تكذيبها بحجة مفصلة هي في زعمهم قاطعة قارعة، ولكي يرتاحوا عن تواتر الرسالة.

«قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» (١٥).

«ما أنتم إلا بشر مثلنا» كحجة أولى لتكذيبهم، حيوانية التصور، إذ تحصر إنسانية الإنسان ببشريته، دون أن تحسب روحه وروحانيته بحساب، وفي هذا المقياس الحيواني هؤلاء هم أولى بالرسالة إذ يملكون من حيوانية الإنسان أكثر منهم، وهم كأمثالهم معترفون بمماثلتهم في بشريتهم، ولكنهم يمتازون عنهم بما يوحى إليهم قَدْر الاستعداد في روحياتهم وقابلياتهم: «قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا...» قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمين على من يشاء من عباده...» (١٤): (١١) «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي...» (٤١: ٦).

فالمماثلة في البشرية ليس لزامها المماثلة في سائر الميزات الروحية بقابلياتها، ولكنهم يحصرون الإنسان في بشريته، ويحسرونه عما سواه من

ميزاته ، فقياسهم يمثل قياس ابليس اللعين : «خلقتني من نار وخلقته من طين» وهم بذلك في أسفل سافلين !

«وما أنزل الرحمن من شيء» كنتيجة عن تلکم المماثلة الحاصرة الحاصرة
الحاصرة أن لو أنزل من الرحمن شيء لأنزل علينا كما أنزل عليكم ، وإذا لم ينزل علينا فـ «ما أنزل الرحمن من شيء» على بشر .

ولأن «الرحمن» رحمة عامة ، فللمماثلين في البشرية إما أن تنزل هذه الرحمة على سواء ، أم لا تنزل على سواء ، والجواب أن الوحي إنما هو من مبدأ الرحيمية ، رحمة خاصة للخصوص من عباده الصالحين ، فالنازل على الإنسان-كبشر-رحمة رحمانية ، ولكنها النازل عليه كإنسان في مختلف المنازل الروحية ، إنما هو رحمة رحيمية ، من كتابة الإيمان وإلى نبوة ورسالة وإمامة الرسل وخاتمة للوحي ، و«ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» فإن قضية الربوبية الحكيمة عدم التسوية بين المختلفين في الاستعدادات والقابليات والفاعليات ، والحاجة الضرورية للناس إلى الرسائل من أمثالهم في البشرية لتكون الحجة بالغة لا تبقى على أثر من نكران وعاذرة !.

فمهما لم ينزل الرحمن وحياً يعم البشر-ولن ينزل- فقد أنزل الرحيم وحياً : «ولكن الله يمن على من يشاء من عباده» .

و«إن أنتم إلا تكذبون» كنتيجة حاسمة في حسابهم ، هي حصرهم لدعواهم رسالة الوحي في الكذب !

«قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ»^(١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١٧) .

أترى «ربنا يعلم» تُثبت لهم رسالة إلى هؤلاء الناكرين ؟ ولكل مدع لا يملك برهاناً على دعواه أن يقول «ربي يعلم» وللناكر أن يعكسها نقياً

لها «ربي يعلم انك لست بمرسل» وعلى أقل تقدير: «أنى لنا سبيل الى «ربنا يعلم»! فإن هي إلا حجة داحضة لا تليق بالمرسل، وليست إلا مهزلة للناكرين الذين ينكرون الحجج البالغة للمرسل فضلاً عن هذه؟!

الجواب كل الجواب تجده في «ربنا يعلم» فلم يقولوا «الله يعلم» أو «رب العالمين يعلم» أو «الرحمن يعلم» وإنما «ربنا يعلم» توجيهاً للناكرين إلى حجة ملاصقة بهم، ملازمة لهم، هي التربية الخاصة الإلهية الملموسة فيهم، من رحمة رحيمية خاصة تخص المرسلين.

فيعلم «ربنا يعلم» بما يرى فينا، ويعلم من التربية الرسالية الإلهية، كحجة ملاصقة بنا، بعد ما يعلم أن «ربنا» لا يجعل الناس على سواء، والحاجة إلى اصطفاء بين كل قبيل لدعوته ضرورة مدققة!

فلا تحصر حجج الرسالة الإلهية بآياتهم المنفصلة عنهم كإحياء الموق واليد البيضاء أمّاذا؟ فالمرسل آيات إلهية في ذوات أنفسهم قبل آياتهم، تتمثل فيهم التربية الرسالية، كما أفصح عن أهمها رجل من أقصى المدينة «إتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» فهم يملكون ما يملكه الرسل في دعواتهم بموادها، بصورتها وسيرتها، ثم وقد يتزودون بآيات منفصلات إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجة: «وما علينا إلا البلاغ المبين» بلاغ يُبين نفسه أنه رسالي إلهي، ويُبين ما يخفى على المرسل إليهم من سبل إلى الله، وكمال الإبانة في بلاغهم يأتي بآيات بعد آيات أنفسهم، فالآية الكائنة معهم أينما كانوا هي آيتهم «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» والآية التي عليهم لإبانة البلاغ هي المنفصلة عن ذوات نفوسهم، وقد قضوا ما عليهم بطبيعة الحال، ولا سيما أمام هؤلاء الناكرين الألداء!

ومن ثم فـ «ربنا يعلم...» توجيه إلى قضية الربوبية الرحيمية، أنها ليست على سواء بالنسبة للمربوبين، فلكل حسب فاعلياته وقابلياته، وكل حسب

حاجيات العالمين الى درجات من الهدى ، و«ربنا يعلم» دون سواء يُعلم ما هي الحكمة في اختصاص بعض الناس بالرسالة دون بعض ، ف«الله اعلم حيث يجعل رسالته» (١٢٤: ٦) كما «الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس» (٢٢ : ٧٥) .

ف«ربنا يعلم...» هُذِم لصرح الإستحالة في رسالة البشر وإنزال الوحي عليه ، ثم تَبَيَّن لصرح الرسالة بآياتها الذاتية المشاهدة في المرسلين ، ومن ثم آيات منفصلة تؤيدها والله من وراء القصد .

هذان شرطان أصيلان يتبينان الرسالة الإلهية : أن يحملوا معالم التربية الإلهية الرسالية، وأن يبلغوها البلاغ المبين : «وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين» (٢٤ : ٥٤) .

هناك اندحضت حجة الناكرين فتحوّلوا إلى هُراءٍ في هُراءٍ عن شاكلة الحجة وإن بصورتها ، قوله ناكبة ماردة لكل عاجز عن الحجة ، حاجز عن المهجة ، حيث تتهددهم بالرجم :

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) .

التطير هو التشأم ، فلما نكب أهل القرية في جواب الرسل عن تكذيبهم توصلوا إلى شطحات القيلات : «إنا تطيرنا بكم» والتهديد بأشدّ العذاب : «لئن لم تنتهوا لنرجمنكم» وسائر العذاب : «وليمسنكم منا عذاب أليم» وهكذا يُسفر الباطل عن غشمه ، ويطلق على الهداة تهديده وعربدته في التعبير والتفكير .

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩) .

ليس طائرکم منا بل هو معکم ، حيث تواجهون الناصحين بكل شؤم

ولؤم ، كالقبيح الدميم الناظر الى المرات متطيراً بها قباحته ودمامته ، وطائره معه لا سواء .

«أئن ذكرتم» بما يصلحكم فأنتم تتطيرون بنا ، كلاً لا طائر معنا بل أنتم قوم مسرفون» في الزور والغرور .

ليس هناك شؤم في زمان أو مكان أم أي كان لكي يأتي الإنسان من غيره ، دونما شؤم في نفسه ، رغم ما يتشأمه الشائمون حيث يتطيرون بأشياء أو أشخاص، وقد يسرفون في ذلك تطيراً بالصالحين المصلحين ، خرافة جازفة جارفة لا تستقيم على أصل عقلي أو علمي ، إلا أساطير الأولين .

وهكذا يكون دور القلوب المقلوبة المعقولة بعقالات الجاهليات ، والحق الحقيق بالإتباع «أن ليس للإنسان إلا ما سعى» وأن «طائركم معكم» وكل إنسان يعمل على شاكلته ، فلا يصيبه شر إلا من نفسه أو من هو كنفسه ، فطائر كل معه وهو عند الله ، يصيبه به جزاء وفاقاً : «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه إنما طائركم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٧ : ١٣١) «ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا إيطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون» (٢٧ : ٤٧)

ذلك وعلى حدّ المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا عدوى ولا طيرة ولا شؤم^(١) و«الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت وإن

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٢ ج ٣٥ في روضة الكافي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

شدتها تشددت وان لم تجعلها شيئاً لم يكن شيئاً^(١) إذا فد طائرکم معکم ، وكفارة الطيرة التوکل^(٢) .

كل ذلك إذ لا أصالة للطيرة ، إلا أن تشدد تخيلها فتشدد عليك ، أم تتكل على الله فلا تجعلها شيئاً .

ثم وذلك التعزيز بثالث لم يفدهم إلا إتمام الحجاج، ومن ثم منهم تمام اللجاج ، فقد تم دور الرسالة ببلاغها المين ، ثم يأتي دور من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، دون اختصاص بإيمانهم الشخصي بل ومناصرة الرسل المكذبين ، ولم يكن في البلدة كلها إلا رجل من أقصاها :

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣)

ورجل من أقصى المدينة هو رجل الضاحية ، متحرراً عن أغلال المدينة بأوساطها ، متحرراً عن أوزارها وأوضاعها ، خالصاً في إيمانه ، ساعياً في إتيانه ، وكما جاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن القوم ياتمون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ، (٢٨) : (٢٠)

وهكذا تكون الرجولة البطولة للصالحين الصامدين من المؤمنين أنهم يعيشون نصرة الرسالات والمرسلين ، بكل ما لديهم من طاقات وإمكانات ، دوغما نظرة لجموع محتشدة ينضمون إليهم ، فالقيام لله مثني وفرادى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٢ ج ٣٣ في روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) : ...

(٢) المصدر عنه (عليه السلام) قال قال رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) :

ما بصاحبكم من جنة ، (٣٤ : ٤٦) « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم » (٤٠ : ٢٨) .

وفي مجيء رجل من أقصى المدينة دلالة أن بلاغ الرسل بلغ من أقصاها إلى أقصاها ، فقد ملكت ببلاغهم المبين لحد يجذب لناصرتهم رجلاً من أقصاها ، مليئاً من دعوة الرسالة أقصاها ، متخطياً في مجيئه هذا أقصاها قلباً وأدناها .

ولا مهمة في أن نعرف اسمه وشغله ، فليس الأشخاص والأشغال والشخصيات بالتي تخلق الرجولات وإنما هو الإيمان الصارم الصامد أينما حل ، في وسط المدينة أم قصبتها أو أقصاها ، فلا يهمنا أنه حبيب البخار أو الحراث أو القصار أم رجل الغار^(١) ، حيث القصص القرآنية هي نخبة تُقص عن تاريخ الماضين ، فيها عبرة لأولى الألباب .

(١) في الدر المنثور ٥ : ٢٦١ - عن قتادة قال بلغني انه رجل كان يعبد الله في غار، وعن عمر بن الحكم قال بلغنا انه كان قصاراً، وعن ابن جريح كان حراثاً ، وفي نور الثقلين ٤ : ٣٨٤ ج ٤١ في امالي الصدوق باسناده الى عبد الرحمن بن ابي ليلى رفعه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلي بن ابي طالب (عليه السلام) وهو افضلهم . وفي الدر المنثور ٥ : ٢٦٢ - اخرج ابو داود وابو نعيم وابن عساكر عن ابي ليلى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله سواء، واخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس مثله الا في افضلهم ، واخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : السبق ثلاثة فالسابق الى موسى يوشع بن نون والسابق الى عيسى صاحب يس والسابق الى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) علي بن ابي طالب .

«رجل يسعى» في مجيئه وفي مناصرته المرسلين وفي كلما تتطلبه من

سعي.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) «اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ» (٢١).

فالإهداء الرباني فيهم ظاهرة الملامح وكما استدلوا به في حجاجهم على هؤلاء المكذبين ، وهذه سنة دائبة للمرسلين، كما وأن عدم سؤال الأجر سنة لهم ثانية وبذلك لهم إمكانية البلاغ المبين ، فالسائل أجراً في بلاغة يحدده بحدوده أجره ، ويراعي فيه طلبات المرسل إليهم ، والذي لا يسأل أجراً وهو ضال ، شيطان يراني ، والمهتدي الذي قد ينحو نحو ضلال قاصراً أو مقصراً لا يهدي إلى الحق الصراح : «افمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون»؟ وأما من لا يسأل أجراً وهم مهتدون ، فهم الهادون الذين يجب اتباعهم ، فإن لهم البلاغ المبين دون أي خفاء في أصله وفرعه ، في صورته وسيرته ، كالنار على النار والشمس في رابعة النهار ، تجب متابعتهم دون قيد ولا شرط لمكان العصمة والهداية المطلقة كالرسل والأئمة ، وأما سائر العلماء الربانيين ، فاتباعهم لغير العلماء محدود بحدود الهدى والمصلحة ، حيث يسقط واجب اتباعهم وولايتهم عند الاخطاء قاصرين أو مقصرين ، وبأحرى ليس الفقيه ولياً على فقيه آخر إلا عملياً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) وكما للمؤمنين ككل بعض البعض «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» (٩ : ٧١).

وان تعجب فعجب من هؤلاء الذين يدفعون أجراً ويضلون ، ثم من يضلون دون أجر ، ومن ثم يهتدون بأجر ، فما الهدى الصالحه إلا هدى

(١) راجع سورة الاحزاب .

مطلقة دون أجر ، مادياً أو معنوياً « لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » بل وحتى إن هتكوهم وضربوهم فأخرجوهم وأخرجوهم ، ليسوا هم بتاركي دعوة الحق ، مما يدل على صدقهم القاطع ، فلا مال هنالك ولا منال ، إلا حرماناً عن زهرة الحياة ، ومهاجرة دائبة في سبيل الدعوة، وكما نراها في كل داعية رسالية !

«إَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ» وحتى إذا لم يحملوا آيات الرسالة ومعجزاتها ، كما وهو السنة المتبعة في التقاليد الحقبة الحرة لكل جاهل عن عالم ، كيف وهم أولاء الرسل يحملون آيات الرسالات في ذوات نفوسهم وذوات ألسنتهم وأيديهم وكما برهنوا بها «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» .

ليس الأنبياء عملاء ولا عمالاً إلا لأرب العالمين « (٢٦ : ١٠٩) » إن أجري الأعلى الذي فطرني أفلا تعقلون ، « (١١ : ٥١) » إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد المؤمنين ، « (١١ : ٢٩) »

فمن لا يسأل على رسالته-على صعوباتها-أجراً وهم مهتدون، وليست لهم رباط إلا بالله ، إذا فأجرهم على الله، وكما رسالتهم من الله ، ولا مغالاة لهم في سؤال الأجر وفي الدلالة ، فالمقتضي لاتباعهم-وهو الإهداء بهم-موجود، والمانع وهو الضلال أو الأجر مفقود .

فإنهم ليسوا ليطلبوا أو يأخذوا من دنياكم شيئاً بديل الدعوة حتى يخسروا منها باتباعهم ، وإنما يدلونكم إلى الهدى ، فلكم في اتباعهم خير الآخرة والأولى ، وفي تركه، هم-لأقل تقدير-لا يخسرون وأنتم الخاسرون ، وهذا يشبه احتجاج علي (عليه السلام) « إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصنا وهلكنا !

﴿وَمَا لِيَ لَا أُعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٢) .

وهنا انتقال من حجة الرسالة الى تجاوبها مع الفطرة : «ومالي؟» فما هو مالي ووبالي أن اعبد من دون الله - الذي فطرني - من هو مثلي أو دوني أو من هو فوقني و«لا اعبد الذي فطرني» وفطرهم ، فما أشنع ظلماً بالحق أن أترك عبادة فاطري إلى عبادة المفظورين مثلي ، أو أشركهم في عبادته «وإليه ترجعون» دون الذين به تشركون ف«إنا لله وإنا إليه راجعون» .

فمالي ، مالي أنجرف هكذا الى شفا جرف هار ، ولا تجاوبه الفطرة ولا العقل ولا دعوات الرسل ؟

وهنا «مالي» واجهتان أولاهما مشوال الرجل عن نفسه ، والأخرى سؤال كل ذي فطرة عن فطرته ، «وإليه ترجعون» يتبني الثانية كحجة على الكل ، فلأن رجوعهم إلى الذي فطرهم لا سواء ، فليعبدوه لا سواء ، و«فطرني» تعني فطر الخلق ، وخلقهم على فطرة التوحيد ، فخالقيته لا سواء ، ثم فطرة التوحيد ، ومن ثم الرجوع إلى الفاطر لا سواء أدلة ثلاثة على وجوب عباد الله لا سواء .

﴿أَتُخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضَرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون﴾ (٢٣) .

وهذه حجة رابعة للتوحيد تعني الواجهة السلبية «إن يردن الرحمن بضر» هنا أو في الأخرى «لا تغن عني شفاعتهم شيئاً» أن يشفعوا لي عند الله زعم التوهم الهراء : «هولاء شفاعونا عند الله» ثم «ولا يُنْقِذُون» من ضر الرحمن مستقلين في إغنائهم عني ، فلا هم مستقلون في دفع الضر عني ، ولا هم شركاء شفعاء ، فما تفيدني إذا عبادتهم ، وترفضها قبل ذلك الحجج الثلاث وتمعنوها بجمعاً !

﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤) ضلال يُبين نفسه أنه ضلال ، دوغماً حاجته إلى اختلاق حجة وتكلف برهان ، حيث الفطرة تجاوب حق التوحيد

وباطل الشرك كآية أنفسية قبل الآيات الآفاقية .

«إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ»^(٢٥) وهل المخاطبون هنا هم الرسل، يُظهر لهم إيمانه بمعرض الناكرين، ليشهدوا له عند الله؟ وكانوا شاهدين إيمانه منذ جاء من أقصى المدينة! والله هو شاهد الإيمان دون شهادة! أم هم الناكرون فليسمعوا إيمانه بحججه ليتبعوه أو يزيدهم حجة إذ ينكرون؟ ويناسبه «بربي» أو «رب العالمين» لا «بربكم» إذ كانوا يعبدون أرباباً من دون الله! اللهم إلا أن يعني الرب الفاطر الذي هم به مؤمنون .

قد يعنيها جميعاً جمعاً بين الأمرين، و«بربكم» دون «أربابكم» يختصه بالله الواحد، ولأن رب المسلمين هو ربه ورب المكذبين، وقد برهن لربوبيته الوحيدة في حجاجه، فأحسن الصيغ هنا «ربكم» مما سرّ المسلمين وأغاظ الناكرين لحثّ قتلوه فور قوله الجاهر القاهر، إذ كانت شهادته بالتوحيد - وهو رجل من أقصى المدينة - تجاسراً على أصحاب المدينة .

«قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ»^(٢٦) «يَا غَفُورٌ رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ»^(٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ»^(٢٨) .

فأمره بدخول الجنة وتحسّره على جهل قومه، وغفران ربه له ، وجعله من المكرمين ، و«من بعده» لمحات خمس أنهم قتلوه فور قوله : «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ»!

والجنة هنا هي البرزخية حيث يدخلها المؤمن فور ارتفاعه إلى رحمة ربه ، فإن الجنة الأخرى ليست إلا للقيامة الكبرى ، وإلا لشيء أصيل من هذا البدن قليل ، والبدن الآن بكامله تحت التراب أمّاذا ؟ ولما تابت القيامة الكبرى، فهذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية بعد الموت دون

فصل ، فان « قيل » هنا و « قال » تدلان على استمرارية حياة الميت بعد الموت ، فلا يعني الموت إلا فصل الروح ببدنه البرزخي عن هذا البدن ، ولا يعني موت الروح وفوته وكما تفصله الآيات البرزخية الأخرى .

ولما « قيل ادخل الجنة » قال مبتهجاً لنفسه ، متجسراً على قومه « يا ليت قومي يعلمون » أمرين خفياً عنهما :

- ١ - « بما غفر لي ربي » أن أذهب عني سيأتي رفعاً، ودفع عني التي كانت تهاجمني ، ولا فحسب الغفران بل - ٢ - « وجعلني من المكرمين » وهم بين الملائكة : « بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (٢١ : ٢٧) وبين سائر المؤمنين من مخلصين « إلا عباد الله المخلصين . . . وهم مكرمون » (٣٧ : ٤٢) ومن مخلصين : أولئك في جنات مكرمون » (٧٠ : ٣٥) وهم مشتركون - على درجاتهم - في أنهم لا يعدّون ولا يؤثّبون ، ولذلك نرى الرجل يُستقبل فور موته بـ « قيل ادخل الجنة » .

وكما الله أكرم ذلك الرجل الناصر للمرسلين ، كذلك أهان قاتليه المكذبين أن اخذ ثأرتهم بصيحة واحدة دون أن ينزل عليهم من جند من السماء « وما كنا منزلين » جند السماء على مرده الأرض ، واستصغاراً لموقفهم واستضعافاً .

وَإِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ صيحة واحدة أخذت جموعهم المحتشدة المتكاثفة المتكاثفة ، التي كانت كنيران مسعرة على الرسالات « فإذا هم خامدون » خاملون دون جراك في أي عراقك ، ويكأنهم لم تسبق لهم حياة ! صرعى سبات مهانين مصغرين ، وقد سُدل الستار سراعاً على مشهدهم البائس المهين .

وترى كيف كانت معهم عاقبة المرسلين ، فهل قتلوا مع صاحب يس ؟
وقيل ادخل الجنة ، لا تشملهم ! أم هم نجوا من هذه المعركة الدموية
الصاخبة، وقتل مؤمن واحد لا يخلف صيحة تخمدهم جميعاً! الأمر الواضح في
هذا البين أن الرجل الأقصى قتل وأن أصحاب القرية خمدوا بصيحة واحدة ،
ولو أن الرسل قتلوا لأشير إلى قتلهم كما الإشارات إلى قتل المناصر .

والصيحة التي اخذتهم كذلك لمحمد الرواية القائلة أن السلطان آمن
وأهل مملكته^(١) فلو أن هناك مؤمنين ولا سيما السلطان وجماهير من أتباعه

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٧٩ ج ٣٠ القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن
مالك بن عطية عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سأله عن
تفسير هذه الآية فقال : بعث الله عز وجل رجلين إلى أهل مدينة انطاكية فجاءهم بما لا
يعرفون فغلظوا عليها فاخذوها وحبسوهما في بيت الأصنام فبعث الله الثالث فدخل
المدينة فقال أرشدوني إلى باب الملك قال فلما وقف على الباب قال أنا رجل كنت اتعبد
في فلاة من الأرض وقد احببت ان اعبد إله الملك فابلغوا كلامه الملك فقال ادخلوه إلى
بيت الآلهة فادخلوه فمكث سنة مع صاحبيه فقال لهما بهذا ينقل قوم من دين إلى دين
بالخرق أفلا رفقتما ؟ ثم قال لهما لا تفران بمعرفتي ثم ادخل على الملك فقال له الملك
بلغني أنك كنت تعبد الهى فلم ازل وانت اخي فسألني حاجتك فقال : ما لي من حاجة ايها
الملك. ولكن رأيت رجلين في بيت الآلهة فما حالهما ؟ قال الملك : هذان رجلان أتياي
ببطلان ديني ويدعوانني إلى إله سماوي فقال ايها الملك مناظرة جميلة فان يكن الحق لهما
اتبعناهما وان يكن الحق لنا دخلنا معنا في ديننا وكان لهما ما لنا وعليهما ما علينا . قال :
فبعث الملك اليهما فدخلا إليه قال لهما صاحبيهما : ما الذي جئتما به ؟ قالا : جئنا ندعوه
إلى عبادة الله الذي خلق السماوات والأرض ويخلق في الأرحام ما يشاء ويصور كيف
يشاء وانبث الاشجار والشمار وانزل القطر من السماء قال : فقال لهما إلهكما هذا الذي
تدعوان إليه وإلى عبادته ان جئنا باعمرى بقدر ان يرده صحيحاً ؟ قالا : اذا سألناه أن

فلماذا الصيحة والقتلة الجماهيرية ؟

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣٠)
 أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ^(٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ
 لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ^(٣٢)

يفعل فعل ان شاء قال : ايها الملك علي بأ عمي لم يبصر شيئاً قط قال :
 فأني به ، فقال لها ادعوا إلهكما أن يرد بصر هذا فقاما وصليا ركعتين
 فاذا عيناه مفتوحتان وهو ينظر الى السماء

فقال : ايها الملك علي

باعمي آخر فأتى به قال : فسجد سجدة ثم رفع رأسه فاذا الاعمي بصير فقال : ايها
 الملك حجة بحجة علي بمقعد فأني به فقال لها : مثل ذلك فصليا ودعيا الله فاذا المقعد قد
 اطلقت رجلاه وقام يمشي فقال : ايها الملك علي بمقعد آخر فأتى به فصنع به كما صنع أول
 مرة فانطلق المقعد فقال : ايها الملك قد أتينا بحجتين وأتينا بمثلها ولكن بقي شيء واحد
 فان هما فعلاه دخلت معهما في دينها ثم قال : ايها الملك بلغني أنه كان للملك ابن
 واحد ومات فان أحياء إلهيها دخلت معهما في دينها فقال له الملك : وأنا أيضاً معك ثم
 قال لها : قد بقيت هذه الخصلة الواحدة قد مات ابن الملك فادعوا إلهكما ان يجييه قال
 فخرا ساجدين لله عز وجل وأطالا السجود ثم رفعاً رؤسهما وقال للملك ابعث الى
 قبر ابنك تجده قد قام من قبره ان شاء الله قال : فخرج الناس ينظرون فوجدوه قد خرج
 من قبره ينفض رأسه من التراب قال : فأتى به الى الملك فعرف انه ابنه فقال له : ما حالك
 يا بني ؟ قال : كنت ميتاً فرايت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين يسألانه ان يجييني
 قال : يا بني تعرفهما اذا رايتهما ؟ قال : نعم قال : فاخرج الناس جملة الى الصحراء
 فكان يمر عليه رجل رجل فيقول له ابوه أنظر فيقول لا ثم مروا عليه باحدهما بعد جمع
 كثير فقال : هذا احدهما وأشار بيده اليه ثم مروا ايضاً بقوم كثيرين حتى رأى صاحبه
 الآخر فقال : وهذا الآخر قال : فقال النبي صاحب الرجلين اما انا فقد آمنت باللهكما
 وعلمت ان ما جئتما به هو الحق قال : فقال الملك وانا ايضاً وآمن اهل مملكته كلهم .
 أقول وفي المجمع عن وهب بن منبه ذكر القصة باختلاف يسير ، وهذه القصة تخالف
 الآيات من جهات عدة فهي اذاً مختلفة مردودة لمخالفة القرآن .

«يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» وهم عباد الله تكويناً وتشريعاً ، كيف أصبحوا عباد الشيطان ، فـ «ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون» طول التاريخ الرسالي ، وهم المترفون المفرطون في تكذيب الرسالات ، وأتباعهم الضعفاء . «ألم يروا» رؤية في أعماق التاريخ، وأصدق ما يقصه القرآن «كم أهلكنا من القرون» الطائفة «أنهم» بعد هلاكهم «إليهم لا يرجعون» فهل ينتظرونهم لكي يخبروهم بصدق الحياة الحساب بعد الموت أم كذبه ؟ أم ينتظرونهم أن يرجعوا فصلحوا أعمالهم ، ولات حين مناص ، إذ فات يوم خلاص !

إن الهلكى وسواهم «إن كل» دوننا استثناء «لما» إلا «جميع لدينا محضرون» إحصاراً للحساب فالثواب أو العقاب ، كسائر المؤمنين ، أم ثواباً دون حساب «كل نفس بما كسبت رهينة» إلا أصحاب اليمين .

وَعَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ

أُحْيَيْنَاهَا وَأُخْرِجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَبِتُّهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا

جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ۚ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ

وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَعَايَةٌ لَهُمُ الْبَلَدُ

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ

تَجْرِي لِـمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَعَايَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا

ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ ۚ

مَا يَرَكُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا

مُّمَّ يَنْقُذُونَ ﴿٣٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْطَعِمُوا
مَنْ لَوْ يَسَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٧﴾

آيات خمس ذات دلالات على وحدانية المبدئ الخالق المدبر المعبود
وإمكانية ولزوم المعاد ، نعيشها طول حياتنا ليل نهار ونحن عنها غافلون .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٣٣)

الارض الميتة بموتتها الأولى قبل حياتها ، وبموتات لها تترى إنها آية لميتاتهم ، أولاها
لاولاها وأخراها لأخراها : «أحييناها» عن موتتها الأولى ، ويستمر إحياءها طول كونها
قبل قيامتها الكبرى : «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربست إن الذي أحياها لمحيي الموتى انه على كل
شيء قدير» (٤١ : ٣٩) أفلا يدل هذا الواقع المكرور على إمكانية
إحياءكم بعد موتكم ؟ ومن ثم على لزومها في ميزان العدل والفضل
كما «وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون» فذلك الحب الكامن في الأرض لا
يخرج ليؤكل إلا بإحياء الأرض بالماء ، وكذلك معادن الإنسانية وكنوزها

لا تخرج كاملة شاملة إلا بإحيائها بعد موتها ، إذ لا نرى محاصيل أعمالها ومساعيها خيراً أو شراً في أولها فلتخرج في آخرها .

ففي الحياة بعد الموت أولويتان اثنتان بالنسبة للحياة الدنيا ، أولها بجانب القدرة الإلهية أنها أهون على الله : «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» (٣٠ : ٢٧) وأخرها بجانب العدل والفضل حيث الأولى قضية الفضل والأخرى قضية العدل والفضل .

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ^(١) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ^(٢)﴾ .

في حياة الأرض جنات وعيون ، ليأكلوا من ثمر ذلك الإحياء^(١) أو الجعل ، أم ثمر الله «وما عملته أيديهم» نفيًا وإثباتًا^(٢) ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم كله ، حيث الأرض بأشجارها وعيونها ليست من عملهم ، وإنما يعملون فيها فتثمر لهم أكثر مما عملوا ، «ليأكلوا من ثمره» ومن ما عملته أيديهم ، فهناك ثمر لم تعمله أيديهم وهو الأكثر من كيان الثمر ، وهناك ثمر عملته أيديهم وهو الأقل من محاولات صورية لنضد الثمر ونضجه «أفلا يشكرون» الله فيما أثمر لهم من إحياء الأرض وعمل الأيدي ؟ ثم هم وأيديهم - كما الأرض - من عمله سبحانه «أفلا يشكرون» ؟ فيختلقون معاذير كأنها تحيل الحياة بعد الموت : إستبعاداً لإحياء الموتى ؟ «والأرض الميتة أحييناها» ونحييها بعد موتات طول كونها !

أو استحالة لأنه من إعادة المعدوم الممتنعة عقلياً ؟ وليس المعاد في المعاد إلا الروح بعينه والبدن بمثله ، والمادة من مادته الأولى ، فكما المعاد في

(١) الضمير الغائب لا يصلح رجوعه ادبيًا ومعنويًا إلا الى الإحياء المستفاد من أحييناها أو لجعل الله المحيي الجاعل .

(٢) «ما» هنا تعني النافية والموصولة معا فالمعنيان معنيان وهما متقاربان .

ثمرات الأرض الميتة هي أمثالها في صورها وأعيانها في موادها ، كذلك الأحياء في الإحياء هي أولى حيث الأرواح هي عين الأرواح ! وإنما ثنائيتها الأجساد .

أو استحالة حيث استئناف الحياة بحاجة إلى استعداد البدن لقبول الحياة ، واكتماله بمضي المراحل الجنينية ؟ وخالق الإستعداد ليس محصوراً في خلقه بصورة واحدة كما في هذه النشأة ، بل قفزة في الأخرى كما في الخلق الأول هنا : «كما بدأكم تعودون» وكما الأرض تحبى لمرات تترى ، والله هو الذي يعيدها في طائل الزمن أم قصيره !

أم إن الحياة بعد الموت لا غاية فيها ترجحها أو تلزمها ؟ و «ليأكلوا من ثمره» في إحياء الأرض بعد موتها بيان لغاية قصوى من إحيائها «ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم» مثلاً لثمرات الصالحات أنها تربوا أعمال أيديهم في وجه النفي من «ما عملت» أم وفي الإثبات ايضاً حيث الثمر ليس عمل أيديهم !

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

بل كل ذلك من يد الله وأياديه ، فكما قدرتُ الزرع على الحياة والنماء ، كذلك أقدرتهم على العمل «ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون»؟ وكذلك يكون الثمر في اليوم الآخر حيث يُخرج الله من المكلفين حبوبهم وثمارهم «وكل إنسان ألزمناه طائفة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً» (١٧: ١٣) وذلك الكتاب هو مجموعة العقائد والنيات والأقوال والأعمال ، وهي هي جزاء أصحابها بما تظهر في ملكوتها وحقائقها فـ «إنما تجزون ما كنتم تعملون» (٥٢: ١٦) إلا أن العقاب ليس إلا عدلاً جزاءً وفاقاً دون زيادة على العمل بل وقد ينقص ، ولكننا الشواب فضل وعطاء غير مجذوذ: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» (١٠: ٢٦) «ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون»؟ كعلة غائية

قصوى للإحياء في الأولى ثم الأخرى، والأولى قائد الأخرى ورائدها «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

ما سوى الله كلها أزواج، فـ«الأزواج كلها» تعني الكائنات كلها سوى الله: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون». ففروا إلى الله إني لكم نذير مبين» (٥١ : ٥٠) (١) فكل ممكن زوج تركيبي، مزدوج الكيان، فليس بالإمكان كونه إلا في زوجية مّا أياً كان، فلا كائن فرداً بسيطاً إلا الله، فلا غني مطلقاً إلا الله «ففروا إلى الله» فـ«سبحان الذي خلق الأزواج كلها...» أن يتخذ منها شريكاً والكل فقراء إلى الله فكيف يفتقر إليها الله؟!

وزوجيته كلّ شيء هي لأجل تقدير ذات بعدين، في ذاته، وبالنسبة لسواه، فحاجة ذات بعدين تتعلق فيها بالله: «ففروا إلى الله» حيث ازدواجية الرباطات المنضدة بوحدة القاعدة الضابطة في التكوين، إنها تشي بوحدة اليد المزدوجة المبدعة على اختلاف الأشكال والأحجام والميزات والبسات فـ«سبحان الذي خلق الأزواج كلها...» من شريك أو نذ، أو عجز أو ظلم أمّاذا من نقص في ساحته أو ركس في سماحته.

(١) تجدد بحثه الوافي في الصرفان ج ٢٧ ص ٣٣٧-٣٤٣ وفي الدر المنثور ٥ : ٢٦٢ اخراج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله سبحانه «سبحان الذي خلق الأزواج كلها» قال : الأصناف كلها الملائكة زوج والانس زوج والجن زوج وما تنبت الأرض زوج وكل صنف من الطير زوج ثم فسر فقال : مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون - الروح لا يعلمه الملائكة ولا خلق الله لم يطلع على الروح احد وقوله : ومما لا يعلمون : لا يعلم الملائكة ولا غيرها .

و من «الأزواج كلها» ما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعملون «
مثل ثلاثي عن الأزواج كلها، كنموذج شامل يمثل لنا الأزواج كلها، فإن
أرض الأزواج كسمائها، متماثلة في طولها وعرضها و«ما لا يعلمون» تعم
ما لا نعلمه أولن نعلمه.

و«ما تنبت الأرض» تشمل نباتاتها الجمادية والنباتية والحيوانية وكما
الإنسان : «والله أنبتكم من الأرض نباتاً» (٧١ : ١٧) فـ«من أنفسهم»
تخصيص لذكر الإنسان بعد تعميم فإنه المحور في ذلك التذكير.

ثم «وما لا يعلمون» يشمل من كائنات الأرض وسواها ما نجهله ،
وعلمنا وجودها كالروح، أم لم نعلم ككائنات في الأرض أو في السماء لما
عرفناها ، وما سوف نعلمه كما عرفنا الذرة بأجزاء لها بعد قرون من نزول
القرآن ، وما س نعلمه رغم التأكد من وجوده كالمادة الأولية الأم بتركبها
الثاني ، حيث العلم بحقيقتها يساوق القدرة على إيجادها وإفنائها ، وهو
منحصر في الخالق منحصر عن غير الخالق ، فـ«لا يعلمون» تعم كل من
له أن يعلم دون خصوص الإنسان .

إذا ففي الكون مثلث «ما لا يعلمون» ثالثه مما لن نعلمه ، وصاحبه
ما لم نعلمه ثم علمناه أو علمناه أم نستكمل معرفتنا إياه .

فالروح من الأزواج «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»
فهي مما لا يعلمون ، والمادة الأم من الأزواج وهي مما لن يعلموه ، والذرة
من الأزواج وقد علموها شيئاً ما !

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (٣٧)

أترى الليل لايس لباس النهار حتى يسْلَخ منه النهار «فإذا هم مظلمون»؟
يُذَكِّر من الليل والنهار حالة تعرض الاثير بإشراقه الشمس عليه أو إطباقها

عنه ! ولماذا الليل نسلخ منه النهار دون النهار نسلخ منه الليل ؟

هذا تعبير قاصد لمثل آخر زماناً بعد المكان يمثل تواتر الموت والحياة، إحياء لميت المكان : « وآية لهم الأرض الميتة » ثم إقامته هناك ، وإماتة لحي الزمان ثم إحياءه كما هنا ، يصور لنا الليل ملتبساً بالنهار، فكما الحياة للأرض المكان كانت عارضة متواترة ، كذلك الحياة النور لليل الزمان عارضة متواترة ، أصالة الموت في المكان والزمان ، وعارضية الحياة فيهما ، والأثير المظلم في أصله يصبح بإشراق الشمس نهراً ، فإذا سلخ منه لباس النهار يرجع ليلاً كما كان .

إن الجو بالزمان ككل هو مدار الليل الأصل والنهار الفرع : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » (٣٩ : ٩) « وآية لهم » توحيداً للمبدء وتحقيقاً للمعاد « الليل » الحامل بظلامه مثلاً لميت الزمان « نسلخ منه النهار » نزعاً للباس النهار عن الجو « فإذا هم مظلّمون » فالأرض الكروية بفضائلها في دورتها حول نفسها في مواجهة شمسها ، تمر كل افق ونقطة منها بضوء الشمس فتحيا بالنهار ، ثم يسلم منها إلى نقاط وآفاق أخرى « فإذا هم مظلّمون » : داخلون في الظلام .

تعبير يصور الحقيقة الدائبة المتواترة الكونية بأدق تصوير ، فليس النهار لابس الليل حيث الأصل في الأثير ، الجو الظلام ، ثم يلبس النور النهار ، وبانتقاله الشمس عن كل أفق يسلم النهار عن الجو فيرجع ليلاً كما كان .

وما ألفة تعبيراً « نسلخ منه النهار » والسلم هو إخراج الشيء عما لابس والتحم به ، فكل من الليل والنهار متصل بصاحبه اتصال الملابس بأبدانها ، لا - بل الجلود بحيوانها ، ففي تخليص أحدهما من الآخر لحد لا يبقى منه شيء ، آية باهرة للمبدء والمعاد ، أن الله تعالى يسلم لباس الحياة عن هذا البدن فيبقى ميتاً لا حياة فيه ، ثم يرجعه حياً كأنه لم يميت قط !

فسلخ النهار من الليل ثم رجع إليه ثم سلخ ورجع ، آية ذات بعدين للحياة بعد الموت ، أن الموت اصيل تعرضه الحياة «وكنتم أمواتاً فأحياكم ، وإن عارضة الحياة متواترة متلاحقة متلاصقة .

فكما أن في الحياة الدنيا - مكاناً وزماناً - لبس للحياة وخلع ، كذلك الموت خلع للروح عن هذا البدن ثم لبسه للحياة الأخرى ، طالما الحياة العارضية العادية هنا تصبح أصيلة دائمة هناك في الأخرى .

وكما أن في إحياء الأرض بعد موتها إخراج لحبها وثمرها فمته يأكلون كذلك في لبس الليل بالنهار وتكوير النهار على الليل حركات للحياة ، فهما إذاً آيتان للمبدء والمعاد نعيشهما في كل مكان وزمان .

فليس سلخ النهار الضوء من الليل إلا بانسلاخ الشمس غاربة في آفاقها ، فإنها تجري لمستقر لها ، فإن الظلمة عرض قائم بالأثير لزاًم ، والنور عرض يعرض ذلك العرض بمعرضه ، والنور تموج ، وإذا كثرت الموجات النورية في الثانية الواحدة آلاف الملايين تصبح ضوءاً أحمر وأصفر ويرتقالياً وينفسجياً إلى سائر الألوان السبعة ، فإذا تعددت في الثانية الواحدة زهاء (٧٠٠) مليون تصبح ضوء النهار المرسل من الشمس وهو لباس على الظلمة العارضة على الجو ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل «فإذا هم مظلّمون» : جوهر مظلّم ألبس نوراً ، فإذا سلخ منه النور رجع كما كان مظلماً .

ندرس على ضوء هذا السلخ ، وذلك الإحياء للأرض ، أصالة الموت وعارضية الحياة المتواترة على الميتات ، الأرض الميتة تُحى للإثمار ، والليل المظلم يضاء لمنافع منها الإثمار ، وكما الحياة الدنيا للإثمار كذلك الأخرى وبأخرى «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وإن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى» .

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٣٨) .

و«آية لهم» ثلاثة «الشمس» حال أنها «تجري» طول حياتها وبجريها الدائب تسلخ النهار عن الليل ، ولولا حراكها لكان النهار سرمداً في أفقها ، والليل سرمداً في آخر ، ولكنها تجري ، وبجريها تسلخ النهار عن الليل .

وهل إن جريها هو حركتها الدورية حول الأرض كما يُترأى ؟ وقد اثبتت النظرية العلمية أن الأرض هي التي تجري حول الشمس كما تجري حول نفسها !

أم إن جريها أعم من هذه الحركة وهي على أقل تقدير غير ثابتة ، ومن حركات أخرى كشف العلم النقاب عن وجه البعض منها وبقيت الأخرى ؟ والمترائى من جريها من مشارقها الى مغاربها ليس إلا صورة ظاهرة عن جري الأرض حولها ! فكما أن راكب الطائرة يُحَيَّلُ إليه أن الجاري هو الفضاء بما فيه حولها ، كذلك سيفيئتنا الفضاءية «الأرض» الجارية في بَمُ الفضاء وخِصَمِ الأثير تُترأى لركابها كان الشمس والقمر هما الجاريان حولها و«كلٌّ يجري لأجل مسمى» (٣١ : ٢٩) وليست الأرض أجلاً لهما ولا مسمى ، فلا يعني جريها حول أرضها .

فللشمس جريانات واقعية وأخرى خيالية علٌ منها أو أنها ما نراه من حركة الشمس حول الأرض، ومن الأولى حركتها حول نفسها دورية ، وحركتها مع سياقاتها نحو النسر انتقالية أماذا ؟

وترى ما هو «المستقر لها» ؟ هل هو - فقط - الأجل المسمى : «وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمى» (٣١ : ٢٩) ؟ وقضيته «إلى مستقر لها» الصريحة الخاصة لمنتهى الغاية الأخيرة من جريها ! .

أم إن مستقرها هو الفلك الذي تجري عليه ، والجادة الفضائية التي تسري فيها ، فهو مستقر الجري ، قرار جري بنظام دون قرار ، وكما الأرض على حدّ تعبير الأمير عليه السلام «أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال وأرساها على غير قرار . . ؟» وليس ذلك لها أجلاً مسمى و«كل يجري لأجل مسمى» !

«المستقر» كجنس تناسب لها مستقرات عدة ، تغنيها المصدر الإستقرار ، وإسم زمانه ، ومكانه ، وهي بين ما يترائيها ، من مستقرات غروباتها عن كل أفق حيث تسليخ عندها الأنهار ، وهذا مستقر لها فيها نرى كما «وجدنا تغرب في عين حمئة» ولا واقع لغروبها فيها ولا لأي مغرب إلا وجدان الرؤية وهي شلوقة منذ خلقها إلى تكويرها وتكديرها ، فغروبات الأفاق الأرضية ليست إلا للدوران الأرض حولها ، وهذه من مستقراتها الزمانية والمكانية المتكررة في حياتها ، وكما أن غاية ارتفاعها صيفاً وغاية انخفاضها شتاءً هما من مستقراتها السنوية .

ومن ثم لها مستقر فيهما نهائياً في قيامتها وهي أجلها المسمى ، وهو تكديرها النهائي عند تكويرها حين لا تبقى شمس تجري أو تسكن حيث تستقر عن كونها وكيانها فضلاً عن جريها ، كما مستقرها البدائي هو تقدير العزيز العليم وبينهما متوسطات : بين المبدء والمعاد .

ولا جامع بين هذه المستقرات في بُعديها أدبياً إلا «لـ» دون «إلى» مع العلم أن الأهم هنا مستقرها المبدء ومستقرها المعاد المسمى في أجلها كما في آيات عدة .

فـ «الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» نعم مصدر المستقر لاستقرارها طول جريها بتقدير الله وكعاية لها في جريها بنصده ، وإسم زمانه ومكانه في دنياها وأخرها ، مهما كانت الأصالة المعنية مبدءها وأجلها المسمى ، و«ذلك تقدير

العزیز العلیم : تقدیراً لها حیوياً سلخاً للنهار ولباساً له ، كحیاء وموت متواترین تلو بعض فی جریها الدائب علی فلکها ، وتقديراً لتکويرها فی مستقرها الآخر وأجلها المسمى ، ثم یجدد الله حیاتها بعد تکويرها حین لا یرون فیها شمساً ولا زمهیراً (٧٦ : ١٣) کمیزة لأهل الجنة ، فلولا وجود الشمس یوم القيامة ، کان أهل الجنة وأهل النار سواء فی عدم رؤیتها والزمهیر ، مهما كانت هی الوحيدة فی هذه اللمحة بین الـ « ٣٣ » من آیات الشمس ! .

فی قیامة الإمامة تُکَوِّر الشمس كما سائر الأحياء إلا من شاء الله ، ثم فی قیامة الإحياء تُحیی الشمس كما سائر الأحياء دونما استثناء ، ففي جری الشمس لمستقر لها آية القدرة الإلهية ، وكما فی توالی الموت والحیاء حتی لغير المكلفین ، فهم أحرى بذلك فی میزان العدل والرحمة و« ذلك تقدير العزیز العلیم » .

واین هذه المستقرات للشمس الجارية و« لا مستقر لها » كما یروی عن الأئمة الثلاث^(١) نفيّاً مستغرقاً لأي إستقرار ، وهي علی أقل تقدير لها مستقر التکوير بالمبدء العلی القدير ، وساحة الأئمة براء عن کل تحديف وتحوير !

ولأن الشمس من الكواكب وهي کلها فی السماء الدنيا ، فلتطرح الرواية بجريها فی السماوات السبع^(٢) أو تؤوّل كما یناسب القرآن ، فقد تعنی

(١) مجمع البیان وروی عن علی بن الحسین زین العابدین وأبي جعفر الباقر وجعفر الصادق (علیه السلام) « لا مستقر لها » بنصب الراء . أقول وهذا باطل لفظياً حیث یحمل فرية التحريف ومعنوياً كما بیناه فی المتن .

(٢) نور الثقلین ٤ : ٣٨٥ ج ٤٧ فی کتاب التوحید باسناده الی أبي ذر الغفاري رحمه الله قال : كنت أخذاً بيد النبي (صلی الله علیه وآله وسلم) ونحن نتماشی جميعاً فما زلنا ننظر الی الشمس حتی غابت فقلت یا رسول الله (صلی الله علیه وآله وسلم) ! این :

سجدها تحت العرش خضوعها لأرادة الرب في عرش التدبير ف «مستقرها تحت العرش»^(١) تعني لها مستقراً لجريها هو «تقدير العزيز العليم» تقديرأ

تغيب قال: في السماء ثم ترفع من سماء الى سماء حتى ترفع الى السماء السابعة العليا حتى تكون تحت العرش فتخر ساجدة فتسجد معها الملائكة الموكلون بها ثم تقول: يا رب من اين تأمرني ان اطلع امن مغربي ام من مطلعي ؟ فذلك قوله عز وجل «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم» يعني بذلك صنع الرب العزيز في ملكه بخلقه فيأتيها جبرئيل بحلة ضوء من نور العرش على مقادير ساعات النهار في طوله في الصيف وفي قصره في الشتاء او ما بين ذلك في الخريف والربيع قال: فتلبس تلك الحلة كما يلبس احدكم ثيابه ثم تنطلق بها في جو السماء حتى تطلع من مطلعها قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): كأنني بها قد حبست مقدار ثلاث ليال ثم لا تكسى ضوءاً وتومر أن تطلع من مغربها فذلك قوله عز وجل: «إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت» والقمر كذلك من مطلعته ومجره في افق السماء ومغربته وارتفاعه الى السماء السابعة ويسجد تحت العرش ثم يأتيه جبرئيل بالحلة من نور الكرسي فذلك قوله عز وجل «جعل الشمس ضياء والقمر نوراً» .

أقول سير الشمس والقمر في السماوات وسجودها تحت العرش بانتظار امر الرب ، كل ذلك تعبيرات عن مستقر تقديره تعالى ، ف «لمستقر لها» بتدريج من المستقر الربوبي وتنتهي الى مستقر قيامتها .

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٦٣ - اخرج عبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن أبي حاتم وابو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي ذر قال: كنت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد عند غروب الشمس فقال يا ابا ذر! اتدري اين تغرب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله اعلم قال : فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله «والشمس تجري لمستقر لها» قال : مستقرها تحت العرش، واخرج عند جماعة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الآية قال «مستقرها تحت العرش» وفي نقل ثالث عنه قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جالس فقال يا ابا ذر اتدري اين تذهب هذه قلت الله ورسوله اعلم قال فانها تذهب حين تسجد بين يدي ربها فتسأذن في الرجوع فيأذن لها ربها وكانها قيل لها -

لجريها كما وكيفاً ، وتقديراً لِعمرها وكل أمرها .

فالشَّمْسُ تجري لمستقر تقدير العزيز العليم دوغماً فوضي ، لكافة مستقراتها وجرياناتها في أولها وأخرها ، دوغماً تخلف ولا قيد شعرة ولا آن عن ذلك التقدير العزيز العليم !

إذا ف «لا مستقر لها» ك «إلى مستقر لها» لا مستقر لها لفظياً ومعنوياً ، فإن «لمستقر لها» تجمع كل مستقراتها من قراراتها في جرياناتها يوم دنياها ، وإلى قرارها عند تكويرها^(١) في قيامتها ، وإلى تجديد حياتها لقرارات أخرى في آخرها ، فكل جري لها وكل قرار بادئ من مستقر التقدير من عزيز حكيم ، ومُنْتَهًى إلى ذلك المستقر العزيز الحكيم ف «إنا لله وانا اليه راجعون» .

وللشمس في مستقرها الأخير يوم التكوير آراء متهافتة ، من مائل إلى أنها سمرمد في جراكها ، كما العالم أجمع كقسم من الدهريين ؛ ومن قائل على ضوء العلم أنها تجري إلى انقراضها^(٢) ولا نجد تعبيراً كالذي في القرآن عن جريها لمستقر لها وتكويرها وجمعها مع أخيها القمر ، فلها كورها بعد دورها كما لكل كائن دور وكور و «ذلك تقدير العزيز العليم» .

تقدير بعزة وعلم ولا تقدير إلا بعد عزة وعلم ، وبعد التقدير قضاء وإمضاء وكما سئل العالم : الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) : كيف علم الله ؟ فقال : علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى ، فأمضى ما قضى ، وقضى ما قدر ، وقدر ما أراد ، فبعلمه كانت المشية وبمشيته كانت

اطلعي من حيث جئت فتطلع ..

اقول : فهذه رواية واحدة عن أبي ذر تشتبك في قوله (صل الله عليه وآله وسلم) «مستقرها تحت العرش» والمعنى المناسب ان مستقرها في كل قرار هو امر الرب ، جرياً ووقوفاً ام اياً كان .

(١) راجع سورة التكوير ج ٣٠ : ١٣٧ للتعرف الى تكويرها .

الإرادة ، وإبرادته كان التقدير ويتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء ، والعلم متقدم المشية ، والمشية ثانية ، والإرادة ثالثة ، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء ، فله تبارك وتعالى البدء فيما علم متى شاء ، وفيما أراد لتقدير الأشياء ، فإذا وقع القضاء بالإمضاء ، فلا بدء ، فالعلم في المعلوم قبل كونه ، والمشية في المنشأ قبل عينه ، والأرادة في المراد قبل قيامه ، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً ، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الأجسام المدركات بالحواس من ذوي لون وريح ووزن وكيل ومادب ودرج من إنس وجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس فله تبارك وتعالى فيه البدء مما لا عين له ، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بدء والله يفعل ما يشاء ، فبالعلم علم الأشياء قبل كونها ، وبالمشية عرف صفاتها وحدودها وإنشأها قبل اظهارها ، وبالإرادة ميز أنفسها في ألوانها وصفاتها ، وبالتقدير قدر أحوالها وعرف أولها وآخرها ، وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلهم عليها ، وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم^(١) .

وختامه المسك لمحة لامعة أن جري الشمس ومعه كل جري ليس إلا بتقدير العزيز العليم ، فللكل مبدء ومعاد وبينهما متوسطات الحياة ، فلجري الشمس مستقر التقدير من الله الى مستقر التكوير وبينهما عنوان من مستقرات غروبائها وجريها في فللكها ، ومن الفارق بين المستقر وسواه أنه مصدر لفظياً ومعنوياً وسواه صادر اسم زمان أو مكان .

فالشمس إذا تجمع بين مستقرات لها فعلية هي لزامها في كونها وكيونتها ، ومستقرات مستقبلية في أمكنة وأزمنة آتية يومية وسنوياً وعند

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٥ ج ٨ في اصول الكافي الحسين بن محمد عن محمد بن علي بن محمد قال سأل العالم (عليه السلام) . . .

تكويرها ومن ثم خلفها مرة أخرى .

فكما أن مستقرات الغروب للشمس - المتكررة يومياً - ليست إلا مرثيات وهي في الحق شارقة دوماً، لا غاربة ولا لحظة ، كذلك الأموات هم في الحق أحياء مهما نراهم في ظاهر الأمر أمواتاً ، فليس الموت فناءً وفوتاً حتى تُستبعد رجعة الحياة ، فالروح بعد الموت هو الروح وأرواح منه ، والبدن هو البدن بمادته ، فعملية الإحياء ليست إلا خلق الأمثال للأبدان ونقل الأرواح إليها .

وكما أن المستقر الأخير للشمس في التكوير ليس هو الأجل الأخير حيث ترجع بمثلها ، كذلك الإنسان لا يعني موته عن هذه الحياة فوته عن أية حياة .

وكل ذلك تقدير العزيز العليم ، فله القدرة على كل تحوير وتغيير وتقدير ، وله العلم بذلك دون أي مانع ونكير ! .

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩)

«و» آية لهم رابعة « القمر قدرناه منازل » له في جريه كما يترائي مكاناً ومكانة وزماناً « حتى عاد » كما بدء في منزله الأول ليلة هلاله واستهلاله « كالعرجون القديم » وهو عذق النخلة اليابس إذا قدم فانحنى .

فالقمر في منازل الثمانية والعشرين ، يتبدل من هلاله مبتدراً كالعرجون القديم إلى ختامه كالعرجون القديم كما بدء ، فهو كالولد حين يولد ثم يكبر رويداً رويداً حتى بذره الأربعين ، ثم يتنازل شيئاً فشيئاً منكساً ويرجع كالولد «ومن نعلمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون » ثم يموت ومن ثم الحياة كما بدء « كما بدأكم تعودون » .

وهذه آية لتواتر الموت والحياة تلو بعض ، وكما القمر في متفص منازل

سورة يس/آية ٣٣-١٧ ٥٩

بترائي للناظرين ناقصاً عن بدره لحد الإنمحاء التام ، ولكنه لا يتقص في واقعه ، وإنما يحتجب بحُجب ، كذلك مَيّت الإنسان ليس بمَيّت وإنما الحياة الروح تحتجب عن هذا البدن ثم تعود إليه يوم المعاد .

وعلى العود كالعرجون القديم لمحة إلى أن المُعاد في المُعاد ليس كل البدن ، وإنما أصله العرجون الذي عاشه طول حياته ، فالأعمار الإنسانية وأضرابها تُقدّر منازل في سيرها الحيوي حتى تنمحي ثم تعود كأصغر ما كان كالعرجون القديم ، حيث يُمثّل كيان الإنسان كأصل عاشه في حياته خيرة وشريرة .

أهله القمر الثمانية والعشرون تفيدنا مواقيت الشهور والحج
«وسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج» ، وتفيدنا إمكانية المعاد وكيفيته لوجه ما .

للقمر في منازل أشكال حسبها كما قدرها العزيز العليم ، من منزل المحاق أو الاقتران والاجتماع والتوليد ، لا يَبْرِي فيه لأن وضعه مجاور جداً في الظاهر للمحل الذي تشغله الشمس في السماء ، فيوجه نصف كرتة المظلم المحجوب عن الأشعة الشمسية نحو الأرض ماكشاً في استتاره يومين أو ثلاثة ، ولكن لحظة الإقتران المضبوطة التي يستدل عليها من السنوات الفلكية ، تحصل متى كان للشمس والقمر طول واحد .

وفي اليوم الثاني أو الثالث بعد تلك اللحظة يظهر القمر ليلاً بعد غروب الشمس بمدة قليلة على شكل هلال رفيع تحدُّ به نحو القطعة التي توجد فيها الشمس تحت الأفق ، وبسبب الحركة اليومية يغرب القمر بعد قليل في الأفق الغربي .

وفي اليوم التالي تحصل الحالة بعينها ولكن الجزء المستير فيه أعظم ، ولأنه فيه أبعد من سابقه عن الشمس يتأخر غروبه .

٦ الجزء الثالث والعشرون

وفي اليوم الرابع بعد الإقتران يغرب بعد الشمس بثلاث ساعات .

وبعد اليوم الرابع يسمى التربيع الأول ، ثم ينمو شيئاً فشيئاً ، وبين اليوم السابع والثامن من لحظة الاجتماع يظهر لنا نصف دائرة ويرى في النهار مدة ، والحركة اليومية لا تأتي به في مستوى الزوال إلا بعد مرور الشمس به بست ساعات تقريباً .

وبين التربيع الأول والبدر تمضي سبعة أيام آخر ، في غضونهما يقرب الجزء المسنير شيئاً فشيئاً حتى يصبح دائرة تامة ويدراً كاملاً .

وبعد الإقتران بخمسة عشر يوماً يظهر لنا قرصاً بأكمله مستديراً، ولحظة شروقه - إذا - كل لحظة غروب الشمس حيث تشرق عند غروبه ، ومتى ارتقى إلى أعلى نقطة من سيره وهو بمستوى الزوال يكون نصف الليل ، وفيه تمر الشمس تحت الأفق بمستوى الزوال الأسفل بحيث يكون القمر مقابلاً للشمس بالضبط بالنسبة للأرض .

وبعد ذلك يتناقص على التوالي «حتى عاد كالعرجون القديم» وفي البين له التربع الثاني نازلاً عكس التربع الأول صاعداً .

فالمنازل الرئيسية هي المحاق والهلل والتربع الأول والبدر والتربع الثاني «حتى عاد كالعرجون القديم» .

ولأن قَدَم العرجون لأقل تقدير هو ستة أشهر فقد يصدق عليها القديم لأقل تقدير ، فقد نصِّق الرواية القائلة بسناد الآية أنها من القديم^(١)

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٦ القمي حدثني أبي عن داود بن محمد النهدي قال: دخل أبو سعيد المكاربي على أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فقال له أبلغ من قدرك أن تدعى ما ادعاه أبوك؟ فقال له الرضا (عليه السلام) ما لك أطفأ الله نورك وادخل الفقر بيتك أما علمت أن الله عز وجل أوحى إلى عمران أبي وأهب لك ذكراً فوهب له مريم

حيث القرآن أطلق عليها القديم .

ولأن العرجون القديم هو عذق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته ،
وقديمه المنحنى المقوس بصفرته ، فوجه الشبه إذاً هو مثلث الإصفرار والدقة
والإعوجاج ، وهو بداية المنازل ، ونهايتها العودة كما بدئت .

و«قدرناه منازل» دون «قدرنا له منازل» أم «ذا منازل» كما تكلفوهما
تقديراً ، علّه لأن منازل ظاهرة في نفسه بالمحاق والهلل والتربيعين والبدر ،
بين منازل الصعود والتزول ، مهما كانت له منازل في مسيره ليل نهار ،
ولكنها المقصود هنا منازل الأولى التي تنتهي إلى العرجون القديم .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ فِي فَلَكَ
يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠).

في تقدير العزيز الحكيم نظام دائب حيوي دوغما فوضى جزاف فـ ولا
الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر في جريها لمستقراتها الحيوية ، وهي أكبر
منها وأقدر بملائين الأضعاف ، لاختلاف الفلك المجري المقدر لكل منها ،
واختلافهما في جريهما كماً وكيفاً ، فلو أدركته في سيره بمسيره لكان في شهر
واحد صيف وشتاء أما ذا من فوضويات التكوين ! فإذا كان القمر على أفق
المشرق أيام الإستقبال كانت الشمس على أفق المغرب تقابله ، ويطلع القمر
عند غروبها ويغرب عند طلوعها ، فلا ينبغي للشمس أن تدرك القمر ، ولو

وذهب لمريم عيسى فميسى من مريم ومريم من عيسى وعيسى واحد وأنا من أبي وأبي
مني أنا وأبي شيء واحد فقال له أبو سعيد فاسألك عن مسألة قال : سل ولا اخالك تقبل
مني ولست من غنمي ولكن هاتها فقال له : ما تقول في رجل قال عند موته كل مملوك
لي قديم حر لوجه الله ؟ قال : نعم ما كان لسنة اشهر فهو قديم حر لأن الله عز وجل
يقول «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» فما كان لسنة اشهر فهو قديم حر
قال : فخرج من عنده وافترق وذهب بصره ثم مات لعنه الله وليس عنده مبيت ليلة .

كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه ، وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عنه ولا تدركه ، لبقيا لمدة مديدة في مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة ، فقدر العزيز العليم في السيارات حركات أخرى دون حركة الشهر والسنة هي الدورة اليومية ، فلا تسبق - إذاً - سيارة أخرى ، إذ تطلع كل وتغرب مقابلها ، وفي ذلك النظام لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا

كما ولا ينبغي لها أن تدركه في ميّزاته الذاتية وتأثيراته الخاصة فضلاً عن أن يدركها القمر في ميّزاتها وخواصها ، فلا درك هنا ولا هناك ولا تدارك إلاّ درك التلاقي الجمع يوم التلاقي الجمع : «وجمع الشمس والقمر» «إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت

«ولا الليل سابق النهار» كما لا يسبق النهار الليل ، - إذاً - يجتمع ليلان أو نهاران فيختل بذلك النظام ، ف : «الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر ولا يسبق الليل النهار فلا يذهب الليل حتى يدركها النهار» وكل في فلك يسبحون «يجيء وراء فلك الإستدارة» (١) .

ولأن الليل والنهار متضايقان ، فلا ليل إلاّ بعد نهار حيث الليل يحصل بغروب الشمس عن الأفق ، فليس اليل - إذاً - سابق النهار منذ البداية ، كما لا يسبقه حتى النهاية وكما وردت به الرواية (٢) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٧٨ ج ٥٢ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٣٨٧ ح ٥٣ عن المجمع العياشي في تفسيره بالاسناد عن الأشعث بن حاتم قال : كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا والفضل بن سهل والمأمون في الايوان بمرور فوضعت المائدة فقال الرضا (عليه السلام) ان رجلاً من بني اسرائيل

في سبق الليل النهار تأخير طلوع الشمس قدر الليل فيقوم - إذا - مقام النهار وهذا لا ينبغي في نظام الكون .

إذا فللنظر في رد الشمس وأضرابه مجالات هذه منها في حقل النظام المقدر الحيوي و «ذلك تقدير العزيز العليم» ! . .

ومن سبق الليل النهار أن يمانع ظهور النهار والجو الحامل لها واحد ، كذلك لا ينبغي ان يكون الموت سابق الحياة ان يمنع لحوقها بعده في الدار الحيوان ، كما الحياة لم تمنع الموت قبل الحياة الحيوان .

وكيف ينبغي الفوضى - إذا - في درك او سبق «و» في ذلك التقدير «كل» من الأرض والشمس والقمر «في فلك» يخصه ، وجادة معبدة فضائية تخصه «يسبحون» ؟ !

كل من هذه الثلاث عمال للدرك والسبق سلباً وإيجاباً دونما استغلال ليل أو نهار ، فانما هو الأرض والشمس والقمر السابقة الذكر ، العاملة لحادث

سألني بالمدينة فقال : النهار خلق قبل ام الليل فما عندكم ؟ قال : واداروا الكلام فلم يكن عندهم من ذلك شيء فقال الفضل للرضا (عليه السلام) اخبرنا بها اصلحك الله قال : نعم من القرآن ام من الحساب ؟ قال له الفضل من جهة الحساب فقال (عليه السلام) قد علمت يا فضل ان طالع الدنيا السرطان والكواكب في موضع شرقها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والشمس في الحمل والقمر في الثور فذلك يدل على كينونة الشمس في الحمل في العاشر من الطالع في وسط الدنيا فالنهار خلق قبل الليل وفي قوله تعالى «ولا الليل سابق النهار» اي قد سبقه النهار .

وفيه عن روضة الكافي ابن محبوب عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : ان الله خلق الشمس قبل القمر وخلق النور قبل الظلمة .

وفي الاحتجاج للطبرسي عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال السائل : فخلق النهار قبل الليل ؟ قال : نعم خلق النهار قبل الليل والشمس والقمر والأرض قبل السماء .

الليل والنهار ، وإمكانية السبق والدرك لولا «تقدير العزيز العليم» فلا
سبح لليل ولا نهار ولا فلك فيه يسبحان ، اللهم إلاّ سبحاً بالأرض في
فلكها .

إن لكلّ من سابحات اليمّ الفضاء فلكاً تسبح فيه ، وجادة فضائية جادة
لا تنزلق عنها ، وإلاّ لاصطدمت وتساقطت وتناثرت وقامت قيامتها !
«كلّ» هنا دون ريب تعم ولأقل تقدير هذه الثلاث ، ومما يبرهن
له «يسبحون» دون «يسبحان»

ولماذا السابحات هذه وهي غير العاقلة «يسبحون» وهي للعقلاء ؟

لأن سبحها في أفلاكها هو سبح العقلاء وأعقل ، إذ لا تفرق في يمّ
الفضاء ولا تنزلق عن أفلاكها ، ولا تتغير عن حراكها المقدرة لها ، فللأرض
فلكها وحراكها ، وللشمس فلكها وحراكها ، وللقمر فلكه وحراكه دون
تبادل واصطدام ، ولا تعارك فانهزام ، اللهم إلاّ في حرب قاصدة هادفة يوم
القيام .

هذه الثلاث كأضرابها من سابحات السيارات تسبح دائبة في خضمّ
الفضاء الفسيح ، وهي على ضخاماتها الهائلة لا تعدو وإن تكون نُقْطاً
وسمكاً صغيرة في ذلك اليمّ دون خرق أو غرق ، وكم من خارقة وغارقة
في خضمّ الحياة من إنسان وسواه وهو من أعقل العقلاء .

وحقيق للإنسان أن يتضاءل أمام هذه السابحات ويتساءل العزيز العليم ، ماهذه
القدرة الشاملة التي انتظمت هذه الملائين الملائين من سابحات
السيارات التي لا تُحصى ؟ . . والجواب «ذلك تتقدير العزيز العليم» فهل
بعد من ريبة في إحياء الموتى وهو أهون عليه من ذلك التنظيم القويم !

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ^(٢١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ

مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ^(٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ^(٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ^(٤٤) .

« وآية لهم » خامسة للمبدء والمعاد « أنا حملنا . . » وترى من هم المعنيون بـ « هم » ثم من هم ذريتهم ؟ ومن ثم ما هو الفلك المشحون ؟

« لهم » تعني الموجودين زمن نزول الآية لأقل تقدير ومتيقنه، حيث الآيات الخمس وأضرابها المسرودة في القرآن تعني توجيه الحاضرين كمبتدء الدعوة ، ومن ثم الآخرين لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم .

أترى ذريتهم هم أولادهم ، فإنها الاولاد من الذر : الصغير - كما في آياتها الـ (٣٢) دونما استثناء ؟ وهم لم يحملوا أنفسهم في الفلك المشحون : سفينة نوح، فضلاً عن ذريتهم !

أم إن ذريتهم هم أولادهم والفلك المشحون هي السفن الموجودة زمنهم ؟ ولكنه مشحون من ميعادات في أبعاد :

فالفلك يأتي مفرداً كما هنا وفي عديدة سواها ، وجمعاً كأخرى ومنها « حتى إذا كنتم في الفلك وجسرين بهم بريح طيبة » (١٠ : ٣٢) ولم يأت المشحون في آيات الفلك الـ « ٣٢ » إلا شذراً ! ثم وأين ذلك الفلك الواحد الذي حمل - فقط - ذريتهم زمنهم وهو مشحون ؟ ثم هل هو مشحون بهم وذريتهم أم وسواهم بذريتهم أم هم جميعاً بهم ؟ وهكذا حمل أسهل وأرحم من حمل ذريتهم بخصوصهم لو كان ! والفلك أياً كان يحملهم وذريتهم مشحوناً وغير مشحون .

ثم لا يحمل الفلك صفة المشحون إلا هنا وفي الشعراء « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون » (١١٩) شحنة تجمع النماذج من بني الإنسان ومختلف الحيوان : « قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق

عليه القول . . . (١١ : ٤٠) شحنة مطلقة تجمع من دواب الأرض ما تبقى نسلها ، ثم لا نجد مشحوناً آخر في (٣٢) فلماً في سائر القرآن إلا نبياً في يونس «إذ أبق إلى الفلك المشحون» (٣٧ : ١٤٠) .

إذا فليس الفلك المشحون الحامل ذريتهم إلا فلك نوح^(١) إذا لا يحملهم يونس ، فلا نحتمل أنه فلك زمنه يحمل - فقط - ذريتهم ، كما وتقوده أخيراً «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» وإذا لم يكن فلماً بخصوصه وعم كل فلك فما مثله إلا نفسه ؟

أم إن «ذريتهم» هنا هم جدودهم الأعلون الناجون في سفينة نوح (عليه السلام) بتأويل أنهم ذروهم كما أنهم ذروا منهم ؟ وليست الجدد ذرية لا في اللغة ولا في القرآن كلما أتت بمختلف صيغها في الـ «٣٢» موضعاً وقد قبلت بالأباء الشاملة للجدود : «ومن آبائهم وذرياتهم . . .» (٦ : ٨٧) «من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» (١٣ : ٢٣) و (٤٠ : ٨) .

فليست ذريتهم جدودهم بل هم من «ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً» (١٧ : ٣) .

وحق إذا أنت الذرية بمعنى الجدود في لغة شاذة وما أنت ، لا ينبغي حمل لغة في القرآن على الشاذ ، الشارد عن مستعملات القرآن واللغة الرائجة الفصحى !

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٧ ج ٥٦ في كتاب الخصال عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال : فما التسعون ؟ قال : الفلك المشحون اتخذ نوح (عليه السلام) فيه تسعين بيتاً للبهائم وفي الدر المنثور ٥ : ٣٦٤ هي سفينة نوح - أخرجه جماعة عن أبي مالك وأبي صالح وابن عباس

اللهم إلا ان يعنى بها هم أنفسهم بجدودهم وأولادهم إلى يوم القيامة ، صيغة واحدة تضم مثلث المعاني مهما اختلفت مراتبها في إطلاق الذرية عليهم ، وهو عبارة أخرى عن النسل الإنساني منذ نوح حتى القيامة الكبرى ! وقد لا تلائم الجدود آية الجارية لمكان «كم» أم لا تنافيها حيث «كم» فيها لا تمنع أعم منه هنا .

فـ «ذريتهم» إذاً لا هم أولادهم ولا جدودهم ، بل هم أنفسهم وقد كانوا ذرية في أصلاب من حمل مع نوح «إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية» . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية» (٦٩ : ١٢) ولم يحمل المخاطبون هنا في الجارية إلا وهم ذرية^(١) إذاً فـ «ذريتهم» هنا من إضافة الشيء إلى نفسه وكما في آية الذر «واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ..»^(٢) (٧ : ١٧٢) حملناهم في الفلك المشحون وهم ذرية، وكما أنهم كانوا ذرية في الفلك المشحون ، فبأحرى ذريتهم الموجودين والذين يأتون إلى يوم الدين ، إذاً فـ «ذريتهم» تعني أنفسهم وهم ذرية ، ويضمنهم ذريتهم إلى يوم القيامة حيث الكل حلوا في الفلك المشحون في أصلاب من حمل مع نوح «ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً» .

وهذه منة ربانية بنعمة بالغة أنه حملهم في الفلك المشحون الجارية ولم

(١) راجع تفسير آية الجارية الى ج ٢٩ ص (٨٨ - ٩٤) .

(٢) فـ «ذريتهم» في آية الذر ليست لتعني اولادهم ، فإن «بني آدم» تشملهم باولادهم ، ففياً تعني «هم» في «ذريتهم» الآباء فقط من بني آدم ، فالأبناء ايضاً آباء لآخرين كما الآباء أبناء للاولين ، فلا يصح «ذريتهم» الا كونها اضافة الشيء الى نفسه ، والمقصود ذرية الارواح لمكان «اشهدهم» وهي الفطر لأنها أعمق أعماق الارواح كما النطف أعمق أعماق الأجساد ، فالأرواح تتبني الفطر كما الأجساد تتبني النطف والتفصيل راجع الى محله .

يكونوا شيئاً مذكوراً ، «وإن نشاء نفرقهم » وهم ذرية في أصلاب آبائهم «فلا صريخ لهم » ولا صُراخ مهما كان لأبائهم «ولا هم ينقذون » ..

أو ليس الذي حملكم في الفلك المشحون وأنتم ذرية بقادر على أن يحمل أرواحكم بأجسادكم بعد موتكم في فلك الأرض المشحون ، السابحة في خضم الفضاء وأرواحكم هي أرواحكم وأجسادكم من أجسادكم ، يحملكم ليعيدكم فيها مرة أخرى ؟ «وقالوا » إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد... قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربيكم ترجعون » (٣٢ : ١١) .

فآية القدرة البارعة الإلهية لإمكانية المعاد ، باهرة في «أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » رحمة كامنة تظهر يوم المعاد ، كما كانت لذريتهم .

«وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » هم أنفسهم ، فبعد ما حملوا في أصلاب آبائهم في الفلك المشحون كنعمة سابقة سابقة ، يحملون هم كأبائهم حاملين ذريتهم في مثله تداوماً في أنسال بني الإنسان .

وهنا «من مثله » دون «مثله » لتعم كافة أمثاله مما يُركب . فالمماثلة بين فلك نوح المشحون ، قد تكون تامة ، ولا تعنيه «من مثله » إذ لا مثيل له تماماً طول التاريخ الإنساني ، أم غير تامة تلمح لها «من » فقد تكون مماثلة في «المشحون » نسبياً ، أم - فقط - في كونه فلكاً ، أم وحتى أية سفينة أمأهيه من مركوبات بحرية ، أم - فقط - في كونه مركوباً بحرياً أو برياً أو جويّاً ، مصنوعاً أم حيواناً وأياً كان من مركوب طول الزمان وعرض المكان ، فقد تعني «من مثله » كل هذه الأمثال على اختلافها كوناً وكياناً .

فالآية - إذا - على غرار «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » (١٦ : ٨) ، إذ تشمل ما علّه شملته آية «وخلقنا لهم من مثله

ما يركبون ، - «وعليها وعلى الفلك تحملون ، (٤٠ : ٨٠) وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون ، (٤٣ : ١٢) اللهم إلا بفارق المضي في «وخلقنا» هنا و«بخلق» هناك حيث تخرج المخترعات المستقبلية عن نطاق الآية ويبقى ما مضى .

فتعم كل ما صنعه الإنسان ويصنعه من سفن فوق البحرية وتحت البحرية والجوية التي تسبح في البحر كما في الفضاء والبر ، بمختلف الوسائل الشراعية بالرياح ، والبتروولية والكهربائية والذرية أمّاذا ؟ .

«وخلقنا لهم» لا ينافي أنها من صنعهم ، فإن الله هو خالقهم وخالق المواد والطاقات التي يستخدمونها ، وخالق العقل الذي يدبرها كيف يخترعها ؟ فهم بما صنعوا خلقناهم وخلقنا لهم ، فنصيب الصانعين والمخترعين مما صنعوا أو اخترعوا بجانب ما خلق الله ضئيل هزيل ، إذ لا يبقى لهم منها إلا اختيار الفعل ، وهو أيضاً من خلق الله ، فهي من حيث الخلق والصنعة إلى الله أنسب منها إليهم وأقرب .

«وإن نشأ نغرقهم» لا تشمل مركوبات البر ، ولكنها تعم البحرية وفوق البحرية ، ثم البحرية وإن نشأ نغرقهم ، تعم غرقهم في سفينة نوح . إذا «فلا صريخ لهم» تعني لا صراخ لهم إذ لا كون لهم ولا كيان إذ هم ذرية في أصلاب آبائهم وبأحرى «لا ينقذون» .

ثم في سفن أخرى «فلا صريخ لهم» تعم صراخهم كما هم في الفلك المشحون ، والذي يستجيبهم في صراخهم ، ولذلك «فلا صريخ لهم» دون «لا صراخ لهم» علّه ليشمل الأمرين ، ثم «ولا ينقذون» حتى إذا كان لهم صريخ وصراخ، إذ لا يقدر أحد أن ينجيهم والله يشاء أن يغرقهم !

فلك في خضم البحر المنتظم كالريشة في مهب الرياح المتماوجة وعصف في بئج الأمواج الهائجة ، لا يدرك هوله إلا غامر البحار ، فمن

ذا الذي ينجي الغرقى حين تقطعت بهم الأسباب «إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين» .

اجل «لا صريخ لهم» من غرقه تعالى «إلا رحمة منا» وهنا يصح المقال : أعوذ بك منك ، وبرحمتك من عذابك ، «ومتاعاً إلى حين» قرر في الذكر الحكيم واللوح المحفوظ ، متاع الحياة ابتلاء وإمتحاناً لعلهم يتقون .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٥٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥٦﴾ .

رغم كافة الآيات الدالة على المبدء والمعاد هم أولاء الحماقى الأغفال لا يتبصرون بها «وإذا قيل . . لعلكم ترحمون» لا يتقون .

لا ياتي هنا صراح الجواب إذ هو معروف من حالهم النكدة البئسة ، ويمايعمم حالهم : «إلا كانوا عنها معرضين» و«ما بين أيديكم» نعم : حالهم الحاضرة وما تستقبلها يوم الدنيا ، وحياتهم الأخرى التي يستقبلونها بعقوبات فيها فإتئها «ما بين أيديكم» كما وأن «ما خلفكم» نعم حالهم الغابرة هنا والحياة الدنيا بأسرها التي يستدبرونها بما أصاب من قبلكم من عقوبات ، وتقوى الآخرة هي حصيلة تقوى الدنيا بترك الطفوى فيها^(١) والتذكر بآيات الرب والترقي بها .

هذه الآيات الصارمة هي بذواتها تكفي هزة وارتعاشة وانتفاضة لقلب مفتوح ، ولكنهم على قلوبهم أقفالها ودينها «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» .

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٨ ح ٥٧ في المجمع روى الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب وما خلفكم من العقوبة .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٧).

كلمة إيمان يقوها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والذين آمنوا، للذين كفروا «أنفقوا مما رزقكم الله» رزقكم لا لكم - فقط - أنفسكم بل و«أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» (٥٧ : ٧) «أتوهم من مال الله الذي آتاكم» (٣٤ : ٣٣) «قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعهم من لو يشاء الله أطعمه» استنكاراً في عجب من قولة الإيمان، أن الرزق إنما هو بمشيئة الله، وليس إنفاقنا إيماناً بل هو شرك بالله واستقلال بجنب الله، فلو شاء الله لأطعمهم، دون حاجة إلى مطالبة وسيط والتكدي من عباده المرزوقين، فإذا لم يطعمهم الله لم يشاء إطعامهم، فهل نحن أنداد له السداد حتى نخالف مشيئته، أو نخلفه في رازقته؟ «إن أنتم» المؤمنين «إلا في ضلال مبين» يبينه ذلك الإقتراح الضال، حيث يحس من كرامة التوحيد والربوبية الوحيدة «وأن ليس للإنسان إلا سعي» لا ما سعاه غيره، فلا يرزق أحد إلا قدر سعيه، وأنتم تطالبوننا بخلاف هذه البسة الإلهية.

إن حماقي الطغيان لم يشعروا، أو تجاهلوا الحقيقة الناصعة في الفرق بين المشيئتين: التكوينية والتشريعية، فقد يشاء الله أن يرزق بسعي أم دون سعي ولا راد لمشيئته، وهما وجهان من مشيئة التكوين كسنة إلهية أولى في الأرزاق، وقد يشاء أن يُنفق المرزوقون المخلّفون من فضل ما آتاهم ربهم للذين لم يؤثروا قدر الكفاف تحنناً وامتحاناً، ولكي يرتبط الخلق برباط العطف والحنان «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» سعيّاً في طلب الرزق، وسعيّاً في إنفاق العفو «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» (٢ : ٢١٩) وهذا من خالص إيمان التوحيد، وهنالك تتوارد المشيئتان: التشريعية بالإنفاق، والتكوينية أن يرزق الفقراء بأيدي الأغنياء.

والحياة الدنيا ككل هي دار ابتلاء بتجاوب المشيئتين، فمن عصى الله

لن يغلبه في مشيئته الاولى ، بل هي الثانية التي يُعصى فيها ، ومن أطاعه لم ينصره في أمر يعجز عنه ، وإنما تشرف بكونه من أدلة مشيئته .

وقد تكون هذه القالة الضالة من المجبرة وكما قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا اباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء « (١٦ : ٣٥) » وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم « (٤٣ : ٢٠) » حصراً للأفعال كلها في مشيئة الله دونما وسيط الاختيار .

هي قولتهم في كل شيء ، وقوله من سواهم من المغالطين أننا مهما كنا مختارين فالرزق بيد الله «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين» .

- وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾
 مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَرْصِيبَ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
 وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾
 قَالُوا يَا بَوِیْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾
 إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
 فَكِيهُونَ ﴿٥٩﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ
 مُتْكِفُونَ ﴿٦٠﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٦١﴾
 سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٣﴾ * أَلَا أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٤﴾ وَإِنْ
 أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ
 جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ
 الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٧﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا
 أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

إقتراح متعنت مكرور على السنة الناكرين ليوم الدين^(١) كأنه حجة على المصدقين ، وما هي الصلة بين كونهم صادقين وأن يعلموا متى وعد يوم الدين ؟! أليس يعلم كل منا بيقين انه سوف يموت ولكنه لا يدري متاه ومُده ، فهل لنا نكران موتتنا إذ لا نعلم وقته بيقين ؟ إن هي إلا هرطقة حمقاء يَحْيِلُونَ إلى الحمقاء كأنها حجة على كذب هذا الوعد !

ولا جواب لهذا السؤال - وبعد كافة البراهين القاطعة على إمكانية وضرورة المعاد - لا جواب إلا واقعه ، إذ لا انتظار بعد لجواب آخر :

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩).

إنها صيحة الإماتة لقيامه التدمير ، وتتلوها صيحة أخرى لقيامه التعمير ، وترى كيف ينظرونها وهم ينكرونها ؟ إنه واقع الإنتظار وإن كانوا ينكزون ، حيث المنتظر لهم واقع الجواب ، فإذا لا تقنعهم البراهين القاطعة فلتكفهم صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون .

إنهم ما ينظرون إجابة عن «متى هذا الوعد» فحتى لو حُدد لهم كذبوه وزيادة ، فليس لهم - إذاً - إلا واقع الإنتظار لواقع الجواب وآخر الدواء الكمي !

إن الصيحة الواحدة تأخذهم على غفلة ونكران ، إذاً فالإرتجاف أتم والإيخاف أعظم وأطم ، وتكفيهم إجابة عن سؤالهم المستهزء المتعنت ، ثم الصيحة الثانية واقعة وليست إجابة بعد الأولى ، ولذلك «ما ينظرون إلا صيحة واحدة» لا أكثر ، «وما ينظر هولاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق» (٣٨ : ١٥) وتلكم الصيحة الواحدة تجعلهم حيارى لحد : «فلا

(١) نجد نفس الصيغة في ١٠ : ٤٨ و ٢١ : ٣٨ و ٣٤ و ٦٧ : ٢٥ : ٢٥ . وآية بتر خامستها .

يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون» (٥٠).

أهلهم كأمشأهم في أخذة الصيحة ، فأين التوصية لهم أو الرجوع إليهم ؟ وحتى إذا لم تأخذهم ! فالصيحة هي المانعة لهم عن هذه أو تلك وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها^(١) .

ثم تتلو الصيحة الواحدة نفخة هي الصيحة الثانية للإحياء : «يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج» (٥٠ : ٤٢) :

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (٥١) .

ليس الصور جمعاً للصورة ، وقراءة الفتح مردودة لمخالفتها المتواترة ، ولرجوع ضمير المفرد المذكور إليه في سائر القرآن : «ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» .

وهنا نفختان هما الصيحتان ، وصيحتان هما النفختان : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) « ويوم نفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين » (٢٧ : ٨٧) .

والصور هو البوق الصارخ في أعماق الأرواح فتفريق عن صعقتها

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٦٥ - أخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

الناجمة عن النفخة الأولى بأبدانها المثالية ، وفي نسل الأبدان الدنيوية على قدر .

وهو نفرة النافور^(١) تضرب إلى الأعماق «فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون» .

فكما الصيحة الأولى أماتهم لوطئتها ، كذلك الثانية تحيهم لوقعتها ، إزعاجة لها فاعليتها ، إماتة مرة وإحياءة أخرى ، ولا عوان بين إماتة وإحياء للأرواح ، فالصيحة الصور بين إماتة كالاولى وإحياءة كالثانية، ولأن الأرواح - إلا من شاء الله - مُصَعَّقة في النفخة الأولى ، كما الأبدان ميّنة ، فنسلهم من أحداثهم إلى ربهم هو إفاقة الأرواح ورجعها إلى أبدانها «فإذا هم قيام ينظرون» «وكل أتوه داخرين» .

وترى ما هو نسلهم من أحداثهم إلى ربهم ؟

الأحداث هي القبور : الأمكنة التي تحوي الأجساد برزخية ودنيوية بأرواحها ، سواء أكانت تحت الأرض أمّاذا؟ مجموعة الأجزاء أم متفرقة ، منضمة إلى أشياء أو أبدان أخرى أم مستقلة ، فإنها لا تفضل عن علم الله مهما ضلت عنا ، فللكل أحداث لأجسادهم وأرواحهم وهي المحال التي تضمها: «وقالوا: إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد... قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» (٣٢ : ١١) «يوم يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون» (٧٠ : ٤٣) «خُشْعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ» (٥٤ : ٧) : خروجاً للأرواح داخلية في أجسادها على قدر اللازم في المعاد .

والنسل هو الانفصال «وهم من كل حذب ينسلون» (٢١ : ٩٦)

(١) راجع ج ٣٠ ص ٣٤ - ٣٦ من تفسير سورة النبأ ففيه نبأ فصل عن الصور

انفصالاً من كل المرتفعات ، كما انفصال الذرية عن الآباء : «ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين » (٣٢ : ٨) «وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » (٢ : ٢٠٥) .

أفترى أن نسلهم من أجدانهم هو - فقط - انفصالهم عنها بأجسادهم ؟ وليس كل انفصال نسلًا ! بل هو انفصال خاص في انفعال خاص كنسل الذرية عن الآباء وهو الخاص بيوم الدنيا ، ونسل الإنسان مرة أخرى يوم الأخرى دون آباء «كما بدأكم تعودون» (٧ : ٢٩) ولكنهم ينسلون هنا سراعاً دون مكوث الأولى في رحم أمّاذًا؟ .

فإذا كان العود كالبدء إلّا في الآباء والمكوث في الأرحام ، فليكن «ينسلون» خلقاً لهم جديداً لهم كما خلقوا أول مرة .

إنهم ينفصلون بكل أجزائهم عن كل اتصال غريب ، ثم تفصل أجزاءهم الأصلية التي عاشوها في حياة التكليف وكل الحيات ، ثم تنسل هذه الأجزاء لخلق آخر كالأول ، دون اختلاف عن الخلق الأول إلّا فيها نعلمه هنا^(١) أمّاذًا ؟ سراعاً ودون أصلاب وأرحام ! فنظفته التي خلق منها أول مرة بطول الأماد والأبعاد ، يُخلق منها مرة أخرى دون أبعاد وآماد ، ودون أصلاب وأرحام .

وهنا نسل الأرواح هو انفصالها عن صعقتها ، ونسل الأبدان كما بيناه ، ثم الأرواح ترجع إلى ابدانها ، وهذا النسل المثلث يكون إلى ربهم «فإذا هم قيام ينظرون» !

إن النفخة الثانية تنسلهم إلى ربهم سراعاً دون مهل ، خلاف ما كانوا

(١) كخروج النطفة من الصلب والتراثب واستقرارها في الرحم طول مدة الحمل ، وتنقلها من صورة إلى صورة حتى انشأها الله خلقاً آخر .

ينسلون من الأصلاب والأرحام يوم الدنيا ، وانهم يوم الدنيا كانوا ينسلون إلى ربهم بربوية الإمتحان التكليف ، وفي الأخرى ينسلون إلى ربوية الجزاء دون تكليف ، وأين نسل من نسل ، يوم الوصل ويوم الفصل ؟

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) .

الويل والعويل هناك ليس إلا لمن كذب الرحمن والمرسلين، وكذب بيوم الدين ، ولكننا المرقد يعمهم وجميع المكلفين ، وما أحسنه وأوضحه تعبيراً عن الحياة البرزخية بالمرقد، ضلع متضلع بين مربع الإحتمالات في الحالة البرزخية^(١) وهي الآية الوحيدة البتمة التي تحمل لها سمة المرقد ، والرقدة هي النوم مقابل اليقظة «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود» (١٨ : ١٨) فالمرقد هو الرقدة وزمانها ومكانها .

ولأن القرآن كتاب هدى وبيان ، فليس ينقل مقالة زائفة زائغة إلا زيفها ، فهم - على كفرهم - مضيقون في «مرقدنا» لا سيما وهم في نهاية البرزخ وبداية القيامة ، فليسوا ليكذبوا على الله وهم في يوم الله .

إنهم حينذاك «قالوا يا ويلنا» وقد كنا نكذب بيوم الدين وهذا يوم الدين «من بعثنا من مرقدنا» وقد كنا راقدين قبل بعثنا في برزخنا .

أترى كيف يعبر عن الحياة البرزخية بالمرقد وهم فيها أحياء يرزقون أو يعذبون ؟ لأن الغالب لهم فيها الرقاد دون رزق فيه ولا عذاب ، فإنما اليقظة لهم بكرة وعشي «وهم رزقهم فيها بكرة وعشي» (١٩ : ٦٤) «وحاق

(١) فبعد التأكد من الحياة البرزخية كنا بين محتملات أربع رابعها المرقد ، والثلاثة الأخرى هي اليقظة الدائمة والرقدة الدائمة وغلب اليقظة على الرقدة، وعكسها وهي الرابعة .

بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويسوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» (٤٠ : ٥٠).

وكما أن غرفة النوم يغلب فيها النوم واليقظة قلة قليلة كمقدمة له ومؤخرة عنه ، كذلك البرزخ هو كغرفة النوم ، وهذا هو الذي يحملهم أن يقولوا «لبثنا يوماً أو بعض يوم» أما إذا من قلة قليلة من لبثهم في برزخهم .

وترى كيف يستذكرون بعثهم عن مرقدهم في عَجَاب ، ويَحْسِبُهم الحياة البرزخية دليلاً صارماً على حياة الحساب الجزاء بعد الموت ؟

«يا ويلنا» ليست إلا تصديق الويل لهم ما لم يكونوا يحتسبون و«من بعثنا» ليس استككاراً ، بل هو استعجاب ، ولم تبرهن لهم الحياة البرزخية إلا نفسها ولما تعلموا بيقين أنهم مبعوثون ليوم الدين ، إذ تعرق الكفر في أعماقهم لحد لا يخرج إلا بواقع الحياة الحساب ، فقالوا «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا» ثم أجابوا هم أنفسهم «هذا ما وعد الرحمن» أن نبعث من مرقدنا «وصدق المرسلون» فيما أرسلوا به ومنه بعثنا ، أو أن الجواب من الله أو من يبيهم عن الله ؟ قد يعنهما «هذا» . . . ولو خُصَّ بغيرهم لحيى بما يخصه ، كـ «قليل» أو «قلنا» ، ثم «الرحمن» دون «الرحيم» مما يلمح أنه قولهم مهما هم غيرَه ، فلو كان قول الرحمن لكان «وعد الرحيم» حيث الرحمة الرحيمية هي المقتضية للحياة الحساب ، مهما اقتضت الرحمانية إمكانية العود في المعاد ، وليس - أخيراً - وعد الرحمن إجابته تعالى عن فاعل البعث ، وإنما تحقيق الوعد وتطبيق الصدق .

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) .

«إن كانت» النفخة الثانية في الصور كما الأولى «إلا صيحة واحدة» فالنفخة هي الصيحة النقرة «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» (٥٤ : ٥٠) دون

تكلّف الزيادة ، فصيحة واحدة تأخذهم إمامة ، وصيحة واحدة تُحضرهم
لدى ربهم إحياء !

أترى ليسوا هم أولادهم محضين عند ربهم حتى يصبحوا في الأخرى
محضين ؟ . . بلى قد كانوا ولكنهم في امتحان الاختيار ، ثم هم يوم
الأخرى ليس لهم امتحان ولا اختيار ، فهم فيها «جميع لدينا محضرون»
حضوراً مطلقاً بعدما كانوا عنده بمطلق الحضور، وأين حضور من
حضور ؟

حضور قد يتخلف عن مرضاته وليس فيه هناك حساب ولا عقاب،
وحضور لا يتخلف وفيه الحساب فالعقاب أو الثواب .

و «جميع» تجمع الأولين والآخرين خروجا عن خصوص الكافرين:
«قل إنّ الأولين والآخرين لجموعون إلى يوم الدين» فـ «ذلك

يوم الجمع» أم يخص الكافرين حيث المحضر تلمح لحضور مكره ، وليس
في حضور المؤمن لذلك المحضر أي مكره ! وآيات «المحضرين» تخص
الكافرين .

﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥١) .

لا تظلم نفس إنتقاصاً في ثواب يستحقه بفضل الله كما وعد ، أم في
عقاب بزيادة فإنه يعدل الله كما أوعده، وعلى آية حال فـ «لا ظلم اليوم» فلا
نفس تظلم نفسها حيث الحقائق مكشوفة والظلم نتاج الجهل أو الجهالة ،
ولا أية نفس تظلم غيرها - وكذلك الأمر - ولا أن الله يظلم نفساً، فإنما يحتاج
إلى الظلم الضعيف ، فلا المظلوم يوم الدنيا يُظلم في الأخرى إلا يُقتصر
من ظلمه كما يحق ، ولا الظالم يُظلم أن تزداد عقوبته على ظلمه ، فالجو
هناك جو العدل والفضل ، وفي «اليوم» لمحة باهرة بانحصار الظلم في حياة

التكليف الدنيا، واما في البرزخ والأخرى فـ «لا ظلم اليوم» خلاف ما في الأولى «وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (١٦ : ٣٣).

ثم وليس هناك جزاء «إلا ما كنتم تعملون» عمل الجوانح والجوارح في عقائد وأعمال صالحة أم طالحة، وأما النيات فما هي بأعمال على أية حال، وإن كان المؤمن يثاب بنية الخير فبفضل الله وليس جزاء إذ لا عمل، كما وفصل الثواب له عدة ومدة إنما هو بفضل الله، لا جزاء يزيد عن العمل، ثم العدل في عقاب الطالحات يقتضي جزاء وفاقاً، ومن أقله تجاوب الجزاء والعمل في كونها محدودين عدة وعدة وتأثيراً.

وترى كيف يصدق «ما كنتم تعملون» على عقيدة القلب، وكيف تمثل بخيرها وشرها جزاء وفاقاً؟ العمل حين يقابل الإيمان فهو عمل الإيمان، وحيث يطلق يعمه وعمل الجنان، بل هو أخرى بصيغة العمل حيث يصاغ العمل عن العقيدة، ولأن العمل هو بملكوته وحقيقته هو الجزاء فليتمثل أياً كان من عمل الأركان والجنان، بل والبيئة الصالحة تتمثل كما الأعمال، كل على حدة.

ولئن لم نعن «ما كنتم تعملون» عقيدة القلب - إذا - فلا جزاء بها إلا ما يُعمل وفقها أو خلافها، اللهم إلا بتأويل أن العمل هو الجزاء ليس إلا، حيث العقيدة تبرر في الأعمال على أية حال، ثم صالح العمل مشروط فيه صالح العقيدة والنية كما طالح العمل بطالحها، صالحاً بصالح وطالحاً بطالح.

ولأن المجزيين لا يُجزون إلا ما كانوا يعملون، فلا موقع للظلم، فحتى أن الجزاء ليس إنتقاماً في العقاب أو ثواباً في الصواب، فإنما العمل والعمل فقط هو الجزاء يوم الجزاء بفضل الله أو عدله.

ولئن سُئلنا فما هو - إذا - موقف الحسنات الحابطة بأسبابه والسيئات

المعفو بأسبابه ؟ فالجواب أن الجزء هو العمل الذي يبقى مع الإنسان إلى يوم البقاء ، دون الحابط المعفو ، فالتائب عن الذنب كمن لا ذنب له ، كما الحابطة حسناته لا حسنات له !

ثم إنَّ العمل أيّاً كان فهو محدود بحدود ، فالجزاء الذي هو العمل كذلك محدود بحدود، ومهما خرج الثواب عن حدود «ما كنتم تعملون»، فإنما هو بفضل الله ، فقولة القائلين بالعذاب لغير النهاية للمخالدين المؤبدين قرينة ظالمة هائكة لساحة رب العالمين ورحم الراحمين، ولقد بينها في طيات آياتها كراراً ومدراراً.

«ما كنتم تعملون» في بُعديه جانحة وجارحة ، فإنه في باطن ملكوته يوم الملكوت هو الجزء ، فليس الجزء العقاب يومئذٍ إنتقاماً ، بل هو ظهور ما كان خفياً في عالم الخفاء ويصبح حلياً في عالم الظهور : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» وعلى حد المروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (إنما هي أعمالكم ترد عليكم) فأهل العذاب «ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» (٢٩ : ٥٤) وهم في الدنيا ، في غفلة عنها ، ثم ويحيط بهم وهم بحرقون بها ! وأهل الثواب : «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» (٣٢ : ١٧) ولا إخفاء إلا لكائني حاله ، ولا خفاء في الدار الآخرة حيث ترى نفس كل جزاءه بالحسنى ، فإنما الخفاء هنا ، فالصورة الجلية للصالحات أتعاب وحرمانات ، ثم الصورة المخفية ثواب ورحمات «جزاء بما كانوا يعملون» يحمله العمل بملكوته !.

لقد طويت الحوار حول يوم القرار في سرعة خاطفة عاطفة تلك المشاهد الثلاثة ببعض ، متخطية إلى حالات لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار :

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ (٥٥) .

إنهم - والحمد لله - في شغل عمن سوى الله وعما سوى الجنة «فاكهون» متفكهون فيها متنعمون بنعمها كلها «ورضوان من الله أكبر» فهم «فاكهون» بكل فكاهاات وفكاهاات الجنة ، فلا تعني «فاكهون» أكل الفاكهة إذ يأتي بعده نيئة «لهم فيها فاكهة» ثم «فكة» لا تعني أكل الفاكهة مهما شمله ، فإن من الفكاهة حديث ذوي الأنس «وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين» (٣ : ٣١) «ونعمة كانوا فيها فاكهين» (٤٤ : ٢٧) ولا تختص النعمة بالفاكهة بل هي مطلق النعمة روحية ومادية : «فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم» (٥٢ : ١٨) ومن كونهم فاكهين التفكه بالمعذاري «حواجهن كالأهله وأشفار أعينهن كقوادم النسر» (١).

وكان الفاكهة أيضاً من الفكاهة فإنها نافلة الطعام وزهرته ، وعلّ كل نافلة عن اللازم فاكهة ، من عذارى الخور فإنهن نافلات الزوجات الإنسيات ، ومفاخر الملابس والمسكن ، ومؤنسات المقالات والمبصرات أمّاذا من الماديّات ، وكذلك من المعنويّات ، ولذلك ترى الآيات التالية تذكر موارد من هذه كمصاديق لـ «فاكهين» ومنه فاكهة الأزواج :

و «في شغل» دون «علی» أو «الشغل» يشغل البال بحيلة الفكاهة عليهم كأنهم فيها غارقون ، لمكان «في» وأن شغلهم لا يوصف بـ «عدة» و «عدة» لمكان التنكير «في شغل» !

وأفضل الشغل يوم الله وفي دار الله ويجنابه وحضرته القدسية: «ورضوان من الله أكبر» فأشغل «شغل» لهم الحالة الروحية الغالية

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٩ ح ٦٥ في مجمع البيان في الآية وقيل شغلوا بافتضاض المعذاري عن ابن عباس وابن مسعود وهو المروي عن الصادق (عليه السلام) قال : حواجهن ...

يلقاء المحبوب ، ومن «ثم» في شغل «هامشي بمظاهر النعم ، وذلك هو المشغول فيه .

وأما المشغول عنه فهو الطريق الشاق الطويل يوم الدنيا ، المليء بالأشلاء والدماء ، بالمكروهات والخرمانات وطول التصبر عن اللذات والمحرمات .

فهم يومئذ في شغل عن كل ذلك وعن كل مُسائب ومُناسب لا يناسب رحمة الله ولا تناسبه .

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾ (٥٦) .

وترى من هم «أزواجهم» ؟ أهم حلائلهم ؟ ولسن كلهن من أصحاب الجنة ! والتي هي منهم تشملها «أصحاب الجنة» !

«أزواجهم» هم قرنائهم الأتباع في العسالحات ، وكما «أزواجهم» في الصافات هم قرناء أهل النار وأتباعهم في الطالحات : «أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون» . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » (٣٧ : ٢٣) .

ف «أزواجهم» هنا وهناك هم الأتباع : سواء أكانوا من أزواجهم سبيياً كالبعولة والزوجات ، أم سواهم ، ف «هم» فيهما تعني الأصلاء من أصحاب الجنة وأصحاب النار رجالاً ونساءً ، و «أزواجهم» هم الفروع منهما رجالاً ونساءً ، مهما شملت الحور العين^(١) وبين البعولة وزوجاتهم من أهل الجنة

(١) المصدر في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - حديث طويل وفيه عن حال أهل الجنة - والمؤمن ساعة مع الحوراء وساعة مع الأدمية وساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً ينظر بعض المؤمنين الى بعض .

والنار عموم من وجه !

إذا فـ «هم» لا تختص بالبعولة ، كما «أزواجهم» لا تختص بالزوجات ، فمن الزوجات من هن أصيلات ويعولتهن الفروع ، أم هم من أهل النار ، كما العكس كذلك ، فتفسير «أزواجهم» بحلائلهم تفسير رديء لا إجابة صالحة عن مشاكله . . .

و «في ظلال» هنا وفي سائر القرآن لأصحاب الجنة لمحة صريحة أن هناك شمساً يستظل منها ، وإلا فلا موقع لظلال إذ لا شمس مشرقة وحارة فـ «دانية عليهم ظلالها» (٧٦ : ١٤) «وندخلهم ظلاً ظليلاً» (٤ : ٥٧) و «ان المتقين في ظلال وعيون» (٧٧ : ٤١) «وظل ممدود» (٥٦ : ٣٠) و «أكلها دائم وظلها» (١٣ : ٣٥) آيات بينات تجاوب «في ظلال» أن هناك شمساً ، ثم آية الزمهيرر تُصارع : «لا يرون فيها شمساً ولا زمهيراً» (٧٦ : ١٣).

إن ظل الجنة عن الشمس من مميزات أصحابها والسالبة بانتفاء الموضوع مسلوقة عن مذهب الفصاحة والبلاغة ، مهما ذهب إليها المنطق تجويزاً عقلياً ، ثم في ظلال لا يختص بظلال الأبنية والأشجار وسائر المظلات ، بل وقبلها الأهم منها وأحرى ظل الله وظل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرين (عليه السلام) وقد تشير إليها «في» حيث المظلات الظاهرية هي فوق المستظلين وهم تحتها لا فيها ، ولكن «في» تعني فيما تعني مع الظلال الظاهرة ، الظلال الباطنة التي يُستظل فيها ، كما وأن تنكير «ظلال» يلمح بذلك ، فإنه ظل ظليل بمدّ طويل يشمل الأرواح والقلوب والأفئدة

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ (٥٧) .

«فاكهة» كما يشتهون من كمها وكيفها و «يدعون» كما يشتهون .

وماذا تعني «ما يدعون» ؟ إنه من الإدعاء : الإفتعال من الدعوى ، أي : ما يتطلّبون لأنفسهم ويتمنون دونما حد ولا حدود : «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم ما تدعون نزلاً من غفور رحيم» (٤١ : ٣٣) وعلى الفارق بين الإشتهاء والإدعاء أن الثاني إشتهاء ظاهر في طلبه، والأول يعمه ودون طلب ، وأنه يعم الإدعاء في الأولى كما الأخرى ، والأول إشتهاء يوم الأخرى : «وقيل هذا الذي كنتم به تدعون» (٦٧ : ٢٧) .

وكما أن في حصول ما يشتهون دون طلب حفاوة وإكراماً كذلك فيما يحصل بطلب، حيث المطلوب هو الرب الرحيم ، والطلب منه تعالى بحصول المطلوب رحمة على رحمة وحفاوة على حفاوة، فمن العباد من يعطيهم ربهم هنا بعض ما يشتهون دون طلب لكيلا يطلبوا فيسمع دعاءهم ليعدهم عن ساحته، فمهما لم يكن في الجنة بعد لأهلها ف «لهم ما يدعون» إكرام لهم بصورة أخرى بعد «لهم ما يشتهون» !

ثم لهم في كونهم فاكهين : «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» (٥٨) هم في دار السلام لهم سلام من الرب الرحيم السلام ، سلامٌ قولاً منه هنا دون وسيط كما سلامٌ حالاً وفعلاً هناك ، سلام على سلام ! فإنها «دار السلام» .

لأصحاب الجنة كل سلام ولأصحاب النار كل سأم ، قولاً لهؤلاء «سلام» ولأولاء في كلمة خاطفة :

«وَأَمَّا تَرَأَوْنَ أَهْلًا لِمَ جَرَمُونَ» (٥٩) : أمر تكويين للذين أجرموا بامتيازهم وانفصالهم عنهم مكاناً ومكانة وخطاباً وحالاً ومقالاً أم أياً كان مما يكون وما كان .

إنهم يتلقون كل تحقير وترذيل يستحقونه بما كانوا يجرمون في كل الجهات والجنات بأمرٍ إمريٍّ «وَأَمَّا تَرَأَوْنَ» :

امتيازاً في سيماهم : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام» (٥٥ : ٤١) .

وامتيازاً عن شفعاثهم الشركاء الذين كانوا يدعون : «وما نرى معكم شفعاكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء» (٦ : ٩٦) .

وامتيازاً عن أنسابهم وأنسابهم : «فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» (٢٣ : ١٠١) .

وامتيازاً لبعضهم عن بعض في فرقة بعيدة، وغربة غريبة سائلة فهم رغم اجتماعهم في النار ليس لهم اجتماع فيه يستأنسون ، والفرقة هناك - كما هنا - عذاب فوق العذاب ، فكل منهم بيت من النار يدخل فيه فيردم بابه لا يرى ولا يرى .

وامتيازاً عما كانوا يدعون ، فهنا يدعون إلى جهنم دُعاً رغم ما يدعون .

وامتيازاً في تميز النار من الغيظ : «تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير» (٦٧ : ٨) .

وامتيازاً لأعمالهم وما كانوا يعتقدون أو ينوون عما للمؤمنين ولذلك يتفرقون : «يوم تقوم الساعة يتفرقون» . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُجبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون» (٣٠ : ١٦) .

امتيازات سبعة في دركات سبع بتبكيث قارع يعمهم أجمعين ! :

﴿أَلَمْ أَهْدِ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) وَأَنْزِلْ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ .

عهد سابق صابغ، صابغ فطرة الإنسان سلباً لعبادة الشيطان وإيجاباً لعبادة الرحمن :

« فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » (٧ : ١٧٣) .

فذلك عهد فطري لا يتخلف، ثم عهد عقلي مأخوذ على العقول بدرجاتها وهو أخص من الفطري إذ يخص العقلاء ، ومن ثم عهد رسالي قد يتخلفون عنه تخلفاً عن عهد الفطرة والعقل وفيه تفصيل ما في عهد الفطرة : « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . » (٧ : ٢٧) « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله . . » (٤١ : ١٤) .

والعهد الرسالي أخص من العقلي وبأحرى من الفطري ، حيث لا يعم من عاش زمن الفترة ، إذا فهم على دين العقل والفطرة .

وترى لماذا « بني آدم » وآدم مفظور على الفطرة نفسها ومأمور بعهد الرسالة كما هم ؟ علّه لأنه أوعد ذريته بعدائه : « قال أرايتك هذا الذي كرّمت علي لئن أخّرتني إلى يوم القيامة لأحتكّن ذريته إلّا قليلاً » (١٧ : ٦٢) وأن آدم ما عبد الشيطان في عصيانه ولم يكن ليعبده، كما وأن السابقين والمقربين من بني آدم لا يشملهم خطاب التنديد ، حيث لم ينقضوا عهد الله مهما كان من آدم بعض النقص : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ولم نجد له عزمًا » ثم و « بني آدم » دون « العقلاء » أم « الذين بلغهم عهد

الرسالة ، ذلك لمحّة أنه عهد إلى كل بني آدم لزماً لهم دونما انفصال على أية حال ، فهو - إذاً - عهد الفطرة ، ولا سيما إذا اكتمل بعهد العقل والشرعة ، حجة مثلثة قاطعة على أصحابها ، مهما كانت الفطرة دونها ، أم والعقل دون الشرعة ايضاً حجة ، مهما بان البون بينهما .

ثم لماذا «لا تعبدوا الشيطان» الخاصة بعبدة الشيطان دون سائر العصاة من ملحدّين أو مشركين أو موحدّين من مسلمين وسواهم ؟ علّه يشمل العصاة الأصول في عصيانات هي كعبادة للشيطان ! أم وسواها من سائر دركات العصيان ، توسيعاً للعبادة لحدّ (من أصفى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس) ^(١) .

فطاعة الشيطان بدركاتها عبودية له بدركاتها ، من إتخاذه إلهاً أو إشراكه بالله ، إلى طاعته في أي عصيان وبينهما متوسطات .

كما وطاعة الرحمن درجات ، عبودية له بدرجات ، فكل طاعة نتيجة عبادة في حدها «لا تعبدوا الشيطان» كجملة مستقلة نهى عن كل طاعة للشيطان في أي عصيان كبيراً أو صغيراً ، ولكن صلي الجحيم بخصر أصول الكفر والضلالة إلحاداً في الله أم إشراكاً بالله أماذا من أصل في ضلالة عقائدية أو عملية .

ثم وما يُعبد من دون الله ليس إلّا عن عبادة الشيطان ويلحقه كل عصيان مهما تفارقا في الطاعة المطلقة ومطلق الطاعة ، ولكننا المحور الأصيل في «الآ» تعبدوا الشيطان » هم الكفار ، وقد تدل عليه إضافة إلى صيغة «لا تعبدوا» هنا «إصلوها اليوم» .

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٩١ ح ٧٠ في كتاب اعتقادات الإمامية للصدوق وقال (عليه

ولماذا لا نعبد الشيطان ؟ لـ «انه لكم عدوا مبين» يُبين عدايته فيما يحملكم عليه من خلاف الفطرة والعقل والعدل ، وفيما يخلفكم ذلك الغرور من وعده الغرور !

«ألا تعبدوا الشيطان» تحلية عن عبادة غير الله أن «لا إله» وأن «اعبدوني» تحلية بعبادة الرحمن «إلا الله» و«هذا» السلب المطلق والإيجاب المطلق: (لا إله الا الله) «صراط مستقيم» : صراط العبودية .

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٢) .

سيروا في الأرض فانظروا إلى من أضله الشيطان من الجبل الكثير فلم يبق إلا القليل وكما أوعدكم منذ البدء : «لأحتكن ذريته إلا قليلاً» والجبل من أصل الجبل تدليلاً على معنى العظم، فكثيره هو الجماعة الكثيرة المغلفة، كما الجبل هي الجماعة المجبولة المفطورة على أمر : «واتقوا الذي خلقكم والجبل الأولين» (٢٦ : ١٨٤) فكما الجبل مفطور على الصلابة والصلادة ، كذلك الناس أجمعون فأنهم مجبولون ومفطورون على فطرت الله التي فطر الناس عليها .

فالجبل الكثيرهم المفطورون على «ألا تعبدوا الشيطان .. وأن اعبدوني» في عهد الفطرة ، فهؤلاء الكثير تخلفوا عن جبلتهم بما أضلهم الشيطان، وجبل قليل هم الباقون عليها الماشون صراطها المستقيم «أفلم تكونوا» في واقع هذه التجربة العظيمة «تعقلون» وتأخذون حكم الفطرة بقوة ؟

ولأن «كيد الشيطان كان ضعيفاً» (٤ : ٧٦) فإضلاله الجبل الكثير عن جبلتهم وفطرتهم وعقليتهم وشرعتهم ، على كثرتهم ، ليس ذلك لقوته ، بل لضعف هؤلاء الجبل الكثير ، لا ضعفاً في فطرتهم فإنها حجة الله ، وإنما تعامياً عنها وتركها لاستعمال عقولهم ، ولأنهم لم يعقلوا شرعة الله

كما يجب ، كما لم يعقلوا فطرة الله وعقولهم .

فحجة الفطرة أقوى من حجة الشيطان التي تسترها ، لأنها ليست إلا غواية ، وحجة العقل أقوى وهي في الشيطان أغوى ، وحجة الرسالات معصومة تفصيلاً كما حجة الفطرة إجمالاً ، فإضلال الشيطان للجبل الكثير ليس إلا استضعافاً لحجج الله داخلية ومنفصلة ، حيث لم يعقلها العاقلون : « أفلم تكونوا تعقلون » أنتم الماشون سبيل الجبل الكثير كما هم ، فالعقل مفتاح الفلاح والصلاح حين يستعمل على ضوء الفطرة كآية أنفسية ، وعلى ضوء سائر الآيات الأفقية وكما في الحديث « العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان » !

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٦٤) « ضَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » .

المخاطبون هنا هم المجرمون الذين « يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » دون بني آدم أجمعين ، ولا عصاتهم أجمعين ، حيث الصلي إيقاد كما في سائر القرآن ، وليس إلا لأصول الضلالة دون الأتباع : « لا يصلّاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى » (٩٢ : ١٥) ، « وأولئك هم وقود النار » (٣ : ١٠) « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (٢١ : ٩٨) .

وعلى « هذه » إشارة إلى جحيم ضلالتهم على عقولهم إذ لم يعقلوا ، ثم جحيم البرزخ وهي حصيلة تلك الجحيم ، ومن ثم جحيم الآخرة وهي بروز كامل لها حيث « يُجزّاه الجزاء الأولى » فهم - إذاً - في ثلوث الجحيم كلّ تلو الأخرى ، صوراً ثلاث عن جحيم واحدة !

فليست آيات الله آفاقيةً وأنفسيةً بالتي تُقهر أمام كيد الشيطان ، وإنما الإنسلاخ منها بعد إيتاءها : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى

الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تركه يلهث ، (٧ : ١٧٦) .

وَلَوْ

نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى
يَبْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا
أَسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّهْهُ
فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا
يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ
مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ

يُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
 وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ
 نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
 وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
 قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
 عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ نَارًا فَلَمَّا إِذَا
 أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ
 كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَسِيدهُ مَلَكُوتُ كُلِّ
 شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ (٧٦)
 ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧) .

« اليوم نختم على أفواههم » وهنالِكَ بطل تكلمهم باختيارهم ،
 وبقيت أعينهم ناظرة ، فعلهم - ولن يستطيعوا - يفتشون عن صراط الجنة

ليهدوا إليه «ولو نشاء» - ولن ! إذ لن يستطيعوا- «لطمسنا على أعينهم» :
إحماماً للشقوق بين الأجفان حتى تكون مبهمة لا شق فيها ولا شفر لها ،
وبأحرى - إذا - يبطل إدراكها كسفاً لأنوارها فصارت ممسوحة لا
يبصرون «فاستبقوا الصراط» في التزاحم التسارع إلى الصراط، استبقوه
متجاوزين عنه ! جاعلين إياه ورائهم ظهرياً «فأنسى يبصرون» أنهم
جاوزوه ، وأنى يبصرون الصراط حتى لا يسبقوه ؟

أم لو أنهم اهتموا إلى الصراط على طمسهم بغتة وصدفة ، رغم
استحالة اهتمائهم حتى إذ أبصروا ، هنا «لو نشاء» ولن «لمسخناهم على
مكانتهم» : إمكانيتهم في الماضي ، ومكانهم ، ومكاناتهم التي يزعمون «فما
استطاعوا مضياً» إلى الصراط «ولا يرجعون» إلى دنياهم تخلصاً عن بلية
العقاب .

هذه الطمسة المسخفة ليست بذلك البعيد عن قدرته تعالى وبالنسبة

للكافرين المستحقين لها، كيف ؟

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨) .

إن النكسة في الخلق هي في أرذل العمر : «والله خلقكم ثم يتوفاكم
ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم
قدير» (١٦ : ٧٠) فلا يزال الإنسان مند ولادته إلى قوة ولحد الأربعين ،
ومن ثم يتنازل إلى ضعف وضعف لحد النكسة الأرذل حيث تزول طاقاته
الجسمية والروحية ولحد الطفولة وأرذل : «الله الذي خلقكم من ضعف ثم
جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء
وهو العليم القدير» (٣٠ : ٥٤) إنا نعيد الشيخ الكبير إلى حال الطفل
الصغير، في الضعف بعد القوة والشاغل بعد النهضة ، والإخلاق بعد
الجدّة ، تشبيهاً بمن انتكس على رأسه فصار أعلاه سفلاً وأسفله علواً .

إنهم وهم في دار السعي والإختيار قد يردُّون إلى النكسة ، كيف وهم في دار الجزاء اللأ إختيار يَسُدُّون عنهم النكسة عن الصراط وهم في قبضة العلي القدير ! « أفلا يعقلون » عن ماضيهم لمستقبلهم ؟!

أترى كل من يعمَّر ينكس لأرذل العمر ، وقد عمَّر نوح (عليه السلام) ألفاً أو يزيد وهو رسول في كمال العقل والدراية ، وعمر المهدي القائم من آل محمد اثني عشر قرناً وإلى ما لا ندري وهو يظهر في صورة شاب بالاربعين ؟

إن هذا وذاك تعمير دون نكسة ورذالة ، يستثنى عن عموم التعمير ، ولا سيما للمهدي (عليه السلام) فانه خارقة إلهية في عمره وكل أمره صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام .

﴿ أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦٥) .

هل إنه الختم المطلق على أفواههم يوم الحساب ؟ و «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ : ٢٤) تشهد بشهادة ألسنتهم ! ولكنها شهادة دون إختيار كما الأيدي والأرجل ! ومن ثم ماذا نصنع بقولهم : «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا .. » (٤١ : ٢٠) ؟ .

القول الفصل هنا فصل القول ، أن ليس قائلهم بفتح أفواههم إلا بعد شهادات الأعضاء بختم أفواههم : «حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » (٤١ : ٢٢) ، فالله هو الذي يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل والسمع والأبصار والجلود

بعدهما يختم على أفواههم ، وشهادة كل بحسبه كما سُجلت أصواتاً في
الأسن والسمع ، وصوراً في سائر الأعضاء ، بما استنسخها الله: «هذا كتابنا
ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» (٤٥ : ٣٩) .

وترى لماذا الختم على أفواههم حين استشهاد أعضائهم ؟ لما قد
يتطلبون «إني لا أجيز عليّ إلاّ شاهداً مني»^(١) وما يكذبون^(٢) «يوم يبعثهم
الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألاّ إنهم
هم الكاذبون» (٥٨ : ١٨)

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٦٧ - اخرج احمد ومسلم والنسائي وابن ابي الدنيا في التوبة واللفظ
له وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن انس في قوله تعالى
« اليوم نختم .. » قال : كنا عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فضحك حتى بدت
نواجذه قال أتدرون مم ضحكت ؟ قلنا لا يا رسول الله قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يا
رب الم تجزني من الظلم فيقول بلى فيقول اني لا اجيز عليّ إلاّ شاهداً مني فيقول كفى
بنفسك عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانها إنطقي فتتطق
بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعد الكف وسحقاً فعنكن كنت أناضل .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٣٩١ ح ٧٥ - القمي عنه (عليه السلام) اذ جمع الله عز وجل الخلق
يوم القيامة دفع الى كل انسان كتابه فينظرون فيه فينكرون انهم عملوا من ذلك شيئاً
فتشهد عليهم الملائكة فيقولون رب ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من
ذلك شيئاً وهو قول الله « يوم يبعثهم الله .. » فاذا فعلوا ذلك ختم الله على السنتهم
وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون « أقول علّها » على أفواههم « حيث الأسن من شهود
الأعمال مهما كانت خارجة عن اختيارهم .

وفيه ح ٧٦ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل
يقول فيه .. فكذبهم الله فيما اتحلوه من الإيمان بقوله : انظر كيف كذبوا على انفسهم «
فيختم الله على افواههم ويستنطق الابدني والارجل والجلود فتشهد بكل معصية كانت منه
ثم يرفع عن السنتهم الختم فيقولون لجلودهم « لم شهدتم علينا .. » .

يختم على أفواههم سداً عن الكذب يوم الصدق وتسديداً للشهادة الصدق ، ثم تفتح فـ «قالوا لجلودهم . . .» قولة متحسرة متغيظة بعدما تمت الشهادة وغلب هنالك المبطلون ولات حين مناص إذ فات يوم خلاص !

فليست الأفواه كلها يومئذ مختومة ، ولا أفواه الكاذبين على أية حال ، بل في بعض الأحوال دون بعض لحكم قاضية ، وتكلم الألسن كسائر الشهادات المسجلة في الأعضاء ليس هنالك باختيار .

ثم ترى لماذا «تكلّمنا أيديهم» «وتشهد أرجلهم» وشهادة الجوارح دون اللسان والسمع هي الأعمال المستنسخة فيها على سواء، ثم الشهادة تعمها حتى المتكلمة منها في آية النور ؟

علّه لأن «أيديهم» تشمل سائر أعمال الجوارح بما فيها السمع والألسنة المتكلمة بما سمعت أو تكلمت، والأعين بما رأت، والأيدي بما مدّت ، وتكلم كل على حسبه ، ثم الأرجل تشهد بما مشّت أو تركت ولا كلام لها ! إذا فقد جمعت الآية بين الجوارح العاملة كلها ، تكلماً فيما يحويه ، وشهادة فيما لا يحويه !

أم ولأن الأفواه المختوم عليها أستبدل عنها بتكلم الأيدي ، شملت الألسن أم لم تشمل ، فإن كانوا لا يتكلمون بما عصوا ويكذبون ، فهذه أيديهم تتكلم بما كانوا يعملون ، دونما حاجة إلى كلامهم باختيار !

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) .

من حروب الدعاية التي شتوها على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معتمدين فيها على السق القرآني المنقطع النظير، قولتهم إن البشير النذير «شاعر نتربص به ريب المنون» (٥٢: ٢٠) «بل قالوا أضغاث أحلام

بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» (٢١ : ٥).

وما قولهم إنه شاعر إلا كقولهم هو ساحر، حيث الشعر يسخر العقول ويسحرها، ويأتي بالكذب المزخرف بأوزان ساحرة، فيُخَيَّل إلى الناس صدقه، أو يقضي على الصدق فيُظن كذبه، والشعر يفدي جمال المعنى وحقه لجمال اللفظ والوزن، ويفدي جمال الحقيقة بتجميل الوزن، عامداً مختاراً، أو مضطراً مختاراً.

ومجمل القول عن قول الشارع والشاعر، أن الشارع يُؤَصِّل المعنى على جمال اللفظ دونما نفاق فيها فأنهما في تعبيره العبير على حدٍّ سواء وحتى في الإعجاز، والشاعر يعاكسه بتأصيل الوزن والمعنى تبعاً، وأحياناً ليس له معنى صالح أو يهدم صرح الحقيقة.

ولقد كانوا على معرفة بما للشعر من زور وغرور على حبه الهيمان، فردفوه في عساكر التُّهم الزور ضد الرسالة القرآنية، ويرد عليهم القرآن بواقعه النثر وإن كان لا يشبه شعراً ولا نثراً، وبما ينفي عن رسوله :

« وما علمناه الشعر » وإذا لم نعلمه شعراً فما هو بشاعر، لأنه أتي لم يتعلم من غير الله شعراً وغير شعر، ولم يعلمه الله الشعر، فليس - إذاً - ليعلم شعراً لا إنشاداً له^(١) ولا نقلاً رسالياً أم ومطلق النقل.

أترى الجهل بشيء يعد في عداد مكارمه الرسالية، شعراً وغير شعر؟ أجل وفي العنم المشوب الذي يجهل ويريب الناس بالنسبة للرسالة الإلهية، وكما وأن تلاوة كتاب وخطه يمينه يريب المبطلين : « وما كنت تتلوا من قبله

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٩ - اخرج ابو داود والطبراني والبيهقي عن ابن عمر وسمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ما ابالي ما اتيت ان انا شربت نرياقاً او تعلقت نغمة او قلت الشعر من قبل نفسي، اقول وهذا لا ينافي عدم تعليمه مصنف الشعر حتى نقله وانما ذكر انشاده كاظهر مصاديقه .

من كتاب ولا تحطه يمينه اذا لارتاب المبطلون» (٢٩ : ٤٨) والشعر ينهج غير منهج النبوة فإنه انفعال يُستغل وهي فعل يُستغل ، هناك انفعال يتقلب من حال الى حال في مختلف الأحوال، وهنا منهج ثابت من الله لا يتبدل مع الأهواء المتجددة التي لا تثبت على حال، وهناك أشواق إنسانية واقعية أم متخيلة إلى ظاهر الجمال، وهنا حكم وأحكام إلهية مرسومة في كتاب التدوين تجاوب كتاب التكوين، فهما مختلفان من الأساس، لا نجد لكل في صاحبه اي مساس .

لذلك لم يُعهد عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نقل أي شعر عن أي شاعر إلا ليلاً^(١) فضلاً عن إنشاده في سته، وأحرى منها براعة يراعة قرآنه .

وأما إنشاء الشعر ونقله بين الأئمة المعصومين فقد ينبغي إذ ليسوا في موقف الرسالة، ثم وما كان لهم في الشعر مراس، وكانوا يستحسنون أحسنه دعاية للإيمان بعد دعوة السنة والقرآن، وقد مدح الله الشعراء الذين

(١) ولقد كان يقلب الشعر حين ينقله كما في الدر المنثور ٥ : ٣٦٩ - اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال بلغني انه قيل لعائشة هل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت : كان أبغض الحديث اليه غير انه كان يتمثل ببيت اخي بني قيس يجعل آخره اوله واوله آخره ويقول : « يأتيك من لم تزود بالاخبار فقال له ابو بكر ليس هكذا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي أقول، وأصل المصراع : ويأتيك بالاخبار من لم تزود، وفيه اخرج ابن سعد وابن أبي حاتم والربيعاني في معجم الشعراء عن الحسن ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتمثل بهذا البيت : كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً - فقال ابو بكر اضهد انك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما علمك الشعر وما ينبغي لك

اقول واصنه : كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهياً - وما العطفه تقديمه (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاسلام معنوياً ، ولفظياً حيث ما علم الشعر .

آمنوا وهم قلة، بعد ما ذم سواهم وهم كثرة: «والشعراء يتبعهم الغاؤون». ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

ولكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لو قال شعراً إنشاداً أو نقلاً، قرآنًا وغير قرآن، لدخل في أقواله تهمة الشعر التخيّل، ولم يكن الشعر ليُجَمَله أكثر مما هو فصاحةً وبلاغةً، ولكنها الشعر يزيد المعنى جلاءً في تخيّل، وهو نفاق وشرعة الله منه براء.

والقول : إن الشعر - هنا - يعني التخييلات المزخرفة موزونة وغير موزونة، فالحقائق الناصعة في أوزان ليست شعراً، والتخييلات في غير أوزان شعر، وإذا كانت في أوزان فهي شعر على شعر.

ذلك هنا مردود، بأن المفهوم من الشعر ما له وزن في تخيّل وسواه، وهو لجمال وزنه مظنة التهمة، والإستثناء في آية الشعراء بـ «إلا الذين آمنوا..» عن «الشعراء يتبعهم الغاؤون» وإضافةً إلى مثلث التعريف بالشعراء دليل واضح لا مرد له أنه ليس مجرد التخييلات.

فليس ينبغي للرسول علم ما يريب الناس في رسالته «وما ينبغي له» وليس الشعر ذكراً إلا نفاقاً وزوراً وغروراً، ولا مبيناً لهدى إذ ليس صراطه مستقيماً، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»: إن الرسول إلا ذكر. وإن علمه إلا ذكر، حيث «هو» يحتملها، والأحرى أدبياً هو الرسول.

اترى الرسول «قرآن مبين» إلى كونه ذكراً؟ أجل إنه ذكر بكله، وقرآن مبين بكله، وقد كان خلقه القرآن^(١) قلبه القرآن وقالبه القرآن، ظاهره قرآن

(١) يُسأل ابن عباس ما كان خلق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال : كان خلقه القرآن .

وباطنه قرآن، ومهما كان في القرآن التدوين متشابهات ومجملات تحتاج إلى بيان، فالرسول القرآن هو بنفسه مبین وبيان، فإنه قرآن متجسد مبین في كافة أحواله وأقواله.

إنه ذكر كما القرآن ذكر: «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» (٥٨: ٣) «قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولاً...» (١٠: ٦٥) صنوان من أصل واحد هو خاتمة رسالات السماء، وإنه مبین كما القرآن مبین: «أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبین» (١٨٤: ٧) «الر. تلك آيات الكتاب المبین» (١٢: ١).

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح لا روح إلا واني فهو قرآن كما القرآن قرآن، كما القرآن يُقرأ تدويناً وهو يقرأ كتاب حياته تكويناً، وهما متجاوبان كأنهما واحد حال أنهما اثنان، فقرآن محمد ومحمد القرآن آيتان بارعتان إلهيتان كأنهما آية واحدة، يستدل بالقرآن على رسالته ويستدل به على رسالة القرآن! وللرسول فضل على القرآن لأنه تفسيره بياناً وعملاً وتطبيقاً!

هذا التعبير عن الرسول وإن كان منقطع النظر، فإنه يبين كيان ذلك البشير النذير، دمجاً في القرآن كما القرآن مُدمج فيه، فأية فريفة على الرسول هي فريفة على القرآن كما العكس كذلك، فكونه شاعراً يعني أن القرآن شعر، وكونه شعراً يعني أن رسوله شاعر.

ثم «إن هو» الثاني: علم الرسول «إلا ذكر وقرآن مبین» يخص علمه بهما، فالقرآن المبین هو الأصل المتن المتين في علمه بالوحي، ثم السنة ذكرٌ يبين القرآن، ولو كان «هو» - فقط - القرآن لكان توصيفه بـ «قرآن مبین» توضيحاً للواضح لدى الكل، وأما كون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ببيان قرآن مبيناً إلى كونه ذكراً، فمجهول لدى الأكثرية

إذا ف «إن» الرسول وعلمه «إلا ذكر وقرآن مبين» حاملاً مثلثاً من
البيان : ذكر - قرآن! - مبين :

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠) .

مقابلة «من كان حياً» بـ «الكافرين» توحى بحياة الإيمان ، أترى أنه
واقع الإيمان وهو واقع بعد كمال الإنذار والتبشير ؟

قد تعني قبول الإيمان بأية مرتبة كان فهو من كان عاقلاً^(١) يستعمل
عقله في صالحه ، : «إن هو إلا ذكر للعاملين. لمن شاء منكم أن يستقيم»
(٨١ : ٢٨) .

فالسذ لا يعقل رغم عقله فلا يشاء أن يستقيم فهو ميت من
الكافرين ، لا يؤثر فيه الإنذار ، فقد تعني ما تعنيه «هدى للمتقين» و «إنما
تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم» .

ف «من كان حياً» يشمل من كان كافراً يتبع الذكر ويتقي إذا بقي ،
إذ كان كفره عن قصور أو تقصير جانبي وقد بقي فيه نور النجاة : «أو من
كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يحشي به في الناس كمن مثله في
الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون»
(٦ : ١٢٢) ف «من كان ميتاً» هنا تعني مطلق الموت الذي يشي إلى
حياة ، وفي الأنعام الموت المطلق الذي لا يشي إلى الحياة : «فلأنك لا
تسمع الموت ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين . وما أنت بهاد
العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (٣٠ :
٥٣) .

(١) المجمع روي ذلك عن علي (عليه السلام) .

«لينذر... ويحق القول»: كلمة العذاب «على الكافرين» الذين «سواء عليهم» أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» ولكن إذا لم تنذرهم لم يحق القول عليهم، حيث تبقى لهم حجة أننا ما أنذرنا حتى نهتدي: «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».

أترى «لينذر» هو الرسول؟ فقد انقطع إنذاره بعد انقطاعه! أم هو القرآن؟ ومحور الكلام كان هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنذار القرآن لا يتم إلا بالرسول! المنذر هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقرآن والقرآن بالرسول، وإذا انقطع الرسول عن الأمة فلا تنقطع سنته عنهم، والقرآن هو محور الإنذار، بالرسول ما دام فيهم، وبسته وخلفائه بعده، وبالعلماء بعدهم: «فإنما يرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا» (١٩: ٩٧) «لتنذر به وذكرى للمؤمنين» (٧: ٢) «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولنذر أم القري ومن حولها...» (٦: ٩٢) «وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» (٦: ١٩) «قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الدعاء إذا ما ينذرون» (٢١: ٤٥).

ثم «ومن كان حيا» دون الأحياء قد تعني الجمع بين من يؤثر فيهم الإنذار أجمع، فـ «الأحياء» بالفعل هم المؤمنون بالفعل، والأحياء شأناً هم الكافرون بالفعل من مشركين وكتابين آمن هم؟، و«كان» تشملهم أجمع^(١) ثم لا يبقى إلا من ليس في حياته حياة العقل والقبول، ليرجى به

(١) نور الثقلين ٤: ٣٩٣ ح ٨٠ في اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: وقال الله عز وجل «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» فالحي المؤمن الذي يخرج طيبته من طينة كافر والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن والميت الكافر وذلك قوله «أو من كان

إيمانه بالقرآن ، الغافل الذي لا يستيقظ إذا أوقظ ولا يتعظ إذا وعظ فهو ميتٌ مطلق لا ترجى حياته .

إذاً فسابق الحياة السابغة شرط أصيل لتقبل الإنذار بالقرآن ، ومهما كان القرآن حجة بالغة على كافة العقلاء ولكنه ليس ليؤثر إلا فيمن له قابلية القبول ، وهو من له بقية من حياة العقل والتحري عن الحق ، دون من ليس يستعمل عقله : «لم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » (٧ : ١٧٩) .
فهؤلاء الذين هم في الكفر المطلق ، مسدودين عن مطلق النور ، فلا مدخل لنور الهدى إلى قلوبهم ، هم في موت مطلق لا حياة عنه .

والمكلفون أمام إنذار القرآن أضلاع ثلاثة ، فضلع متضلع بالإيمان ، فهو يكمل إنذاره ، وهو من أحي الأحياء ، وضلع ضليع عن الإيمان ميت عن كيانه كإنسان ، فهو الميت المطلق الذي ليس له نصيب من الحياة : «إنك لا تسمع المتوق وما أنت بسمع من في القبور » (٣٥ : ٢٢)
فـ «سواء عليهم ءأندرتهم لم تنذرهم لا يؤمنون » وضلع عوان هوفي مطلق الكفر غير المستقصي كيانه ولا المستعصي عن إيمانه ، فهو ضال قاصر يتحرى عن الهدى ، أم - لاقل تقدير - لا يفر عنها مبتغياً سبيل الردى ، فهو ميت حي ، فإن مآله إلى الحياة المطلق وهو الآن في مطلق الحياة ،

فيشمله «من كان حياً » كما يشمل المتضلع في الإيمان ، فإنذار القرآن يعم كل من فيه تجاوب قليلاً أو كثيراً ، بحياة عقلية قليلة أو كثيرة ! فحياة

ميتاً فاحييناه « فكان موته اختلاط طبيئته مع طينة الكافر وكان حياته حين فرق الله عز وجل بينها بكلمته كذلك يخرج الله عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله الى النور وذلك قوله عز وجل « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » .

الفطرة والعقل هما الطرفان الظريفان الطريفان لقبول الإيمان ، دون الفطرة المحجوبة والعقل المكسوف بطوع الهدى ، الذين يعيشون كفرأ مطلقاً قاصداً معانداً فـ «ويحق القول على الكافرين»!

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ^(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَكُلُونَ^(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ^(٧٣)﴾ .

ترى ما هو موقف الواو في «أولم يروا» ولا معطوف عليه مذكوراً قبله ؟ إنها سائر الآيات آفاقية وأنفسية ، مشهودة لهم مرئية ، لا غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة غير مفهومة ، فإذا لم يروها ، ألا مساس لهم بها حتى يفكروا فيها ، أم رأوها ولم يعتبروا بها ، «أولم يروا» ما ينتفعون بها في حياتهم الحيوانية «أنا خلقنا» بجمعية الصفات حيث هناك جمعية الواجهات في نعمات «لهم» في اختصاص فانتفاع «مما عملت أيدينا» من ماء وتراب أمّاذا من مخلوقات حيث عملتها أيدينا ، فدرات حسب مختلف النعمات «خلقنا لهم» . أنعاماً : جمع النعم وهي الدابة المحلل أكلها ثمانية أزواج : «... وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . . .» (٣٩ : ٦) ومع أنها من خلق الله وملكه حقاً «فهم لها مالكون» ملكاً مجازياً مستخلفون فيه ، وهذه من آيات الملكية الخاصة وطبعاً بشرائطها العادلة ، منحة ربانية وهبة إلهية مما عملته الأيدي الربانية ، فأصبحت أيادي لهم مملوكة ، هم مستخلفون فيها ابتلاءً . والتفريعة في «فهم» تفريعة لرحمة الله ، وتفريعة عليهم كيف هم يكفرون بنعمة الله «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها» .

ثم وليس مجرد ملكهم إياها ، حيث المستعصي على مالكه نقمة بدل كونه نعمة ، ولكننا «وذللناها لهم» ذلاً دون شماس ، وذلاً بكل احتراس «فمنها ركوبهم» : «ومن الأنعام حمرلة وفرشاً» (٦ : ١٤٢) «ومنها

يأكلون » : « الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون »
(٤٠ : ٧٩) « ولهم فيها منافع » أخرى ككونها حمولة وفوائد من
جلودها « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم
إقامتكم » (١٦ : ٨٠) أماذا ؟ « ومشارب » جمع مشرب مصدراً ميمياً وإسم
زمان ومكان ، شرباً من ألبانها ، وزمانه ومكانه ، ومن الأخير جلودها التي
تعمل قرباً للمياه شرباً ومآرب أخرى ، وكل هذه وتلك لعلكم تنتفعون
وتشكرون « أفلا تشكرون ؟ »

إنهم لا يقدرّون على شيء من هذه وتلك ، فلا يملكون أن يخلقوا ذباباً
ولو اجتمعوا له ، وما يملكون أن يذلّلوا ذباباً ولو اجتمعوا لها إلا أن
يقتلوها ، ورغم ما يعترفون أن ذلك كله من تقدير العزيز الرحيم لا
يشكرون :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (٧٤) .

إنهم رغم كل هذه النصرة والرحمة الإلهية « واتخذوا من دونه آلهة » :
أصناماً واوثاناً وطواغيت « لعلهم ينصرون » من قبلهم رغم أن هؤلاء
الآلهة ! :

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ (٧٥) .

هؤلاء الآلهة أيّاً كانوا « لا يستطيعون نصرهم » على أية حال إن كان
الله يريد أن يخذلهم « وهم » الآلهة « لهم » العبد « جند محضرون » لديهم
حيث يعيشونها في بيوتهم ويعبدونها ، وهم الذين أحضروهم لديهم لينصروهم
وهم لهم عابدون ، فكيف إذا غابوا عنهم ؟ .

بل « وهم » العبد « لهم » الآلهة « جند محضرون » كأنهم أحضروهم^(١)

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٩٤ ح ٨٢ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه

ليدافعوا عنهم الأخطار الموجهة إليهم ، فإذا غابوا فهم في خطر كما آلهة
مغرود لما غاب عنهم بشعبه ، اغتنم إبراهيم تلك الفرصة وجعلهم جذاذاً
إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون .

ومن ثم «وهم لهم» لعبدتهم «جند محضرون» يوم القيامة ، كما أنهم
لأهنتهم يومئذ جند محضرون^(١) وماذا يفيد جند لا يستطيعون نصرهم لا في
الحياة الدنيا ولا في الآخرة ١٩ : «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت
الجنة أنهم لمحضرون» (٣٧ : ١٥٨) فيا يؤساً لآلهة تحضر يوم الحساب
للحساب كما يحضر عابدها !

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦)

وإذا «لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون» «فلا يحزنك
قولهم» في نكران المبدء والمعاد والرسالة ، فد «إنا نعلم ما يسرون» ضد
هذه الرسالة «وما يعلنون» أمامها ، فلا عليك منهم شيء فيه وأمرهم
مكتشف بظاهره وخافيه على الحكيم الخبير القدير ، وقد هان أمرهم وما
عاد لهم من خطر عليك «فلا يحزنك قولهم» . . .

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧).

السلام) في الآية يقول : لا تستطيع الآلهة نصرهم وهم للآلهة جند محضرون، وفي الدر
المشور ٥ : ٢٦٩ - اخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية
قال : محضرون لأهنتهم التي يعبدون يدفعون عنهم ويمنعونهم .

(١) الدر المشور ٥ : ٢٦٩ واخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : هم لهم جند
في الدنيا وهم محضرون في النار، وعن قتادة : لا يستطيعون نصرهم قال : نصر الآلهة ولا
تستطيع الآلهة نصرهم وهم لهم جند محضرون قال : المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا
وهي لا تسوق اليهم خيراً ولا تدفع عنهم سوءاً إنما هي اصنام .

ألم يروا من آيات إمكانية المعاد وضرورته -الآفاقية- ، فإن كانت منفصلة من ذوات أنفسهم «أولم ير . . . » آية أنفسية حسية يراها كل راءٍ «أنا خلقناه» الإنسان «من نقطة» لم تكن شيئاً مذكوراً «فإذا» بعدما يكبر ويعقل «هو خصيم» : كثير المخاصمة في حق المعاد وهو أهون من خلقه أول مرة ، وهو «مبين» في خصومة متعنت :

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨).

ينسى خلقه أول مرة من نقطة ، ثم يستنكر حائراً مائراً خلقه ثاني مرة من ترابه وهو أهون عليه ، يضرب على ذلك مثلاً ملموساً من عظم نخير يفركه^(١) ثم يقول قوله : «من يحيي العظام وهي رميم ؟» وأحسن بجوابه الحاضر حيث يصدقه كل مصدق بالخالق : «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» مهما اختلف خلقه في المرتين ، وهو في الثانية أهون «وهو بكل خلق» كالأول أو أصعب «عليهم» فضلاً عن الأهون إلى

وإنها براهين قاطعة قاصعة لا فواق لها لأي خصيم حول المعاد، فلتن كان

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٩٥ - ٨٨ في الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليه السلام) ان يهودياً من يهود الشام واجبارهم قال لامير المؤمنين (عليه السلام) فان ابراهيم (عليه السلام) قد بهت الذي كفر ببرهان علي نبوته ؟ قال له علي (عليه السلام) : لقد كان كذلك ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اتاه مكذب بالبعث بعد الموت وهو ابي بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركه ثم قال يا محمد «من يحيي العظام وهي رميم» فأطلق الله محمداً بحكم آياته وبهت ببرهان نبوته فقال : «يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم» فانصرف مبهوراً وفي الدر المنثور ٥ : ٢٦٩ عن ابن عباس ان ضارب هذا المثل العاص بن وائل، وعنه ايضاً انه عبد الله بن ابي، وثالث عنه انه ابي بن خلف، ورابع عنه انه ابو جهل .

السؤال حول اصل الاحياء ، استأصله «الذي خلقها أول مرة» وإن كان حول : من يجمع ذرات العظام وسائر البدن المتفرقة هنا وهناك ، عباد نفس الجواب «الذي خلقها أول مرة» حيث النطفة مجموعة من متفرقات عن مواد شتى ، فانها امشاج «إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج ..» (٧٦ : ٢) .

وقد يعني ضرب العظام مثلاً وهي رميم ، الأجزاء الأبعد عن الحياة في بعدي بعدها عن الحياة أولاً، ورمتها أخيراً، ولكن «نسي خلقه» أولاً أن أجزاء النطفة كانت أرم من الرميم وأبعد من ذلك البعيد «وهو بكل خلق عليم» حيث الخلق في مراتبه أمثال في كونه خارقة إلهية ، فلا تختلف صوره في قدرته تعالى حتى إذا كانت هيئة وأهون وصعبة وأصعب بالنسبة للقدرات المحدودة، فانها سواء بجانب القدرة اللامتناهية الإلهية ، فلا صعب عنده وأصعب ولا هين وأهون، فالكل لديه هين ، فد «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»!

هنا مراتب ثلاث من الخلق كل لاحق أهون من سابقه وثالثها إعادة يوم المعاد ، وقبلها الخلق من نطفة يوم الدنيا ، وأولها خلق المادة الأولية لا من شيء و«إن الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه» كما في حوار الامام الصادق (عليه السلام)^(١) أجل و : (خلقها قبل أن تكون أعجب من إحيائها وقد

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٩٤ - ٨٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي في احتجاج ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال السائل : افيتلاشى الروح بعد خروجه عن قلبه ام هو باق . قال : بل هو باق الى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الاشياء وتغنى فلا حس ولا محسوس ثم اعيدت الاشياء . كما بدأها مدبرها وذلك اربعمائة سنة يسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين ، قال : وأنى له بالبعث والبدن قد بلى والأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة يأكله سباعها وعضو بأخرى تمزقه هوامها وعضو قد صار تراباً بيني به مع

كانت (١).

فإعادة خلق الإنسان مثله أهون الخلق على الإطلاق ، فقبله بدءه وأكبر منه خلق السماوات والأرض وقبل الثلاثة خلق المادة الأولية لا من شيء ، وهم يرتابون في ذلك الخلق الأهون ، وهو في ميزان العدل والفضل أهم ! وترى أن مجموعة عظام الإنسان تحيي يوم المعاد ، لمكان «من يحيى العظام» الظاهرة في كل العظام ، وكذلك : «يحيها» حيث المرجع هو العظام نفسها ؟ وقسم عظيم من اجزاء العظام كما من سائر الأجزاء هو اجزاء أصلية او فرعية لآخرين ، فقد لا تبقى لأناس عظام وسواها حتى تُحْيى ، في حين ان عظام آخرين تُحْيى ، ترجيحاً او ترجُحاً دون مرجع ، وحرماناً لمن رُجِّح عليه !

ثم الضرورة القاضية لجسمانية المعاد عقلية ، هي وصول الثواب والعقاب إلى الأرواح بواسطة أجسادها العاملة لصالحة الأعمال وطاقتها ،

مركز تحقيق تكبير يوم الدين

الطريق في حائط ؟ قال (عليه السلام) : ان الذي . . قال اوضح لي ذلك قال : ان الروح مقيمة في مكانها ، ارواح المحسنين في ضياء وفسحة وروح المسيء في ضيق وظلمة والبدن يصير تراباً كما منه خلق وما تقذف به السباع والهوام من اجوافها فما اكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الارض ويعلم عدد الاشياء ووزنها ، وان تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب فاذا كان حين البعث مطرت الارض مطر النشور فتربو الارض ثم يمحض محض السقا فيصير تراب كل قالب الى قالبه فينتقل باذن الله تعالى القادر الى حيث الروح فتعود الصور باذن المصور كهيئتها وتلج الروح فيها فلماذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً .

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٧ - اخرج ابن ابي حاتم عن عكرمة قال جاء ابي بن خلف الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي يده عظم حائل فقال يا محمد اني يحيى الله هذا فأتزل الله « وضرب لنا مثلاً . . » فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : خلقها . . .

كما هما واصلان إلى الأرواح ، فإن أعمال الأرواح بين ما هي تعملها دون وسيط الأعضاء ، وما هي عاملة بوسيط الأعضاء ، فالجزاء العدل الوفاق وصول كل من صالح وصالح إلى الروح بوسيط وغير وسيط ، وتكفي الأجزاء الأصلية التي يعيشها الإنسان منذ هو جنين إلى الموت ، تكفي هذه - فقط - لتكون وسيطة لوصول الجزاء إلى الروح !

والجواب أن «من يحيي العظام» استعجاب واستعظام لأصل إحياء العظام ، دون نظرة واتجاه إلى كمية منها أم وكيفية لها ، ولم يكن السائل المتعنت من الفلاسفة حتى يفهم فيعي أو يعني كمية في ذلك الإحياء في حين أنه ناكراً أصل الإحياء ، ثم «يحيها» إجابة عن الشبهة في أصل الإحياء ، سواء أكان إحياء لكل العظام أم بعضها ، فلا تطارد الأدلة العقلية والنقلية الدالة على اختصاص الإحياء ببعض الأجزاء .

وعَلَّ منها «الذي أنشأها أول مرة» والاولية الحقيقية لإنشاء العظام هي لإنشاء النطفة الجرثومية ، فإنها صورة مصغرة عن الجنين ، كما هو مصغرة عن الوليد الجديد وإلى أعظم عظمها طوال عمره .

فالإنشاء الأول في ملاحظة دقيقة يخص النطفة الجرثومية ، وفي لحاظ أوسع وأعرف هو بداية نشوء العظام حين انشأت من المضة : «فخلقنا المضة عظاما» (٢٣ : ١٤) ومضة كل إنسان قياساً إلى مجموعة أجزائه الأصلية والدخيلة منذ عظامه إلى موته ، علَّها واحدة بالملايين من أجزائه التي يعيشها طول حياته و«كما بدأكم تعودون» (٧ : ٢٩) قد تعني النطفة الجرثومية ، أم تعني عظام المضة بلحومها الكاسية لها ، فالمعادة من أجزاء الإنسان على أية حال ليست إلا الأجزاء التي يعيشها الإنسان دون تبدل وانفلات ، مهما انضمت بعد الموت إلى أناسي آخرين ، فإنها تصبح من أجزائهم الدخيلة دون الأصلية ، فلكل - إذاً - أجزاء أصلية تخصه ، ويعاد فيها ليجزى بها

جزاءه الأوفى ، والأجزاء الدخيلة هي بين أصيلة لآخرين فلاآخرين ، أم دخيلة على أية حال فلا تعاد لا مع الأولين ولا الآخرين .

ولأن دار الجزاء هي دار البقاء، فلتكن الأجزاء قابلة لذلك البقاء، كما هي قابلة للجزاء. والقول إن الخليّات كلها تتبدل سنين بعد سنين فلا أجزاء أصيلة منها دون تبدل كما أثبتته علم الفيزيولوجيا الإنساني! انه تحرّص بالغيب مبني على ما يُرى من تبدّلات، ولكنها لا تستقصي كلّ الأجزاء، فكما الروح لكل إنسان هو روحه مدى حياته، كذلك أجزاءه الأصيلة هي أجزاءه مدى حياته، وهي التي يحشر بها، ففي الحياة الدنيا هي باقية لكل إنسان حيث يعمل-كل ما يعمل-بها، ثم بعد الموت هي في قبضة ملك الموت مهما انتشرت وانتقلت إلى اشخاص آخرين، إذ لا تصبغ من أجزائهم الأصيلة، ولكل إنسان نصيب يخصه من أجزاء هي المعاد في المعاد بأمثال الصور التي ماتت عنها.

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

وليس من الممكن استقصاء كافة الخليّات بتبدلاتها وتحولاتها فضلاً عن تفلّتها كلها في سنين يدّعونها ! وفصل القول حول كيفية المعاد وكمية المعاد يأتي في طيات آياتها الأخرى بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٨٠) .

فأين الشجر الأخضر اتسلي من الماء ؟ وأين النار المبخرة للماء. والماء المطفي للنار ؟ وقد جمعها الله في الشجر الأخضر : «فإذا أنتم منه توقدون» ! وليس حصول الحياة في الميت الذي كان حياً ثم مات بأبعد من شعلة النار المتخرجة من الماء وهما متضادان وهذان متلائمان والله «بكل خلق عليم» صعباً وأصعب وهيناً وأهون في كل ما دق وجن

وعَلَّ المقصود من هذا «الشجر الأخضر» شجر المرخ والعفلو ، تشتعلان باحتكاك أحدهما بالآخر أو بنفسه بعضه ببعض ، شجر أخضر رِيَّان بالماء يصبح ناراً ، ووقود نار مع اللدونة والإخضرار ، يا لها من عجيبة في الخلق وأعجب من إحياء الموتى ولا سيما في الخلق الثاني ، وأفعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد . بل هم بقاء ربهم كافرون !

وكما الشجر الأخضر يحوي ناراً ، فشجرة الإنسان الخضراء قد تحوي ناراً بما يعارض شرعة الله ، ثم الله يجعلها ناراً في الأخرى أم وقود نار «واولئك هم وقود النار» (٣ : ١٠) كما وقد تحوي نوراً بما تطبق شرعة الله .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٨١)

أليس الذي خلق المادة الأولى لا من شيء ثم بدأ خلقكم «أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر»؟ عطفاً على ألوان من الخلق أصعب عن الإعادة .

«أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فإبى الظالمون إلا كفوراً» (١٧ : ٩٩) «نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبذل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون» (٥٦ : ٦١)^(١) إنَّ خلق المثل هو الإعادة في المعاد ، حيث المعاد ليس عين البدن بصورته الأولى ، بل هو بصورة ثانية كالأولى ، وكما تعنيه آيات تبديل الأمثال أنه يبذل أجسادكم أمثالها في

(١) راجع تفسير الآية في ص ٨٧ - ٩٢ ج ٢٧ الفرقان .

الصورة مهما كانت من أعيانها في المادة ، وحدة عينية في أصل المادة البدنية ، وأخرى صورية مماثلة للأولى ، فلا يعني مثلهم أعيانهم أو أشباههم في الأولى اذ لم ينكروا خلقهم فيها ، ولا أعيانهم في الأخرى حيث المعاد فيها يختلف عن الأولى لأقل تقدير^(١) في عين الصورة، فليس إلا مثلها ، أن تعاد الأجزاء الأصلية لكل إنسان في مثل صورته التي ماتت عنها والروح هو الروح ، فالشيء الثاني قد يكون ضد الأول فليس - إذا - إعادة للأول ، أم مثله في الصورة أو المادة أم فيها كلاً أو بعضاً، فهو إعادة للأول صورة أم مادة أم فيهما ، وأما أن يكون عينه ؟ فلا ! حيث العين لا يتعدد ، إذ التعدد بحاجة ضرورية إلى مئزة ما بينهما ولا مئزة بين الشيء وعينه ، بل لا بين هنا حتى نفقش عن الميزات .

فـ «إعادة المعلوم مما امتنع» -كقاعدة فلسفية قطعية- لا تشمل المعاد حسب القرآن ، حيث المعاد في المعاد إنما هو إعادة الروح في المادة الأصلية البدنية بمثل الصورة التي مات عنها ، فلا يُعاد الروح بعينه لأنه لا يموت حتى يحيى مرة أخرى إلا عن غشوة تعتريه في النفخة الأولى ، ولا تُعاد الأجزاء الأصلية إذ لم تنعدم ، ولا تُعاد عين الصورة التي زالت ، وإنما يعاد الروح إلى الأجزاء الأصلية بعد فراقها ، ويُخلق مثل الصورة الأولى ، ومحط الأجزاء الوفاق في الأصل هو الروح ، والروح هو الروح نفسه . وفي الفرع هي الأجزاء الأصلية التي بها يعاقب الروح ويشاب والأجزاء هي الأجزاء ، ثم لأجزاء للصورة حتى يقال إنها فاتت ، والمخلوقة ثانية ليست هي هيه ، وإنما مثلها ، والأجزاء العدل هو الوارد على عين الكائن العامل

(١) وفي تقدير آخر في كمية المادة كما فصلناه في الواقعة .

دون مثله ! والأجزاء هي عين الأجزاء ، والصورة المماثلة للأولى ليست بحطة الجزء ! .

فالخلق العليم الذي خلق السماوات والأرض أقدر على خلق أمثال الناس وهو الخلق الثاني الذي ينكره الناكرون «خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٤٠ : ٥٧) «أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى (٣٣ :) فـ إذا كان خلق السماوات والأرض أبعد في أوهامكم وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي فكيف جوزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم والأصعب لديكم ولم تجوزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي »^(١) وخلق أمثالكم في المعاد أهون من الخلق الأول ، كما الخلق الأول أهون من خلق السماوات والأرض ! وخلقها أهون من خلق المادة الأولية .

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) .

.. الأمر هنا بين فعل وإيجاب وهما منه واحد ، فليس هنا شيء لمكان «إذا أراد شيئاً» فإنما فعله وإيجابه التكويني إذا أراد شيئاً أن يقول لذلك الشيء كن فيكون دونما فصل أو تمنع أو مانع .

فليس أمره إذا أراد شيئاً كأمر المخلوقين أن يحول بين إرادته ومراده أمر آخر يمنع ، أو يكلف تحقيق مراده سوى إرادته أمر آخر أو أمر آخر ، فـ «إنما أمره إذا أراد شيئاً» أيّاً كان وأيتان من صغير وكبير ، من بدء وإعادة «أن يقول له كن فيكون» وقوله فعله ، تلميحاً لطيفة بنفاذ أمره دونما نظرة أمر

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٩٦ ح ٩١ الاحتجاج عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري (عليه السلام) في حديث تفصيل الجدل .

آخر أو أمر آخر ، أو تصرّم الزمان إلا أن يشاء هو التأجيل كما خلق السماوات والأرض في ستة أيام .

« يقول لما أراد كونه : كن- فيكون ، لا بصوت يقرع ولا نداء يُسمع ، وإنما كلامه سبحانه فعلٌ منه وإنشاء ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً^(١) » «فإرادة الله الفعل بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له ،^(٢) .

ف « أمره » هنا فعله كما قوله ، و« أراد » هي الإرادة القاطعة بعد العلم والمشية ، و« شيئاً » يعم كلماً لا يستحيل ذاتياً أو في الحكمة ، إرادة لتكوينه لا من شيء كالمادة الأولية التي خُلِقَتْ لا من شيء ، أم لتكوينه من شيء خَلَقَهُ قبله تبديلاً له أيتاً كان ، ومنه الإحياء بعد الإماتة ، وإطلاق الشيء على الأول باعتبار الأول دون أية فعلية إلا إمكان إيجاده لا من شيء ، ومن ثم الشيء الكائن حيث تبدل إلى غير شيء في صورته ، ثم تبديله حياً بعد موته ، وقد أطلق على المواد الأولية لفظة الحروف حيث تعني حروف التكوين كما في حوار الإمام الرضا (عليه السلام) مع عمران^(٣) .

(١) المصدر عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٢) فيه ح ٩٨ عن اصول الكافي باسناده عن صفوان بن يحيى قال قلت لابي الحسن (عليه السلام) اخبرني عن الارادة من الله ومن الخلق قال فقال : الارادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل واما من الله فارادته احداثه لا غير ذلك لانه لا يروى ولا يحس ولا يتفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق فارادة الله . . .

(٣) نور الثقلين ٤ : ٣٩٧ ح ٩٩ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع اهل الاديان والمقالات في التوحيد كلام للرضا (عليه السلام) مع عمران يقول فيه : واعلم ان الإبداع والمشية والارادة واحدة واسماؤها ثلاثة وكان اول ابداعه وارادته ومشيته الحروف التي جعلها أصلاً لكل شيء ودليلاً على كل مدرك وفاصلاً لكل مشكل وتلك

وَفَسَبْحَانَ الَّذِي يَدِينُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣ .

هنا مُلْكٌ سريع الزوال ، وهناك مُلْكٌ أبداً في الزوال لأنه أقوى مُلكاً ، وشيءٌ منها ليس مطلقاً لا يُغلب صاحبه ، فقد يُغلب وقد يُغلب .

الحروف تعرف كل شيء من اسم حق وباطل أو فعل أو مفعول أو معنى أو غير معنى وعليها اجتمعت الأمور كلها ولم يجعل للحروف في ابداعها لها معنى غير انفسها يتناهى ولا وجود لها لانها مبدعة بالابداع والنور في هذا أول فعل الله الذي هو نور السماوات والارض والحروف هي المفعول بذلك الفعل وهي الحروف التي عليها الكلام والعبارات كلها من الله عز وجل علّمها خلقه وهي ثلاثة وثلاثون حرفاً فمنها ثمانية وعشرون حرفاً تدل على لغات العربية ومن الثمانية والعشرين اثنان وعشرون حرفاً تدل على لغات السريانية والعبرانية ومنها خمسة احرف متحرفة في سائر اللغات من العجم الأقاليم اللغات كلها وهي خمسة احرف تحرفت من الثمانية والعشرين حرفاً من اللغات فصارت الحروف ثلاثة وثلاثين حرفاً، وأما الخمسة المختلفة فتجسس لا يجوز ذكرها أكثر مما ذكرناه ، ثم جعل الحروف بعد إحصائها واحكام عدتها فعلاً منه كقوله عز وجل : « كن فيكون » وكن منه صنع وما يكون به المصنوع فالخلق الأول من الله عز وجل الإبداع ولا وزن له ولا حركة لا سمع ولا لون ولا حس والخلق الثاني حروف لا وزن لها ولا لون وهي مسموعة موصوفة غير منظور اليها والخلق الثالث ما كان من الانواع كلها محسوساً ملموساً ذا ذوق منظوراً اليه والله تبارك وتعالى سابق بالابداع لانه ليس قبله عز وجل ولا كان معه شيء والإبداع سابق للمحروف والحروف لا تدل على غير نفسها ، قال المأمون : كيف لا تدل على غير نفسها ؟ قال الرضا (عليه السلام) لان الله تبارك وتعالى لا يجمع منها شيئاً بغير معنى أبداً فاذا ألف منها أحرفاً أربعة أو خمسة أو ستة أو أكثر من ذلك أو أقل لم يؤلفها لغير معنى ، ولم يك الالمعنى محدث لم يكن قبل ذلك شيئاً ، قال عمران : فكيف لنا بمعرفة ذلك ؟ قال الرضا (عليه السلام) اما المعرفة فوجه ذلك وبيانه انك تذكر الحروف اذا لم ترد بها غير نفسها ذكرتها فرداً فقلت : ا ب ت ث ج ح خ حتى تأتي على آخرها فلم تجد لها غير انفسها واذا ألغت وجمعت منها وجعلتها اسماً وصفة لمعنى ما طلبت ووجه ما عنت كانت دليلاً على معانيها داعية الى الموصوف بها ، افهمت ؟ قال : نعم .

ثم وهنالك ملكوت هي حقيقة الشيء وما به الشيء شيء ، فمن بيده الملك قد لا يملك ، ومن بيده الملك قد يضعف أو يزول ملكه ، ولكن الذي بيده الملكوت فبيده ناصية كل شيء إيجاداً وإعداماً وما بينهما تحويراً وتغييراً ، لا مُنعة عن إرادته فيه ولا مهلة بعدها له !

وعَلَّ الملكوت هي حقيقة الملك والملك مبالغة فيهما حقهما ، فليست إذاً إلا لله ، لا يشاركه فيها سواه اللهم إلا علماً إذا علم الله .

فهنا ملكوت يجوز النظر إليها وقد أمرنا به : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء . . » (١٨٥:٧) وهذه ملكوت تُعرف بالنظر وهي افتقار الكائنات ذاتياً إلى من سواها .

وهناك ملكوت يريها الله من يشاء : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » (٥:٦) وعلَّها إراءة لافتقار أعمق مما يحصل بالنظر ، وقطعاً ليست هي العلم المحيط بذوات الكائنات فإنه يساوق القدرة الخلاقة لها « وهل من خالق غير الله ؟ »

وهنالك ملكوت هي - فقط - بيده تعالى علماً وقدرة : « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه » (٨٨:٣٣) ؟ « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء » عن أن يعنى بخلق أمثالنا أو يتخذ في شيء لنفسه شريكاً « وإليه ترجعون » كحتمية تقضيها العدالة والحكمة الإلهية !

وإنها ايقاعة ختامية قاسحة لهذه الجولة الهائلة في السورة كلها ، تضم الأصول الثلاثة بإجمال لطيف !

(۳۷) سُوْرَةُ الضَّحٰى فَانِ مَكِيَّةٌ
وَاَنْشَأْنَاهَا بَيْنَانٍ وَتَمَّانُونَ وَمَا يَنْتَه

مرکز تحقیق کتب و پیر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ
ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
مَارِدٍ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ
خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ فَاسْتَفْتِهِمْ
أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ⑪ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ
لَازِبٍ ⑫

« والصافات صفاً فالزاجرات زجراً^٢ فالتاليات ذكرأ^(٣) ».

أدلة ثلاثة متتاليات ، متفرعة على بعض ، صافات فزاجرات فتاليات ، تأتي مثبتة لتوحيد الله بصورة القسم وسيرة البرهان، توحداً لهذا المثلث فيما يصف ويزجر ويتلو .

أترى « الصافات » هي - فقط - الملائكة : « وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون » (٣٧ : ١٦٦) ؟ والملائكة ليسوا أناثاً وإن كانوا هم من الصافين ! أم هم النبيون ؟ فكذلك الأمر وأحرى إلّا يُصاغوا في صيغة الأنث^(١) ! أم إنها هي الطاقات الصافات ملائكية وبشرية أمّا هي ، جنود ربانية مصطفة في أماكنها السماوية والأرضية : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ولو أن في الكون آلهة متشاكسة لأصبحت مثلث الصافات في رسالاتهم التكوينية والشرعية، متناحرة متشاكسة : « لو كان فيها آلهة إلّا الله لفسدتا » فتتأسق الصافات ووحدتها في اتجاهاتها برهان لا مرد له على وحدة الموجه : « إن إلهم لواحد ».

فملائكة الله طاقات صافات في صفوف متراصة على صنوفها المختلفة ، ناظرين أمره سبحانه ومنه تنزيل الوحي ، ورسّل الله صافات أخرى على درجاتهم لتلقّي الوحي ثم إلقاءه على المرسل اليهم ، دوغما تخلف قيد شعرة ، والطاقات الكونية كلها صافات صاغية لأمر الله في تدبير الكون مهما كانت وسائط مسيرة أمّا هي ؟ فـ « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر ينقلب إليك

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٠ - ٤ - القمي في الآية قال : الملائكة والانبياء (عليهم السلام)

البصر خاسئاً وهو حسير « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين .. » (٦٧ : ٥)

و « صفاً » في تنكير التعظيم يعظم موقف صفيها جنوداً متراصة دوئماً فشل ولا فتور .

« فالزاجرات » هي الطاقات التي تزجر وتمنع عما زجر الله من هؤلاء الثلاث في شرعة وتكوين ، وهل هي الصفات نفسها في صفة ثانية زاجرة ، ومن ثم التاليات ؟ كأنها هي ! فالصفات هي الطاقات المتحضرة لتطبيق أوامر الله ، وتختصر أعمالها وتختصر في سلب : « فالزاجرات » ثم إيجاب « فالتاليات » . وإنها تمثل كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » في بُعدي ، « زاجرات وتاليات » نفي ثم إثبات ، وفي : أنها لا تختلف فيما تُحْمَل ، ولا تتخلف عما يُؤْمَل ، صفات زاجرات تاليات في وحدة صفوف وتوحيد صفوف منها اختلفت صنوف الصفوف .

« فالزاجرات زجراً » تزجر الشياطين عن تدخلاتهم في وحي الله وسائر فعله الصارم ملائكية ، وتزجر الدعايات المضللة عن فاعليها ، بشرية رسالية وما تلاها ، وتزجر التهرجات الكونية عن إفسادات لا قبل لها إلا من الله .

« فالتاليات ذكراً » ملائكة على الرسل ، ورسلاً على المرسل إليهم ، وآيات آفاقية وأنفسية تتلوا ذكر الله لمن أبصر بها فبصرته ، ولمن أعرض عنها فأعمته .

وهذه الثلاث في كل من الزاجرات والتاليات متوافقات متتاليات تعضد بعضها بعضاً ، فكتاب التكوين والتشريع هما من كاتب واحد « فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ » :

« إن إلهكم لواحد^(٤) » رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق^(٥) .

ومع الصافات الزاجرات التاليات، فالسماوات والأرض تشهدان بما بينهما والمشارق « إن إلهكم لواحد »

هنالك للكواكب الناجمة السيارة مشارق ، كما لها مغارب ، فللشمس وحدها مشارق عدد أيام السنة ، وفي حساب أدق^(١) عدد الآفاق التي تشرق عليها وتغرب منها ، فالأرض في دورتها حول الشمس تتوالى المشارق كما المغارب- على بقاعها المختلفة ، وعلى هنا « رب المشارق » فقط دون والمغارب كما في غيرها : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون » (٧٠ : ٤٠) علماً لمناسبة المشبه به وهو شروق الوحي من شمس الهداية الإلهية ، بل والكواكب هي مقاذف إلى من يحطف منه الخطفة في الملا الأعلى :

مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

« إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ^(٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ^(٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ^(٩) إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةُ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثاقِبٌ !^(١٠) » .

آيات خمس حول النيازك النارية ، هي في الملك واحدة^(١١) وفي كل

(١) بهذا الحساب في كل ثانية ام آن مشرق ومغرب ، ففي اربع وعشرين ساعة حسب الثواني للشمس فقط / ٥١٨٤٠ مشرقاً ومغرباً ففي السنة ١٨٦٩١٥٦٦٠٠ مشرقاً ومغرباً .

(٢) « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين . . »^(٥) راجع ج ٢٩ ص ٢١ الفرقان ففيه تفصيل من رجوم النجوم

من الجن^(١) والحجر ثلاث^(٢) اثنتا عشرة آية في سائر القرآن تتحدث عن الشهب الثاقبة والنيازك النارية المقدوفة من مدفوعات الكواكب بالحرس الشديد ، وآيات الجن تختص بالحرس الشديد والشهب منذ الوحي الأخير ، والأخرى تعم تأريخ الرسالات وما قبلها منذ خلقت الكواكب .

﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾^(٣) الكواكب تأتي في الملك وفصلت « مصابيح » : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »^(٤) وفي الحجر « بروج » وفي « ق » فقط تزين السماء بها « أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها »^(٥) تعبيرات ثلاث عن زينة السماء ، كل يعني معنى في موقفه الخاص ، وكل أشملها لمدن السماء وبروجها ومدفوعات الكواكب .

و « السماء الدنيا » صفة بموصوفها تعني أدنى السماوات السبع إلينا ساكني هذه الأرض ، أم وسائر الأرضين وكما فصلت في الطلاق وفصلت ، فـ « الدنيا » هنا مؤنث الداني من الدنودون الدني الدنائة ، فليست « سماء الدنيا » - مضافة - دون الآخرة ، إذ للدنيا سماوات سبع لا واحدة ، فهي سماوات الدنيا دون « السماء الدنيا » !

« بزينة » لا فقط لأهل هذه الأرض ، بل ولكل الناظرين أيًا كانوا

(١) وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نعتقد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندري أشرأريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً راجع ج ٩ ص ١٧٧ الفرقان ففيه بحث يخص الحرس الشديد والشهب وأنها هناك خاصة بمطلع الوحي الحمدي .

(٢) « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين (١٨) .

« وزيناها للناظرين » وهم كل مَنْ له أن ينظر من ساكني هذه المعمورة أم سواها من مدن السماء .

و « زينة » كـ - « مصابيح » و « بروجاً » مواصفات ثلاث لـ « الكواكب » وهي تستغرق الكرات السماوية كلها ، ولو كانت « كواكب » لا بقت مجالاً لكواكب أخرى في سماوات أخرى ، ولكنها « الكواكب » جمعاً محلى باللام يفيد الإستغراق المطلق المطبق لكل ما يسمى كوكباً ، ثم « وحفظاً » مواصفة أخيرة لهذه الكواكب .

ولقد خيل الى بعض القاصرين قصر « الكواكب » على التي يراها أهل هذه الارض بعيون مجردة أم ومسلحة ، ودون قصرها خرط القتادا .

و « الناظرين » يعم النظر بالعيون المسلحة كما يعم كل الناظرين هنا وفي سائر العالم ، فهي - إذاً - كل الكواكب في كل العالم وقد زينت بها السماء الدنيا، فهي إذاً كلها في السماء الدنيا وكما تنتشر كلها في الأخرى : « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انثرت » (٨٢ : ٢) فكما السماء نعم السماوات كلها ، كذلك الكواكب تعمها كلها ، ف « زينة الكواكب » تعمها على سواء .

﴿ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾^(٧) منذ تكوينها والشیاطين ، وأما غير الشیاطين من الجن فقد كانوا یسمعون ویسمعون حتی الوحي الأخير « وأنا كنا نعقد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » .

و « كل شیطان مارد » لا یخص شیاطین الجن فإنهم بعضهم لا کلهم ، فليست لغزاة الجو من شیاطین الإنس حظوة من الملأ الاعلى على أية حال ، مهما عزل المؤمنون من الجن والإنس عن السمع منذ الوحي الأخير ، ولم يكونوا قبله من المعزولين .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾^(٨).

لا يسمعون إلى الملا الأعلى مهما حاولوا : « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » (٢٦ : ٢١٢)
« ويُقذفون » بالنيازك النارية « من كل جانب » إذا تدنّوا تسمعاً ، ولا يقذف إلا من تسمع قذفاً لدحره دون ثقب بالثواقب :

﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾^(٩) قذف ودحر لمن تسمع لكيلا

يسمع

أترى « دحوراً » هي جمع الدحر بمعنى المصدر ؟ أو إسم المفعول ؟ أم هو المصدر مفرداً ؟ مفعولاً له أو مفعولاً مطلقاً ؟

معنى الدحر مفرداً بعيد فإن لفظه لفظه لا دحوراً ، فقد تعني جمع الدحر بمعنى المفعول مبالغة كأنهم نفس الدحور ، ليس لهم إلا اندحار وفرار ، هو حالهم إذ يسمعون فلا تلاح لهم فرصة وما يستطيعون « إنهم عن السمع لمعزولون » ولهم عذاب واصل : « خالص دائم يوم الدنيا إذ يعيشون اندحاراً في ترذل عما كانوا يشتهون ، وبأخرى يوم الأخرى فهم في جهنم خالدون .

« إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾^(١٠).

يقذفون من كل جانب لدحرهم دون ثقبهم حيث الجريمة هي التسمع في سمع ولما تقع ، يقذفون دحوراً « إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ » اختلاصاً واستراقاً « إِلَّا مَنْ استرق السمع فأتبعه شهاب مبین » (١٥ : ١٨) .

ذلك الشهاب والنيزك الناري يتبع الخاطف المسترق ويثقبه ، مبيناً في الجو لكل مستبين ، ومبيناً أن هناك خطفة واستراقاً ، ومبيناً أنهم « لا يسمعون » و « إنهم عن السمع لمعزولون » .

و « شهاب ثاقب » يثقب بنوره الظلام ، ويثقب خاطف الخطفة فلا يدعه يرجع إلى ناظره بسلام ، فلا يُخطئ ثاقبه هدفه كما يُرام .

ويا لهذه الكواكب البروج المصابيح الزينة كيف أصبحت من واجهة أخرى غيبية رجوماً ثاقبة للشياطين ، كوزارة الدفاع السماوية ، حاوية تلك المدفوعات والمقاذف الجبارة ، تقذف المتسمعين من الشياطين دحراً ، وتتبع الخاطفين المسترقين ثقباً ، فلا تبقي متسمعاً إلا دحرته ولا خاطفاً إلا ثقبته

فاللأ الأعلى في حفاظ دائب مكاناً ومكانة ، فالمحادثات الغيبية لهم لا تعدوهم إلى مرادة الشياطين ، مهما تحرصوا ولكي يتخرسوا على الغيب بخليلطات من الملأ الأعلى وخیالات وهرائات من الأدنى ، فيخيلوا إلى البطاء أنها كلها من صلب الغيب .

إذا فـ « الكواكب » داخلية في عسكر « الصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً ، في معسكر سماوي حارم ، وبالأحرى للملأ الأعلى في الأرض وهم الأنبياء ومن يحدو حدوهم ، بأحرى لهم أن يحفظوا عن استراق مرادة الشياطين ومستمهم وجسمهم ، حيث الملأ الأعلى في الأرض هم الأصلاء في مشارقهم ، والأعلى في السماء هم الوسائط الفروع ! .

هذه من أهداف الشهب الثاقبة والنيازك النارية ، يكشف الوحي عن وجهها القناع ، ثم هناك أهداف أخرى كشف العلم عنها أم لم يكشف ، دون مطاردة ومناصرة بينها ، فالناكر لهذه الملحمة الغيبية لا يرمي إلا في الظلام خرساً بالغيب .

وترى من هم الملأ الأعلى المحظور التسمع إليهم وأين هم ؟

الملأ هو الجماعة التي تملأ العين ، وهم في المكانة بين أدنى وأوسط وأعلى ، والأدنى هم أكثر ما جيء بهم في القرآن ، ثم الأوسط كملأ

سليمان : « قال يا ايها الملا ايكم يأتي بي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. »
(٢٧ : ٢٨) وليس الأعلى إلا هنا وفي ص : « ما كان لي من علم بالملا
الأعلى إذ يختصمون^(٦٩) إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين^(٧٠) » فالللا الأعلى
هم أعلى مكاناً مطلقاً، ومكانة بالنسبة لمن سوى النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وليس اختصاص الملا الأعلى إلا حواراً في أنباء الغيب ، وأنباءهم غيب
عن أهل الشهود والغيب ، وحتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا
ما علمه الله ، فـ « ما كان » تضرب إلى ماضيه قبل أن يوحى إليه بما
أوحى « إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين^(٧٠) ».

ولأن الكواكب « حفظاً من كل شيطان مارد » فهي إذاً أمكنة الملا
الأعلى فيها وبينها في أجوائها ، فليس لأي شيطان مارد التسلم إليهم
إقتراباً إلى أمكنتهم.

ومن ثم كيف يواصل الشياطين في تصعدهم إلى الملا الأعلى
يستمعونهم ، وهم عارفون تجربة وتكراراً أنهم يدحرون ويقذفون من كل
جانب. أو يتبعهم شهاب ثاقب ؟

من الجواب - إضافة إلى واقع ذلك التصعد المكرور - أن الإستماع إلى
الملا الأعلى من أهم غاياتهم ليتزلوا على كل أفكائهم : « هل أنبئكم على
من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفكائهم . يلقون السمع وأكثرهم
كاذبون » (٢٦ : ٢٢٣) وكلما كان الهدف أسمى فالهدف إليه أسمى وخذ
إحداق الخطر أو إطباقه ، وكما يعاكسهم في الشرف المناضلون في سبيل
الله ، فحتى إذا علم المخلصون منهم أنهم يقتلون لا يبالون بداراً إليه بكل
إصرار .

ثم الشيطان هو من الجان « والجان خلقناه من قبل من نار السموم »

(٢٧:١٥) فكيف يصطلم بالنيزك الناري ، المخلوق من نار السموم ؟

الشیطان مخلوق من النار وليس هو بعد خلقه ناراً ، كما الإنسان المخلوق من تراب فلم يظل تراباً ، فكما يُصلد الإنسان من تراب جامد وسواه من تراب، كذلك الشیطان بشهاب ثاقب وسواه من نار ، ولا سيما أن في السرعة وقَعَتها ، حتى إذا كان المرمي أرخى من المرمي إليه !

وهل المدحورون بقذف أو شهاب هم - فقط - كل شیطان مارد يروم التسمع فيرمى؟ أم وكل غاز للفضاء وإن لم يسمع ، في إمكانية السمع كالجن المؤمنين، أو عديمها كغزاة من الإنس ؟

آيات الرجوم والشهب والمقاذف تختص كل شیطان رجيم : اللهم إلا آيات الجن حيث تعم الجان المؤمنين ، فإذا هم لم يقعدوا مقاعد للسمع لا يدحرون ، وبأحرى غيرهم من الإنس إذ لا يستطيعون !

وأخيراً ترى أن السماوات الست-الباقية فوق الأولى-هي كلها خلوة عن كواكب أمّاذا ، حيث « الكواكب » استغرقتها في السماء الدنيا ؟

علّ الكواكب الزينة للناظرين تختص السماء الدنيا ، وقد تكون في سائر السماوات كواكب أخرى ليس لها ناظرون بأية عيون مجردة ومسلحة ، أم ان ناظري أرضنا وهم المحور الرئيسي انهم لن يستطيعوا أن ينظروا إلى الكواكب في غير السماء الدنيا بأية عيون ، كيف وهم عاجزون لحد الآن أن يتعمقوا بأقوى العيون المسلحة المجرات الفوقية لسماواتهم ؟

وعلى أية حال ليس لنا نفي وجود كواكب أخرى في سماوات أخرى ، ولا التعرف إليها إن كانت ، كيف ونحن حائرون في سمائنا وأرضنا ، سبحان الخلاق العظيم !

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ نَخْلُقُهَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١١)

« أهم » بنو آدم « أشد خلقاً » وأصله وأصلبه في البنية الجسدانية - فقط - فـ « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » فلا أحسن منه في مطلق التقويم ، مهما كان « من خلقنا » من سواء « أشد خلقاً » ، و « من خلقنا » يعلم الجن والملائكة عن نعرف ، وغيرهما من ذوي عقول لا نعرفهم ، وعلمهم يشمل سائر الخلق أيضاً « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها » (٧٩ : ٢٩) والسماء بما فيها من كواكب وغازات أشد خلقاً من هولاء أجمع ، « ثم استوى إلى السماء وهي دخان .. » غاز ما أصله وأصله وقد خلقت منها الكواكب ! ولكننا الإنسان « إنا خلقناهم من طين لازب » : لازم بعضه بعضاً ولازق ، فبنية الإنسان أرخى من « من خلقنا » فخلقه أهون بدءاً من بدئهم ، فخلق أمثالهم يوم المعاد - وهو أهون - أسهل من خلق من خلقنا مرحلتين ! « خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أكبر لأنه أشد وخلقهم أسهل !

و « طين لازب » هو سلاله من طين : « ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين » (٢٣ : ١٢) (ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سئها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبله حتى لزبت) ^(١) هناك الإنسان في أوله تراب ، ثم بسن التراب ماء حمأ مسنون : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » (١٥ : ٢٦) ثم سلاً من صلصاله فطين لازب ، هو السلاله من طين بلا نتن من حمه ولا ييس من ترابه ، فإنما « طين لازب » ! ^(٢)

(١) نهج البلاغه عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام)

(٢) الدر المنثور ٥ : ٢٧٣ - اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله « من طين لازب » قال : اللازب والحمأ والطين واحد كان اوله تراباً ثم صار حمأ متناً ثم صار طيناً لازباً فخلق الله منه آدم .

ذلك التراب الحمأ المسنون الطين اللازب في خلق الإنسان الأول ،
فهل إن بنه المتناسلين بالزواج كذلك مخلوقون من ذلك ؟

كلأ في ظاهر التناسل بخلاف آدم المخلوق دون تناسل ، ونعم حيث
النطفة تنتهي إلى التراب ، فإن الطعام كله ناشئ من التراب (١) .

ومن ثم الطينة وهي النطفة تختلف في الإنسان ، رغم أن الطين الأول
في خلق الإنسان الأول واحد (٢) .

وقد تعم « طين لازب » الطين الأول وسائر الطين وهي سائر الطينة ،
فكل طينة علينية لازبة أشكالها ، وكل طينة سجينية لازبة أشكالها ، كما
لَزَبَ الطين الأول في أجزائه .



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

(١) فالجنين يتولد من المني المتولد من الدم المتولد من الغذاء وهو حيوانياً ونباتياً يتولد
من الطين اللازب ، اللازم بعضه بعضاً !

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤٠٠ ح ٩ في اصول الكافي محمد بن يحيى عن محمد بن الحسن
عن النضر بن شعيب عن عبد الغفار الجازي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال :
ان الله خلق المؤمن من طينة الجنة وخلق الكافر من طينة النار قال : وسمعت يقول :
الطينات ثلاثة طينة الانبياء والمؤمن من تلك الطينة الا ان الانبياء هم من صفوتها هم
الاصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طين لازب كذلك لا يفرق الله عز وجل بينهم
وبين شيعتهم

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ وَإِذَا ذُكِّرُوا
لَا يَذْكُرُونَ ۖ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۖ وَقَالُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ أَوْذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلَمًا
أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۖ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۖ قُلْ نَعَمْ
وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۖ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنْظُرُونَ ۖ وَقَالُوا يَنْوِيلُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۖ هَذَا
يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِءُ تُكَذِّبُونَ ۖ * أَحْشَرُوا
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۖ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ
مَسْئُولُونَ ۖ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ۖ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ۖ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ
قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۖ قَالُوا بَلْ لَرَّ

تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
 بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٤٠﴾ لَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا
 لَذَٰ آفُونَ ﴿٤١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٤٢﴾ فَلَهُمْ
 يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَّلِكَ نَفْعَلُ
 بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهِنَا لِنَشَاعِيَ
 تَجْنُونَ ﴿٤٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٧﴾
 إِنَّكُمْ لَذَٰ آفِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٤٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٤٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٥٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
 رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٥١﴾ فَوْكَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٥٢﴾ فِي جَنَّاتِ
 النَّعِيمِ ﴿٥٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ
 مِنْ مَعِينٍ ﴿٥٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٥٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ

وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ ﴿١٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطُّرْفِ
عَيْنٌ ﴿١٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿١٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي
قَرِينٌ ﴿٢١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمُسَدِّقِينَ ﴿٢٢﴾ أَوْ ذَا مِثْنَا
وَكُنَّا زُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لِمَدِينُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ
مُطَّلِعُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٢٥﴾ قَالَ
تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَتَزِدِينِ ﴿٢٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ
مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢٧﴾ أَفَأَنْتَ تَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
الْأُولَى وَمَا تَحْنُ بِمُعَدَّيْنِ ﴿٢٩﴾ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿٣٠﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٣١﴾ أَذَلِكَ
خَيْرٌ زُلًّا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٣٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً
لِّلظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٣٤﴾

طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا
 قَالِقُونَ مِنْهَا الْبُطُونُ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ
 حِمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ
 الْمَفْزُوءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ
 يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

« بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » (١٢) :
 هنا أمران عجيبان هما عجاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
 من إصرار حماقى الطغيان على نكران المعاد وأدلتة واضحة وضح النهار ، إذ
 هم معترفون بأشد من المعاد وهو الخلق الأول للمعاد ، وخلق السماوات
 والأرض .

ثم عجابهم من إصرار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعجابه
 حين ينكرون ، لحدّ « ويسخرون » من ملحمة المعاد الحساب ، ولأنهم
 غافلون فلا يذكرون ما هو أشد وأصعب من المعاد ، لكن :

﴿ وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣) كلما توالى عليهم ذكريات المعاد
 لإمكانية بأحرى من الخلق الاول ، ولوجوبه قضية العدل والحكمة الإلهية ،

« لا يذكرون » - « صم بكم عمي فهم لا يرجعون » عن غيبتهم على عيبتهم في الإجابة عن أسئلة الوحي حيث تبكتهم وتُسكتهم !

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾^(١٤) « فأيات الله البارعات التي هي مواد الذكرى والإيمان بالله ، تنقلب عند هؤلاء - المقلوبة قلوبهم والمعقولة عقولهم - مواداً للسخرية ، يطلبونها وسائل الهزء بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوته ، ماءً يزيدهم عطشاً ودواءً يزيدهم داءً : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » : !
﴿ وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾^(١٥).

فهل « هذا » نأ الرسول العظيم أنكم ستحشرون ؟ وليس النبأ أياً كان سحراً مهماً كان كذباً ! أم « هذا » برهانه القاطع وتبينه اللامع الذي لا قبل له ولا جواب عنه ، فهو يقنع العقول في كافة الحقول ؟ « أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون » (٥٢ : ١٥) أفكلها لا يلائم أهواءكم وما تشتهون ، إنه سحرٌ تمهت برهنت له براهين حسية وعقلية وفطرية « وماذا بعد الحق إلا الضلال المبين » !

الرسول يدعي أمراً ببرهان ، ويدعوكم لتصدقوه دون مجازفة ، ثم أنتم تنكرونها وتكذبون دوماً ببرهان ، إلا دعوى جازفة جارفة « إن هذا إلا سحر مبين » فما دلائلكم ؟ وما دوائلكم ؟! « أفسحروا هذا » لقليلكم :

﴿ إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾^(١٦) « وقد خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ! وقد خلق السماوات والأرض وهو أشد من خلقكم اعيانكم وامثالكم !

﴿ أَوِ ابْأُتُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾^(١٧) « وهم أبعد عهداً في موتهم ، فتراهم وعظامهم ؟ وهم أعظم منا فأبعد أن يتقبلوا إعادة في المعاد ؟ وهم وآبائهم سواء أمام القدرة الحكيمة !

ولقد كان تأصيل الآباء القدامى- في أي أصل- من الخرافات الجارفة عند الجاهليين ، فإذا تسهلوا في امرهم انفسهم استصعبوا ذلك الامر من آبائهم الأولين ، وهم على سواء فيما لهم وعليهم ، وآباءهم كأمثالهم كانوا أبناء آباء لهم قبلهم وحتى ينتهى إلى آدم « خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » « أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » والجواب انصارم عن كل هذه الاستبعادات :

﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ (١٨)

« نعم » ليست إجابة عن سؤال إستعجاب مجرداً عن دليل ، حيث البراهين تحتف بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وهم بكم عن جوابهم أنفسهم « نعم » وهنا إضافة « وأنتم » الأبناء الآخرين والآباء الأولين « داخرون » : إذلاء صاغرون ، أمام القدرة الحكيمة : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

وليس يطول بين « نعم » في إجابة لفظية ، وبين « نعم » في إجابة واقعية ، فإذا هم أمام مشهد من مطولة المشاهد ومهولتها ، يلتقي فيها الوصف بالحوار ولات حين فرار :

﴿ فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١٩)

في غمزة عاطفة ، ومضة خاطفة - فقط - قدر ما تطلبه زجرة واحدة : « فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » . (٧٩: ١٣) « فإذا هم ينظرون » ما كانوا ينكرون ، ينظرون أنفسهم مبعوثين ، وينظرون حق الوعد يوم الدين بعدما كانوا يوم الدنيا عنه عمين ! « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

الحلق الأول لبني الإنسان كان يتطلب تدرجاً في تنقلات بزجرات واقعية : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » (٩٠ : ٤) وفي المعاد زجرة واحدة : طردة بصوت قارع هو الصيحة والنفخة الثانية في الصور ، ونقرة في الناقور « فإذا هم ينظرون » وكما في خلق آدم الأول « كما بدأنا أول خلق إنعيده » (٢١ : ١٠٤) « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير » (١٦ : ٧٧) اترى كما النفخة هي للناكرين يوم الدين زجرة ، كذلك هي للمصدقين زجرة ؟ وهي بداية العذاب ! كلا ، فانها لمن « قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين » كأولى ويلة لهم ! دون سواهم .

ثم « هي » في « إنما هي » تعني الصيحة والنقرة والنفخة ، فهي للناكرين زجرة وللمصدقين نفخة ، مهما ليست هي في ذاتها إلأهيه ، فلكل شاكلة يوم الرجعة « فإذا هم ينظرون » .. بالساهرة !

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٢٠)

نقلة قاصدة من برهان الواقعة - لما لم يك ينفع - إلى واقعة البرهان ، تستعرض معرض الويل والعويل من حصيلة الزجرة الواحدة علهم يتبهون ، وعن غيهم يرجعون !

« يا ويلنا » كيف كذبنا يوم الدين رغم براهينه القاطعة ! « يا ويلنا . مما وقعنا فيه نتيجة تكذيبنا ف « هذا يوم الدين » : الطاعة ، حيث تبرز في جزاء وفاق : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » .

وبينا هم في قولتهم الويلة ، إذا لهم بويلة أخرى تفرعهم من حيث لا يحتسبون ، كما لم يحتسبوا حساباً ليوم الدين :

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ^(٢١) ﴾ .

خطاب العتاب لأهل العذاب والتباب من رب الأرياب ، آمن يؤمرون بهذه القولة العاتبة ، وليس من كلامهم ، إذ « كُنتُمْ » خطاب ، فمن هو المخاطب منهم الخارج عن « تكذبون » ؟ وقضيته - إذاً - « كنا به نكذب » تلاوماً بينهم أنفسهم ، ثم « احشروا .. » تلوّه دليل ثان أنه خطاب الله .

« هذا يوم الفصل » بين المكذبين والمصدقين : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (٩٠ : ٤) و « يوم الفصل » بين كل حق وباطل مزيجان يوم الدنيا ، وكذلك كل فصل يتطلبه « يوم الدين » فصلاً بالعدل والفضل

ومن ثم خطاب للزبانية تحقيقاً لجزاءهم الوفاق مع كل الرفاق :

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ^(٢٢) ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ^(٢٣) ﴿

وترى هؤلاء « الذين ظلموا » يُحْشَرُونَ إلى صراط الجحيم ، فما ذنب أزواجهم بَعُولَةً أم زوجاتٍ ؟ فإن كانوا من الذين ظلموا شملتهم « الذين ظلموا » وإن كانوا من الذين عدلوا فقد سبقت لهم الحسنى ، ف « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » (٢١ : ١٠١) بَعُولَةً أم زوجاتٍ أو سواهم ؟ .

« الذين ظلموا » هنا هم أصول الظلم والضلال ، ف « ظلموا » تضرب إلى عمق الماضي وتجعل حياة أصحابها ظلماً ، فهم الذين عاشوا ظالمين بحق الحق وبحق أنفسهم وعباد الله ، ف « أزواجهم » هم أشباههم ^(١) وقرنائهم الذين عاشوا على هامش الضالين يتبعونهم فيما هم ،

(١) (نور الثقلين ٤ : ٤٠١ ح ١١ - القمي قال قال : اشباههم .

بعولة أم زوجات أم أية أقارب أو أغارب ، ولذلك يتباغصون في حوار :
«واقبل بعضهم على بعض يتساءلون » فالأولون هم فروع الضلالة والآخرين
المسؤولون هم الأصلاء .

وهل إن « ما كانوا يعبدون » تشمل كل المعبودين من دون الله ،
ملائكة ونبيين إلى جنب طواغيت وأوثان ؟ كلا ! حيث المعبودون الثلاث لا
يستحق كلهم الجحيم ، فإذا الطواغيت يعذبون لطغيانهم وتألههم
لأنفسهم ، ثم الأوثان والأصنام تُحشر مع عابديها الجحيم تعذيباً ثانياً
للعابدين ، فما بال المسيح (عليه السلام) وملائكة معبودين يعذبون وهم
براء : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي
إلهين من دون الله قال إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم
ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن
اعبدوا الله ربي وربكم . . » (١١٧ : ٥) و « إن الذين سبقت لهم منا
الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيها اشتهت أنفسهم
خالدون » (٢١ : ١٠٩) .

لذلك تاتي هنا « ما » دالة على غير ذوي العقول من أصنام ، أم
وطواغيت برذفها في أنهم لا يعقلون ، وكما أتت في غيرها « إنكم وما
تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (٢١ : ٩٨) « يوم
يحشرهم وما يعبدون من دون الله » (٢٥ : ١٧) .

وحتى إذا أتت فيما أتت « مَنْ » اختصت بغير « الذين سبقت لهم منا
الحسنى » ولأنهم صالحون .

أحشروهم : جمعاً بينهم يتراثون بعضهم البعض « فاهدوهم إلى صراط
الجحيم » فإذا لم يهتدوا يوم الدنيا إلى صراط مستقيم ، فليهدوا يوم الدين
إلى صراط الجحيم ، والصراط هو السبيل المستقيم الذي يتلح سائله دوغما

انحرف ، فأهل الحق إلى صراط الجنة المستقيم ، وأهل الباطل إلى صراط
الجحيم ، كلٌّ إلى ما خطط لنفسه من هدى وصراط وما ربك بظلام
للعبيد .

ويا لها من لهجة جازمة في تهكم عارم ، وما هم أولاء قد هُتوا إلى
صراط الجحيم ولما يصلوها ، إذ ييادهم أمر الإيقاف :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ^(٢٤) ﴾ .

إنه ليس سؤال استعلام عن مجرمين وسواهم « فيومئذ لا يسأل عن
ذنبه إنس ولا جان .. يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام »
(٥٥ : ٤١) « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (٢٨ : ٧٨) وإنما
هو سؤال تنديد وتبكيث عن المجرمين ، ثم لا يسأل عن سواهم إلا بياناً
لموقفهم أمام أهل الحشر أجمعين تبجيلاً لهم أو تحجيلاً :

« ولنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . ولنقصن عليهم بعلم
وما كنا غائبين » (٧ : ٧) « ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد
للكافرين عذاباً أليماً » (٣٣ : ٨) وقد يروى عن الرسول (صلى الله
عليه وآله وسلم) قوله : (يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله عز وجل فيما
مهلكم من كتابه فإني مسؤول وإنكم مسؤولون ، إني مسؤول عن تبليغ
الرسالة وأما انتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله وسنتي ^(١)) و (ألا كلكم
راع وكلكم مسؤول عن رعيته) ^(٢) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٢ ح ٢٢ عن اصول الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر
(عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ..
(٢) حديث مشهور عنه في كتب عدة وفي المصدر ح ١٥ في اعتقادات الامامية
للصديق قال زارة للصادق (عليه السلام) ما تقول يا سيدي في القضاء والقدر ؟

وليست المسؤولية بالنسبة للمكلفين فحسب بل « اتقوا الله في عباده وبلاده
فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم »^(١) ف « ما من داع دعى إلى
شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه وإن دعا رجل
رجلاً... »^(٢) .

فلاية الوقوف موقف خاص بين آيها تختص فيه بالمجرمين ، وموقف
ثان يعم الخلق أجمعين ، وفي ذلك الموقف يعمهم السؤال عن الولاية :
ولاية الله والرسول والأئمة ، ولأن الأخيرة تختلف فيها بين الأمة ، ترى
تظافر الروايات أنهم مسؤولون عن ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) ^(٣) .

قال : اقول ان الله تبارك وتعالى اذ جمع العباد يوم القيامة سألمهم عما عهد اليهم ولم
يسألمهم عما قضى عليهم وفيه ١٦ عن العيون في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام)
من الاخبار المتفرقة حديث طويل وفي آخره ثم قال - وقد ذكر علياً (عليه السلام) -
حاكياً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وعزة ربي ان جميع امتي لموقوفون يوم
القيامة ومسؤولون عن ولايته وذلك قول الله عز وجل « وقفوههم انهم مسؤولون » .
(١) المصدر عن نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام) : ...

(٢) الدر المنثور ٥ : ٢٧٣ - اخرج البخاري في تاريخه والترمذي والدارمي وابن جرير
وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن انس قال قال رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) : ؟ .

(٣) وقد اخرجه فيمن اخرج الحسكاني في شواهد التنزيل عن ابي النصر العياشي في تفسيره
باسناده عن مندل الغزي يرفعه الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله « وقفوههم انهم
مسؤولون » قال : عن ولاية علي (عليه السلام) ورواه مثله عن ابي سعيد الخدري ومنهم الحموي في
فرائد السمطين بسنده عن ابي سعيد الخدري واخرجه مثله عنه الزرندي في نظم درر
السمطين ص ١٠٩ ومثله عنه البدخشي في مفتاح النجا ٤١ مخطوط والموفق بن احمد في
المناقب ١٨٦ عن ابي اسحاق والعلامة العيني في مناقب علي ٥٧ عن ابي سعيد عنه
(صلى الله عليه وآله وسلم) والحافظ الحسين الجري في تنزيل الآيات ٢٦ عن ابن عباس :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ^(٢٥) ﴾ وقد كنتم تزعمون شركاءكم لكم أنصاراً ، فأين نصرتهم لكم وأنتم معهم محشورون؟ أم نصرتكم لهم وقد كنتم لهم « جند محضرون » ؟ أم نصره كل من الظالمين لأنفسهم ، وأزواجهم لأنفسهم ؟ أم نصره الظالمين لأزواجهم أمّا هي من نصره ؟ ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ^(٢٦) ﴾ ليس لهم أية قولة أو فعلة إلا أن يؤذن لهم ، وليس لهم إلا استسلامهم عابدين ومعبودين لحكم أحكم الحاكمين ، وقد يؤذن لهم في حوار لا تاتي لكل إلا البوار وناراً على نار : ﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ^(٢٧) ﴾ .

البعض الأزواج يتساءل البعض الذين ظلموا لماذا أغويتهمونا خادعين ، « وإن ذلك لحقّ تخاصم أهل النار » (٣٨ : ٦٤) .

﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ^(٢٨) ﴾

وهكذا يحملون أوزارهم على الذين يحملوهم على الضلالة كأنهم براء

عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والسيد علي بن شهاب الدين الهمداني الحسيني في مودة القربى ٩٢ والعلامة القندوزي في ينابيع المودة ٢٥٧ عن أبي سعيد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والعلامة باكتبر الحضرمي في وسيلة المال ١٢١ عن أبي سعيد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والعلامة الامرتسري في ارجح المطالب ٥٦ و ٥٤٩ نقلًا عن تفسير الواحدي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والسيد ابو بكر الحضرمي في رشفة الصادي ٢٤ عن الواحدي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) اي عن ولاية اهل البيت وقال الحافظ جمال الدين الزرندي عقيب حديث الولاية قال الامام الواحدي : هذه الولاية التي اثبتها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي مسؤول عنها كما في قوله تعالى : « وقفوهم انهم مسؤولون » (ملحقات احقاق الحق ج ١٤ ص ١٨٢ - ١٨٥) وفي كفاية الخصام ص ٣٥٩ في كتاب الفردوس لابن شيرويه الديلمي باسناده عن أبي سعيد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله وقد اخرج فيه روايات ثمان من طرق اخواننا السنة .

عما كانوا يفعلون ، فيجيبهم الذين ظلموا :

﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٩).

حوار ما أَلطفه بين أهل النار تأتي لهم بكل بوار : « ولوترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتنم قوماً مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » (٣٤ : ٣٣) .

وخلاصة دعوى أزواجهم المستضعفين أننا كنا مؤمنين فصددتمونا عن الهدى إذ « كتنم تأتوننا عن اليمين » في « مكر الليل والنهار » واليمين في المكر هو الإتيان من واجهة الحق وصورته بكسرة الباطل وسريته ، أن تجعل آيات الله وبياناته ذرايع لنكرانها من حيث لا يعلمون : « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (١٧ : ٧) .

وخلاصة الرد من المستكبرين الذين ظلموا « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتنم قوماً مجرمين » - « بل لم تكونوا مؤمنين » وما كان لنا عليكم من سلطان بل كتنم قوماً طاغين « فالإيمان على بصيرة ويقين لا يزعزعه مكر الليل والنهار والإتيان عن اليمين ، فإن حجة الإيمان بالغة وحجة الكفر داحضة ، وأين بالغة من داحضة ؟ وإن كانتا في صراع دائم ، فإن سعي الكفر - أيأ كان - خائب (فالؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف) !

وكيف يزول إيمان بقوة وسلطان بل وما كان لنا عليكم من سلطان! والسلطانُ الحجةُ منفي عن أهل الباطل ، والسلطان القدرة ليس ليغير الإيمان « إلا أن تتقوا منهم تقاة » في البعض من أعمال الإيمان .

هنالك ثالث « بل لم تكونوا مؤمنين - بل كنتم قوماً مجرمين - بل كنتم قوماً طاغين » تفسح المجال لكل مضلل ، فإن مادة الضلال كائنة ، والمضلل يبرزها ويمدّها ، وليس له من سلطان مع وجود الإيمان ولا معه .

فالمستضعف المقصر في ضلاله بمضللين ليس إلا ردّفاً لمستكبرين ضالين ، وإن كان التقصير دركات ، فعلى كلّ دركته قدر ما قصر ، ثم المستضعف القاصر لا يُردّف بمستكبرين : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » (٤ : ٩٩) .

فالمستضعفون المقصرون هم من الظالمين ، ومن أولياء الشياطين ، يفتنهم الشيطان عن الإيمان وما هم بمؤمنين : فـ « إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتبع وأحكام تُبتدع يُخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغت ومن هذا ضغت فميزجان فيجيثان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى » (١) .

(١) الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) ينقله عنه في اصول الكافي ، وفي النهج باختلاف يسير في بعض الفاظه .

نتعرف من هنا وهناك مدى فرض التحقيق في الإيمان ، حتى يتحقق لحد لا يفتن صاحبه بأية فتنة ، فإن وصل إلى قمة فهو المهمة ، وإن لم يصل - وكثير ما هم غير واصلين - فعل صاحبه أن يأخذ حذره سلباً في الفرار عن المضللين ولحد الهجرة « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وإيجاباً أن يكون دائب التفتيش عما يحقق إيمانه ويبعده عن الفتنة ، إلا المستضعفين في كلا السلب والإيجاب « لا يستطيعون حيلة » لتقوية الإيمان ومقاومة الفتنة « ولا يبتدون سبيلاً » للفرار عن حكم المستكبرين ، استضعافاً في بعده يجعلهم قاصرين دون تقصير ، اللهم إلا الذي يعفى عنه لأنه تفصيل قصير !

﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ^(٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ ^(٣٠) ﴾ .

مادة الضلال كانت فيكم موجودة ، ومادة الإضلال لمن آمن حقاً فينا غير موجودة ، وإنما ضعفت فيكم بفسح مجال الإضلال لاسيما « بل كُنتم قوماً طاغين » في حد أنفسكم ، فمن زدناكم في طغيانكم ، حيث تعاضدنا في الطغيان .

المستكبرون يتزايدون في حوارهم رداً على المستضعفين في ثالوث : « بل لم تكونوا مؤمنين » جواباً عن « كُنتم تأتوننا عن اليمين » في وجه أول هو الدين ، ثم « وما كان لنا عليكم من سلطان » في وجه ثان من اليمين وهو القوة والسلطان ، ومن ثم « بل كُنتم قوماً طاغين » فحتى إذا لم تأتكم عن اليمين فسلب الإيمان وإيجاب الطغيان كان يكفيكم ضللاً !

« وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا

تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَلَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٤ : ٢٢)
إِذَا فَعَلُّ مِنَ الْمُضِلِّ وَالْمُضِلُّ ظَالِمٌ مِمَّا اخْتَلَفَتْ دَرَكَاتُ الظُّلْمِ :

﴿ فَحَقَّقْ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ (٣١) .. لقد حقت علينا حقاً
وحقيقة كلمة العذاب بما ظلمنا أو ظلمتم بما أجرمتم ، فالظالم والمظلوم
هكذا كلاهما في النار ، حيث المظلوم المقصر في دفع الظلم عن نفسه أو
فَضَحَ الظالم ، ظالم بحق نفسه وبحق الآخرين ، ومن « قول ربنا انا
لذائقون » : « ان جهنم كانت مرصداً للطاغين مآباً » (٧٨ : ٢٢) « فأما
من طغى وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى » (٧٩ : ٣٧) .

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمُ: إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ (٣٢) « أغويناكم كما غوينا ، فإن كلا يمر
النار إلى قرصته : » قال الذين حق عليهم القول هؤلاء الذين أغوينا
أغويناهم كما غوينا .. » (٢٨ : ٦٣) .

يقولون قولتهم هذه كأنهم يعتذرون ولكنهم لا يُعَذِّرون كما المضللون
المقصرون ، وقد تكون عذراً لهم في حوار المستضعفين ، أن ليس
الإضلال كله منا ، « بل كنتم قوماً طاغين » « مجرمين » « بل لم تكونوا
مؤمنين » وإن كنا نحن مشاركين لكم في الظلم والطغيان :

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٣) في أصل العذاب ، إنهم
كانوا ظالمين ، ولكن دركاته ليست إلا حسب دركات الظلم ، فالظالم بحق
نفسه له عذاب واحد ، والمضلل الظالم بحق غيره له ضعف العذاب قدر
ما ضلَّ ، وكما العادل له ثواب مدى عدله إهداء وإهداء : (من سن
سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من

اجورهم ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص من أوزارهم) « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » (١٤ : ٢٥) « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليُسَلَّنَ يوم القيامة عما كانوا يفترون » (٢٩ : ١٢) .

اترى إذا كان ضِعْفُ الْعَذَابِ لِلْمُضِلِّينَ ، وَضِعْفُهُ لِلْمُضِلِّينَ فَمَاذَا تَعْنِي « وَقَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ » (٧ : ٣٨) ؟ .

هنا الفريقان من المستكبرين المضللين ، مهما كان الآخرون ضلوا بسبب الأولين ، فلكلِّ ضِعْفٍ ، مهما اختلف ضِعْفٌ عَنْ ضِعْفٍ حَسَبِ اخْتِلَافِ الْبَادِي فِي الْإِضْلَالِ وَالْمَاشِي سَبِيلَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ : « وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتُوفُونَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا . . . » (٧ : ٣٦ : ٣٨) .

ثم هناك ضِعْفٌ آخَرُ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْإِنْظِلَامُ فِي الْإِضْلَالِ ثُمَّ ظَلَمٌ فِي الضَّلَالِ ، وَمِنْ ثُمَّ عَذَابٌ وَاحِدٌ لِمَنْ ضَلَّ دُونَ إِضْلَالٍ ، فَلَا هُوَ أَضَلُّ مِنْ سِوَاهُ ، وَلَا هُوَ ضَلَّ بِمَنْ سِوَاهُ ، فَلَهُ عَذَابٌ وَاحِدٌ .

فَمَنْ دُونَ الْآخَرِينَ هُمْ فِي الْعَذَابِ الضَّعِيفِ مُشْتَرِكُونَ مَهْمَا اخْتَلَفَ ضِعْفٌ عَنْ ضِعْفٍ ، ثُمَّ الثَّلَاثُ فِي أَصْلِ الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٤) أصيلين وفرعين ، دون أن نعذر الآخرين لأنهم مستضعفون، فإنهم كالاولين ظالمون ، وكلُّ يلقى أثامه كما ظلم قدره، ولا يُظلمون فتيلاً .

والمجرمون في اصطلاح القرآن هم الكفار الناكرون لتوحيد المبدء والمعاد حيث أجزموا الحياة وقطعوها عن أصلها وأثاقلوا إلى الحياة الدنيا وزيتها :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣٥) إستكباراً عن توحيد الله وتماذلاً في الإشرار بالله مستهينين برسول الله، ويكأن شركائهم أعظم من الله وأكرم :

﴿ وَقَالُوا إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ (٣٦) يعتبرون الدعوة إلى التوحيد شعراً ورجة ، فالدعوة إلى الشرك نثر وعقلية ، تسميه للشئ باسم ضده ، وتحويلاً لحق الله إلى نذ .

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧)

لا هو شاعر ولا مجنون فيما يحمل من دعوة الرسالة ، فإنها حق بما تملك من بينات ، وبما صدق المرسلين فيما أرسلوا به ، فهل الرسل كلهم شعراء ومجانين رغم كافة البراهين ، ثم أنتم بشركائكم عقلاء « فأين تذهبون إن هو ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم » « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » .

فما دواؤكم بعد ذلك الداء العضال إلا :

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ (٣٨) . وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٩) .

ليس عذابكم الاليم إلا جزاء لكم ، وليس الجزاء إلا أعمالكم ، فإنها تبرز يوم نبل السرائر بحقائقها الشريرة .

فـ « ما كنتم تعملون » هي جزاؤكم بكمها وكيفها ، فهي داؤكم معكم لزماً إلى يوم الدين ، تبرز جزاء وديناً .

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » (١٠) .

أترى «إلا» استثناء؟ فعلاً هي تُستثنى ؟ عن « ذائقو العذاب الأليم » وهم أولاء المجرمون ! دون شمول لفسقة المؤمنين فضلاً عن المخلصين ؟ ولو توسعنا في « إنكم » أنها تعني كل المكلفين ، فحق الإستثناء « إلا المؤمنين » دون « المخلصين » حيث يظل المخلصون ومن إليهم من المؤمنين من ذائقي العذاب الأليم !

أم هي إستثناء عن « ما كنتم تعملون » في وجهها الشامل لكل المكلفين ، أن الجزاء العدل الوفاق للمجرمين ليس إلا « ما كنتم تعملون » وأما المخلصون فلهم اجرهم الوفاق وزيادة ، فضلاً إلى عدل ؟ و « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » مخلصين كانوا أم مخلصين أم أياً من المحسنين !

مركز تحقيق كامبوت علوم إسلامي

أم هي استثناء متصل عن « وقفوهم إنهم مسؤولون » في وجهها الشامل ، ومنقطع عن « ذائقو العذاب الأليم » ومتصل عن « ما كنتم تعملون » حيث المخلصون وهم أصحاب اليمين والسابقون المقربون لاسؤال عنهم إلا تبجيلاً وتجليلاً ، وليسوا رهناً أعمالهم وما كسبوا : « كل نفس بما كسبت رهينة . إِلَّا أصحاب اليمين » (٧٤ : ٣٩)

كل المكلفين للحساب يحضرون « فإنهم يحضرون . إِلَّا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٢٨) حيث استقروا في قرارة ثابتة من العبودية ، فبم يحاسبون ؟ وعم يُسائلون ؟

إن مثلث الإستثناء-متفصلاً بين متصلين-يناسب أدب اللفظ وحَدَب المعنى ، فلأن الآيات المسبقة تحدثت عن جزاء ألد المجرمين ، فليقابلهم

أخلص المؤمنين وهم « عباد الله المخلصين » .

هناك مخلصون في عبوديتهم لله - وطبعاً - كما يسطعون ، فليس إذاً الإخلاص القمة ، وقد يشوبه لمّ وصغار الذنوب ، أم غير خالص الطاعة كما يحق ، قصوراً ذاتياً أم وتقصيراً قاصراً حيث للشيطان عليهم سبيل « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »

وهنا مخلصون أكمل لهم ربهم إخلاصهم فعصموا عن كل غواية عامدة أم خاطئة ، فهم المعصومون أياً كانوا ، مرسلين أم خلفاء لهم منصوبين كالأئمة الإثني عشر من عترة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

هم خلاصهم عن أي ذنب هو بين إخلاصهم أنفسهم كما يستطيعون ، ومن ثم إخلاص الله لهم : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » (٣٨ : ٤٦) وهم المؤمنون حقاً ومعهم المخلصون : « إلا الذين تابوا وأصلحو واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً » (٤ : ١٦٤) .

فالمخلصون مستثنون عن أية غائلة وهائلة قد تعم سائر المؤمنين : « ولأغوينهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين » (١٥ : ٤٠) « فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ٧٤) « فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٢٨) « سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٦٠) « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » (١٢ : ٢٤)

فلأن الله أخلصهم لنفسه : « واصطنعتك لنفسي » (٢٠ : ٤١) فلا سبيل لغير الله إليهم ولا سلطان عليهم فضلاً عن الشيطان .

هنا على ذكر عباد الله المخلصين يعرض لهم صفحة جديدة ليوم الدين
وجاء ذلك العذاب الأليم للمجرمين :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾^(٥٦).

آية منقطعة النظير في سائر القرآن تحمل ميزات المخلصين بـ « رزق معلوم » فما هي الميزة في « رزق معلوم » ؟

إنه رزقهم عند ربهم في بُعديهِ مادياً ومعنوياً، ومن الثاني أنهم لا يُسألون :
« ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ^(٥٧) » وغيرهم - ككل - من المحضرين
المسؤولين ، مجرمين ومؤمنين مخلصين « إلّا عباد الله المخلصين » .

ومنه « أفما نحن بمبتين ^(٥٨) إلّا موتنا الأولى ^(٥٩) » ولن سواهم مorte
ثانية هي عن الحياة البرزخية إلى الحياة الآخرة :

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إلّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ »
فالمخلصون هم « مَنْ شَاءَ اللَّهُ » إلّا يُصَعَّقُوا بعد صعقتهم الأولى وهي
موتهم الأولى .

ومنه أنهم ليسوا رُهَناء أَعْمَالِهِمْ « كل نفس بما كسبت رهينة . إلّا
أصحاب اليمين » فليس جزاءهم كالمجرمين قَدَرُ أَعْمَالِهِمْ ، ولا كسائر
المحسنين أنهم يُسألون فيثابون قدر إحسانهم وزيادة قَدَرِهِمْ ، فإنهم لا
يُحَاسَبُونَ ولهم أَجْرُهُمْ من غير حساب ولا حدود ، لأنهم كانوا مخلصين في
عبودية الله دون حساب ولا حدود .

فذلك الرزق المعلوم ، نعلم طرفاً منه كما هنا وفي سائر القرآن ، ونجهل
طرفاً آخر ، فهو لنا معلوم لحد ، والله معلوم دون حد ، ولعمّاله يوم القيامة
معلوم كما يحد .

وهنا حسب السمة القرآنية يتبدىء بطرف من الرزق المحسوس، ترغيباً
لأحاسيس المؤمنين ، ومن ثم طرف كما تطرّفناه من الرزق غير المحسوس ،
وأخيراً « لمثل هذا فليعمل العاملون » :
﴿ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ^(٤٢) ﴾ .

فواكه غيرهم « كثيرة ومنها تاكلون » (٢٣ : ١٩) « فواكه مما
بشتهون » (٧٧ : ٤٢) إنها قد لا تمازجها إكراميات سواها ، أم لهم منها
قَدَرهم كجزائهم بفضلهم المقرر لهم ، فلهم مطلق الإكرام ، ولكن أولئك
لهم الإكرام المطلق دون جدّ وهم ياكلون فواكههم مكرّمين ومتفكهين .
﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ^(٤٣) ﴾

آي الجنات النعيم في سائر القرآن سبع ^(١) ، اثنتان منها - وهذه منها -
تختصان بالمخلصين والسابقين المقربين : « والسابقون السابقون . أولئك
المقربون . في جنات النعيم » (٥٦ : ١٢) والخمسة الباقية تعم المتقين ،
ولكن أين نعيم من نعيم ؟ فنعيم المخلصين المقربين هو أصل النعيم
المطلق : « صراط الذين أنعمت عليهم » ونعيم الباقيين مطلق النعيم
الفرع ، وكما هم « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » (٤ : ٦٩) .

﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ^(٤٤) ﴾

تقابلهم على سررهم في أصله لا يختص بهم ، فهو يعمهم وسائر أهل
الجنة ، وإنما يمتاز المخلصون ألا يقابلهم إلا مَنْ هو منهم لا دونهم ،
فالملكفون هناك أشنات حسب شتات الدرجات أو الدركات ولا يظلمون

(١) هذه : $\frac{٥}{٦٥}$ $\frac{١}{٩}$ $\frac{٢٢}{٥٦}$ $\frac{٣١}{٨}$ $\frac{٥٢}{١٧}$ $\frac{٥٦}{١٢}$

نقيراً ، فالمقابلة على السرر في جنات النعيم الأصلية تختص بأهلها ، مهما كانت لمن دونهم معهم لقاءات وزيارات .

وحين نجد في هذه المواصفات ما تعمهم وكل أصحاب الجنة ، تعمهم في درجاتهم ، أو أن هذه المجموعة من ميّزاتهم مهما عمتهم مفردات بسواهم .

﴿ يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ^(٥٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ^(٥٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ^(٥٧) ۝ ﴾

تُذكر خمر الجنة في آيات عدة لسائر أهل الجنة ، بمواصفات لها فصلناها في طياتها ، ولكنها هنا لا تذكر للمخلصين بلفظ الخمر ، إكراماً لهم زائداً على مَنْ سواهم من أصحاب الجنة ، وتختص لهم بـ « بيضاء » إبعاداً للونها كإسمها وسماتها عن خمر الدنيا ، ثم « لذة للشاربين » وفي تنكير « لذة » إعظام لها لحد لا يجد ولا يوصف « وأنهار من خمر لذة للشاربين » (٤٧ : ١٥) *مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي*

« لَا فِيهَا غَوْلٌ » هي ثانية البيضاء في ميّزات مَعِينِ المخلصين « ولا هم عنها ينزفون » تعمهم وسواهم : « لَا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزَفُونَ » (٥٦ : ١٩) فالنزف هي النزف ، وعَلُّ الغول - كذلك - هي التصدّع ، بفارق أن الغول هو إهلاك الشيء من حيث لا يُحسُّ به ، والتصدّع اشتقاق الرأس وصداعه من الوجع .

إنه « كأس من معين » : جارٍ - نهراً وسواه ، ما يزيد في طراوته « بيضاء » كأحسن لون وأنضرة وأنظرة للناظرين ، ففيها « لذة للشاربين » نظرة كما هي لهم طعماً وشربة ، ففيها كافة محاسن المشروب ، بما ينفي عنها كافة مضاره « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » ويُنزحون ، نزف الجسم

ونزحه ، ام نزع الروح ونزفه ، بل وتزيد في الجسم طراوة وصادرة ، وفي العقل نزاهة وعلاوة .

خمر الدنيا تخمر الجسم والعقل تنقيصاً ، وخمر الآخرة تخمر النقص والجهل تمحيصاً ، وتجعل شاربها سكراناً في الله ، غفلاناً عما سوى الله ، إذ تزداده معرفة بالله وهيماناً في الله ، وكما تبلور جسمه أكثر مما كان !

نزيف خمر الدنيا في انتزاع الجسم وافتضاح الروح ، واغتياله لكلا الجسم والروح ، يجعلها تخمر الإنسانية وتسترها ، وخلافه المضاد في خمر الآخرة يجعلها تخمر كل نقصان ، فإنها « بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها يتزفون . يتنازعون فيها كاساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٥٢ : ٢٣) .

في خمر الدنيا كل لغو وتأثيم وكل تصدع ونزف وكل غول ، وبخلافها خمر الآخرة التي تزيد شاربها كل صحة ومعرفة ، لذة حسية ومعرفية ، جسمية وعقلية أمّا هي من لذات لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ (١٨).

« هم » الذكور هنا للأغلبية الساحقة حيث المخلصات كالصديقة الطاهرة ومريم أمّ من هي ، هن بينهم قليلات ، و « قاصرات » تعم الإنسيات والهوريات والجنيات ، فإن بين الجن مخلصين كالإنس مهما اختلفت الدرجات .

و « قاصرات الطرف » عن أزواجهن ، لا تعدوهم عيونهن حتى طرقات ، لأزواجهن ، وكذلك حياتهن وعفافهن الظاهر في قصور الطرف وخفضه ، فهن اللواتي جعلن نظرهن مقصوراً على أزواجهن ، وحسن

نظرهن عليهم فلا يتعدينهم إلى غيرهم .

وإنما تقع الكناية عن ذلك بقصور الطرف ، لأن طماع الأعين في الأكثر يكون سبباً لتبعية النفوس وتطرب القلوب .
وانك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

ومن قصور طرفهن أنهن لم ينظرن قبلهم إلى أزواج آخرين :

فيهن قاطرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان ، (٥٥ : ٥٦)
و « عين » هي واسعات العيون وجمالياتها

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (٥٩).

بيض مكنون برياشها ، مخبوة عن سائر طلابها إلا أصحابها ، فلا تبتذلها الأيدي ولا العيون ، وعلها بيض النعام فإن كنها أحفظ وأستر من سائر الكين ، وهي أجمل من سائر البيض حيث يكنها الريش في عُش عيش ، فلا يمسها الأيدي ويغيرها الغبار ، فهي على صفائها كما بيضت ، بيضاء تميل إلى صفراء ، وذلك الخلط الغالب عليه البياض من محاسن النساء .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٥٠) وهم « على سرر متقابلين » يتسائلون عما مضى من حوارهم مع أصحاب الجحيم أمأذا من تساءل حبيب حميم :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ (٥١) يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا فَإِنَّا لَمُذْنِبُونَ ﴾ (٥٤) .

عرض لطرف مما مضى من المكذبين ليوم الدين ، ثم استعراض لجزاء تكذيبهم وواقعه في الجحيم أنهم فيها مدينون :

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾^(٥٤) تَطَّلَعُ إِلَى مَنْ فِي الْجَحِيمِ لِيَرَوْا مَصِيرَ الْمَكْذِبِ يَوْمَ الدِّينِ .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾^(٥٥) ووسطه ، حيث عاش في أوساط المكذبين .

أترى كيف يختار المخلص قريناً من المكذبين ؟ إنه قرين لا صديق حميم ، ولكل إنسان قرناء في الحياة جيراناً أو متعاملين ، كما كان لرسول الهدى قرناء مشركون ، ولكن المخلص لا يتأثر بسوء قرينه ، فقد يؤثر فيه أم لا يؤثر ، ولا يتأثر مهما كان قرينه من أقرباء المضللين لحد قال عنه أحد المخلصين :

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كَذَبْتُ لَتُرَدِّينِ ﴾^(٥٦)

« كذبت » من الكيد شرطاً لـ - « إِنْ » وجزاءه « لتردين » إسقاطاً إلى الجحيم كما أنت ، بتساقط عن الإيمان كما أنت ، ولكن الله صدَّ عني كيدك وميدك بنعمته « ولولا نعمة ربي ... » .

أو من كاد يكاد ، أن قربت مني مؤثراً في بكيدك لتردين « ولولا نعمة ربي ... » .

أو المعنيان معنيان ، إن قربت مني ودنوت كوداً وكيداً لتردين « ولولا نعمة ربي » .

أم « إِنْ » « إِنْ » مخففة ، والله إنك قربت أن تهلكني ، ولكنه يقتضي لام الغاية دون التأكيد ، وهنا تأكيد دون غاية ، وقد تعني « إِنْ » كلا الشرط والوصل ، كما تعني « لَ » كلا الغاية والتأكيد تغليظاً للأخير .

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾^(٥٧) .

وهذه النعمة هي التسديد العصمة فإنه مخلص من « الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » نعمة روحية قمة تعصم المنعم عليه من أية زلة ونقمة ، ومن أعلاها « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » (٦٨ : ٢) « وأما بنعمة ربك فحدث » (٩٣ : ١١) ومن أوسطها « لو لا أن تداركه نعمة من ربه لنذب بالعراء وهو مذموم » (٦٨ : ٤٩)

وتلك النعمة العصمة بأنهم من المخلصين ، تجعلهم لا يحضرون لسؤال : « فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٢٨)

هنالك رؤية القرين في الجحيم وهو المخلص في جنة النعيم تثير شعوره بجزالة نعمته ، فيفصح بميزة له أخرى عن أصحاب الجحيم : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ^(٥٨) . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ^(٥٩) . إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^(٦٠) لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ^(٦١) ۝ ﴾ .

هنا يقتصرون موتهم في الأولى التي كانت عن الحياة الدنيا ، ويحتسرونها عن مorte البرزخ وفي الحياة الأخرى ، ولمن سوى المخلصين - لأقل تقدير - موتتان أخراهما عن الحياة البرزخية : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » واعترافاً من أهل النار ، ثم هم يموتون ثانية حين تموت النار فلا نار - إذاً - ولا أهل نار .

وسائر أهل الجنة يظلون فيها « عطاءً غير مجذوذ » دوغماً انقطاع ، فلا موت لهم في الجنة كما لا خروج لهم عنها ، ولكنهم ماتوا كسائر المكلفين مorte ثانية هي الحياة البرزخية :

« ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله » فالمخلصون هم ممن شاء الله ألا يصعقوا بالصيحة الأولى وسائر أهل الحشر يصعقون .

فللمخلصين موة واحدة ، وللمخلصين موتان ، وللمجرمين ثلاث
ولات حين خلاص^(١) « إلاموتنا الأولى » إستثناء منقطع عن « ما نحن
بميتين » بلا إتصال ، فإن المستثنى منه حان حينه منذ دخولهم في الجنة فكيف
تستثنى منه « الموة الأولى » إذا فهو إستثناء حاصر فوق المتصل أن ليست لهم
موة بعد الحين وإن كانت فهي الأولى التي سلفت .

« وما نحن بمعدين » في النشأت الثلاث ، لا في الأولى كفارة وذكرى
إذ لا خطأ ولا عصيان ، ولا في البرزخ أو الأخرى جزاءً وفاقاً ، لأنهم
مخلصون لا سثوال عنهم ولا عذاب ، إلا الرحمة القمة في جنة النعيم
الرضوان « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » (٦ :
١٢٧)

« إن هذا » الرزق المعلوم بحدافيره المسروقة في طرف منه « هو الفوز
العظيم » و « لمثل هذا » الفوز العظيم والرزق القمة الكريم « فليعمل
العاملون » كلام حق لهم ، مهما كان كلام الحق أو كلامهم ، فإنه إعلان
قرآني صارخ في أعماق التاريخ .

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٣ ح ٣١ - القمي سندني أبي عن علي بن مهزيار والحسن بن
عجوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر (صل الله عليه
وآله وسلم) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جرى بالموت فيذبح
كال كبش بين الجنة والنار ثم يقال : خلود فلا موت أبداً فيقول أهل الجنة « أفما نحن
بميتين ... » .

أقول : هنا توسعة لمقال المخلصين الى سائر أهل الجنة تعني انهم لا يموتون بعد ذلك
أبداً ، ولم يذبح في البرزخ حتى لا تشمل موته غير المخلصين ، وتوسعة أخرى ذبح
الموت بالنسبة لأهل النار ، فالبعض منهم يخرجون الى الجنة فكأهل الجنة ، والخالدون
أبداً لا يموتون مع بقاء النار معها ماتوا مع النار .

في ذلك الحتام لعرض من رزق معلوم للمخلصين ، هم يعتبرون مكانتهم قمة عليا يحتذى بها ويقتدى ، فـ « العاملون » تستغرق كل العاملين لله ، ولو كان فيهم من هو أرقى وأحرى بالقمة العليا ، لكان « مثل هذا » خطأ في عمومها !

﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴾^(٦٢).

« أذلك » الرزق المعلوم « خيرٌ نزلًا » : مقدمة الضيف النازل ، ونزولاً في يوم الله إلى دار الله « أم شجرة الزقوم » وهي من الشجرة الملعونة في القرآن : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن » ، (١٧ : ٦٠) .

والزقوم هي شديدة الكراهية الكريمة التنتنة العفنة ، وفي سائر القرآن ثالث من ذكرى أليم من الزقوم ، هذه و « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم (٤٤ : ٤٣) » ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لا تكون من شجر من زقوم . فمالتون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين » (٥٦ : ٥٦)^(٦١).

وللزقوم جرس اللفظ المعلن لجرس المعنى وملمسه ، كرية بأشدّه وشائك في أشدّه ، بعيد عن التصور ، ناء عن التصديق ، فهو أكره طعام وأنته ، يأتي في ثالث الآيات وثالث الصفات :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾^(٦٣) إِنَّا شَجَرَةً تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ^(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ^(٦٥) .

(١) راجع تفسير آيات الواقعة في ج ٢٧ ص ٨٠ وآيات الدخان في ج ٢٥ .

هي فتنة للظالمين أيًا كانوا وفي أي من الحياتين الأولى والآخرى ، فهنا يقولون هازئين بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما عن أبي جهلهم : « يا جارية زقمينا ، فأنته بتمر وزبد ، فقال لأصحابه : تزقموا بهذا الذي يخوفكم محمد فيزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر ، فأنزل الله « إنا جعلناها فتنة للظالمين » (١) .

الظالم الناصر ليوم الدين يزيد له نكراناً إذ يسمع شجرة الزقوم بمواصفاتها ، أين الشجرة والنار بأشدها في أصل الجحيم ، وهي تحرق بأخف النار؟! وما يفيد تمثيلها في طلوعها برؤوس الشياطين ، ولم ير أحدنا الشيطان!؟

إن حماقي الطغيان وآباء الجهالات تجاهلوا القدرة الخلاقة للشجر والنار ، وقد « جعل من الشجر الأخضر ناراً فمته توقدون » ! وقد تكون شجرة الزقوم من جنس النار فلا تحرق بالنار بل وقد تزيد في حرقة النار ! .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

ومهما لم ير أحد رؤوس الشياطين ، يرون في أنفسهم أنها أقبح الرؤوس فيما يرون ، وكفى الشجرة هولاً أنها في بعدي الجهالة من كيانها : شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلوعها كأنه رؤوس الشياطين .

إنها أكلة رؤوس الشياطين ، فلتكن كرؤوس الشياطين ، وإنهم وقود النار وأصولها فلتخرج هي من أصل الجحيم ، رأساً برأس وأصلاً بأصل . وكما أن عدّة الزبانية للجحيم - التسعة عشر - فتنة للذين كفروا ، ومزيد إيمان للذين آمنوا ، كذلك شجرة الزقوم بأصلها في أصل الجحيم ،

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٤ ح ٣٢ في المجمع في رواية الزقوم بلغة البربر التمر والزبد فقال أبو جهل لجارته : ...

هنا هي فتنة للظالمين كما فتوا ، وواقع الفتنة العذاب لهم في أصل
الحميم .

صحيح أن الناس لا يعرفون رؤوس الشياطين ، ولكنها مفزعة كما
الشياطين ، ومجرد تصورهما في غيبتها يثير الفزع والجزع ، فكيف إذا كانت
طلعاً يتطلع لطلع أكلتهم ، وإذا كان طلوعها كأنه رؤوس الشياطين فماذا -
إذا - سائرهما الذي أجمل عنه .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْلُونُ مِنْهَا فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ^(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا
لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ^(٦٧) ﴾ .

عندما تشوكهم شائلة الأكلة المائلة من هذه الشجرة الملعونة ، حارقة
بطونهم ، تطلعوا - بطبيعة الحال - إلى شراب يخفف عن وطئها ، ويطفف
عن وقعها ، فإذا لهم بشوب من حميم يشوبها ، فهو يغلي كما تغلي ، شوباً
ثنائياً من غلي البطون : « إن شجرة الزقوم طعام الأليم . كالمهل يغلي في
البطون كغلي الحميم » - (٤٤ : ٤٣)

« فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم » (٥٦ : ٥٥)

شوب الحميم داخلي إذ شابه ما يحمّه أكثر من نفسه ، وخارجي إذ
شابه شجرة الزقوم ، وثالثه ثالوثهم في عذابهم الأليم أنه « شرب الهيم »
وهل لهم مرجع يرجعون إليه ويلجئون ؟

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ^(٦٨) إِنَّهُمْ أَلْقَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ^(٦٩) فَهُمْ عَلَى
آثَارِهِمْ يُرْغَوْنَ ^(٧٠) ﴾ .

الحميم : النار الشديدة التاجج ، هي مرجعهم فتنحرقهم بعدما
احترقوا بتزلهم ف- « إنهم ألقوا » ووجدوا « آباءهم » القدامى « ضالين »
ورغم ضلالهم « فهم على آثارهم » في الضلالة « يرعون » ويسرعون ،

فكما كان مرجعهم في الاولى آباءهم الضالين ، كذلك يوم الدين « مرجعهم
إلى الجحيم » ، وبذلك يختم مشهد الظالمين وكأنه طرف من واقعهم
المشهد !

فما الحياة الآخرة إلا صورة واقعية عن الحياة الدنيا ، اللهم الا فضلاً
للذين احسنوا ف - « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ

نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ

الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ لَهُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾

وَوَرَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي

الْعَالَيْنِ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ

مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

* وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾

أَفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَاظْنُكُم بِرَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي
 سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِمْ
 فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ
 عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
 أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
 قَالُوا أَبْنَاؤُا لَهُ بُنَيْنًا فَاتَّقَوْهُ فِي الْأَجْهِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ
 كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ
 رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾
 فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
 يَبْنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ
 قَالَ يَنْتَابِتِ أْفَعْلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ
 الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ
 أَنْ يَكْلِمِ بَرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
 وَقَدَيْتُهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَرَكَّعَ عَلَيْهِ فِي الْأَعْرِينَ ﴿١٠٨﴾
 سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
 إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرَتْهُ بِإِصْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
 الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
 مُحْسِنٌ وَظَالِرٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٧١) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ (٧٢) ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (٧٣).

وتلكم الأكثرية الضالة دالة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، رغم تواتر الإنذار من المنذرين ، فكان ضلالهم معمداً بعد التحذير والإنذار ، « فانظر ، نظراً في عمق الغابر » كيف كان عاقبة المنذرين « المصدقين منهم والناكرين :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٧٤).

فهم بينهم لم تكن لهم عاقبة إلا الحسنى ، رغم السائرين من مكذبين ، أو مصدقين قاصرين أو مقصرين ، حيث نالوا ما قصرُوا أو قصرُوا شطراً في الأولى « ثم يجزاء الجزاء الأوفى » ! والإستثناء يعم « مَنْ

صل « و » المنذرين « فإن للشيطان سبيلاً الى غير المخلصين مهما كان لما أو كبيرة .

ومن هنا استعراضات وجيزة لعاقبة المنذرين والمنذرين ، من مخلصين وسائر المؤمنين أو المكذبين ، بادئاً بأول المرسلين العظام نوح عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾^(٧٥) .

نداء وإجابة مهما كان بينهما من بون كما تقتضيه الحكمة الإلهية ، ومن ندائه « فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ... فحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » (٥٤ : ١٤) « قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ... بما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً .. (٧١ : ٢٨) والجمع في « نادانا » و « المجيبون » يعني جمعية الصفات جلالاً بسحق الكافرين ، وجمالاً بنجاة المؤمنين « فلنعم المجيبون » لمن هو نعم العبد . « صدقت ربنا أنت أقرب من دُعي وأقرب من يعطي فنعم المدعي ونعم المعطي ونعم المسؤول ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير »^(١) .

﴿ وَتَجَنَّبْهُمْ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾^(٧٦) وَجَعَلْنَا فَرْيَتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ^(٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ^(٧٨) .

هذه ثلاث إجابات لما دعا نوح (عليه السلام) بين نفي لغير أهله وإثبات لأهله ، وأهله - هنا - الأهلون للنجاة ، من أهله في النسب وأهله

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٧٨ - اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » قال : صدقت ربنا ...

في الإيمان ، فلم ينجُ فيمن نُجِّيَ ابنه وإمراته وهما أقرب أهله نسبياً ، وقد نُجِّيَ مَنْ آمَنَ به مهما كانوا أبعد عنه في النسب ، فإنما الأهل هنا أهل الإيمان ، سواء فيهم أقاربه وأغاريه : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » (١١ : ٤٠) « فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين » (١١ : ٤٦) .

ترى وإذا كان أهله أعم من ذريته فماذا تعني « وجعلنا ذريته هم الباقين » وابنه من ذريته وقد هلك ، والمؤمنون القلة غير ذريته وقد بقوا ؟

فهل هم ذرية الإيمان كما أهله ؟ فلماذا التحول من « أهله » إلى « ذريته » ؟ علماً تعني ذرية أهله فإنهم ذريته إيمانياً كما هم أهله : « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً » فلم يكن الباقون بعد طوفان نوح إلا من انتسل من أهله وذريته المؤمنين وسائر من آمن معه ^(١) .

وعلم من آمن معه كانوا هم أو أكثرهم من ذريته ، فـ « أهلك » في يونس مقابل « من آمن » تعني الأقربين ، والآخرين هم سائر ذريته ^(٢) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٥ ح ٣٦ علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية يقول : الحق والنبوة والكتاب والإيمان في عقبه وليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح قال الله عز وجل في كتابه « احمل فيها من كل زوجين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » وقال الله عز وجل أيضاً « ذرية من حملنا مع نوح » .

(٢) الدر المنثور - اخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : سام وحام ويافث - اقول وقد اخرج ما في معناه جماعة آخرون عن سمرة وابن هريرة .

أم إن المحمولين معه كانوا من ذريته وغيرهم ، ولكننا الباقين لم يكونوا إلا ذريته مهما شملتهم النجاة عن الفرق ؟ فلماذا إختصاص البقاء ببعض المحمولين ولم يختصوا بالإيمان ، وعُلّ منهم من كان أفضل من ذريته ؟ علّهم ماتوا في السفينة فلم تنسل لهم ذرية وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في روايات عدة ، وهي توافق ظاهر آية الذرية .

ترى وماذا ترك عليه في الآخرين ؟ ومن هم أولاء ؟

علّ الآخرين هم سائر حملة الدعوة الرسالية بعد نوح من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن بينهم ، وقد ترك الله وخلّد دعوته العالمية بين سائر الخمسة الذين دارت عليهم الرحى ، فربط بينهم برباط الدعوة الوحيدة الموحدة ، أو يعني « تركنا عليه في الآخرين » ترك الدعوة ضده لكان « على » وكما ترك عليه سلاماً في الآخرين .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ^(٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ^(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ^(٨٢) ﴾ .

فسلام عليه دائم في العالمين إلى يوم الدين دونما انقطاع لذكراه المجيدة الوطيدة الصامدة فإنه أول من انتفض في دعوة باهضة فائزة ، بمقاساة أشد البلايا والفتن طول الدعوة ، فله نصيب من كل خير وسلام إلى يوم القيامة !

وإنه سلامٌ من الله ومن أهل الله « في العالمين » من الملائكة والجنة والناس أجمعين أم أياً من المكلفين ، « إنا كذلك » الواسع الفاسح « نجزي المحسنين » فـ « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

وانه سلامٌ جزاء الإحسان لـ « انه من عبادنا المؤمنين » إيمان السلام والتسليم فله السلام كما سلم ، ومن ثم لمن معه وتابعه « ثم » بعدما نجيناه وأهله من الكرب العظيم « أغرقنا الآخرين » وهم غير أهله ، :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ^(٨٣) ﴾ .

فإبراهيم ممن شايع نوحاً في دعوة التوحيد ، وفاقه فيها ، فقد يشايح الأعلى الأدنى كما الأدنى يشايح الأعلى ، أو هما يتساويان ، فلا تعني المشايعة لأحد تفاضلاً في المشايح عليه ، إلا نفس التوافق في سلك واحد ، ومن الأدنى شيعة موسى « فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه » (٢٨ : ١٥) وشيعة علي (عليه السلام) ، وإن شيعة الحق قد تكون متاخرة في الزمان لا في المكانة كإبراهيم بالنسبة لنوح ، وقد تتقدم في الزمان وتتأخر في المكانة كالنبيين أجمع بالنسبة لخاتم النبيين ، وبهذا الاعتبار يعد إبراهيم في عداد شيعة علي (عليه السلام) وهذا تاويل ^(١) وذلك تفسير .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٢٠ ح ٢ شرف الدين النجفي قال روى عن مولانا الصادق (عليه السلام) انه قال قوله عز وجل « وإن من شيعته لإبراهيم » أي إبراهيم من شيعة علي (عليه السلام) قال ويؤيد هذا التاويل ما رواه الشيخ محمد بن الحسن عن محمد بن وهبان عن أبي جعفر محمد بن علي بن رحيم عن العباس بن محمد قال حدثني أبي عن الحسن بن أبي حمزة عن أبي بصير يحيى بن أبي القاسم قال سأل جابر بن يزيد الجعفي جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عن تفسير هذه الآية « وإن من شيعته لإبراهيم » فقال إن الله سبحانه لما خلق إبراهيم (عليه السلام) كشف له عن بصره فنظر فرأى نوراً إلى جنب العرش فقال : إلهي ما هذا النور؟ فقبل هذا نور محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) صفوتي من خلقي ورأى نوراً إلى جنبه فقال إلهي وما هذا النور؟ فقبل له : هذا نور علي بن أبي طالب ناصر ديني ورأى إلى جنبها ثلاثة أنوار فقال إلهي وما هذه الأنوار فقبل هذه نور فاطمة فطمت عينيها من النار ونور ولديها الحسن والحسين فقال إلهي وأرى تسعة أنوار قد صفوا بهم قيل يا إبراهيم هؤلاء الأئمة من ولد علي وفاطمة فقال إبراهيم إلهي بحق هؤلاء الخمسة إلا ما عرفتني من التسعة

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾^(١)

ومتى أصبح إبراهيم من شيعة نوح في دعوته المخلصة ؟ «إذ جاء ربه» حين جاء كداعية « بقلب سليم » عما سوى الله، خالياً عن حب غير الله والإلتجاء إلى من سوى الله ، تاماً في عبة الله ، طاماً من يم معرفة الله ! الذي يلقي الله وليس فيه أحد سواه »^(٢) خالياً عن كل شك وشرك جلي أو خفي بالله ، بريئاً عن كل تعلق بغير الله ، في قمة عالية من توحيد الله والفناء في الله والبقاء بالله .

وإنه تعبير بسيط-لا تعقيد فيه-عن كافة معاني الإخلاص في الجوارح والجوانح ، حيث القلب إمامها كلها^(٣) فإذا سلم سلمت كلها على قدر

ف قيل يا ابراهيم اولهم علي بن الحسين وابنه محمد وابنه جعفر وابنه موسى وابنه علي وابنه محمد وابنه علي وابنه الحسن والحجة القائم ابنه فقال ابراهيم الهي وسيدي اري انواراً قد احدثوا بهم لا يحصى عددهم الا انت ؟ قيل يا ابراهيم هؤلاء شيعتهم شيعة امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) فقال ابراهيم وبما تعرف شيعة فقال : بصلاة احدي وخمسين والجنهر بيسم الله الرحمن الرحيم والقنوت قبل الركوع والتختم في اليمين فعند ذلك قال ابراهيم اللهم اجعلني من شيعة امير المؤمنين قال فاخبر الله في كتابه فقال : « وان من شيعة لابراهيم » .

وفيه عن تفسير الامام ابو محمد العسكري (عليه السلام) قال رجل لعلي بن الحسين يا ابن رسول الله انا من شيعتكم الخاص فقال له يا عبد الله فاذا انت كابراهيم الخليل (عليه السلام) اذ قال الله تعالى « وان من شيعة لابراهيم . اذ جاء ربه بقلب سليم » فان كان قلبك كقلبه فانت من شيعتنا وان لم يكن قلبك كقلبه وهو ظاهر من الغش والغفل والا فانك ان عرفت ان بقولك كاذب فيه انك مبتل بفالج لا يفارقك الى الموت او جذام ليكون كفارة لكذبك هذا اقول وفيه روايات اخرى مفصلة في شروط الشيعة فراجع .

(١) القمي في تفسيره قال قال : ...

(٢) في الكافي باسناده عن الامام الصادق (عليه السلام) : القلوب ائمة والعقول ائمة الافكار والافكار ائمة الحواس والحواس ائمة الاعضاء .

القول

سلامته، وهو يؤدي على إجماله وجماله أوسع مما تؤديه تعبيرات هذه الصفات المتعاليات .

وإن مجيئه ربه بقلبه هو مجيئه بكل كونه وكيانه حيث القلب يقبّل كله ، فقد جاء ربه متجلياً بكافة التريبات الربوبية بكل وجوده .

إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ودعا العالمين إلى قلب سليم « ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » (٢٦ : ٨٩) ومن مظاهر ذلك المجيء صراعه في حوار صارم وعملية صارمة في أوسع ميادين الشرك وأخطرها :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تُعْبُدُونَ ^(٨٥) أَثْنُكَآ آلهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ^(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٨٧) ۞

جولة خاطفة سريعة من حوارهِ ، وإلى تجواله وسبعة عملية بين الأصنام ، ما حمل عبديها يترقبون به كل دوائر السوء .

في حين يراهم عاكفين على أصنام لهم يتسائلهم في هتاف وانعكاف إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، مستنكراً تحجّجهم عنها « ماذا تعبدون » دون « من ذا » ، مُلمحاً أنها لا تشعر ! فما هي - إذاً - حال عابديها ؟

ثم وقبل أن يذكرها كما يلفظون « آلهة » يهدم صرح ألوهيتها في تخيلهم الهابط الخابط : « أثنكآ آلهة دون الله تريدون » فكل آلهة دون الله إفك مفترى ، وكذب مخلق ، لا تملك أية برهنة في عساكر البراهين ! وفي بدلية « آلهة » عن « إفكآ » - دون عكس - إشارة إلى أنها ليست إلاً إفكاً ، فكل كيانه إفك ليس إلا ! وإذ تعبدون ما تحتون « فما ظنكم برب العالمين » كيف - إذاً - تعبدونه وأنتم عابدوا خلقه ، وكيف تلاقونه وأنتم به مشركون ، وهو أقبح ظلم وأشنعه !؟

وفي جمع الخطاب « لآبيه وقومه » قطع للميزات والمفاصلات في المدعوين إلى الله لكل داعية قاطعة .

وأبوه هو عمه أو جده لأمه دون والده إذ فقدته في طفولته فقام عمه مقامه في كافة شئون الأبوة ، فرغم أنه عاش جو الشرك داخل بيته وخارج بيته ، يصبح أصرم محارب وأصرحه ضد البيت والبيئة .

ولأنه في حملته الصارمة العامة الشاملة بحاجة إلى خلق جو يسمح له بعد حجاج الكلام تحقيق حجاج العمل الجبار في كسر الأصنام ، فماذا يصنع - إذاً - إلا أن يتأخر عن خروجهم لعيد لهم في إعتذار ، بمكر صادق جبار ، يجعله مع الأصنام دونما حاجز لكسرهم ولا صدام :

﴿ فَتَنْظَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ^(٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ^(٨٩) . ﴾

أترى كان به سقم ؟ وما هي رباطه بنظرة النجوم ؟ .. « والله ما كان سقيماً وما كذب » ^(١) . « إنما عني سقيماً في دينه مرتاداً » ^(٢) وهذه تقية ^(٣) التوربية أن تلفظ بأمر وتعيي بخلاف الظاهر منه ، فالكذب محرم على أية

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٦ ح ٤٦ في روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال أبو جعفر (عليه السلام) عاب آلهتهم « فتظر نظرة في النجوم . فقال اني سقيم » قال أبو جعفر : والله ...

(٢) المصدر ح ٤٢ في كتاب معاني الاخبار باسناده الى صالح بن سعيد عن رجل من اصحابنا عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له : قوله تعالى : اني سقيم فقال : ما كان ابراهيم سقيماً وما كذب إنما عني ...

(٣) المصدر ح ٤٥ عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال : التقية من دين الله قلت : من دين الله ؟ قال : اي والله من دين الله ، ولقد قال يوسف ايها العير انكم لسارقون والله ما كانوا سرقوا شيئاً ولقد قال ابراهيم اني سقيم والله ما كان سقيماً « اقول هم سرقوا يوسف وهو غير ظاهر العبارة ، و ابراهيم كان سقيماً في روحه عنهم وهو غير ظاهر العبارة ، وفيه عن روضة الكافي عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر =

حال ، وفي اضطرار التقية لا نحل إلا التورية كما فعلها إبراهيم في قوله «إني سقيم» والرواية القائلة أنه (عليه السلام) كذب^(١) مضروبة عرض الحائط ، فما دار الأمر بين كذب إبراهيم وكذب الراوية عنه فكذبها أخرى من كذبه (عليه السلام) .

إنهم هموا بالذهاب خارج البلد إلى عيد لهم جامع ، فطلبوا إليه مرافقتهم فأبى معتذراً «إني سقيم» وقد كان يهددهم بكسر أصنامهم: «وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين» (٢١ : ٥٧) فهل تناسوا تهديده في قبول عذره ، أم استهانوا به أنه قوله جوفاء لا يتجراً على تحقيقها ؟ على أية حال قبلوا عذره ، وهو عاقد عزمه على أن يهدم صرح آلهتهم ويقوض عروش معبوداتهم بهذه الصراحة والجرأة المسبقة والإعتذار الملحقة ، رأى أن حجته القولية وإن وضحت وضح الشمس في رابعة النهار ، ولكنها لا تنبت في أراضي قلوبهم الجُرُز نباتاً

فأراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم ، وجواسهم مع أفئدتهم في تفهّم عقيدته علّمهم بثوبون إلى رشدهم وثوبون عن غيهم .

لذلك وهو يهدف الهدف العظيم يضطر إلى إدعاء العلة عن

(عليه السلام) وأنا عنده أن سالم بن أبي حفصة وأصحابه يروون عنك أنك تكلم على سبعين وجهاً لك منها المخرج ؟ فقال : ما يريد سالم مني ؟ أيريد أن أجيبه بالملائكة والله ما جاءت هذا النيون ولقد قال إبراهيم (عليه السلام) إني سقيم وما كان سقيماً وما كذب .

(١) في التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٤٨ قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم (عليه السلام) كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنه قال « ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل

مصاحبته ، ويتظاهر بالسقم وما كان سقيماً في بدنه ، وإنما كان سقيم النفس ، كاسف البال ، يتقطع فؤاده حزناً على ضلال قومه المبين ، ويتميز غيظاً أنهم لم يلبوا نداءه ويصغوا إلى دعوته ، أم وإضافة إلى سقمه هذا الحالي ينظر إلى سقم استقبالي :

إني سوف أموت ^(١) ولم أحقق بغيتي في تحقيق دعوتي ، والموت في تحسر سقم على سقم !

أم إني سوف أسقم ، وهذه طبيعة الحال لكل إنسان أن يعرضه سقمٌ ما في كل مستقبل . . أسقام كلها صادقة في حال واستقبال ، في جسم أو حال ، اللهم إلا أسقم الجسم في الحال إذ لا رباط له بالنظر في النجوم .

وأما نظرتي في النجوم ، فليست إلى نجوم السماء رؤية ظاهرة ، وإنما نظر . . في «عللها تضاهي حجاجه الأول» هذاري «مسيرة ظاهرة ومحاكاة» ، وفقاً كانوا يزعمونه من دلالات النجوم على ما ستحدث من أحداث مستقبلية ، إذ كانوا يحسبونها من أسباب الأنواع ، وهذه الأوثان تمثلها بمتناول أيدي عابديها ، ولكي يقضي على هذه المزاعم الفاسدة بعد إذ جعل الأصنام جذاذاً ، والنجوم تعليمه وتعلمه والبناء عليه محظور ^(٢) إلا

(عليه السلام) كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوي اولى .
(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٦ ح ٤٣ في كتاب معاني الاخبار وقد روى انه عنى بقوله «إني سقيم» إني ساقم وكل ميت سقيم وقد قال الله همز وجل لنييه (صلى الله عليه وآله وسلم) : انك ميت اي ستموت .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤٠٧ ح ٥٠ في كتاب جعفر بن محمد الدورستى باسناده الى ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : اذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر اصحاب فامسكوا واذا ذكر النجوم فامسكوا وفيه ٥١ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال له السائل : فما تقول في علم النجوم ؟ قال : هو علم قلّت منافعه وكثرت مضاره لأنه لا يدفع به المقدور ولا يُتقى به المحذور ان خبر المنجم بالبلاء لم ينجمه التحرز في القضاء وان خبره هو بخير لم

= يستطيع تعجيله وان حدث به سوء لم يمكنه صرفه والمنجم يضاد الله في علمه بزعمه أنه يرد قضاء الله عن خلقه وفيه ٥٢ عن سعيد بن جبير قال : استقبل امير المؤمنين (عليه السلام) دهقان من دهاقين الفرس فقال له بعد التهئة يا امير المؤمنين (عليه السلام) تناسحت النجوم الطالعات وتناسحت السعود بالنحوس واذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ويومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان وانقذ من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان قال امير المؤمنين (عليه السلام) ويحك يا دهقان المنىء بالآثار المحذر من الأقدار ما قصة صاحب الميزان وقصة صاحب السرطان وكم المطالع من الاسد والساعات في المحركات وكم بين السراى والذراى ؟ قال : سأنظر واومى بيده الى كفه وأخبرته أسطرلاباً ينظر فيه فتبسم صلوات الله عليه وقال اتدري ما حدث البارحة ؟ وقع بيت بالصين وانفجر برج ماجين وسقط سور سرنديب وانهمز بطريق الروم بارمينية وفقد ديان اليهود بابل وهاج النمل بسوادي النمل وهلك ملك افريقية اكنت عالماً بهذا ؟ قال : لا يا امير المؤمنين (عليه السلام) فقال : البارحة سعد سبعون الف عالم وولد في كل عالم سبعون الف عالم والليلة يموت مثلهم وهذا منهم واومى بيده الى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه الله وكان جاسوساً للخوارج في عسكر امير المؤمنين فظن الملعون انه يقول تحذوه فاحذ بنفسه فمات فخر الدهقان ساجداً فقال امير المؤمنين (عليه السلام) ألم اروك من عمن التوفيق قال بلى يا امير المؤمنين فقال انا وصاحبي لا شرقيون ولا غربيون ونحن ناشئة القطب واعلام الفلك اما قولك انقذ من برجك النيران فكان الواجب ان تحكم به لي لا علي اما نوره وضيائه فعندي واما حريقه ولهبه فلهذا فذهب عني وهذه مشكلة عميقة احسبها ان كنت حاسباً

وفيه ٤٩ في من لا يحضره الفقيه وروى عن عبد الملك بن اعين قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) اني قد ابتليت بهذا العلم فاريد الحاجة فاذا نظرت الى الطالع ورأيت طالع الشر جلست ولم اذهب فيها واذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة فقال لي : تقضى ؟ قلت نعم قال : احرق كتبك وفيه عن الاحتجاج ٥٣ روى انه (عليه السلام) لما اراد المسير الى الخوارج قال له بعض اصحابه ان سرت في هذا الوقت خشيت ان لا تنظر بمرادك من طريق علم النجوم فقال (عليه السلام) اتزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه سوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل =

فيسمى لا يعارض قضاء وقدرًا من محاسبات الخسوفات والكسوفات والزلازل في احتمال دون قطع !

« نظر في النجوم ، ظاهراً ، واستطلع منها متظاهراً انه سيسقم حين الخروج ام بعده ، ام « نظر في النجوم » نظرة الاعتبار بأقوالها وحركاتها فحدوثها وعدم ألوهتها وربوبيتها ، فسقم روحه وتأثر من ضلال عابديها ، ضمير في ضميره أن نظرة واحدة في النجوم التي يحسبونها أرباب الانواع تنبه الإنسان أنها مربية لرب السماوات والارض ، فسقم روح الإنسان بأحاسيسه المفكرة العاقلة أن كيف يعبدها ذلك الجحيم الغفير من الناس .

ومن شفاء ذلك السقم الحالي أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين ، وما كيد إلا قوله « إني سقيم » حتى يتركوه ، وأن « جعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » .

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ (٩٠)

« تولوا عنه » يعذرونه في ترك مصاحبتهم ، غير معتنين بشانه ، صاحبهم أم تركهم « مدبرين » عنه إستهانة به ، وإلى عيدهم إعثناءً بشانه ، ناسين أو متناسين أنه تهددهم بكيد أصنامهم ، وما هو يكيدهم في « إني سقيم » ويكيدهم « ضرباً باليمين » !

﴿ فَرَأَى إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٩١) مَالَكُمْ لَا تَنْتَفِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ .

= المحبوب ودفع المكروه وينبغي في قولك للعامل بامرك ان يولييك الحمد دون ربه لانك بزعمك انت هديته الى الساعة التي نال فيها النفع وامن الضر ايما الناس اياكم وتعلم النجوم الا ما يبتدى به في بر او بحر فانها تدعو الى الكهانة المنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكاfer والكافر في النار سيروا على اسم الله وعونه .

والرَّوْغُ هو الميل على سبيل الإحتيال والتخفي : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » (٥١ : ٢٦) وقد كان لإبراهيم في بيت الأصنام روغان ، رَوْغ « إلى » ذهاباً إليها متخفياً ، علَّ هناك عيوناً تنظر « فقال ألا تأكلون » من طعام قدمه هو أم كان حاضراً كما كانت ستهم في تقديم الأطعمة لآلهتهم ، ولا بدّ لآلهة مجسمة وهي تماثيل ذوي الأرواح لا قل تقدير حياة للأكل ، إبقاء لها ويُعدّأ عن موتها ، فلما لم تَجر جواباً قال « ما لكم لا تنطقون » ؟ آلهة أموات خرس لا ياكلون ولا ينطقون ؟ فكيف هي إذا آلهة وهي أدنى كمالاً من المألوهين ؟ وهو حجاج على الآلهة بعد الحجاج على المألوهين ، وله فيهما الحجة البالغة ولا يملك إلا قضاء واقعاً على الآلهة لكي يظل المألوهون دون آلهة علّهم يتبهون .

ومن ثم رَوْغ « على » ذهاباً للقضاء عليها رَوْغاً ثانياً عليها « ضرباً باليمين » !

يرى جواً خالياً عن رصد العيون ، فيدلف إلى أصنامهم فيجد باحة قد اكتظت بالتماثيل وانتشرت في أرجائها الأصنام ، فيخاطبها محترماً لشأنها ، شائناً لعبدها « ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون » وأنّ للجماة أن يأكل أو ينطق ، فأخذ يلطمها بيده ، ويركلها برجله ، وتناول فأساً وهوى عليها يكسرها جذر مذر ومحطمها « فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون » (٢١ : ٨٥) فيسألوه عن انتهك حرمة الآلهة ليرجعوا إلى أنفسهم ما هولاء ياكلون ولا ينطقون فكيف يُعبدون ؟ !

ولقد كان حقاً « ضرباً باليمين » بيمين القدرة ويمين الصدق ويمين الدين وباليمين الذي سلف منه : « تالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ويا لها من معركة صاخبة صارخة أعماق أسماع التاريخ ، مقتل الآلهة التي كانوا يعبدون ، وقد شفى من نفسه سقياً كان يشكوه :

﴿ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُقُونَ ﴾ (٩٤) .

وكيف أقبلوا إليه دون بيوتهم وأشغالهم ولا يعلمون ماذا فعل بأهلهم ؟
 عليهم تسامعوا بالخبر ، أم خنوا تحقيقاً لتهديد إبراهيم ، فلذلك أقبلوا إليه
 يزفون : يسرعون حاملين أصحابهم على الزيف لمعرفة الحال بكل عجال ،
 وهم جمع كثير هائج ، وجسم غفير مائج ، وهو فرد واحد لا يخاف إلا ربه ،
 فهو أقوى من هذه الكثرة وهم إليه يزفون : « قالوا من فعل هذا بأهلنا إنه
 من الظالمين . قالوا سمعنا فليذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على
 أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بأهلنا يا إبراهيم .
 قال بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم
 فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء
 ينطقون . قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم
 ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . . . » (٢١ : ٦٧) :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ^(٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ^(٩٦) ﴾ .

كيف تعبدون ما تنحتونها أنتم ، عبادة الصانع للمصنوع والخالق
 للمخلوق ؟ فإن حقت في هذا البين عبادة فلتعبدكم ما تنحتون ! ثم لا
 عبادة في هذا البين « والله خلقكم » الناحتون « وما تعملون » أهلكم التي
 تنحتون « فإن الله صانع كل صانع وصنعه » ^(١)

تلك - إذا - عبادة تمجها الفطرة ويرفضها العقل وكافة الموازين العقلية
 وسواها ! وبها من حجة بالغة دامغة قد صفعهم بها صفقة نبهتهم عن
 هفوتهم ، وأيقظتهم عن غفوتهم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون في
 أنفسهم قائلين « إنكم أنتم الظالمون »

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٧٩ - أخرج البخاري في خلق أفعال العباد والحاكم والبيهقي
 في الاسماء والصفات عن حذيفة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان
 الله . . . وتلا عند ذلك « والله خلقكم وما تعملون » .

ليس « ما تعملون » هو نفس العمل ايا كان فإنه غير لا مسير ، وإنما هو حاصل العمل « ما تنحتون » وكل صنعة ، فان مادته مخلوقة ، وأنتم بقُدْرَاتِكُمْ وأفعالكم مخلوقون ، مهما بان خلق عن خلق تخييراً وتسييراً ، فـ « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين » ولو كان « ما تعملون » نفس العمل لكان جبراً فعذراً لعمل الأصنام وعبادتها ، لا حجة عليهم في تنديد ! ثم خلق الأعمال تسييراً من الله لا رباط له إبطالاً لـ « أتعبدون ما تنحتون » وإنما هو التخيير ، فهم باختيارهم ينحتون ويعبدون ما ينحتون ! .

هنالك دحضت مزاعمهم، وزُيِّفت آمالهم، فلم يجدوا بداً وجاه حجة إلا أن يحرقوه كما أحرق أكبادهم :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ^(٧٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ^(٧٨) ﴾ .

« قالوا حرقوه وانصروا الهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين . ونجيناه لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » (٧١ : ٧٨) .

فيا لبنائهم الجحيم وجحيم البنيان من أجيح النار ، تمثل فيه حرقه أكبادهم ، فقد كان لأحدهم أن يحرقه بقليل النار ، ولكنهم أجمعوا ليتشاركوا في حرقه كما أحرق أكبادهم جميعاً ، ولكنهم خاب سعيهم حيث جعلوا الأسفلين الأخرسين ، وتلمع إبراهيم الخليل أكثر مما كان حجة عملية على حججه ، كما عارضوه عملياً رغم حججه ! وأين يذهب كيد العباد المهازِيل أمام صيانة الله للخليل إلا إلى أنفسهم في كل ترذيل بكل سفالة وخسار جهنم يصلونها وبش القرار !

لقد كانوا بشركهم سافلين وخاسرين ، فاصبحوا بدائرة السوء على
إبراهيم أسفلين وأخسرين .

إذ دحضت حججهم عملية بعد دحضها قولية ، خساراً إلى خسار
وسفلاً إلى سفال !

ليس لحماقي الطغيان أمام دعاة الحق إلا منطق السيف والنار ، عندما
تعوزهم كل حجة وتخرجهم كلمة الحق :

« إنسوا له بنياناً فألقوه في الجحيم » ! ولم تجر سنة الله على خرق
العادات إلا أحياناً تقتضيها الحكمة العالية كما في جحيم إبراهيم ، وهذه
حقيقة أولى من قصص إبراهيم ومن ثم الثانية : (١)

(١) (نور الثقلين ٤ : ٤١٤ ح ٦١ في روضة الكافي بسند عن أبي عبد الله (عليه
السلام) قال : خالف إبراهيم قومه وعاب آلهتهم حتى أدخل على غرود فخاصمهم . .
وقال أبو جعفر (عليه السلام) عاب آلهتهم « فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ،
والله ما كان سقيماً وما كذب فلما تولوا عنه مدبرين إلى عيدهم دخل إبراهيم (عليه
السلام) إلى آلهتهم بقدم فكسرها إلا كبيراً لهم ووضع القدم في عنقه فرجعوا إلى
آلهتهم فنظروا إلى ما صنع بها فقالوا لا والله ما اجتري عليها ولا كسرها إلا الفتي الذي
كان يعيها ويبرء منها فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار فجمع له الحطب واستجافوه
حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه برزله غرود وجنوده وقد بنى له بناء لينظر إليه كيف
تأخذه النار ووضع إبراهيم (عليه السلام) في منجنيق وقالت الأرض يا رب ليس على
ظهري أحد يعبدك غيره ويحرق بالنار قال الرب إن دعائي كفيت ، فذكر إبان عن محمد
بن مروان عن رواء عن أبي جعفر (عليه السلام) أن دعاء إبراهيم يومئذ كان : يا
أحد يا أحد يا صمد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ثم قال توكلت
على الله فقال الرب تبارك وتعالى كفيت فقال للنار كون برداً وسلاماً » قال فاضطربت
أسنان إبراهيم من البرد حتى قال الله عز وجل « وسلاماً على إبراهيم » وانحط جبرائيل
(عليه السلام) فإذا هو يجالس مع إبراهيم يحدثه في النار قال غرود : من اتخذ إلهاً
فليخذ مثله إبراهيم قال فقال عظيم من عظمائهم إني عزمت على النار أن لا تحرقه =

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾^(١).

أولم يكن لحد الآن ذاهباً إلى ربه وقد « جاء ربه بقلب سليم » ؟ إن لذهابه هذا طرفاً أول يتكفل السلب : « لا إله » وكما جعلهم جذاذاً ، وطرف ثان هو الإثبات « إلا الله » وقد فرغ من « لا إله » مقدمة الذهاب إلى ربه ، ثم وأصل سيره إلى الإثبات « إلا الله » وقد تعنيه « إني ذاهب إلى ربي . . » يقوله أمام جماهير المشركين الأسفلين بحجته الحاضرة الحاضرة الخارقة « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » ف - « ذهابه إلى ربه بوجهه إليه عبادة واجتهاداً وقربة إلى الله عز وجل »^(١)

إنها هجرة في المكانة قبل المكان ، يشرك فيها أباء وقومه وأهله ووطنه وكل أواصر القرابة ، هجرة كاملة من حال إلى حال ، ومن كافة الأواصر التي قد تربطه بنفسها ، تعبيراً عن كامل التجرد والإخلاص والإستسلام لربه .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

أولم يكن مهدياً لحد الآن حتى « سيهدين » ؟ للهدي مراتب فوق بعض، وكما تطلب دائماً : « إهدنا الصراط المستقيم » أم ولأنه تكلمه لحجابه أن الله هداه إلى أن « لا إله » ثم يهديه إلى « إلا الله » وثالثه هدى الدعوة في فسحتها ، وبأعوانها كإسماعيل وإسحاق قرني عينيه ، وهي تتمثل في ثلاثه بإسماعيل كأعلى قمة : وقد يعطف قوله « إني ذاهب . . » بما وعد أزر

فاخذ عنق من النار سخره حتى احرقه قال ، فامن له لوط فخرج مهاجراً الى الشام هو وسارة ولوط .

(١) المصدر ٤١٩ ح ٦٤ في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه ..

وموازريه في الشرك: «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربّي عسى أن لا أكون بدعاء ربّي شقياً» (١٩ : ٤٨) فهنا يدعوربه :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ^(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ^(١٠١) .

هنا إبراهيم الوحيد وقد ذرف الثمانين بلا عقب يخلفه يستوهب ولداً من الصالحين ، فيُشْر ببيكر ولده إسماعيل غلام حليم ، ومن ثم يثنّيه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وقد يجاب هذا الترتيب نص التوراة كما في التكوين ١٦ : ١٥ - ١٦ : « فولدت هاجر لابراهيم ابناً . ودعا إبراهيم إسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل ، وفيه ١٧ : ١٥ - ١٦ » وقال الله لإبراهيم ساراي إمراتك لا تدعو اسمها ساراي بل إسمها سارة ، وأباركها وأعطيك ايضاً منها ابناً . . . » .

هنا يوصف إسماعيل بكر إبراهيم « بغلام حليم » وفي غيرها « صادق الوعد » وهو فيهما منقطع النظير في سائر القرآن : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً » (١٩ : ٥٤) وقد يثنّى بحلمه أبوه إبراهيم : « إن إبراهيم لأواه حليم » (٩ : ١١٤) « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (١١ : ٧٥) .

وليس اختصاص « حليم » بهما في سائر القرآن إلا لما برز من حلمهما القمة في ذبح إسماعيل مهما بطن لسائر النبيين ، إذ لم يوقف أحد موقفه البلاء المبين :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ^(١٠٢) .

إسماعيل بكر ولده ، رسول نبي صادق الوعد حليم ، والوالد يلذرف التسعين وقد لا يولد له غيره ، أم إذا ولد قد يغاييره ، وقد بلغ معه

السعي في حاجيات الحياة معنوية ومادية بما سعى له فيها ودربها ، فهو في
لَمَعَانِ الكمال ونَوْسَانِ الإستكمال ، يؤمر بذبحه لا لشيء منها يستحقانه
حتى يوجّه ذبحه بوجه ظاهر : إن هذا هو البلاء المبين !

والرواية القائلة أن الذبيح هو إسحاق إسرائيلية تخالف نص القرآن إذ
يبيّنه بإسحاق بعد قصة إسماعيل (١) .

« فلما بلغ معه السعي » تنادى بمعينة السعي حتى بلغ ، ومعينته
لإبراهيم كما سعى في دعوته ، فليس - فقط - أنه بلغ السعي لحاجياته
الشخصية مهما كانت شاخصة ذات أهمية ، بل ومع إبراهيم في « ذاهب إلى
ربي » وهو لما عمل مثل عمله (٢)

(١) اختلاف الروايات من الفريقين في « من هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق » تقطعه
الآيات حيث البشارة بإسحاق تأتي بعد قصة الذبيح بكاملها ، وهذه من المبرطقات
الاسرائيلية أن إسحاق هو الذبيح لِيُنْحَتُوا فَضْلاً عَنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى إِسْحَاقَ ، كما روى
ابن بابويه بإسناده عن داود بن كثير الرقي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) أيهما
أكبر إسماعيل أو إسحاق وأيها كان الذبيح ؟ فقال (عليه السلام) : إسماعيل كان
أكبر من إسحاق بخمس سنين وكان الذبيح إسماعيل وكان مكة منزل إسماعيل وإنما
أراد إبراهيم أن يذبح إسماعيل أيام الموسم بمضى . . . أنا تسمع لقول إبراهيم حيث
يقول : رب هب لي من الصالحين ، إنما سأل الله عز وجل أن يرزقه غلاماً من
الصالحين وقال في سورة الصافات : فبشرناه بغلام حليم يعني إسماعيل من هاجر قال
ففلدى إسماعيل بكبش عظيم فقال أبو عبد الله (عليه السلام) وبشرناه بإسحاق نبياً
من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق، يعني بذلك إسماعيل قبل البشارة بإسحاق
فمن زعم أن إسحاق أكبر من إسماعيل وأن الذبيح إسحاق فقد كذب بما أنزل الله عز
وجل في القرآن من نباهما (تفسير البرهان ٤ : ٣٠ ح ٥) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤١٩ ح ٦٧ في عيون الأخبار عن الحسن بن علي بن فضال عن
أبيه قال سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن معنى قول النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) : أنا ابن الذبيحين ؟ قال : يعني إسماعيل بن إبراهيم =

ومن بلوغه معه السعي أن سعى معه بين الصفا والمروة بعدما طافا البيت « فلما صارا في السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذهبك . . »

فقد بلغ معه السعي ولما يتم الرحلة إلى ربه والدعوة المتناصرة إلى دينه ، ولما يولد له « أمة مسلمة لك » وهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته المعصومون (عليهم السلام) وقد استجيب في هذه الدعاء كما يتوافق له النصان من التوراة ومن القرآن : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » (٢ : ١٢٩) .

ونص الاستجابة حسب الأصل العبراني في التوراة كالتالي :

« وَلِشَّمْعِيلَ شِمْعَتَيْنَا هَيْنَ بَرَخَي أُوْتُو وَهِيْفَرَي أُوْتُو وَهِيْرَبَي أُوْتُو مِثْدُ شِنِيم عَاسَارَ نِسِيْتِم يُولِدُ وَنَتِيُولُغُي غَاذَلُ » (تكوين المخلوقات ١٧ : ٢٠) :-

« ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً ، وأثميّه كثيراً ، وأثمره كثيراً ، وأرفع مقامه كثيراً بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وإثني عشر إماماً يلدهم (إسماعيل) وأجعله أمة كبيرة » (٢) .

« الخليل (عليه السلام) وعبد الله بن عبد المطلب ، اما اسماعيل فهو الغلام الحليم الذي بشر الله تعالى به إبراهيم « فلما بلغ معه السعي » وهو لما عمل مثل عمله . . .

(١) المصدر ٤٢١ ح ٧٥٦ المجمع وروى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق . . . الى ان قال (عليه السلام) فلما رفع قواعده خرج الى منى حاجاً وقضى نسكه بمنى ورجع الى مكة فطاف بالبيت اسبوعاً ثم انطلق فلما صارا في السعي قال . . .

(٢) راجع كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) ص ٤٠ - ٤٣ تجد تفصيل هذه البشارة .

بعد هذه وتلك يؤمر الخليل بذبح إسماعيل وليس ذبحاً واحداً ، إلاً وحيداً يجمع في جنباته ذبائح عدة أعلاها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته ، وقد روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنا ابن الذبيحين !

إذاً فتسليمهما لهكذا ذبح دونما سؤال علة ولا خِطَرَة يبال ، إنه القمة العليا من التسليم و« إن هذا هو البلاء المبين » !

لو أمر إبراهيم أن يتحرر كان عليه أسهل من نحر إسماعيل ، فقد أمر بذبح من يفوقه في الكيان بحب الهيمان ، وأنه جد الرسول محمد وعترته ، وقد بلغ معه السعي ووصل إلى ذلك السعي بمساع الهجرة المهاجرة بواد غير ذي زرع : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ... » (١٤ : ٣٧) فـ « إن هذا هو البلاء المبين » ! وبالإروعة الإيمان والطاعة والتسليم !

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾

« إني أرى » تلمح لتكرار الرؤيا وتأكدها « في المنام » ورؤيا الأنبياء وحي^(١) دونما ريب ، فلماذا يتروى في تحقيقها بعد الرؤيا الأولى ، ويستنظر إنبته فيها ، والوحي منذ نزوله ماض لوقته المقرر ، صارم للموحي إليه ؟

إنه ما رأى في الرؤيا صيغة الأمر بالذبح حتى يمضي فيه دون ترو ، وإنما « إني أذبحك » دون « أمرت بذبحك » ورؤية الفعل لا تدل على الأمر وإنما تلمح لوقوعه ، وفي الثانية تقوى هذه اللمحة ، وفي الثالثة

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٨١ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

توصل لحد الأمر^(١) فان أفعال الأنبياء خيرات تُفعل بالوحي « وأوحينا إليهم فعل الخيرات » سواء أكانت في المنام أو اليقظة ، ولأن ما في المنام صورة عن الواقع في اليقظة ، فليحقق إذاً في اليقظة سماحاً أو رجحاناً أم فرضاً ، وما لمح لإبراهيم بفرض الذبح المترائي إلا في رؤياه الأخيرة فقال « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك » .

.. وقد تعني « أرى » رؤيا واحدة متاكدة دون تكرار ، وفي تبديل الماضي « رأيت » بالمستقبل « أرى » لمحة إلى أنه عاش رؤياه ذاكراً لها دون نسيان ، وأن مفاد رؤياه باقي إلى الحال وحتى يتحقق عملياً ، ففي الماضي مجال التحول نسخاً في الحال !

ولأن ذلك الأمر كان بلاءً مبیناً لهما ، لا - فقط - لإبراهيم ، فليعرض على الذبح كما عرض على الذابح ، ولكي يُسلم كما أسلم الذابح ، دوناً مفاجئة عليه فيما رآه ! فلا يأخذه على غفلة وغرّة تنفيذاً لما رأى ، بل تحضيراً له لكي يرى ما رأى ولينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتفوق خلاوة التسليم ، فإنه يحب لابنه ما يحبه لنفسه ! و « إن هذا هو البلاء المبين » !

ففي رؤياه تلك بلاء ، وفي عرضها على ابنه بلاء ثان ، وفي تحقيقها بعد عرض ثالثة البلاء ، فهي تفوق كل بلاء ابتلي بها إبراهيم طول حياته ، ولأنها التالية لبلاء أبيه آزر وقومه ، وبلاء النار وسائر

(١) الفخر الرازي في تفسيره الكبير ٢٦ : ١٥٣ وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه كأن قائلاً يقول ان الله يأمرك بأبج ابنك هذا فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم ام من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر وهذا هو قول أهل التفسير . . . أقول من المحتمل صدقه إلا في شكه ام من الشيطان ، وكما ذكرناه في المتن .

البلاء » وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً . . . » (٢ : ١٢٤) وتلك هي الكلمات العينية الدالات على قمة التسليم لرب العالمين ! دون اللفظية التي يلفظها كل إنسان أياً كان وأيان !
﴿إني أرى . . فانظر ماذا ترى﴾ .

« إني أرى » رؤيا أنا أراها صادقة وأرى تحقيقها دون تروؤومهلة ، زوايا ثلاث من الرؤية « فانظر » نظر العقل والبصيرة « ماذا ترى » فيما أرى بكل تروؤومهلة ! مشاورة ما أروعها وأروعها لتحقيق أمر هو بظاهره أمر ، لكنه لا مرد عنه ولا عيب ولتجري سنة المشاورة حتى فيما لا يحصى عنه لغرض التمحيص ، وكما يؤمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وشاورهم في الأمر » إبلاغاً مبلغك في الأمر ، لا تبليغاً بهم إلى أمر ثابت بالوحي ، حيث المشاورة تعم العناصر علمياً وعملياً في أمر ، كالمعتاد منها ، أم ليستفيد المشير فيها يستشير فكذلك الأمر ، أم ليفيد المشير مستشير أم لا إذا تمحيصاً له وتدريباً يبلّغه مبلغه ، وهكذا كانت مشاورة الرسول محمد وإبراهيم الخليل !

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

كانها كانت نظرة حاضرة دوغما حاجة الى تأمل وفكرة ، حيث بلغ معه السعي فارتقى في سعيه إلى القمة التي ارتقى إليها إبراهيم من قبل ، فتجاوبا في ذلك البلاء المين « . . أني اذبحك . . إفعل ما تؤمر » وهنا « ما تؤمر » عبارة أخرى تفسيراً لـ « إني أرى . . » فقد كان أمراً عملياً دوغما لفظة ، ووحياً إليه من فعل الخيرات يراه الذبيح فكيف لا يراه الذابح ؟ !

ولكنه بحاجة إلى صبر خارق وتسليم فائق ليس في طوق الإنسان أياً كان، ولكنك « ستجدني إن شاء الله » مشية التكوين التوفيق بعد مشيئة

التشريع « من الصابرين » أمام أمرك ! وفي تحويل « صابراً » عن خاصة نفسه إلى « الصابرين » حيث تشمله وسواه ، تحول من الأنانية بالتفرد إلى جمعيته الرحمة ، وتلميح أديب توصية إلى أبيه بالتصبر كما هو يصبر وأين صبر من صبر !

هنا لا تأخذه بطولة ولا شجاعة واعتماد على همة ولا يرى لنفسه حولاً ولا قوة إلا بالله ، وبالأدب الرائع ونبل الإيمان وجزالة التسليم ، وإلى المذبح بكل طوع وتعظيم :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ^(١٠٣) وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ ^(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ
الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٠٥) .

أولم يسلمها لحد الآن ؟ ومن قبل كانا مسلمين بكل مراتبه ! أجل ولكنه حاضراً التسليم عملياً ، بعد تحضيره نظرياً ، وأين القول من النظر ؟ وأين النظر من العمل ؟ « تقولون في المجالس كبت وكبت فإذا جاء الجهاد فحيدى حياذ !

« فَلَمَّا أَسْلَمَا » ثم ماذا ؟ « وتله » صرعه « للجين » ثم ماذا ؟ لا نجد بين إسلامهما وتله هنا حديثاً ، وهو مطوي يعرفه بطبيعة الحال كل عارف بالموقف والحال ، ولا نجد - « فلما . . » جواباً ، وقد طوي عنه لأنه مذهش دون حد ، وموحش لأي أحد . وما هنا كل إخلاص وإسلام ، هنا كل إسلام وتل ، وإستسلام على التل ، إسلام التل وتل الإسلام في أرفع قمة من القلل ، إسلام لا يفوقه إسلام .

إنه ليس هو الشجاعة والجرأة ولا اندفاعاً وحاسة في الميدان ، يقتل فيه المجاهد أو يقتل ، ولكنه لا يقتل نفسه ، بل أنف من نفسه :

إسماعيله ، وميدان التل في مَنى إبراهيم عند جرة العقبة ^(١) لا مثيل له في أي ميدان .

عَلَّه قال لأبيه بين إسلامه وتَّله : لا تذبحني وأنت ناظر إلى وجهي فترحمني فلا تجهز علي ، يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب فتضرب عني ، واكفف عني ثيابك كيلا يتضح عليها شيء من دمي فتراه أُمِّي فتحزن ، أسرع مر السكين على حلقي بقوة . . . فهذه وتلك أحاديث تروى وليس هنا إلا « فلما أسلما وتَّله للجبين » .

إنه ما تَّله على القفا مهما كان أبعد عن الإنعطاف ، وإنما « للجبين » كما يفعل بالذباح كلها ، فأفضل الأعمال أجزؤها .

« أسلما وتَّله » ولما يحقق فعله ، رغم ما كَمَّل ما لديه فلم يبق إلا عمل المدينة الواردة على عنقه ، إذا بخطاب النسخ لما أمر ؟ فإنه يجوز حين العمل ولما يتم إذا كان أمر الإبتلاء لا أمر العمل ، فقد نُسخ أمر الذبح ولما يعمل :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ^(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٠٥) ۞

ومن تصديقه الرؤيا « أني اذبحك » نعرف أنه اشتغل بذبحه ، ولكنها المدينة وقعت بين أمر الخليل ونهي الخليل : « الخليل يأمرني والجليل ينهاني » صورة ثانية عن خرق العادة ، فـ « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم »

(١) الدر المنثور ٥ : : ٢٨٠ - أخرج أحمد عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أن جبرئيل ذهب بإبراهيم إلى جرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع فساخ فلما أراد . . .

أمر من الجليل خلاف كل التآمرات على الخليل ولينجوا في معركة صاخبة بين الحق والباطل ، و « صدقت الرؤيا » هنا نهي من الجليل تخليصاً ثانياً للخليل هو أنبل وأعلى من خلاصه الأول ، وفي الخلاصين له إخلاص ، وأين خلاص من خلاص وإخلاص من إخلاص ؟ .

ماذا يدريك أموراً حصلت بين « تله للجبن » - « وناديناه إنا إبراهيم » إنها فوق المواصفة والإدراك ولذلك يطوى عنه إلى أمر الخلاص « إنا كذلك نجزي المحسنين » لم يكن القصد من أمر الذبح قتل البريء ، وإنما ظهور مدى الإخلاص وقد ظهر بأفعاله ، حيث تم الإبتلاء وطمء ولم يعد يبقى إلا الجسد الذبيح والدم المسفوح ولم يكن بنفسه مقصوداً ، وإنما بالإخلاص في تحقيقه وقد حصل :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

لقد جُدت يا إبراهيم بكل ما تملكه وفوقه ، وجُدت بإسماعيلك وهو أعز من نفسك وكل نفيسك ، بكل هدوء وطمأنينة ، فلم يبق هناك إلا اللحم والدم ، وهما ينوب عنهما أي ذبح من لحم ودم هو رمز للفداء ، وغذاء للفقراء .

لقد كانت هنا مشيئتان ، ظاهرة بالذبح كما أمر الله تشريعاً في ابتلاء ، وبأطنة ألا يُذبح تكويناً جزاء البلاء للمحسنين ، فقد « أمر إبراهيم بذبح ابنه اسماعيل وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشاء أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله » . . . (١) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٢٠ ح ٧٢ في كتاب التوحيد بإسناده إلى فتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن (عليه السلام) حديث طويل وفيه يقول « يا فتاح إن الله

أترى هناك تورية في أمر الله ؟ والله لا يؤزي، ولا يقول أمره ونهيه إلا صراحاً ! كلاً إن الله لا يؤري .

وإنما يكرر الماكرين عن قوة ، وليس منهم إبراهيم ، ولم يكن أمره إلا صورة الذبح « أني اذبحك » وقد حصلت تلك الصورة ، فليس للمكلف إلا فعل ما يؤمر كما يستطيع ، وقد فعل إبراهيم كما يستطيع « قد صدقت الرؤيا » فلم تكن هناك أية تورية ! .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَلَاءِ الْمُبِينُ ^(١٠٦) ﴾

بلاء يُبين مدى تسليم المبتلى ، ويسين أن إبراهيم تحق له الإمامة الكبرى حيث أتم به كلمات حمل لتدليلها على معانيها ، التي تتوحد في غاية التسليم لرب العالمين :

﴿ وَقَدَيْتَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ^(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ^(١٠٨) ﴾

الذبح كسراً مصدر وفتحاً هو المذبح ، أترى بعد أن « ذبح عظيم » هو المذبح كبشاً نازلاً من الجنة رعى أربعين خريفاً فيها ؟ ^(١) وهو ذبح

« ارادتين ومشيتين ، إرادتحم وإرادة عزم ، ينهى وهو يشاء ذلك ويأمر وهو لا يشاء ، أو ما رأيت أنه نهي آدم وزوجته عن ان يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك ولو لم يشأ لم يأكلا ، ولو أكلا لغلبت مشيتهما مشية الله وأمر إبراهيم ... »

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٨٤ - اخرج البخاري في تاريخه عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال : هبط الكبش الذي فدى ابن ابراهيم من هذه الحنية على يسار الجمرة الوسطى، وفيه اخرج البغوي عن عطاء بن السائب قال كنت قاعداً بالمنحر مع رجل من قريش فحدثني القرشي قال حدثني ابي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له ان الكبش الذي نزل على ابراهيم في هذا المكان .

وفي نور الثقلين ٤ : ٤٢٩ ح ٩٣ المجمع عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال سأله عن كبش ابراهيم (عليه السلام) ما كان لونه ؟ قال : أملح أقرون

وليس ذبحاً ، ثم وليس عظيماً وجاء المفدى له مهماً كان عظيماً لأنه عطية الرب من الجنة ، فأين إسماعيل الذبيح وأين هذا الكبش أياً كان من كبش التاريخ ؟ ثم وليس لزوم « ذبح عظيم » وحدته ، خلاف « ذبح عظيم » حيث تشي إلى وحدته ! . .

ولأن ذلك الكبش لم يكن هو - فقط - العظيم بأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يذبح قرناه المعلقين على الكعبة المشرفة (١) ! .

أم انه ذبح الذبيح العطشان الإمام الحسين عليه آلاف التحية والسلام ؟ وهو أعظم من إسماعيل فكيف يفدى به لمن هو أدنى منه ! ثم الذابح للحسين ليس هو الله ولا كان بأمر الله ، فكيف إذا « فديناه بذبح عظيم » ؟ ! .

قد يعني « ذبح عظيم » سنة الذبح يوم الأضحى ، فرضاً للحاج في منى ، ونقلاً لغيره في غيرها ، بادئة من ذلك الكبش وإلى كل ذبح في منى إلى يوم الدين ، ولا تنافيه الروايات القائلة أنه ذبح الكبش ، حيث بدئت به سنة الأضحى .

إن في تقديم الأضاحي يوم الأضحى ، وهو ما ترك على إبراهيم في الآخرين ، فيه رموز عدة كل واحدة في حدها عظيمة ، فهو ذبح عظيم في

ونزل من السماء على الجبل الايمن من مسجد منى بجبال الجمرة الوسطى وكان يمشي في سواد وياكل في سواد وينظر في سواد ويعبر في سواد ويبول في سواد .

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٨٤ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد والبيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم قالت ارسل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى عثمان بن طلحة فسألت عثمان لما دعاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال قال (صلى الله عليه وآله وسلم) اني كنت رأيت قرني الكبش حينما دخلت الكعبة فنسيت ان أمرك ان تحمرهما فحمرهما فانه لا ينبغي ان يكون في البيت شيء يشغل المصلين .

نفسه وفي مغزاه ، في جسمه وفي معناه ، يفدى به إسماعيل العظيم ، فهو أمشولة أولى للتضحية والفداء ، والأضاحي كلها أمثاله إلا في اللحم والدّم !

إن مناسك الحج كلها رموز ، ويبدء قسم منها من قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل كرمي الجمرات والأضاحي في منحر منى

إبراهيم يرمي الشيطان المتمثل في صورة شيخ هرم عند الجمار الثلاث في كل سبع حصيات ، حيث كان يعترضه ناصحاً لكي يهدم صرح عزمه في تضحيته ، والسبع رمز إلى شيطانات سبع ، والثلاث إلى شياطين ثلاثة .

الحاج يبدء في مناسكه بإحرامه من مكة المكرمة ، ثم إلى عرفات ليستحكم تعرفيات مستجداً لها ، مستعرضاً إياها في زواياها الثلاث نفساً وخلقاً آخرين وخالفاً ، ثم إلى المشعر الحرام ، غربلة دقيقة لما استعرفه في عرفات ، وليستخلص سمينها عن غثها ، شعوراً أدق من عرفات ، ومن ثم إلى منى ليطبق مناه في كلا النفي والإثبات : « لا إله إلا الله » طرداً ودحرأ للشيطان بمختلف شيطاناته برمز رمي الجمرات ، وإثباتاً للرحمن برمز التضحية والفداء ، ونقصاً عن نفسه بحلق أو تقصير خلاصاً عن نفسياته وإنياته ، وإخلاصاً لله ، تهيئة لها وتعبيداً لطريقها إلى طواف وسعي أماذا .

فلما يرجع من جبهة العقبة وقد رمى الشيطان الأكبر ، ينحون نحو المنحر ليقدم أضحيته ، وكما فعله إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام ، وفيها زوايا ثلاث لكل أهميتها وعظمتها ، فهي إذا « ذبح عظيم » .

فالزاوية الأولى منها رمز التفدية للنفس في الله ، أنفي يا رب - وبعد نفي الشيطان - حضرت نفسي للفداء في سبيلك وبأمرك ، ولأن الإنحمار محرم في شرعتك ، أقدم بديلاً عني فداء الأضحية : « ما استيسر من الهدى » هدية

ترمز إلى الفداء والتضحية : « والبُذْن جعلنا لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافً ... » (٢٢ : ٣٧) ومن ذلك أنها تُشعر بذلك الرمز .

والثانية رؤية سيول الدماء والأشلاء حتى لا يهابها في سبيل الله دفاعاً وجهاداً أن يُقتل أو يُقتل، فإن لمعرض الدماء والأشلاء تأثيراً عميقاً في استقبال المعارك الدموية في سبيل الله ، وهذه ثمانية الشعائر .

والثالثة أنها معرض عريض لإطعام الجِيعاء : « فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتز كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (٢٢ : ٣٧) . . . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بيممة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » (٢٢ : ٣١) .

ففي الهدى هدى معنوية في بعدين « ولكن يناله التقوى منكم . . . » وهدى إقتصادي في بعد واحد هو الركن الركين في ظاهر الأمر ، المأمور بها في آيات الهدى : إطعام البائس الفقير ، القانع والمعتز « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » فإنها تنال الفقراء « ولكن يناله التقوى منكم » رمز الفداء والأُيُهاب الدماء والأشلاء ؛

هكذا تصبح الأضاحي قياماً للناس بسائر الشعائر والمناسك ، وكما قام الخليل « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ... » (٥ : ٩٧)

وهكذا « وفديناه بذبح عظيم » لو أن المسلمين ذبحوا كما يجب قياماً لهم في جنبات روحية وإقتصادية ، لا أن يهدروا أتلال اللحوم تعفن جو

العبادة فتَحَرَّقَ أو تُدْفَنَ والفقراء الجياع لا ينالهم منها إلا قليل لا يُعبَأُ به^(١)

هكذا «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ»^(١٠٨)»

تركاً لذكر إبراهيم وذكره في التضحية والفداء ، لحد أصبح تقديم التضحية من فروض الحج في منى ، كما وأن إبراهيم شيخ الأنبياء يُذكر بمناسبة هامة رسالية في كتابات الأنبياء وفي كل حياتهم :

﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ^(١٠٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١١٠) ﴾ .

« سلام » من الله « على إبراهيم » وسلام من التروك عليه من أهل الله « على إبراهيم » سلاماً عليه قولاً وتسلية له فعلاً، وكل سلام من أهل السلام ما بقي الدهر « على إبراهيم » و« إنا كذلك نجزي المحسنين » طول الحياة في هذه الأدنى وفي الآخرة إلى دار السلام .

وتلك بشارة أولى لإبراهيم بإسماعيل غلام حليم حيث بلغ معه السعي وحلم في البلاء المبين ومن ثم ثانية :

﴿ وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ^(١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ^(١١٣) .

فبشارته بإسحاق ثانيتهما ، وبعد أن ولد اسماعيل وترعرع وبلغ معه السعي وتذبح ، وقد تتطلب هذه لأقل تقدير ثلاثة عشر من السنين ، فهناك غلام حليم ما أحلمه لإسماعيل ، وهنا نبياً من الصالحين لإسحاق ، «ومن ذريتهما» : اسماعيل وإسحاق «محسن وظالم لنفسه مبين» ومن أحسن المحسنين من ذرية اسماعيل محمد وعترته المعصومون ، ومن أظلم

(١) لقد فصلنا القول حول حكم الاضاحي في منى بعداً عن كل إسراف وتبذير في كتابنا (اسرار - مناسك وادلة حج) باللغة الفارسية فراجع، وكذلك في سورة الحج .

الظالمين من قرية إسحاق الصهاينة المجرمون ، وإلى عرض موجز عن جموع
من النبيين :

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ

وَهَارُونَ ۖ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝١١٥

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦ وَآتَيْنَاهُمَا

الْكِتَابَ الْمُنِيرَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِينَ ۝١١٩ سَلَامٌ عَلَىٰ

مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢١

لَهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢ وَإِنَّ إِلَهًا لَّيَمُنَ

أَتُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَسْتَفُوتُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ

بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْيَرِينَ ۝١٢٩

سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنْ
 لَوْ طَالَتْ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
 إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِرِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَنْحَارَ ﴿١٢٦﴾
 وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢٧﴾ وَبِالْبَيْلِ أَفْلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِنْ يُؤْسَسْ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى
 الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣١﴾
 فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
 الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٣٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٣٤﴾
 * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٣٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
 مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٣٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٣٧﴾
 فَعَامَنُوا فَتَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٣٨﴾

هنا من ربانية على موسى وهارون ، ابتداءً بسلب هو دوماً يتقدم
 الإيجاب ، ونجيناها من الكرب العظيم ، وهو فرعون وملاه إذ كانوا
 يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربهم عظيم !

ثم ايجاب في مربع من المنة : « ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » نصرة بالحجة منذ الدعوة ، وأخرى في خوض اللجة حيث اغرق فيها فرعون وملاؤه - ثم .

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ^(١٧) ﴾ نصرة بعد نصرة ، والكتاب هو التوراة ، أوتيته موسى أصلاً ، وهارون فرعاً ، وهو المستبين حيث يستبين في هذه الرسالة السامية ما تتطلبها دعوة للأمة إلى صراط مستقيم كما :

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^(١٨) ﴾ صراط العصمة العبودية والرسالية وصراط الدعوة الصارخة الصارمة ، لحد :

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ^(١٩) ﴾ وعله خمس المنة ولا سيما الضلع الأخير : الصراط المستقيم ، ف :

﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ^(٢٠) ﴾ سلام معهم وسلام في الآخرين الذين هم إستمرارية لسلامتهم « إنا كذلك نجزي المحسنين » ^(٢١) الذين يحنون الدعوة إلى الله والدعاية لله « إنيما من عبادنا المؤمنين » ^(٢٢)

﴿ وَإِنْ إِلَاسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ ^(٢٣) ﴾ وقد تضاربت الأخبار والأقوال حول : من هو إلياس ، والمتقن هو أن إلياس هو إلياس ، فلا تهمنا أسماء تختلف عن النص أو تخالفه ، ومحطة رسالته هي الإنذار : « إذ قال لقومه ألا تتقون » ^(٢٤) الله ، ويأس الله ، وأيام الله ؟ .

﴿ أَتَذْكُرُونَ بَعْلًا وَتَذْكُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ^(٢٥) ﴾ ويعمل هي أحد الأوثان المعروفة ، وكأنها كبير الآلهة عندهم ، وكيف تذكرون دعوة أحسن الخالقين ويعمل من مخلوقيه دون الأحسن ، وأنتم أحسن المخلوقين « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهو « الله ربكم » فضلاً عن بعل « ورب آبائكم الأولين » الذين كانوا يدعون بعللاً ، فالعباد والمعبودون دون الله والأباء القدامى كلهم من

خلقه ، ثم يعبد خلق من خلقه وهو في أحسن تقويم - يعبد بعلًا وهو في أدون تقويم ، لأنه جاد فهو أدنى من نبات هو أدنى من حيوان هو أدنى من جان هو أدنى من إنسان ، فما هذه الدنائة في الدعوة « أتدعون بعلًا وتلرون أحسن الخالقين ؟ » .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَبَاتَتْ لَهُمْ لَحْظُرُوءٌ ^(١٢٧) ﴾ هم كلهم ، من المكذبين وسواهم ، إحصاراً للحساب ، فإلى ثواب أو عقاب ، « إلا عباد الله المخلصين ^(١٢٨) » إذ لا سؤال عنهم يوم السؤال فـ « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين » .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ^(١٢٩) ﴾ دعوته ورسالته ، حيث المرسلون - تلوا بعضهم لصق بعض - يتناصرون في الدعوة الرسالية دون خول ولا فتور .

﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ^(١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ^(١٣٢) ﴾ .

ترى من هو « آل ياسين » دون مد كما في بعض القراءات وهي المثبتة في القرآن ؟ ومن هو « آل ياسين » مد كما في قراءة آخرين ؟ ^(١)

فهل هو « إلياس ^(٢) » السابق ذكره ، وكما يقتضيه الترتيب في إبراهيم وموسى وهارون ؟ فلماذا - إذا - « آل ياسين » دون إلياس المذكور قبله وفي الأنعام : « وذكرياء ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين » (٨٥) ! ولماذا بعد الفصل بين « آل ياسين » ؟

(١) المد هو قراءة نافع وابن عامر ويعقوب وزيد بن علي وابن عباس وعمر بن الخطاب والكسر قراءة آخرين .

(٢) الدر المنثور ٥ : ٢١٦ - أخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : هو إلياس .

أم هو المخفف عن «إلياسين» فيعني به إلياس وآله وأتباعه من المؤمنين ؟ والصحيح - إذاً - هو الشدُّ دون تخفيف صوتاً عن أي إلتباس ! وكيف يختص إلياس بهذه الكرامة الشاملة دون إبراهيم وموسى وهارون وهم أفضل منه وأنبل ؟!

ولماذا الفصل - إذاً - بين «إل» و«ياسين» ! وهكذا الأمر لو كان هو نبياً غير إلياس لا نعرفه في سائر القرآن ! وإذا لا مجال فيما نعرف لـ «إل ياسين» فهو هو «آل ياسين» ؟

تري أنه بعد «إلياس» لأنه ابن ياسين ؟ ولا نجد في سائر القرآن نبياً ينسب إلى أبيه أيّاً كان ، فإن نسبة النبوة تغنيه عن أية نسبة ! ثم وصحيح النسبة «إبن ياسين» أو «إلياس بن ياسين» ، وأن يذكر أولاً بنسبته ثم تنهى .

أم إنه آل محمد ، فإن ياسين من أسماء في القرآن ، عني به النداء في يس ، والعلم تخلياً عنها في الصافات ، كما ارتآه بعض كبار الصحابة (١) وكما اتفقت عليه رواية أهل البيت في حججيات وإجابات عن السؤال

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٨٦ - أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله «سلام على آل ياسين» قال : نحن آل محمد آل ياسين ، وفي ملحقات أحقاق الحق للمرجع الديني العظيم السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٣ ص ٤٤٩ رواه جمع من فطاحل القوم ونحن نكتفي بسرد من وقفنا عليه فنقول : منهم فخر الدين الرازي في تفسيره ٢٦ : ١٦٢ والقرطبي في جامع احكام القرآن ١٥ : ١١٩ وإبر حيان الاندلسي في البحر المحيط ٧ : ٣٧٣ وابن كثير في تفسيره ٤ : ٢٠ ، والهيتمي في الصواعق المحرقة ١٤٦ والترمذي في مناقب مرتضى ٥٤ والشوكاني في فتح الغدير ٤ : ٤٠٠ والألوسي في روح المعاني ٢٣ : ١٢٩ والسيد ابوبكر الحضرمي في رشفة الصادي ٢٤ ونقله النقاش عن الكلبي ، كلهم يروون قول ابن عباس انه آل محمد ، وفي كفاية الخصام ٤٦٩ وابونعيم الاصفهاني بسنده عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس مثله وعن ابن بابويه بسنده عن ابن عباس في الآية قال «السلام من رب العالمين على محمد

وكيف يسلم هنا على آل ياسين ولم يذكر يس بنفسه وهو الأصل !
وليذكر خاتمة الذكرى من هؤلاء النبيين فإنه خاتمهم ! ثم أفراد الضمير في
«إنه من عبادنا المؤمنين» لا يناسب جمع الآل على أية حال !

قد يعني «آل ياسين» - فيما يعنيه - كلا إلياس وآل محمد فان كلا من آل
ياسين ، ولا يردف يس نفسه بهؤلاء لأنه سيدهم وله صلوات فوق السلام
في الأحزاب « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا
عليه وسلموا تسلياً » (٥٦: ٣٣) وقد يعني «إنه» إلياس فإنه من آل ياسين ،
ويعني محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) على البذل ، فالمرجع واحد على
أية حال ، فياسين - إذاً - ياسينان والآل آلان وهذه الثانية تصبح وجهها
وجيهاً لـ «آل ياسين» «إننا كذلك نجزي المحسنين ، انه من عبادنا

« وآله وعليهم السلام لمن تولاهم في القيمة وعنه عن أبي عبد الرحمن السلمي ان عمر بن
خطاب كان يقرأ هذه الآية فقال أبو عبد الرحمن آل يس هم آل محمد ومن روى عن
عمر بن الخطاب قراءة المد ابو عبد الرحمن الأسلمي اخرجته عنه بعدة طرق ابن بابويه
القمي في الخصال .

(١) اخرج في كفاية الخصام من طرق الشيعة سنة عشر حديثاً ان آل ياسين في الآية
هم آل محمد وفي نور الثقلين ٤ : ٤٣٢ ح ١٠٣ في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين
(عليه السلام) حديث طويل وفيه وهذه الآية ظاهر وباطن فالظاهر قوله « صلوا عليه »
والباطن قوله « وسلموا تسلياً » اي سلموا لمن وصاه واستخلفه عليكم فضله وما عهد
به اليه تسلياً وهذا مما اخبرتك انه لا يعلم تاويله الا من لطف حسه وصفا ذهنه وصح
تمييزه وكذلك قوله « سلام على آل ياسين » لان الله سمى النبي (صلى الله عليه وآله
وسلم) بهذا الاسم حيث قال « يس والقران الحكيم انك لمن المرسلين » . . . وفي
كفاية الخصام ٤٧١ محمد بن عباس بسنده عن الصادق (عليه السلام) عن ابيه عن
أبيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الآية انه قال ان رسول الله اسمه يس
ونحن الذين قال : سلام على آل ياسين ورواه مثله في معاني الاخبار باسناده الى كارج
عن الصادق (عليه السلام) عن ابيه عن أبيه عنه (عليه السلام)

المؤمنين !

وإذا كانت « آل » مدأ ، والكتب المتواتر من القرآن دون مدأ ، فهل ليس ذلك تحريفاً في الذكر الحكيم ؟ كلاً فان قراءة المذ مروية عن الأربعة الكبار وعليها إجماع أئمة أهل البيت عليهم السلام .

فقد اختص آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالسلام عليهم ضمن السلام على هؤلاء النبيين الكرام ولم يسلم على آلهم، وكما اختص الرسول وآله بالصلاة عليهم بين الأمة « يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً » (١) .

﴿وَإِنَّ لَوْطًا لِّمِنَ الْمُتَرَسِّلِينَ﴾ (١٣٣) وهو ابن اخي إبراهيم (عليه السلام) ومن دُعاة رسالته ، وقد نجاه الله في رسالته عما نزل بقومه « إلا عجوزاً في الغابرين » هي إمراته الغابرة في كفرها ، الغائرة مع الغابرين « ثم دمرنا الآخرين » ومنهم « عجوزاً في الغابرين » .

« وإنكم لتمررون عليهم على آثارهم الخاوية » مصبحين وبالليل أفلا

(١) وفي عيون الاخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون في الفرق بين العترة والامة حديث طويل وفي اثنائه قال المأمون فهل عندك في الال شيء اوضح من هذا في القرآن قال ابو الحسن (عليه السلام) نعم اخبروني عن قول الله تعالى « يس والقرآن الحكيم . . . » فمن عني بقوله « يس » قالت العلماء : محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يشك فيه احد قال ابو الحسن (عليه السلام) فان الله عز وجل اعطى محمداً وآل محمد من ذلك فضلاً لا يبلغ احد كنه وصفه إلا من عقله وذلك ان الله عز وجل لم يسلم على احد الا على الانبياء صلوات الله عليهم فقال تبارك وتعالى « سلام على نوح في العالمين » وقال « سلام على ابراهيم » وقال « سلام على موسى وهرون » ولم يقل سلام على آل نوح ولم يقل سلام على آل ابراهيم ولم يقل سلام على آل موسى وهرون وقال « سلام على آل يس يعني آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال المأمون قد علمت ان في معدن النبوة شرح هذا وبيانه .

تَعْقِلُونَ» وهم على طريق الحجاز إلى الشام .

وهذا مرور خاص بواقع آثارهم لخصوص المازنين عليهم القاطنين في أرض الحجاز ، ثم مرور لكل ساكني المعمورة .

ومن ثم مرور شامل على تاريخهم كما حصل حيث « تمرون عليهم في القرآن »^(١)

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ^(١٣٩) ﴾ لقد ذكر يونس هنا بإسمه ، وفي يونس : « فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (٩٨) .

وفي « ن » هو « صاحب الحوت » : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم . فلو لا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين » (٥٠) .

وفي الأنبياء « ذا النون » : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين » (٨٧) - (٨٨)

فيونس ذا النون صاحب الحوت هنا في الصافات يذكر بتفصيل من قصته ، والثلاثة الأخرى كملقطات منها ، وهوامش لها ، ولكل تفسير في محله ، وهنا « يونس لمن المرسلين » :

﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ^(١٤٠) ﴾ وهل إنه إباق عن رسالته ولمّا تكمل ؟ وهو خلاف العصمة والإصطفاء للرسالة ! إم إباق المغاضبة على

قومه ؟ وهو ذهاب دون إباق « إذ ذهب مغاضباً » ! ولماذا الإباق بمجرد المغاضبة وهي مستمرة في تاريخ الرسالات ! أم إباقاً خوفاً العذاب الموعود لهم وهو على الأشراف وهو « عذاب الخزي » : « كشفنا عنهم عذاب الخزي ... » !

علّ الإباق يشمل الثلاثة كلها ، وطبعاً دون إباق عن الرسالة ، بل قلة الصمود عليها وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « كان رجلاً تعتريه الحدة وكان قليل الصبر على قومه والمدارة لهم ، عاجزاً عما تحمل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها ... » (١)

« أبق » عن قومه ، وعن العذاب المشرف عليهم ، وعن التصبر في تداوم الدعوة « أبق إلى الفلك المشحون » المملوء من مختلف الركاب ، ظناً أن فيه نجاته ولكن :

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ (١٤١) ، والدحض هو إزالة ما لا يعنى ، فمن « ساهم » مساهمة الاقتراع « فكان من المدحضين » نعرف أن الفلك أصبح ثقیلاً براكبيه ، مشرقاً على الفرق ، فكان ولا بد من إنجاء الجميع دحض البعض ، ولكيلا يتنازعوا اقترعوا « والقرعة لكل أمر مشكل » فحصل هنالك « مدحضون » قدر اللازم من تخفيف العبء ، « فكان من المدحضين » في البحر ولكنه هو بين المدحضين :

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (١٤٢) ، نفسه ، لماذا أبق عن قومه إلى الفلك فأصبح ما ظنه نجاتاً سجنناً أو هلاكاً ، كراً على أشر مما فرّ ! .

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر (عليه السلام) كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : حدثني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن جبرئيل حدثه أن يونس بن متى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة وكان رجلاً ... الحديث بطوله ذكرناه في ٢٩ : ٧٨ من الفرقان .

أصبح يلیم نفسه من بادرته المسرعة «وهو مكظوم» قائلاً: «سبحانك إني كنت من الظالمين» المتقصين كمال الدعوة ، ظلماً لا ينافي العصمة ، فالرسل درجات وليسوا على سواء .

﴿ قُلْ لَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ^(١٤٣) لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ^(١٤٤) ﴾ .

و « كان » هنا تضرب إلى عمق الماضي وإلى حاضر بطن الحوت : «فنادى في الظلمات» ظلمات الليل ، والبحر ، وبطن الحوت « أن لا إله إلا أنت سبحانك » من أن تظلمني وتسجني دون تقصير «إني» أنا لا أنت «سبحانك إني كنت من الظالمين» ! .

والظاهر من « لبث » هنا لبثه كما كان ، فهما إذاً حيآن « إلى يوم يبعثون » وفي ذلك اللبث المقدر المعلق شاهد صدق على إمكانية زيادة الأعمار مئات الأضعاف والآلاف .

فلبقاء الإنسان حياً في بطن الحوت ، دون جو صالح للتنفس ، وهو في البحر ، ليس له إلا دقائق معدودة ، فأين هي وإلى يوم القيامة .

فإذا قدرنا مكوث الإنسان حياً في بطن الحوت لخمس دقائق أصبح مكوث السنة / ٩٣٣٧٠ ضعفاً فكيف بالآلاف السنين إلى يوم الدين .

وهل إن ذلك المكوث - وليس إلا للتنبيه عن خطأ - أهم ، أم مكوث صاحب الأمر حجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ، حياً يُرزق ، لإقامة دولة إسلامية عالمية سامية .

إنه (عليه السلام) - لحد الآن - ما مكث إلا (١١٤٣) سنة وهي بمتوسط التقدير عشرة أضعاف العمر المتعمد ، وسنة واحدة من مكوث يونس في بطن الحوت هي / ٩٣٣٧٠ ضعفاً للمكوث العادي هناك ، فإذا

مكث الامام المنتظر لحد الآن - عشرة أضعاف العمر ، لم يمكث إلا
كخمسين دقيقة من مكوث يونس فتصبح سنة من مكوثه / ٩٣٣٧٠٠٠ /
سنة من مكوث صاحب الأمر ، فضلاً عن «يوم يبعثون» ؟

وترى «يوم يبعثون» هو يوم قيامة الإحياء ، وهو الظاهر من البعث
الجمعي ؟ أم قيامة الإمامة ؟ إذ لا بد لكل نفس من موت فكيف يلبث
يونس إلى يوم الإحياء !

قد يعني «يوم يبعثون» مجمع اليومين فان موتهم الجمعي ليس إلا
لبعثهم جميعاً ، أم إن ذلك فرض وتقدير ، ولا ضير في عدم الموت لإنسان
يقدر له هكذا تقدير ، ولكن «كل نفس ذائقة الموت» وإن البدن يوم
الحساب خلاصة عن هذا البدن وليس كله ، فلا بد إذاً من موت حتى
يبعثوا كما يناسب حياة الحساب . ﴿ قَبِّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ (١٤٥) .

«العراء» هو المكان المكشوف الذي لا ستر عليه ولا ظل فيه ،
والنبذ يرمز إلى رفض وترذيل كما في آياته كلها إلا ما هي في مريم
«فانثبذت به مكاناً قصياً» (١٩ : ٢٢) .

ولكن يونس نبذ وهو ممدوح «فلولا أن تداركه نعمته من ربه لنبذ
بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » وهذه النعمة هي
دوام التسبيح والإعتراف بالظلم .

ثم «وهو سقيم» قد يعني إلى سقم الجسم سقماً في الروح ، لماذا
ذلك الإبلق ؟ ولكي لا يتأذى بحر الشمس :

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ (١٤٦) . وليكن الانبات فور نبذه ،
فإنه من إكرامه ، وفي تأخيرهِ دون ستر بالعراء ذمُّهُ وهو غير مذموم .

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (١٤٧) فَأَمَنُوا فَمَعَنَاهُمْ إِلَى
جِئِ (١٤٨) .

ذلك إرسال له ثانٍ « إلى مائة ألف أوزيريدون » بعد ما ذهب مغاضباً وأبقى إلى الفلك المشحون ، فسُجِّن هو وزال العذاب عن قومه ، معاكسة عجيبة بحساب ، لأنه استعجل عن قومه وهم آمنوا في غيبته : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١٠ : ٩٧) ثم استكمل إيمانهم لما أرسلناه . . . ثانية « فآمنوا فمتعناهم إلى حين » .

وترى ماذا تعني « أوزيريدون » ولا تردّد في علمه سبحانه ؟ علّهم حين أرسله إليهم كانوا مائة ألف، ولو لم يزد « أوزيريدون » لاختصت رسالته بهم دون مواليدهم ، ولكن « يزيدون » المستقبل تضيف إليهم الولائد الجدد ما دام يونس فيهم ، و « أو » تقسم مدى رسالته إلى « مائة ألف » حاضرين « أوزيريدون » مستقبلين .

فَأَسْتَفْتِيهِمُ الرِّبَّكَ

الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٨٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ

شَاهِدُونَ ﴿١٩٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكِهَمُ لَيَقُولُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَدَّ اللَّهُ

وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٩٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٩٣﴾

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٩٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٩٥﴾ أَمْ لَكُمْ

سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٩٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٧﴾

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ

لَمُحْضَرُونَ ﴿١٩٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٩٩﴾ إِلَّا عِبَادَ

اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ
 عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا
 مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾
 وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٦٧﴾
 لَوْ أَنَّ عِبْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفُرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾
 وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ
 الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ
 عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾
 أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نُزِّلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ
 صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾
 وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

إستفهامات تنديدية هي إستفهامات بمن يتخذون لله بنات ولهم البنون! تفضيلاً لأنفسهم على الله ، كما فضّلوا عليه أصنامهم ، قسمة ضيزى ما لها من مثيل .

ففيما يفترون على الله إتخاذ البنات ، هم يفترون على الملائكة أنهم هولاء البنات: « أم خلقنا الملائكة أنثاء وهم شاهدون » ؟ وقد خلقوا من بعدهم ، وحتى لو خلقوا قبلهم أو معهم فما هم في خلق الرحمن من الشاهدين : « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » !

« ألا إنهم من أفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون » فلا ولادة لا حقيقية ولا تشريفية ، لا انثوية ولا سواها ، وفي كلمة واحدة « إنهم لكاذبون » وحتى لو اتخذ ولداً فكيف يصطفي لنفسه البنات على البين ؟ « إشاراً على نفسه وليست به خصاصة ، ثم الإيثار على خصاصة - على مرضها - مستحيل في ساحة الربوبية » ما لكم كيف تحكمون ؟ « أفلا تذكرون » هذه الغلطات الغليظة التي لا تدخل في أدغة المجانين فضلاً عن سائر العالمين !

« أم لكم سلطان مبين » يبين فريتك الكذب كحق متين ، وليس ذلك إلا كتاباً من الله كما يوحى إلى المرسلين « قاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » وليس « كتاب الله » لأنه مستحيل على الله .

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ أَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ (١٥٨).

آية النسب هذه هي الوحيدة في نسب الجن من الله ولادة ، وقد تعنيه فيما تعنيه « وجعلوا له من عباده جزء » (٤٣ : ١٥) ولو كان هنالك نسب فهم حسب النسب مكرمون، ولكنهم كما يعلمون « لمحضرون » للحساب :

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ما تتعالى عنه ساحته، أيّاً كان الواصفون،
 مهياً كانوا مؤمنين ومخلصين .
 ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم لا يصفونه إلّا كما وصف نفسه .

فكل توصيف إيجابي من أي واصف بعيد عن ساحته لأنّه نابع عن
 جهالة ، أم المعرفة غير القمة العالية ، ولكن « عباد الله المخلصين » الذين
 أخلصهم الله عن كل شين ورين ، وعن كل جهل ، هم يصفونه كما هو
 أهله ، لأن الله صنعم كما يشاء ، ولا خطأ في صنع الله ، فلا خطأ - إذا -
 في وصفهم لله !

هكذا في التوصيف الإيجابي ، وأما السليبي فيشاركهم في صدقه
 المخلصون والمؤمنون ، فإذا قال قائل منهم « الله عالم » يعني أنه لا يجهل ،
 دون أن يصوّر عن علمه مفهوماً إيجابياً كما يفهمون ، فإنه تشبيه !

إذا فتوصيف المخلصين عاصم ومعصوم ، إن في سلبية الصفات أم في
 إيجابيتها ، وتوصيف المخلصين في إيجابيتها غلط ماثوم ، وفي سلبيتها غير
 ماثوم ، وتوصيف من سواهم قد يكون إلحاداً ، وأخرى شركاً كما يصفه
 المشركون أن بينه وبين الجنة نسباً !

« فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » من أصنام وأوثان وطواغيت « ما أنتم عليه
 بفاتنين » : لستم أنتم العبد والمعبودون على الله بفاتنين ، فتنة تنقلب فيها
 صفاته الحسنى إلى ما تبغون أم تنقلب فيها ذاته عما هي عليه ، إلّا فتنة
 عليكم « إلّا من هو صال الجحيم » إذ يعني هنا الفتنة ولكنه هو المفتون
 « يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون »
 (٥١ : ١٤) !

فهذا الإستثناء منقطع يقطع كل فتنة على الله ، إلّا فتنة راجعة إلى
 فاتنين « إلّا من هو صال الجحيم » و « أولئك هم وقود النار » !

ثم وغير الفنانين من المعبودين كالملائكة فهم كما يقولون :

« وَمَا مَثَلُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » مقام في أعمال ، ومقام في درجات الأعمال ، دون تجاوز عنها ولا قيد شعرة .

« وَإِنَّا لَنَعْنُ الصَّافُّونَ » نصف جنوداً لرب العالمين ، صفوفاً مترابطة ، لا انتظار الأمر وتحقيقه : « وما نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ » (١٩ : ٦٤) أجل وهم « صافون لا يتزايلون ومصبحون لا يسأمون »^(١)

« وَإِنَّا لَنَعْنُ الْمُسَبِّحُونَ » الله ، فكيف نرضى أن نعبد من دون الله ؟ يصبحون الليل والنهار لا يفترون » (٢١ : ٢٠) وهنأنتلمح من « الصافون » . . . استحباب الصفيح حالة التسييح العبادة ، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قام إلى الصلاة قال : استسوا ، تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، أقيموا صفوفكم ، يريد الله بكم هدى الملائكة . . .^(١)

« وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ " لَوْ أَنَّ هُنْدًا ذُكِّرَتْ مِنَ الْأَوَّلِينَ " لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ " »

هذه حجة دامغة عليهم « وإن كانوا ليقولون » خلاف ما ينوون ويعرفون « لو أن » . . .

(١) نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) .

وفي الدر المنثور اخرج محمد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يوماً لجلسائه : ائمت السماء وحق لها ان تخط ، ليس منها موضع قدم الا عليه ملك راكم او ساجد ثم قرء الآية .

ولو أن الذكر يجعلهم عباد الله المخلصين ، فما هو الفارق بين ذكر الأولين والآخرين ، إلا أن ذكر الآخرين هو أقوى ذكر للعالمين ، فلماذا لا يؤمنون ، فضلاً عن كونهم عباد الله المخلصين ؟^{١٩}

« فكفروا به » هذا الذكر العظيم ، القرآن الكريم، رغم قولتهم الخواء « فسوف يعلمون » .

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ^{١٧} . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ^{١٨} . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ^{١٩} »

كلمة سابقة سابقة من رب العالمين ما لها من كاذبة « لعبادنا المرسلين » هنا ولـ « جندنا » كما وسائر المؤمنين معهم في « المؤمن » : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقول الأشهاد » (٥١) (٢)

« فتول عنهم حتى حين » استصالحهم ، أم حين موتهم ، فإنهم لا محالة مغلوبون « وأبصر فسوف يبصرون » أنت الآن أبصر ، ولكنهم الآن عمون « فسوف » بعد الآن « يبصرون » ولكنهم سوف لا ينتفعون !

« أفبعذابنا يستعجلون »^{١٧} استعجالاً لمضى الساعة ، أم مرسى العذاب قبل الساعة ، وتلك إذا حماقة كبرى . . .

« سبحانه رب العزة عما يصفون^{١٨} » وسلام على المرسلين^{١٩} والحمد لله رب العالمين^(١٨٢) »

(١) الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن انس أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا قام . . .

(٢) راجع الفرقان تفسير الآية في سورتها ففيه قول فصل فلا نكره هنا .

(۳۸) سُبْحَانَكَ رَبِّكَ رَبَّنَا

وَأَسْأَلُكَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ



مرکز تحقیق و پژوهش علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ
 وَشِقَاقٍ ② كَرِهْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا
 وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ
 وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ④ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ
 إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ
 مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْعَذَابِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
 يُرَادُ ⑥ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا
 اخْتِلَافٌ ⑦ أَهْ تَزِيلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
 مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُّوْقُوا عَذَابٍ ⑧ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
 رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ⑩

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ⑪ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
 قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ⑫ وَثَمُودُ وَقَوْمُ
 لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ⑬ إِنْ كُلُّ
 إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ حَتَّىٰ عِقَابٍ ⑭ وَمَا يَنْظُرُ هَٰئُلَاءُ إِلَّا
 صَيْحَةً وَاحِدَةً مِّمَّا مِنْ فَوْقَ ⑮ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا
 قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⑯

﴿ص﴾ هي كسائر الحروف المقطعة ، من مفاتيح كنوز القرآن ، تعني
 من انزل عليه القرآن ومن في منزلته ، واما نحن فـ «ما ندرى ما
 هو» ؟ (١) .

وعَلَّهَا بِمُنَاسِبَةِ «القرآن ذي الذكر» هو النبي الصادق في دعواه
 ودعايته ، الذي لم يعرف الكذب ولم يعرفه الكذب منذ تكلم ، قبل رسالته
 ويعلمها ! كما وعَلَّ مدها تاشيرة لمدِّ الصدق وصدق المدِّ طول حياته المنيرة ؟
 اللَّهُمَّ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا !

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٩٦ - اخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : سئل جابر بن
 عبد الله الأنصاري وابن عباس عن «ص» فقالا : لا ندرى ما هو ؟

ثم «والقرآن ذى الذكر» في صورة القسم وسيرة البرهان ، ليس إلا لاثبات «ص» في صدق النبوة والرسالة وكما في «يس» . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم ، إذ لا نجد قبل ولا بعد مقسماً لأجله إلا «ص» !

﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾^(١) يذكر الفطر والعقول ، وهو ذكر في كافة الحقول ، ولأنه بنفسه دليل على وحيه الصادق ، يذكركم أن رسوله هو الصادق الأمين ، وكما الرسول هو بنفسه ذكر يشهد لوحي القرآن الحكيم : «قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولاً ...» (٦٥ : ١٠) بل والرسول هو من «القرآن ذى الذكر» : «وما علمناه الشعر وما ينبغي له الا هو الذكر وقرآن مبين» (٣٦ : ٦٩) وكما القرآن هو رسول الذكر .

ذكران لصق بعض ، يشهد بعضه على بعض ، وينطق بعضه ببعض ، ذكراً عن كتابي التكوين والتشريع ، وذكراً لمواضع الغفلة من الفطر والعقول والعلوم !

ذكر على ذكر يوضحان كل صغير وكبير ، وكل دقيق ورقيق وضح الشمس في رابعة النهار ، فلا يبقى مع ذكرها أية غفلة : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾^(٢) .

فليس كفرهم بذلك الذكر ، لقصور في الذكر ، وإنما لتقصير منهم أمام الذكر ، فهم «في عزة» غارقين في أنانية الشهوات والفرعنات «وشقاق» إذ جعلوا أنفسهم في شق يقابل شق الرسائل الإلهية : فنحن رجال وهم رجال . لا يفضل رجال عن رجال ، بل نحن أرجل منهم وأنبل في بنين وقوات وأموال !

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَآئِ حِينَ مَنَاصٍ﴾^(٣) .

قرون كافرة مضت وغبرت درج التاريخ « انكناهم » هلاك استئصال
العذاب ام موت « فنادوا » حين هلاكهم استغاثة النجاة « ولات حين
مناص » وفرار وخلص .

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ
كَذَّابٌ﴾ (٤) .

ويا عجباه من عجبهم « ان جاءهم منذر منهم » والمجانسة هي من
لزامات الدعوة الرسالية تكملة للحجة ، وإيضاحاً عملياً للمصحة « وقال
الكافرون » بالتوحيد والرسالة « هذا ساحر » يسحرنا بكلامه « كذاب » في
دعوته ، ومن ادلة كذبه دعوته الى خلاف الاصل :

﴿اجْعَلْ آلَهِةً إِنَّمَا وَاحِدٌ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥) .

وي ! كان الاصل الاصيل في الالوهة هو الالهة ، فالداعي الى اله
واحد يدعو الى شيء عجاب ! وتري كيف انقلب الباطل اصلاً وأصل باطلاً
حيثما يتعود الانسان على باطل ودون اي برهان ، إلا تعاقب الآباء القدامى
على اصالة العدد ورغم ان الاصل بين المشركين - ايضاً - اله واحد هو خالق
الكون : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل فأنى
تؤفكون » ؟ .. ومن ثم اختلقوا له انداداً ليضلوا عن سبيله ، وعلى مر
الزمن وتوالي القرون تناسوا ذلك الاصل ، وعاكسوا امره بخلاف الاصل ،
فليات من يدعي الوحدة ببرهان ! رغم ان الواحد متفق عليه والزائد
مختلف فيه ، وعلى مدعي الزيادة ان يأتي ببرهان !

فهنا يصور النص مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية العقلية ،
التي تصدقها كافة البراهين « اجعل الالهة إِنَّمَا وَاحِدٌ إِنَّ هَذَا الشَّيْءُ

عجاب « لا يخلد بخلد ، فهو - اذاً - جعل مختلق ، وتأمّر مدبر يراد من حزب الدعوة الرسالية :

﴿وَانْطَلِقِ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٧).

هناك «يراد» تحريف الجماهير عن الآلهة في دعوة مبيتة مختلفة بغية الرئاسة وهنا «يراد» ان تصبروا على الهتكّم ، اولا تسمعوا لهذه الدعوة التي هي بدع من الدعوات ! اذاف «امشوا» ابتعاداً عن هذه الدعوة العوجاء الهراء «واصبروا على آلهتكم» وهم اصل الآلوهة .

وفي «وانطلق» تلميحة الى انهم احتسبوا مقامهم لسماع هذه الدعوة اسراً لعقيدتهم السليمة ، وتسليحاً لها الى غير سليمة ، فلذلك «وانطلق» عن اسرهم ، وصبراً على حريتهم في عقيدة الآلهة ! فقد انقلبت حرية العقيدة - الفطرية العقلية والعلمية - لديهم اسراً واسر العقيدة حرية ، كما انقلب اصل الإله الواحد الى الآلهة ! وهكذا يخيل الى من رانت قلوبهم وعميت بصائرهم ان يعكسوا امر الحق والباطل ، تصوراً لكل بصورة الآخر ، وهناك استحوذ الشيطان على اوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى .

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ (٧).

وكان الملة الآخرة هي الآخرة قبل الاسلام : المسيحية ، التي شاعت فيها اسطورة التثليث ؟ ام وملة اخرى عن عاصروهم حيث الإشرارك اصبح سنة شاملة تخلق على أكثرية الأجواء ، وهم - بطبيعة الحال - لا يعاشرون إلا اضرابهم المشركين مهما اختلفت صنوفه .

وهكذا يكون اهل الباطل ، انهم لا يفتشون عن الحق بل

ويستوحشون من أهله ، فبالطبع لا يسمعون إلا ما هم من أهله ،
فياخذونه حجة على الحق وأهله !

وهذه طريقة مكرورة مأكرة في الأجواء الطاغوتية ، حيث يصرف فيها
الطفلة جماهيرهم الأذيل عن الإهتمام بصالحهم العقائدي والبحث وراء
الحقيقة المنشودة ، حيث اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق خطر عليهم ، إذ
يكشف أباطلهم وأضاليلهم ، فيصعب بذلك إستحمارهم .

وقد تلمح «واصبروا على أهنتكم» بأنهم كأنهم استضعفوا أمام داعية
الحق ، فلينتلقوا عنهم خلاصاً عن أسرهم بأسرهم ، وصبراً على أهنتهم
المظلومين المهاجمين «إن هذا لشيء يراد» بهم من مس لكرامتهم !

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا
عَذَابٍ﴾ (٨) .

وإذا كان الذكر ينزل على بشر مثلنا ، فكيف «أنزل عليه الذكر من
بيننا» ونحن أولى به منه ، وليس ذلك العُجاب لأنهم عرفوا الذكر ثم
شكوا فيمن أنزل عليه «بل هم في شك من ذكري» إذ ما عرفوه ، ولذلك
أنكروه ، وإذا عرفوه فهم قد «جحودوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً»
«بل لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ» حتى يثوبوا ولات حين مناص ! .

﴿أَعِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (٩) .

لذلك فلهم الخيرة في نزول الرحمة على من يشاؤون ، دون ربك ، «قل
لو أنكم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق» (١٧ : ١٠٠)

«أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة
الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً
ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٤٣ : ٣٢) .

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي
الْأَسْبَابِ﴾ (١٠)

هنا - في الكون - أسباب عادية متعددة لكل متسبب بها تقتضيه
الحاجات ، وهناك أسباب علمية لا تُنال إلا بالكشف العلمية بمختلف
درجاتها، وهناك ثالثة لا تُنال إلا بالوحي إلى رجاله ، ثم رابعة تختص بمن
له ملك السماوات والأرض .

فذو القرنين يتبع سبباً وسبباً وسبباً من القسم الثالث بما سببها الله له
في مسيرته الأرضية الكبرى ، والرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)
يتبع سبباً سماوياً يخلق على الأفق الأعلى عند سكرة المنتهى ، عند ما جنة
المأوى .

وأما أسباب التكوين الخاصة بمن له ملك السماوات والأرض وبيده
ملكوت كل شيء ، فلا تملك لأحد أو تحول .

فرعون يطلب من هامان بناء صرح « لعلني أبلغ الأسباب أسباب
السماوات لعلني أطلع إلى إله موسى » بكل غباوة وتخرف !

وهنا المشركون يتحدثون بارتقاء الأسباب الخاصة بالله ، لمكان «أم لهم
ملك السماوات والأرض » أم والخاصة بنسب الله ، ولكي يستملكوا
خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، ويختصوا وحيه بمن يشاؤون .

أو يمنعوه عن يشاؤون « فليرتقوا في الأسباب » أسباب السماوات حيلة
على الوحي في الملأ الأعلى ، وأسباب الأرض ، حيلة على قلوب الموحى
إليهم ، وليحدّد وحي الله كما يحدّدون ، ويهبط إلى أي مهبط يحبون .

فهذه الآية وأشباهاها من آيات الأسباب ترمز إلى أسباب غيبية لم
تكشف البشرية عنها النقاب ، وسوف يكشف عن بعضها ، الخاصة بغير

الوحي ، وغير الخاصة بالله ، على ضوء الكشف العلمية المتواصلة .
وهناك أسباب لا سبيل إليها بأي سبب من الأسباب ، ولن يكشف العلم عنها النقاب مهما تقدم وتصدى ! فإنها «أدق من الشعر وأحد من الحديد وهو بكل مكان إلا أنه لا يرى»^(١) .

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾^(١١) .

«جند ما .. من الأحزاب» أي الأحزاب «هنالك» إرتقاء في الأسباب «مهزوم» في غزو الفضاء ، مهما هزمت الجنود العلمية الجبارة أسباباً تهزم في الأرض والسماء .

إنَّ كافة الجنود ، بكل الإمكانيات والطاقات ، هي «هنالك» أمام الإرتقاء في الأسباب ، إنها ليست إلا «جند ما» في كل هزلة وبذالة أمام ملك السماوات والأرض ومليكها وأسبابها الغيبية الخاصة !

كما و«جند ما هنالك» أمام حجة الوحي عجوج «مهزوم» من أي حزب «من الأحزاب» مهما أبرقوا وأرعدوا ، فإن للحق دولة وللباطل جولة !

إن صرح الوحي لا يُساوى أو يسامى بـ «جند ما» وكل الأجناد في تلك الساحة العالية هي «جند ما .. مهزوم» !

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾^(١٢) .

«كذبت قبلهم قوم نوح» «ألف سنة إلا خمسين عاماً» على جيروتهم «وعاد» أصحاب «إرم ذات العماد» التي لم يخلق مثلها في

(١) الدر المنثور : ٥ : ٢٩٧ - أخرج ابن جرير عن الربيع بن انس قال :
الأسباب ..

البلاد» (٨٧ : ٨) «وفرعون ذو الأوتاد» : أوتاد الحكم الأوطاد ،
والأسباب التي بها السلطان كما يثبت الخباء بأوتاده ؛ ويقوم على أعماده ،
أوتاد الابنية المشيدة المشددة ، والقواعد الممهدة التي تشبه الجبال في ارتفاع
الرؤوس ورسوخ الأصول ، حيث الجبال قد تسمى أوتاد الارض ، فأنيته
كانت كالجبال الأوتاد ، كالأهرام التي تقوم في الأرض كالجبال .

﴿وَنُمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١٣) .

الأيكة هي الغابة الملتفة وهم قوم شعيب ، وهولاء هم أطنى وأنحس
وأغوى حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي ، لحد يحق لهم القول «أولئك
الأحزاب» المتحزبة ضد الرسالات ، كأن لا أحزاب سواهم !.

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ (١٤) .

لقد جندوا كل طاقاتهم وإمكاناتهم ، وحصروها في تكذيب الرسل ،
فحق عليهم عقابي في الأخرى ، وأحياناً في الأولى زيادة عليها ، فهم «جند
ما هنالك مهزوم من الأحزاب» .

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَولَاءُ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا
عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦) .

ما ينتظر هولاء الناكرون ليوم الحساب - واقعاً دون إنتظار - إلا صيحة
واحدة ما لها من مهلة حتى قدر فَوَاقٍ .

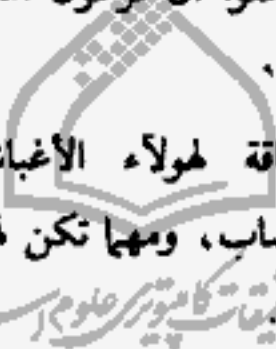
فقد ينتظر الانسان أمراً هو مصدقه فناظره ، وقد لا ينتظره إذ هو ناكره
فغير ناظره ولكن ذلك الأمر هو ناظره ، وهناك نظراً إلى المستقبل الواقع
يصح القول أنه ينتظره .

والفواق فتحاً هو الراحة ، وضماً هو فواق الناقة ، والنص كالأول ، إذاً
فما لهم من هذه الصيحة من راحة ، فلا إفاقة من سكرتها ، ولا إستراحة

من كربتها ولا قدر فواق ، كما يفيق المريض من علته والسكران من نشوته .

وقد تعني «صبيحة واحدة» واحدة تلو الأخرى على الأبدال ، فقد تكون لهم صبيحة يوم الدنيا هي عذاب الإستئصال ، ثم لهم ولكل العالمين صبيحة لقيامة الإمامة ، هي لهم أولاء عذاب ، ومن ثم صبيحة قيامة الإحياء ، ولا فواق لأي من هذه الصبيحات لهؤلاء الأنكاد !

وقد تعني - فقط - الصبيحة الثانية ليوم الحساب : «وقالوا . . قبل يوم الحساب» فلكل صبيحة قبل يوم الحساب فواق بعدها، حيث النوم في البرزخ فواق : «النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً» فليس بينها عرض على النار ، لكن «ويوم القيامة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب» . (٤٠ : ٤٦) إذ لا تخفيف فيه ولا فواق.

وبالعجالة الحماقة لهؤلاء الأغباش يستعجلون قُطْعهم من صبيحة الحساب قبل يوم الحساب، ومهما تكن لهم من صبيحة يوم الدنيا فما هي إلا دون صبيحة الحساب!  تحقيق: كامبوتر علوم إسلامي

والقُطْع في الأصل هو المقطوع عرضاً كما القُدُّ هو المقطوع طولاً ، إذاً فهو النصيب المفروض المفروز ، ولكن قط الصبيحة الأخيرة ليس مفروزاً مهما كان مفروضاً ، فإنه صبيحة الإحياء ثم لا فواق بعدها للكافرين ولا نومة فيها فواق ، خلاف سائر الصبيحة قبلها حتى صبيحة الإمامة فإن بعدها وقبل الأخرى برزخ فيه نوم مهما قل أو كثر ، وهو فواق ! .

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ

مَبَدَّنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا نَحْنُ الْجَبَالُ

مَعَهُ يُسَيِّجَنَّ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً
 كُلُّ لَهُ وَأَوَّابٌ ۝ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ۝ (٢٠) * وَهَلْ أَتَاكَ نَبِيُّ الْخَيْمِ إِذْ
 تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ
 قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَنِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُمَ
 بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُسَاطِطْ وَاهِدْنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ (٢٢)
 إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ
 فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ۝ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
 بِسْؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ۝ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ
 لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۝ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ
 فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝ (٢٤) ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ

وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا
 جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
 وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ
 يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ
 الْحِابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
 بَطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ
 النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
 كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّتَذْكُرَ
 أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

الآيات العشر الأولى إستعراضة خاطفة لحياة داود (عليه السلام) في
 سلطنته الروحية والزمنية ، بيان الواقع الرسالي لهذا النبي الملك ، وإجابة
 عن شطحات المشركين : «أنزل عليه الذكر من بيننا» ونحن أولو قوة
 وسلطة ومال ؟

فذلك لمصداق من مصاديق الرسالات السامية ، أن ليس بين القيادة
 الروحية والزمنية اية منافرة ومناحرة ، بل السلطة الزمنية هي - فقط - حق

للروحانيين ، مهما حرمهم أهل الزمن طول قرون الرسالات ، حرمهم حقوقهم ولكن «العاقبة للمتقين» وهي آخر الزمن ، ثم في الزمن جمع بينهما أحياناً كما في داود وسليمان (عليهما السلام) بما جعل الله تكويناً وتشريعاً ، وأخرى فصل بينهما لشراسة الزمنيين من ناحية وتقاصس الروحانيين أو سائر المؤمنين من أخرى كما عشناه طول القرون الإسلامية .

وثالثة محاولة إيمانية صامدة من المؤمنين لكسر جيروت الطواغيت واستلام أزمة الحكم كما فعله الإمام الحسين سيد الشهداء (عليه السلام) وعدم نجاحه لاستلام السلطة الزمنية هو من جرّاء تحاذل المسلمين أن لم ينصروه ، مهما نجح روحياً كأمثولة عالية منقطعة النظير في النصحية والفداء ، روعي وأرواح العالمين لتراب الشهداء مقدمه الفداء .

ورابعة هي من جرّاء الثورة الحسينية كالثورة الإسلامية السامية الحاضرة في إيران ، حيث يقودها ابن الامام الحسين (عليه السلام) .
﴿وَأُضِيزْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) .

ذلك الأيدي الداودية هي أيدي السلطة الزمنية إضافة إلى الروحية ، وثالثة يد التجاوب معه في تسيحه من الجبال والطير ، ومن أهم أيديه يد العبادة «عبدنا» وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : «لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود» (١) اللهم إلّا قائله لأنه - «أول العابدين» !

ولماذا «ذا الأيد» لـ «إنه أَوَّابٌ» يثوب إلى ربه ويثوب دائبة دون وقفة !

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٩٧ - اخرج الديلمي عن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

«إصبر» على معاناة الدعوة الصعبة المعارضة ، و«على ما يقولون» على هذه الدعوة ، فلتجعل الصبر زادك في هذه الطريق المليء بالدعاء والأشلاء ، مفعمة بكل ابتلاء .

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ .

ويا لها من يدٍ في الغيب ، أن الجبال الجامدة غير الشاعرة بظاهر الحال ، هي تسبح معه بالعشي والإشراق . لا - فقط - معية واقعية ، فإنها مع كل الكائنات ، ولا - فقط - معه ! بل ومعية تسمع أصواتها في تسبيحها ، كما «الطير» مسخرة معه يسبحن ، و«كل» من الجبال والطير له «أواب» .

ولماذا - فقط - العشي والإشراق ؟ لعلها تعنيان مساء صباح تعبيراً ثانياً عن الأوقات كلها ، ولأنهما ركنا الأوقات ، أم تعنيان وقتي الصلاة ، أنها كانت مفروضة في شرعته في الوقتين .

ثم هي كلها أوبة لله ولكن هنا «له أواب» في معية التسبيح وتبعيته له ، إضافة إلى تسمع أو سمعه فقط .

اجل «له» لا لسواه ، وكل أوبة إلى الله ، ما يدهش العقول من ضخامة العظمة لهذا النبي الملك العظيم !

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (٢٠) .

ملك مشدود بعناية الله ، شديد على أعداء الله ، مديد في أرض الله ، إضافة إلى الحكمة وفصل الخطاب ، فالملك دون حكمة ساقط ، والحكمة دون ملك غير مشدودة بالواقع الملموس ، وهما دون فصل الخطاب مفصولان عما يراد منهما !

و«فصل الخطاب» هو الخطاب الفصل ، قاطعاً دون تردد ، مقنعاً دون تبذّر، يفصل بين الحق والباطل ، وبين المتخاصمين ، وكذلك كل فصل حكيم ، كعرفة مختلف اللغات حيث تفصل بين مختلف المخاطبين في اللغات^(١).

ومع كل ذلك تراه يُبلى ببلاء ، وأنت لم تبل بمثل بلائه العناء ، فمهما لم يكن لك ملك ، فهناك الحكمة الحكيمة القاصعة ، وفصل خطاب قاطع دون ابتلاء في هذه السبيل مهما ابتليت بقوم لُدّ ما أتاهاهم قبلك من نذير !.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسُفِ إِذْ تُسَوِّرُوا إِلْحَرَابَ﴾^(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾^(٢٢).

الخصم هو الخصومة وكأنها هما نفس الخصومة لعظمتها وشدتها ، ومن آيته تسوّر المحراب : إرتقاء بتكلف إلى سور المحراب ، دون بابه المتعدد ، وهو بادرة غير متعددة تكشف عن بالغ الخصومة ، لذلك «فزع منهم» - «قالوا لا تخف» لسنا نحن من خصمائك ، وإنما نحن «خصمان بغى بعضنا على بعض ...» .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٤٣ - ابن بابويه بسنده عن أبي الصلت الهروي قال كان الرضا (عليه السلام) يكلم الناس بلغاتهم وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكل لغة فقلت يوماً يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني لأعجب من معرفتك بهذه اللغات على اختلافها فقال : يا بن الصلت انا حجه الله على خلقه وما كان الله ليتخذ حجة على قوم لا يعرف لغاتهم اما بلغك ما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : واوتينا فصل الخطاب فهل فصل الخطاب الا معرفة اللغات .

الخصم هنا يطالبونه بالحكم بينهم بالحق «فاحكم بيننا بالحق» ثم تقريراً لشاكلة الحكم، وكأنهم هم الحاكمون عليه: «ولا تُشطط» إفراطاً في البعد عن الحق «واهدنا إلى سواء الصراط» من الحق، وفيه فزعٌ لداود على فزع، وهو النبي الملك فكيف يُشطط؟.

وهنا في قصة «الخصمان» و«تسعة وتسعون نعجة وواحدة» شَطَطٌ من المختلقات الزور أقحمت في رواياتنا، تُضرب عرض الحائط، وعلى من نسب إليه الزنا بإمرأة أورياه الحقي حُدُّ القذف، لا سيما وأن سليمان حسب الخرافة الإنجيلية ولد منها^(١).

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾^(٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى تِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ^(٢٤).

مركز تحقيق كتاب تور علوم إسلامي

كَانَ الْعَصْمَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ هُنَا انْقَطَعَتْ عَنْ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

(١) انجيل متى ١ : ٦ «ان داود الملك ولد سليمان من التي لاوريا - راجع «عقائدنا» ص ٤١٩ - ٤٢٦ - تجد تفصيل الحوار بيننا وبين الجمعية الرسولية الأمريكية حول الفرية التوراتية على داود (عليه السلام)، وفي تفسير البرهان ٤ : ٤٥ - ابن بابويه بسند عن صالح بن عقبة عن الصادق (عليه السلام) في حديث قال فيه يا علقة إن رضى الناس لا تملك وألستهم لا تُضبط وكيف تسلمون مما لم تسلم أنبياء الله ورسله وحججه (عليه السلام) ألم ينسبوا يوسف إلى انه هم بالزنا؟ ألم ينسبوا أيوب إلى انه ابتلى بذنوبه؟ ألم ينسبوا داود إلى انه تبع الطير حتى نظر الى امرأة اوريا وانه قدم زوجها امام التابوت حتى قتل ثم زوج زوجها؟

سورة ص/ آية ١٧ - ٢٩ (٢٣)

لفترة الحكم فتنة له ، ولكي لا يزهو بشد الملك والحكمة ، ويلبس تماماً أن العصمة الإلهية هي - فقط - التي تعصمه عن الأخطاء .

والقضية - كما هي معروضة - تحمل في بادئها ظلماً صارخاً مستثيراً ، لحد يحمل داود النبي الأواب على الحكم العاجل ، دونما نظرة دفاع للمحكوم عليه أو سؤال عنه .

«وظن داود أنما فتناه» لمحة من تسوّر المحراب ، وأخرى من جراءة الخصم: «لا تُشطط» وثالثة بعد حكمه وهدوء البال وسكون الحال انتبه خطأ في حكمه ، أو علّ المحكوم عليه اعترض عليه ، لماذا الحكم - فقط - بدعوى المدعي دون سماع إلى المدعى عليه ؟ .

هنا «ظن» أنه فتنة وبلية إلهية ، وتجربة مرة تُلقت نظره إلى ضعفه على قوته وشدة وطأته في ملكه !

«ظن» ما ظنّه «فخر راکعاً» لربه «وأنا ب» إلى ربه بما أخطأ .

فالظن هنا بمعناه كما في سواء ، دون العلم بتأويل ، إذ لا مدخل هنا للعلم أنه فتنة إلهية ، وإنما ملاحظتها تدل دلالة راجحة غير قاطعة على أنها فتنة !

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ (٢٥) .

ولماذا «غفرنا له ذلك» الحكم الشطط ؟ لأنه كان ابتلاءً إلهياً ، وكان العُجال في الحكم لظاهر الفخامة في الظلم ، فلم يحكم عن شطط ، ولا عن جهل ، بل عن غفلة ابتلي بها كفتنة إلهية يتكامل بها عباده المخلصون ! «وغفرنا» لذلك «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» كأصل أصيل من حياته الإيمانية .

لذلك تراه يغفر له فور ظنه ، ثم يمدحه بما يزيح عنه وصمة خلاف العصمة ، ثم يجعله خليفة في الأرض :

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦) .

أترى يؤسم داود بوسام الشرف هذا ، حاكماً مطلقاً بين الناس ، لأنه ظلم في حكمه ، أم لأنه غفر له عن شطط حكمه ؟!

وقد يلمح أو يصرح «إنا جعلناك خليفة في الأرض» أن خلافة الرسالية كانت بعد فتنته «فاحكم بين الناس» بحكم الشريعة العامة وحكم الأقضية الخاصة ، وهنا تزول كل مشكلة تحيك حول عصمة الرسالة ، و«خليفة» هنا كما في غيره لا تعني خلافة عن الله ، فإنه إشراك بالله وأضل سبيلاً ، حيث الخلافة تقتضي مستخلفاً عنه متجانساً ، الميت أو الساقط عن كيانه ، سبحانه الله العظيم .

وإنما تعني خلافة الحكم الرسالي عن رسول أم رسل سابقين .

ثم «إنا جعلناك» برهان لا مرد له أن الحكم بين الناس بحاجة ماسة إلى جعل إلهي ، فلا خلافة الرسول عن رسول ، ولا خلافة خلفاء الرسول عن الرسول، ليس شيء منهما إلا بجعل وانتصاب إلهي .

فخليفة الشورى ! هو خليفة الناس دون الرسول ، كما الخلافة الحاصنة بالسيف والنار ، دون شورى ولا جعل إلهي ، هو خلافة السيف

والنار. فحقُّ لثاني الخلفاء ألا يدري أخليفة هو أم ملك^(١).

فلأنك خليفة من قبل الله «فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع أهواءهم» رغم ما حكمت بغير الحق قبل هذه الخلافة ، وهو طبيعة الحال في غير المعصومين ، ولا دليل على عصمة غير أولى العزم قبل رسالتهم . يرى داود هذه التجربة المرة قبل خلافته ، ولكي يذكر حاله قبل خلافته .

هنا مواصفات عشر لداود (عليه السلام) تحتفُّ بخطأ واحد ، فهلا تفسر عشيرة العشرة عشيرتها الواحدة أنها خطيئة صغيرة ، بل وأصغر بكثير من خطيئة آدم ، وكلتاها كانتا قبل الرسالة .

ثم وتبتدىء هذه العشر «عبدنا داود» في أسوة التصبر ، ولولا أنه صبور على فعل الطاعات وترك الخطيئات ومصابراً في البليات ، لما صح «واذكر عبدنا داود ...» وهذه العشرة الكاملة هي :

«عبدنا - ذا الأيد - إنه أوأب - سخرنا - شددنا ملكه - آتيناه الحكمة - وفصل الخطاب - إن له عندنا لزلفى - وحسن مآب - يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض» !

أترى بعدُ أن هذه العشرة الكاملة كلها لما تحتف به من خطيئة كبيرة هي الزنا بامرأة اورياه الحق وقته لكي يخلص منه؟

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٠٦ . - اخرج ابن سعد عن ابن أبي العرجاء قال قال عمر بن الخطاب : والله ما ادري اخليفة انا ام ملك قال قائل يا امير المؤمنين ان بينهما فرقاً قال ما هو؟ قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق وانت الحمد لله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا !

الجياذ كما في مختلفات الروايات ، وحتى لو أنها أغفلته عن الصلاة فيما ذنبها حتى تذبح ، بل المذنب آنذاك هو نفسه فليذبح - إذاً - نفسه !
وحيث يترك هو صلاته للجياذ ، ثم يذبحها ، ظلماً بعد ظلم !
فكيف - إذاً - يستحق كرامة رد الشمس ؟

وأخيراً فماذا يفيد رد الشمس ؟ الكمي يصلي صلاته قبل غروبها ؟ وقد غربت ! وحتى إذا رجعت فعليه صلاة قبل رجوعها : « صلاة الفجر » وقبل غروبها « صلاة العصر » وقد فاتت الفائتة على أية حال !

وحتى لو طلعت ليوم واحد عدة مرات ، فلكل طلعة وغربة صلوات فلا فرق - إذاً - بين ردها في يومه وبين طلوعها على سنتها لغدها ، وردها ليومها يرهقه لأداء فرائضه مرة بعد أخرى ، فليقض ما فاتته من فريضة ليومه أو غده !

أم إذا كان « مسحاً بالسوق والأعناق » تحبياً إلى الصافنات الجياذ ، فهو - إذاً - أواب مر إلى التي أغفلته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب ! فلماذا تستجاب دعوته لرد الشمس وقد زاد غفلة - على غفلته - معتمدة !

كلأ يا مختلفي الأكاذيب المعارضة للذكر الحكيم ، أنه تغافل عن الصلاة ثم ردت له الشمس ، مهما كان رد الشمس غلقة وذريعة لمن يعتقدونها في الإمام علي (عليه السلام) خرافة جازفة جارفة تمس من كرامة العدالة فضلاً عن العصمة !

لقد كرر سليمان « إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » شكراً لربه طيلة عرض الصافنات الجياذ « حتى توارت بالحجاب » ثم قال « ردها علي » ليكرر مقالته الشاكرة ويتلطف بالخير الناشئ عن ذكر ربه « فطفت مسحاً بالسوق والأعناق » !

ولو كانت المتوارية بالحجاب الشمس المقحمة في هذا البين ، لاستلزم ذلك أنه اخذ يكرر مقالته تلك ولم يصل حتى غابت الشمس ، وهو تناقض بين حيث يجمع بين غفلته عن الصلاة طيلة المدة ، وذكره أني غفلت عن ذكر ربي! (١) .

وبعد كل ذلك ففي رد الشمس من الناحية الكونية قفزة إلى الوراء ، تخلفاً عن ستها في دائب سيرها ، وفي ذلك كورها وتما دورها وقيامتها قبل قيامتها !

(١) تفسير البرهان ٤ : ٤٧ عن ابن بابويه في الفقيه بإسناده قال زرارة والفضل قلنا لابي جعفر (عليه السلام) ارايت قول الله عز وجل : ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ؟ قال : يعني كتاباً مفروضاً وليس يعني وقت فوتها ان جاز ذلك الوقت ثم صلاها لم تكن صلاة ولو كان كذلك لهلك سليمان بن داود (عليه السلام) حين صلاها لغير وقتها ولكن متى ذكرها صلاها .

وفيه عن الطبرسي قال قال ابن عباس سألت علياً (عليه السلام) عن هذه الآية فقال ما بلغك فيها يا ابن عباس ! قلت بل سمعت كعباً يقول : اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة فقال ردوها علي يعني الأفراس وكانت أربعة عشر فرساً فضرب سوقها واعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنه ظلم الخيل بقتلها فقال علي (عليه السلام) : كذب كعب ولكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس ردوها علي فردت فصلى العصر في وقتها وان انبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم لانهم معصومون مطهرون .

وفي الدر المنثور ٥ : ٣٠٩ - اخرج الطبراني في الأوسط والاسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن ابن ابي كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : فطفق مسحاً بالسوق والاعناق قال : قطع سوقها واعناقها بالسيف ! أقول : وهي وامثالها من احاديث مخالفة للكتاب فلا تصدق على المعصومين (عليهم السلام) .

والقرآن يذكر لداود (عليه السلام) من غير هذه العشر فضائل أخرى وفواضل :

فقد يهزم جالوت الجبار بضربة القاضية : «ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزمهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء .. » (٢ : ٢٥١) .

كما ويفضله على كافة المرسلين إلا أولي العزم منهم ، حيث يُفرد بذكر كتابه بينهم : «ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً» (١٧ : ٥٥) .

ثم وهنا بعد آيات «ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب» (٣٠) ، فهل إن المولود عن زنا وهبة إلهية ونعم العبد إنه أواب ؟! وما يُجبر العقول أنه خاض جماعة من المفسرين مع إسرائيليات مختلفات مُقحّمات في روايات إسلامية حول هذه الفتنة الدوادية خوفاً كبيراً ، تنزه عنه طبيعة الإنسان العادي غير المؤمن فضلاً عن ذلك الرسول العظيم .! وحتى الروايات التي حاولت تخفيف الوطئة عن تكلم الأساطير سارت معها شوطاً أو أشواطاً ، وسحبت معها أشراطاً ، وهي - أساساً - لا تصلح للنظر ، فكل واحدة من أوصافه العشرة جند صامد يزود عنه هذه الوصمات !

= نذبت بعلمها . ولما مضت المناحة أرسل داود إليها وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً .

اقول وفي انجيل متى ١ : ٦ «ان داود الملك ولد سليمان من التي لاوريا» !

وليس هنا - أولاً وأخيراً - إلا حكمه بما حكم حسب الدعوى : «وظن داود أنما فتناه» وما يتيقن الفتنة فما تأكد . إذاً - من الخطيئة «فخر راکعاً» لاحتمال أنه خطيئة «وأناب» لو أنها بعُدته عن زلفاه «فغفرنا له ذلك» سترأ لما ظنه ، وعَلَّه ستر لأصل الظن دون المظنون إذ لم يكن خطيئة ، وقد تلمح له تعقيه «وإنَّ له عندنا لزلفى وحسن مآب» فبمجرد ظن الفتنة يزْدلف إلى ربه ويثوب ! ..

تنبيهات على ضوء هذه الآيات :

١ - إن للمُلك والأيدى زهوة لا تُبقي ولا تذر ، فليتحذر عنها كل ذي بصر ، وحتى داود النبي ، فليستغفر ربه سترأ عن الزهوات الهاجمة إليه : «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً» استغفاراً يدفع عن النوازل ، لا أنه يرفع الكائن الحاصل !

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

٢ - على الحاكم بين الناس أن يتخلى عن كافة الطوارئ ، آفاقية وأنفسية ، فلا يتأثر بأي مؤثر ، فلا يتبع الهوى فتضله عن سبيل الله ، لا ! وحتى هوى عقله المستثار بإثارة الهدى كما في داود ، وليجعل الحق بين عينيه .

٣ - إن حالة الإستغفار تتطلب كل خضوع وخنوع ، وحتى للذي ظن فتنة دون علم «وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راکعاً وأناب» .

وهل الركوع هو الركوع ؟ والسجود أفضل منه في الخضوع ! الركوع المقابل للسجود هو الركوع ، ولكنها المطلق منه - كما السجود - يعني مطلق الخضوع ، ثم القرائن هي التي تقرر موقفه ، وهنا المناسب هو السجود وكما

يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انه سجد في «ص» وقال :
سجدها داود ونسجدها شكراً^(١) .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(٢٧) .

لأن خلق الباطل هو خلق باطل وهو خلاف الحكمة ، وأن فرض
الأعمال يوم الدنيا دونها جزاء ، ثم لاحساب بعد الموت ، ذلك يشي إلى
بطلان خلق الكون ، لذلك ينفيه هنا ، وأن «ذلك ظن الذين كفروا» بالله
واليوم الآخر ، حيث الإيمان بالله يقتضي الإيمان باليوم الآخر «فويل للذين
كفروا من النار» .

هنا «باطلاً» تضرب إلى ثالث البطلان : «ما خلقت» حالكوني
باطلاً - وخالقي باطلاً - والسموات والأرض باطلاً ؛ فبطلان الألوهية
الحكيمة ينتج خلقاً باطلاً ، وكوناً باطلاً ، وفي ذلك إبطال الألوهية ،
فنكران يوم الحساب نكران للألوهية وحتى لو كان معه شريك أو شركاء .

بل هو الحق ، وخالقه حق ، والكون مخلوق بحق ، مما يتطلب خليفة
في الأرض يحكم بالحق «ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» .

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفُسَيْدِ فِي الْأَرْضِ أَمْ
نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^(٢٨) .

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٠٤ - اخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس ان
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ... وفيه اخرج سعيد بن منصور عن الحسن قال :
كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يسجد في (ص) حتى نزلت «اولئك
الذين هدى الله فبهداهم اقتده» فسجد فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

أنجعل خلق السماوات والأرض باطلاً ومن بطلانه «أم نجعل .. أم نجعل» تسوية بين الصالحين والطارحين ، فكما المفسدين والفجار ليس لهم في ظن الذين كفروا حساب ، كذلك المتقين ليس لهم ثواب ، فهؤلاء إذ ينكرون المعاد ، هم يسوون بين الفريقين في حساب الله حين لا حساب ولا عقاب ولا ثواب ، بل وللфجار فضلهم إذ حظوا بحرية الشهوات يوم الدنيا والمتقون محرومون ، و«تلك إذا قسمة ضيزى» «وما الله بظلام للعبيد» .. فلا ينبغي لأهل الحق أن يتزلوا أنفسهم منزلة أهل الباطل ، لأن الله لم يجعل أهل الحق عنده بمنزلة أهل الباطل» (١) .

ولكي يظهر الحق ناصحاً ناصعاً وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، فهذا :

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩) .

إنه «مبارك» فيه من كافة البركات التي ترقى بالإنسان من أسفل السافلين إلى أعلى عليين ، «أنزلناه إليك» لا ليقرأوه أو يتبركوا بوجوده ، إنما «ليدبروا آياته» أن يجعلوا الآيات دبر بعض ، تفسيراً لبعضها ببعض ، وتفكيراً في بعضها البعض ، سرداً رتيباً أدبياً رائعاً في لباب الآيات «وليتذكر أولوا الألباب» .

.. والآية القرآنية تُدبر من زوايا ثلاث ولكي يظهر لبابها لأولى الألباب .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٤٦ - الكافي بسند عن ابن عبد الله (عليه السلام) في حديث طويل قال : لا ينبغي ... لم يعرفوا وجه قول الله في كتابه إذ يقول «أم نجعل المؤمنين آمنوا» .

يُتَدَبَّرُ فِيهَا أَوَّلًا تَعْقِيبًا لَهَا ، تَحْقِيقًا عَنْ مَعْنَاهَا بِكُلِّ إِمْعَانٍ وَاتِّقَانٍ ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى آيَاتِهَا الْعَشِيرَةِ مَعَهَا قَبْلُهَا وَبَعْدَهَا ، حَيْثُ التَّأْلِيفُ قَاصِدٌ كَمَا الْآيَةُ نَفْسُهَا ، ثُمَّ نَظَرًا إِلَى كَافَّةِ الْآيَاتِ الَّتِي تَعْنِي مَا تَعْنِيهِ ، لِنَسْتَمِدَّ مِنْهَا كُلَّهَا مَا تَعْنِيهِ .

فَكَلِمًا تَدَبَّرْتُ فِي آيَةٍ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ ، عَقَلْتُهَا أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ ، فِي مَجَالَاتٍ فَاسِحَةٍ وَاسِعَةٍ فَإِنَّهُ كِتَابٌ مُبَارَكٌ لَاحِدٌ لِمُغْزَاهُ ، وَلَا وَقْفَةٌ لِمَعْنَاهُ فِي مَرَمَاهُ !

وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعَمَ الْعَبْدِ
إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصِّفْنَتُ
الْجَبَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ
رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رَدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا
بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ۖ وَأَلْقَيْنَا عَلَى
كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي
مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَرْنَا لَهُ نَزِيلَ نَحْرِي بِأَمْرِهِ ۖ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَنَبَطِيزٍ كُلِّ شَيْءٍ رَسَوَاصِ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الْخَرِيرُ الْمَغْرِبُ

فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَاقٍ ﴿٤٠﴾
وَإِذْ نَادَىٰ يَتِيمَ ابْنُ يَتِيمٍ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ
بُئْسَ مَقَرٌّ وَبُئْسَ مَبْلَغُ عَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِهْلَكَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ
رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ
ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَجْنُثْ إِنَّهُ وَجَدَنَّهُ صَارِبًا نِّعَمَ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٣٠

سليمان النبي الملك هنا وهبة ربانية لداود: «نعم العبد» ولماذا؟ لـ «أنه أواب» كما داود اواب.

فهل تصدق - بعد - الفرية التوراتية والانجيلية على داود وسليمان ، أنه وليد زناً وباني المعابد الوثنية على الأتلال لنساءه المشركات أمّا هي من

هرطقات جارقة هراء! (١).

ففي انجيل متى : «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا»
(١ : ٦) وفي صموئيل ١١ : ٣-٢٦ ، أنه زنى بامرأة أوريا فحبلت
منه ! وقد مضى .

كلأ ! يا مدني الكتاب المقدس ، إنه وهبة إلهية لا من دعاة ، وهو
نعم العبد إنه أواب .

وإن «نعم العبد» من المعبود .. يجعل من العبد قمة مرموقة من
العبادة كأنه هو العبادة نفسها رغم أنه ملك !

«سليمان» وهو، مذكور في (١٧) موضعاً من القرآن بكل تبجيل
وتجليل ، هي لغة عبرانية تعني الملىء من السلم ، فهو- إذا- عبارة
أخرى عن «نعم العبد» حيث العبودية هي السلم للمعبود ، فإذا ملىء
منها العبد فهو «سليمان نعم العبد إنه أواب» :

﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ حُبَّ
الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا
بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) .

«الصفافنات الجياد» هي الخيل الصافنة التي تصفن وتصف قدميها عند
السكون بكل استقامة ووقار ، جياد شديدة الجري وسريعة إذا جرت

(١) في الملوك ١١ : ١-٨ ونحميا ١٣ : ٢٦ يقول : اخذ سليمان يعاشر ويعاشق
النساء الغريات اللاتي منع الله عن عشرتهن فنكح منهن سبعمئة بالعقد الدائم
وثلاثمئة منقطعاً فاجتذبوا واملن قلبه عن ربه الى انفسهن وهو على كهولته وشيوخته
تنحى نحوهن لحد يني لكل واحدة منهن مذبحةً للاوثان على الالتلال ... اقول وهذه
خلاصة عن تفاصيل (راجع عقائدنا ٤٢٧-٤٤١) تجدد فيه حواراً شاملاً مقلنا بين
القرآن والمهلين بشأنه .

وعدت ، وهي خيل الجهاد .

مَلِكٌ كسليمان النبي له سيطرته وسطوته ، تعرض له صافناته الجياد ليركبها هو وجنوده في مقاتلة الأعداء ، فيتهج منها إبتهاجةً دون زهوة ولا غفلة ولا رعونة ، وليست مقاتله حينذاك إلا «إني أحببت حب الخير» حب الصافنات الجياد - فقط - للجهاد ، فما أحببتها عن شهوة مال أو جمال ، ولا عن كبرياء ودلال ، ولا عن شهرة ونوال ، وإنما عن ذكر ربي «حب ناشئ» عن ذكر ربي حتى توارت «الصافنات الجياد» بالحجاب .

فليس سليمان يحب شيئاً من مال وجمال إلا عن ذكر ربه ، لا عن دافع شهوته ونزوته ، ولا يختص ذكره لربه بصلاته وصيامه وقيامه في عبادة ربه ، بل ويذكره فيما هو رمز للغفلة والزهوة ، فلا يطر في نعمته ، ولا يعشو عن ذكر ربه «نعم العبد إنه أواب» يرجع إلى ربه فيما هو بطبيعته يُنسى ذكر ربه !

وهذه السنة المجيدة في ذكر الله هي سنة الأوابين ، الذين حياتهم أوبة إلى ربهم على أية حال وفي كل مجال ، فليس «ذكر ربي» هنا خصوص الصلاة ولا «عن» تجاوزاً، حتى يحب الخير «الصافنات الجياد» تجاوزاً عن الصلاة، فكيف - إذا - يستحق كرامة رد الشمس ؟ ولا «توارت بالحجاب» تعني الشمس ، إذ لم يسبق لها ذكر أبداً ، وإنما هي «الصافنات الجياد» المتوارية في سيرها بالحجاب .

ولا «ردوها علي» ردٌ للشمس ، فمن هولاء الذين يأمرهم بردها له حتى يقضي فائتة الصلاة ، أهم أرباب ؟ أم عباد أمثاله وهم أقوى منه ؟ .

ثم وليس للشمس المردودة المختلقة سوق وأعناق حتى يمسحها «ردوها» على فطبق مسحاً بالسوق والأعناق ، ولا أن المسح قطع وذبح للصافنات

إن كل واحدة منها من «عبدنا» إلى «خليفة في الأرض» برهان قاطع لا مرد له على براءة ساحته القدسية قبل رسالته مما افترى عليه ، فضلاً عما بعد «إنا جعلناك خليفة في الأرض ..» !

والمفترون هنا يجعلون من النعاج والنعجة امرأة ، ومن امرأة زوجة أورياء ، إقحامات واتهامات رديئة دنيئة لا تُنسب إلى الأوباش الأغباش ، فضلاً عن خليفة الله في الأرض !

«عبدنا» في صيغة الجمع تصوغه كأفضل عبد يجمع في عبوديته بجامع العبادة . وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : «كان أعبد البشر»^(١) .

فـ«نا» وهي ترمز لجمعية الصفات ، تجعل داود عبداً لله من كافة الجهات ، دون من يعبد الله على حرف .. ! ويا ترى كيف يليق بـ«عبدنا» أن يرتكب جرمي القتل والفحشاء ، أم كيف يليق بربنا أن يجعله قدوة الصبر لمحمد وهو أول العابدين ، أقدوة لا يصبر على شهوة الجنس ، فيقضي على روح مسلم ومنكوحه لقضاء السعار الحيواني من شهوة الجنس ؟ !

ثم «ذا الأيد» هل تعني أيدي الجنس المتخلف لكي يرتكب تلك الجريمة النكراء ؟ وهي أيدي الرحمة الفائضة الغزيرة التي جعلته حقاً «عبدنا» !

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٩٧ - اخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال كان النبی (صلى الله عليه وآله وسلم) : اذا ذكر داود (عليه السلام) وحدث عنه قال : كان

و«إنه اواب» كثير الرجوع إلى الله ، كيف يناسب أوتيه هكذا إلى
سعار الجنس ، رغم توبته ؟

وهل «إنا سخرنا له الجبال ..» لتساعده على استلاب النواميس
والأعراض ؟

أو «شددنا ملكه» لكي يملك قتل كبير من قواد جنده «أوريا» ليملك
زوجته بكل حرية ودناءة ؟!

أم «آتيناه الحكمة» ليأتي بخلاف الحكمة وخلاف العدالة والخلق
الإنسانية ؟!

أم «وفصل الخطاب» ليخاطب جنده ان يجعلو أوريا في مقدمة
المقاتلين لكي يُقتل ؟!

أم «إن له عندنا لزلفى» بهذه التأكيدات الأربعة ، ليرتكب أنحس
الكبائر بحق رجل مسلم مجاهد ؟!

أم «حسن مآب» إذ آب إلى ما آب ، وخاب ما خاب، بما افترى عليه
من فتك وقتل وفاحشة ؟! (١) .

(١) في صموئيل ١١ : ٢ - ٢٦ : «وكان وقت المساء ان داود قام عن سريره وتمشى
على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر
جداً . فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : اليست هذه بنت بشتيع اليعام امرأة
اوريا الحثي ؟ . فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من
طمثها ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى .
فأرسل داود الى يوباب يقول : ارسل اليّ اوريا الحثي . . فأتى اوريا اليه . . فقال داود
لاوريا اقم هنا اليوم ، وغداً اطلقك . . ودعاه داود فاكل امامه وشرب واسكره وفي
الصباح كتب داود الى يوباب : اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه
فيضرب ويموت . . فقتل اوريا كذلك . . فلما سمعت امرأة اوريا انه قد مات رجلها =

ثم وفي هذه البادرة الهامة مطلع للعائشين نصف الكرة لردّها ، حيث يصبرونها راجعة بعد غروبها ، ومطلع الآخرين ، لمكان التأخر في أوقاتها ، وفي ذلك إجماع قاصد ملموس لسكنة الأرض كلهم ، فكيف يختص نقلة بأشخاص خصوص ؟

ومن الناحية الأدبية كيف يكون « نعم العبد إنه اواب . إذ عرض عليه .. فقال إني أجبت » فهل إن التغافل عن ذكر الرب في معرض الصافنات يجعله « نعم العبد » فحين لا يتغافل هو - إذا - بتس العبد ؟ ولأنه « نعم العبد » في تأخير الصلاة فلترجع الشمس حتى يقضيها ؟ وكيف يقدم عشيّاً عرض الصافنات وهو وقت الصلاة ؟ غفلة عامدة ما لها من عاذرة ؟

هراءات خارقة ، ومختلقات جارفة أقحمت في أحاديث الإسلام ، ونمن بعرضها على القرآن نصريها على الحائط !

ثم « حتى توارت بالحجاب » قد تكون بياناً لمدى قوله « إني أجبت » أنه كررها « حتى توارت بالحجاب » لا أن حب الخير محدد بـ « توارت بالحجاب » حيث التواري ليس ليواري عنه حب الخير عن ذكر ربه . وعلاً « ردها علي » قاصد إلى استمرارية ذكره ، ولكي يتلطف بالصافنات الجياد بمعشر الجنود ، وليعلموا أن سليمان يحب الجياد - فقط - للجهاد .

وقد يعني « حتى توارت بالحجاب » تواري الصافنات بحجاب الشمس مع حجاب البعد عن سليمان ، فأزال أحد الحجابين بـ « ردها علي » وأزال الآخر أدبياً بـ « طفق مسحاً بالسوق والأعناق » !

ولو كان «ردوها علي» طلباً لرد الشمس ، فهي كلمة عارية عن كل أساليب الأدب عقيب ترك كل أدب للرب حيث ترك الصلاة ، وكأنه متأمر على ربه ، ويعتبره جماعة من جنوده ، «ردوها» أم يأمر جنود ربه ، واللائق بهذه الحالة الضراعة البالغة والبكاء ، والمبالغة في إظهار التوبة ، وأما أن يقول مهوراً مستهتراً متغاضياً عن عظمة الرب «ردوها علي» فلا يقولها أدنى الناس !

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٣٤) .

«فتنا سليمان» تأشيرة لامعة أن عرض الصافنات لم تكن فتنة له وابتلاء ، وإلا فلماذا هنا «فتنا» وهناك «نعم العبد إنه اواب . إذ عرض عليه ؟

وترى ما هو الجسد الملقى على كرسيه ومم أناب ؟

هل هو جسد سليمان نفسه حين مرض الجسد كأنه جسد لا روح له ؟ وصحيح التعبير عن المرض هو المرض ، دون الجسد الصريح في ميت ! ثم «وألقينا» دون ضمير يرجع إليه ، و«جسداً» منكرأ دون جسده، ثلاثة دالة على أنه غير سليمان نفسه !

أم إنه الشيطان الملقى على كرسيه يحكم بديله أياماً^(١) ؟ فكذلك الأمر ، ولأنه حي غير مريض ، وإلقاء الشيطان على كرسي الحكم الرسالي إلغاء للحكم الرسالي !

(١) الدر الثور ٥ : ٣١٣- اخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : الجسد الشيطان الذي كان دفع سليمان اليه خاتمه فقذفه في البحر وكان ملك سليمان في خاتمه وكان اسم الجنى صخراً، واخرج ابن جرير عن السدي ان الشيطان حين جلس على كرسيه اربعين يوماً ... أقول وانها خرافة نكراء هراء !

فَوَ أَنَّهُ جَسَدٌ صَبِي لَه كَانَ وَاسْتَرْضَعَهُ الْمَزْنَ خَوْفًا مِنْ بَاسِ الشَّيَاطِينِ ،
فَالْقَاهُ اللَّهُ عَلَى كَرْسِيهِ جَسَدًا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ مِنَ الْقَدْرِ^(١) ؟
وَلَوْ أَنَّ لِلشَّيَاطِينِ مَقْدَرَةً عَلَى قَتْلِهِ لَقَتَلُوا مَسْتَرْضِعَ الْمَزْنَ وَالسَّحَابَ ! وَكَيْفَ
يَخَافُهُمْ وَلَا تُمَيَّتْ - كَمَا لَا عَمِي - إِلَّا اللَّهُ !

أَوَ أَنَّهُ وَلَدُ لَه مِنْ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّبْعِينَ إِمْرَأَةً جَاءَتْ بِشَقِيٍّ وَلَدَ ، رَغْمَ مَا
هَوَاهُ أَنَّ يُوْثِقَ بِسَبْعِينَ وَلَدَ يَضْرِبُونَ بِالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يَقْلُ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ^(٢) ؟ وَقَدْ يَجُوزُ وَلَكِي لَا يَقُولُ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ !

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَلَيْسَ الْجَسَدُ الْمُلْقَى عَلَى كَرْسِيهِ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى
يَكُونَ شَائِنًا فِيهِ فَيَسْتَغْفِرُ وَيُنِيبُ ، فَإِنَّمَا لَه صِلَةٌ بِشَأْنٍ مِنْهُ ، فَتَنَةٌ لَه فِي غَيْرِ
مَحْظُورٍ وَلَا مَشْكُورٍ .

فَالْإِبْتِلَاءَاتُ مُخْتَلِفَةٌ حَسَبَ مُخْتَلَفِ الْمُبْتَلَيْنِ ، فَكَمَا أَنَّ مِنْهَا جَزَاءٌ بِمَا عَمِلَ

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

(١) الطبرسي روى أن الجن والشیاطین لما ولد لسليمان ابن قال بعضهم لبعض ان
عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من ابيه من البلاء فاشفق (عليه السلام) منهم
فاسترضعه المزن وهو السحاب فلم يشعر الا وقد وضع على كرسيه ميتاً تنبيهاً على ان الحذر
لا ينفع من القدر وانما عوقب على خوفه من الشیاطین وهو المروي عن ابي عبد
الله (عليه السلام) .

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٦ : ٢٠٨ - روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
انه قال قال سليمان لاطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في
سبيل الله ولم يقل ان شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق
رجل فجاء به على كرسيه فوضع في حجره فوالذي نفسي بيده لو قال : ان شاء الله
لجاهد كلهم في سبيل الله فرساناً اجمعون فذلك قوله : ولقد فتننا . . . وأخرج
البخاري في صحيحه مرفوعاً عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

من سوء تنبيهاً وتحفيظاً عن جزاء، كذلك منه ما يتلى بها عباد الله الصالحون ولكي يزدادوا من ربهم زلفى، فإن أفضل الأعمال أحزها، فكما ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس إماماً ..» (٢) : (١٢٤) كذلك يتلى سليمان بفتنة، فيسأله تعالى بعد نجاحه «هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ..» فيؤتاه سؤلُه «فسخرنا ..» .

أتراه لأنه عصى ربه يطلب منه ذلك الملك القمة، بديل التوبة؟ وكما قالوه في عرض الصافات الجياد؟!

«فتنا سليمان» حين ترك إن شاء الله، وحين «ألقينا على كرسية جساً» فما فزع من ذلك الجسد الذي عكس هواه في سبيل الله، فلما نجح «استغفر ربه» من ترك المشكور هنا: إن شاء الله، ومن أن يعترضه أي محذور، «ثم أناب» إلى ربه في استيهاب الملك القمة .

ولماذا الإستغفار من ترك المشكور؟ إن صح الحديث أن ترك إنشاء الله - ؟ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين !.

وقد يلمح إستيهابه ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده أن الجسد الملقى على كرسية كان من يرجو سليمان أن يرثه ملكه، فلما ابتلي بموته إستبدل به ما هو خير :

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥) .

أتراه يخل في ذلك الإستيهاب الإستيعاب، فيتطلب ملكاً لا ينبغي حتى لخاتم الأنبياء روحياً، ومن ثم لخاتم الأوصياء زمنياً وروحياً وهو يصفهما على البذل كأفضل محبوب كما في النص العبراني التالي :

﴿جُكُو تَمْتَنِّيمَ وَكُولُو مَحْمَدِيمَ زَهْ قُودِي وَزَهْ رِجِي بِنْتُ يَرُشَالَامَ﴾
(نشيد الانشاد : ٥ : ١٦) .

«فمه حلو وكلُّه محمد هذا محبوبي وهذا ناصري يا بنات
أروشليم»

وذلك بعد ما يصف محبوبه بأوصاف فائقة في آيات سابقة، فكيف له أن يفضل
ملكه على محبوبه الوحيد ؟ كما وأن أباه داود يصف القائم المهدي (عليه
السلام) بعدة مواصفات في تصريحات تحيد عن سواء^(١) .

قد لا يعني أثره له على من يأتي بعده طول الزمن وحتى في آخر
الزمن ، بل «من بعدي» لصقاً أم طوال الرسالة الإسرائيلية وقد حصل ،
فان «من بعدي» يعم البعد القريب والبعد الغريب ، ونحن نبعد البعيد
ذوداً للبخل عن ساحة سليمان ، وتأشيراً منه وأبيه في الملك العالمي الأخير
للقائم المهدي عليه السلام .

أم يعني ملكاً لا ينبغي لأحد من الملوك بعدي «مأخوذاً بالغلبة والجور
واختيار الناس»^(٢) وقد حصل فعلاً على ذلك الملك ، فما ملك أحد بعده

(١) راجع «رسول الاسلام في الكتب السماوية» .

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٤٨ - ابن بابويه بسند عن علي بن يقطين قال قلت لابي الحسن
موسى بن جعفر (عليه السلام) ايجوز ان يكون نبي الله عز وجل بخيلاً ؟ فقال : لا
فقلت له : قول سليمان (عليه السلام) رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من
بعدي «ما وجهه ومعناه ؟ فقال : الملك مُلكان ، ملك مأخوذ بالغلبة والجور واختيار
الناس وملك مأخوذ من قبل الله تبارك وتعالى كملك ابراهيم وملك جالوت وفي
القرنين فقال سليمان : هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ان يقول انه مأخوذ
بالغلبة والجور واختيار الناس فسخر الله له ... فعلم الناس في وقته ويعده ان مله لا
يشه ملك الملوك المختارين من قبل الناس والمالكين بالغلبة والجور قال قلت له قول =

ولن يملك زمنياً كما ملك ، وأما روحياً فالمسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل منه ، وأما زمنياً وروحياً معاً ؟ فالقائم من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أكمل منه .

أم يعني «ملكاً» في طول مكوثه^(١) بين صالحى الملوك وكما هو واقع ، فلم يأت حتى الآن ملك يملك طول ملكه .

وعلى مثلث المعنى هو المعنى إذ يصلح كل معنى صالحاً لذلك الإستهاب القمة ، والقرآن حامل ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه ، والجمع بين الوجوه الحسنة هو أحسن الوجوه !

وفد يخرج المسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والمهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن «الأحد» حيث يعني - فقط - الملوك بعده ، وهؤلاء لم يكونوا ملوكاً مهماً يكون لثالثهم سلطة فوق كافة السلطات الروحية والزمنية .

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

«رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رحم الله اخي سليمان ما كان أبخله ، فقال (عليه السلام) : لقوله وجهان : أحدهما ما كان أبخله بعرضه وسوء القول فيه ، والوجه الآخر يقول : ما كان أبخله أن أراد ما يذهب إليه الجهال ثم قال : قد والله أوتينا ما أوتي سليمان ولما لم يؤت سليمان وما لم يؤت أحد من العالمين قال الله في قصة سليمان : هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب وقال عز وجل في قصة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

(١) الدر المنثور ٥ : ٣١٣ - أخرج الحاكم في المستدرک عن عمر بن علي بن حسين قال مشيت مع عمي واخي جعفر فقلت زعموا أن سليمان (عليه السلام) سأل ربه أن يهبه ملكاً قال حدثني أبي عن أبيه عن علي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لن يعمر ملك في أمة نبي مضى قبله ما بلغ بذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من العمر في أمته ، أقول قد يعني قبله قبل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فالقائم المهدي (عليه السلام) يعيش عيشة الفقراء فلا يقال عنه : أحد من الملوك ، وسليمان النبي عاش كأفضل عيشة الملوك مهما لم تملكه زهوة الملوك !

ف«ملكاً لا ينبغي لأحد» يعم الملوك من غير النبيين حيث لا ينبغي لهم ملك النبوة مهما كانوا عدولاً ، والنبيين غير الملوك إذ لم يعطوا ملكاً إلى نبوة، والإمام المهدي الذي أوتي أقوى قوة روحية وزمنية ليس في عداد الملوك ولا النبيين ، فلا ينبغي أن يقال له : مَلِكٌ ، لأنه فوق الملوك ، وأن عيشته عيشة أفقر الفقراء .

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) .

طرف من ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن سُخِّرَتْ له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، فهو إذاً راكب الريح يسوقها كما يسوق ركاب الطائرات (١) .

إنها ريح «عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها» (٢١) : (٨١) وهي «غدوها شهر ورواحها شهر» (٣٤ : ١٣) .

أترى لا تُنافي «رخاء» هنا «عاصفة» هناك ؟ كلا ! فإن رخاءً حال جريانها بأمره ألا تستصعب مطاوعة أمره ، ثم وقد يتجمع العصف والرخاء ، أنها تجري سريعة تعصف ، ولكنها عصفة الرخاء كأن لا حراك لها ، رغم أن الإضطراب وشديد الحراك من خلفيات السرعة .

فالريح العاصفة الرخاء كانت له مركبة فضائية لا تشعره بحراك رغم سرعتها الهائلة ! «تجري بأمره» كما سخر الله «حيث أصاب»

(١) راجع سورة سبأ من الفرقان تجد تفسيراً مفصلاً لآية الريح .

سليمان من هدف يرميه ، وأي مكان يعنيه ، اللهم إلا أن يشارك عاصفة لمولاه سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) فيدور بساطه كما دار^(١).

وهذه الريح هي من أسباب السماوات والأرض ، التي لا تسخر بالعلم ، إلا بما يسخر الله لمن يشاء ويرضى ، وسوف تسخر هي مع سائر الأسباب - إلا التي تخص ربنا - تسخر لصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه .

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾^(٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ .

«و» سخرنا له «الشياطين» يعملون له ما يشاء «كل بناء» منهم في البر «و» كل «غواص» في البحر سيطرة شاملة على البر والبحر ! : «ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» (٣٨ : ١٢) وقرنهم في الأصفاة هو من ذوق عذاب السعير .

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣٩) .

«هذا عطاؤنا» ملكاً لك يا سليمان «بغير حساب» : لأحد له عطاء ، ولا حساب عليه أجراً «فامنن» صرفاً وعطاء لمن تشاء وكما تشاء «بغير حساب» - «أو أمسك بغير حساب» .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٥٠ وروى ان سليمان (عليه السلام) كان يجلس على بساطه ويسير في الهواء فمر ذات يوم وهو سائر في أرض كربلاء فادارت الريح بساطه ثلاث دورات حتى خافوا السقوط مكنت الريح ونزل البساط الى أرض كربلاء فقال سليمان للريح لم سكنت ؟ فقالت : ان هنا يقتل الحسين (عليه السلام) فقال : ومن يكون الحسين ؟ فقالت : هو سبط محمد المختار وعلى الكرار فقال : ومن قاتله ؟ فقالت : يقتله لعين اهل السماوات والأرض يزيد لعنه الله فرفع سليمان يديه ولعنه ودعى عليه وامن على دعائه الانس والجن فهبت وسارت .

أترأه عطاءً فوضى في من أو إمساك بغير حساب ؟ كلاً حيث المعطى
له حساب دون فوضى :

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ (٤٠) .

فزلفاه عند ربه تمنعه عن فوضى العطاء والإمساك ، وحسن مآبه يدفعه
ليكون العطاء والإمساك آيين إلى الله ، فما سليمان -إذا- إلا أداة لمرضاة
الله في ذلك العطاء بغير حساب .

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ
وَعَذَابٍ﴾ (٤١) أَرْكُضُ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَاسِلُ بَارِدٍ وَشَرَابٍ﴾ (٤٢) .

أترى أن الله يسلط الشيطان على عبده ورسوله أيوب أن يمسه بنصب
وعذاب ، « وإن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين »
وهو « نعم العبد إنه أواب » ؟ .

هنالك سلطة ممنوعة للشيطان على المخلصين هي على عقولهم وأرواحهم
وأعمالهم ، لكيلا تبطل حجج الله على عباده ، وهنا سلطة ممنوحة على
أبدانهم وأموالهم هي من الإبتلاءات الربانية الشاملة لعباد الله الأمثل منهم
فالأمثل .

والسلطة الشيطانية على أيوب في رده من زمن المحنة لم تكن إلا على
الناحية المادية ، وقد بلورت فيها السماحة الروحية «إنا وجدنا صابراً نعم
العبد إنه أواب» .

فيا لهذا العذاب الجسداني من عنوية روحية حين يصبر العبد عليه
دوغماً شكوى ولا نكوى ، وكما نراه في سائر الصالحين طول الزمن الرسالي
من مختلف النصب التي تُنصب لهم ، والعذاب الذي يقصدهم في سبيل
الدعوة ، أم في طريق التكملة الرسالية لتكمل الدعوة ، وهذه الثانية تمثلت
لأيوب «بنصب وعذاب» .

«وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » (٢١ : ٨٣ - ٨٤) .

نصان في سائر القرآن يتحدثان عن بلوى أيوب وصبره عليها ، باختصار في الأنبياء ، وفصلاً هنا .

ذلك النبي العظيم الذي طمع الشيطان في تضليله بنصبه وعذابه ، أن يصته عن عبادة ربه أم ينقصه ، ولم يصده ربه امتحاناً لعبده ، فعمل في ذلك واعتمل ولم يرجع عنه على طول المدة وطائل النصب والعذاب إلا خاسئاً وهو حسير !

أجل ، وليكن أيوب قبساً وهاجاً في الإيمان ، ومثلاً عالياً وحيداً في الصبر واليقين ، حيث ينكص الشيطان على أعقابهِ ويجمع شياطينه المردة ، ويوحى لهم أن الله ليس ليصدهم عن أية أذى يريدونها بأيوب ، فقالوا : نجرّده عن أهله وماله وصحة خاله ليعود مجرداً عن إيمانه حيث تشغله بليته بآله هنا يريد الله بذلك السماح إمتحان عبده ، ويريد الشيطان إمتحانه «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون»

ولقد سُلط الشيطان على قصوره فجعلها قبوراً ، وعَلَّ على ولده أيضاً فبدّهم ميتاً ، وعلى مواشيه وأمواله ، وعلى بدنه ، فقلبه في حظوظه المادية ظهر بطن لا يبقى له شيئاً ولا يذر إلا أطلح به ودمّر .

يريد الشيطان ليضطر عبد الله أيوب إلى اختراق ثوب الإصطبار إذا تهدمت عليه أركان حياته ، في ماله وأولاده ودوره وحاله ، ويريد الله ليجعل من أيوب عبداً صبوراً أواباً شكوراً ، تصبح قصته ذكرى للعابدين وعبرة للمصابين ، وعزاء للمكروبين ، وسلوى للمرضى والزمنى والمجروحين .

مرت الايام ، وتحلرت الاعوام وايوب لا يزال على شكاته حتى هزل جسمه وذهب لحمه ، وأصبح منقوف الوجه صاحب اللون ، لا يقر على فراشه من الآلام .

فرَّ عنه الصديق ، وجانبه الرفيق ، ورغبت عنه شيعته ومن حوله إلا زوجه الرؤوف العطوف الحنون حيث تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان ، وعنت به ما استطاعت إليه سبيلاً، ورقت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شكت إلا هموماً تُساورها من آلامه، ومخاوف تتحضرها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة .

لهذا أعى أمر ايوب عبدُ الله إبليس عدو الله، ولم يجد إليه سبيلاً إلا من قبل زوجه، فانطلق إليها وهي في بعض شأنها مع ايوب ، فتمثل لها رجلاً وقال : أين زوجك ؟ قالت : هوذا عميداً وقيداً ، يتضور من الحمى ، ويتقلب مما ألح عليه من الداء ، فلا هو حي ولا هو ميت .

هنا طمع اللعين في إغوائها فأخذ يذكرها بما كان لزوجها في صدر شبابه وغضاضة إهابه من صحة وعافية ونعمة صافية ، فاعادت لها الذكرى الأشجان ، وأثارت لديها كوامن الأحزان ، ثم أخذ يدركها الضجر وينساب إلى قلبها اليأس فذهبت إلى ايوب قائلة :

حتى متى تعذب ، أين المال ؟ أين الجمال ، أين الحال والعيال ، أين شبابك الداهب ، أين عزك القديم ؟! فأجابها قائلاً : اراك قد سؤل لك الشيطان أمراً ، أتراك تبكين على عزٍ فائت ، وولد مائت ؟

فقالت : هلا دعوت الله أن يكشف عنك حزنك ويزيح بلواك ؟

قال : كم مكثت في الرخاء ؟ قالت : ثمانين ، قال : وكم في البلاء ؟ قالت سبعا .

قال : أستحي من ربي أن اطلب إليه كشف بلائي ، ولما قضيت فيه مدة رخائي ، ولكن يخيل لي أنه قد بدأ يضعف إيمانك ، ويضيق بقضاء الله قلبك ، ولئن برئت وأتتني القوة لأضربنك مائة سوط ، وحرام علي أن آكل من يديك بعد اليوم طعاماً أو أشرب شراباً ، أو أكلفك أمراً ، فاغربي عني حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً !

أصبح ايوب - الآن - وحيداً فريداً وقد اشتدت الآمه ، وتضاعفت أسقامه ، ففرع إلى ربه داعياً متحنناً ، لا شاكياً متبرماً فـ « نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب » « إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » (٢١ : ٨٣) وذلك في آخر الإمتحان ، وكما تدل الآية التالية « أركض برجلك ... » استجابة دون فصل !

يشكو ربه الرحيم من الشيطان الرجيم دون أن يصارحه في كشف ضره ، وإنما عرضاً لحاله « أني مسني الشيطان ... » وقرناً لرحمته تعالى إلى حاله « وأنت أرحم الراحمين » فإن رأيت فارحم عبدك ، وإلا فأنا من الصابرين ، فاستجاب له ربه فور عرضه « أركض برجلك ... » .

أجل ! ولحد الآن يصمد أيوب لوسوسة الشيطان ، فيرتقي إلى ذروة الإيمان « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » . « أركض برجلك » - وليس الركض حسب العادة إلا برجل - فذلك لمحة إلى مدى مرضه لحد لم يك يمشي برجل ، ولكنه الآن « أركض برجلك » عدواً قفزة أولى إلى الصحة ، ثم وثانية إلى العافية « هذا مغتسل بارد وشراب » فلم يكن يسطع قبل لاغتسال ولا شرب شراب .

فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحه ظهر بطن ، وبرئت جروحه ، وكأن بارد الماء كان مرهماً ملحماً ، رغم أنه يضر بالجروح في عادية الأحوال ! .

ولقد كانت زوجته رقی قلبها وحديث عليه ولم تطاوعها نفسها البریمة
الحنونة أن تتركه وشأنه ، وقد لزمته منذ أول بلائه على طول المدة وطائل
المحنة ، فرجعت إليه كعادتها تعاود إصلاح شأنه فتري عجباً حين تری شاباً
مكتمل الشباب ، غض الإهاب ، مكتنز اللحم ، وافر المنة والقوة ،
فحمدت الله على ما ردت إليه من عافية .

فهل إن ایوب یتركها ويستبدل بها غيرها ، بعد أن یضربها مائة سوط
كما عهد من ذي قبل ؟ ما هكذا النظم به ولا المعروف من فضله ، أن
یتناسى حنانها الدائب ، وحضورها الواصب .

وحین لا یتركها فماذا یفعل بعهد عليها وهو بلاء على بلاء وعناء على
عناء ، وإذ آیات الوحي الحبيب من الحبيب :

﴿وَأَخْذُ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبُ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ
إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤) .

خذ حزمة من القش والريحان تشتمل على مائة باقة واضرب بمجموعها
زوجك مرة واحدة ، حفيفاً رقيقاً رقيقاً ، رخصة لك في يمينك ، ورحمة
بهذه المخلصة الصالحة التي احتملتك في مرضك ، وشاركتك في آلامك !
ولئن سئلنا كيف يتلى ایوب بمثل هذه البلية التي تنفر عنه الطباع ،
أبذنب ؟ والأنبياء لا یذنبون ، أم بغیر ذنب فاسوء وأنكى ،
ومن لزامات الرسائل بقاء الرسل في حالة جذابة غير منفرة، والروایات
تقول أصبح بدنه كله منتناً مدوداً .

فلنضرب بروایات متخلفات ومختلقات - تمس من ساحة نبي الله ایوب
وتنتقص من سماحته - نضربها عرض الحائط ، كما هو مصير آیات مختلقات

متناقضات في العهد القديم^(١) ، فقد طغت إسرائيليات في رواياتنا هنا

(١) ففي حين يصفه حزقيال ١٤ : ١٤ و ٢٠ بكمال العبودية والايان وانه تحمل اللوان الرزايا صابراً عتسباً-و: ليس كمثل احد في كمال الاستقامة والتقوى (ايوب ١ : ٨ و ٣ : ٣٨ و ١ : ٤٠ و ١ : ٦ و ٤٢ : ٧) .

نجد يصفه بما يناقضه : «قد كرهت نفسي حياتي ، اسيب شكواي ، انكلم في مرارة نفسي قائلاً لله : لا تسئلني ، فهمني لماذا تخاصمني ؟ احسن عندك أن تغلم ، ان ترقل عمل يديك وتشرف على مشورة الاشرار ، الك عينا بشر ام كنظر الانسان تنظر .. حتى تبحث عن إثمي وتفتش على خطيئتي ، في علمك اني لست مذنباً ولا منقذ من يدك .. ان ارتفع تصطادني كاسد ثم تعود وتتجير علي ، تجدد شهودك تجاهي وتزيد غضبك علي ، نوب وجيش ضدي فلماذا اخرجني من الرحم ... (ايوب ١٠ : ٨-١) .

اشكو بمرارة نفسي .. قد ذبت لا الى الأبد احيا .. ما هو الانسان حتى تعبته وتضع عليه قلبك وتعهده كل صباح وكل لحظة تمتحنه ، حتى متى لا تلتفت عني ولا ترخي ريشا ابلغ ريفي .. لماذا جعلتني عاثوراً لنفسك حتى اكون على نفسي حملاً ... (ايوب ٧ : ١١-٢١) .

فاعلموا ان الله قد عوجني ولف علي احبولة ، ها انا اصرخ ظلماً فلا استجاب ، ادعوا وليس حكم ، وقد حوط طريقي فلا اعبر ، وعلى سبيل جعل ظلاماً ، ازال عني كرامتي ونزع ناج رأسي ، هدم مني من كل جهة فذهبت ، وقلع مثل شجرة رجائي ، واضرم على غضبه وحسني كاعداء معاً جاءت عزاته واعدوا على طريقتهم وحلوا حول خيمتي ، قد ابعد عني اخوتي ، ومعارفي زاغوا عني ، اقاربي قد خذلوني ، والذين عرفوني نسوني ، نزلوا بيتي وامثالي بحسبوني اجنيباً ، صرت في اعينهم غريباً .. نكهتي مكروهة عند امرأتي ، وقممت عند ابناء احشائي ، الاولاد ايضاً رذلوني ، اذا قمت يتكلمون علي كرهني كل رجالي والذين احبهم انقلبوا علي عظمي قد لصق بجسمي ولحمي ونجوت بجلد اسناني ، ترأفوا ترأفوا انتم علي يا اصحابي ، لأن يد الله قد مستني ، لماذا تطاردوني كما الله ، ولا تشبعون من لحمي ، ليت كلماتي الآن تكتب ، يا ليتها رسمت في سفر ونقرت الى الأبد في الصخر بقلم حديد وبرصاص ... (١٩) :

وهناك فشوهت الحقيقة الناصعة التي اتى بها القرآن العظيم ، ولا نؤمن إلا بما جاء نصه في الذكر الحكيم .

والقول الفصل في الجواب في أصوب الصواب نجده عند باقر العلوم (عليه السلام) : «ان ايوب (عليه السلام) ابتلي من غير ذنب ، وإن الانبياء لا يذنبون ، لأنهم معصومون مطهرون ، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً ، وان ايوب (عليه السلام) مع جميع ما ابتلي به لم يتن له رائحة ولا قبحت له صورة ، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ولا استقدره احداً رآه ، ولا استوحش منه احد شاهده ، ولا تدود شيء من جسده ، وهكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه ، وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بحاله عند ربه تعالى من التأييد والفرج ، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أعظم الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل .

ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي همون معه على جميع الناس ، لئلا يدعوا معه الربوبية إذا شاهدوا ما اراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمه متى

= « . . من يعطيني اجدته فأتى الى كرسيه ، احسن الدعوى امامه ، وأملأ فمي حججاً فأعرف الأقوال التي يبيني وافهم ما يقوله لي . . هانذا اذهب شرقاً فليس هو هناك وغرباً فلا اشعر به ، شمالاً حيث عمله فلا انظره ، يتعطف الجنوب فلا اراه » (٢٣ : ٨-٣) «حي هو الله الذي نزع حقي والقدير الذي امر نفسي » (٢٧ : ٢) . هذا ! ولكن ربه يناقضه في هذه التهم فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي ايوب لانه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر ، (١ : ٨) «الى الآن هو متمسك بكما له وقد هيئتني عليه لأبتلعه بلا سبب» (٢ : ٣) فانظر الى هذه الشطحات المتناقضات في التوراة والروايات المتأثرة بها ثم انظر الى القرآن الحكيم فاقض ما انت قاض .

شاهدوه ، وليستدلوا بذلك على ان الثواب من الله تعالى ذكره على ضريين استحقاق واختصاص ، ولثلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه ، ولا فقيراً لفقره ، ولا مريضاً لمرضه ، وليعلموا انه يُسقم من يشاء ، ويشفي من يشاء متى شاء بأي سبب ، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء ، وشقاوة لمن شاء ، وسعادة لمن يشاء ، وهو عز وجل في جميع ذلك عدل في قضائه ، وحكيم في أفعاله ، لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به ^(١) .

ثم في «إذ نادى ربه» تلميحاً أنه ناداه استرحاماً تربوياً كما يراه الرب صالحاً دوغماً اقترح عليه أمراً ، إلا «أني مسني الشيطان بنصب وعذاب» هنا و«أنت أرحم الراحمين» في الأنبياء .
و«نُصِب» هي مختلف التعب «وعذاب» فوق التعب وقد عبر عنها في الأنبياء بـ «أني مسني الضر» .

وقد يعم ضره الدعاية على رسالته تضرعاً إليها بمرضه وذهاب ماله وولده ، وذلك صورة عامة عن السيرة الرسالية لسائر المرسلين : «وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته» (٢٢ : ٥٢) .

وقد يعني النصب سائر أتعابه الظاهرية ، و«عذاب» هو العذاب الروحي حيث كان الشيطان ينفر خلصائه القلائل وحتى زوجه الحنون ، فيؤذيه ضلالمهم أشد مما يؤذيه ضره !

إن الله تعالى عافاه بمغتسل بارد وشراب فور دعائه ، لا فحسب ، بل :

(١) تفسير البرهان ٤ : ٥٣ - ابن بابويه القمي بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليه السلام) .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١)
وَعَزَّ بِبَيْدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تُحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ
أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

«أهله» تشمله زوجته، وبأحرى من سائر أهله ، وقد كانت معه طيلة مصابه ، فكيف «وهبنا له أهله» ثم ماذا تعني «ومثلهم معهم» ؟

هذه الوهبة الربانية تشير إلى انفصاله بينه وبين أهله ضمن مصابه الواصل إلى قمته ، فرجعها الله إليه قبل دعاءه - كما رجع سائر أهله ، ثم أتم وهبتها إليه بعد إستجابته ، حيث لم يرفضها ، وعالج موقفه من عيئه أن يضربها ولا يحنث .

ثم الميئون من أهله خلال المحنة أحياهم الله وهم تنمة من أهله ، وعمل مثلهم معهم عديد كأمثالهم ماتوا من ذي قبل فأحياهم معهم^(١) «رحمة منا» زائدة على زحمة حصلت «وذكري لأولي الألباب» أن الله لا ينسى الصابرين يوم الدنيا كما لا ينساهم يوم الدين .

وقد تعني «مثلهم معهم» أنه أولد له مثلهم من ولده ، وزوجة مثل زوجته ، اللهم إلا هيه لو أنها ترفض الثانية فإنها على كونها رحمة له ولكنها - حسب العادة - لها زحمة ومشقة ! ولكن «معهم» تلميحة لمعية الأهلية فليكونوا أهلين لعشرتهم ، ساهلين في عشيرتهم .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٥٢ محمد بن يعقوب بإسناده عن يحيى بن عمران عن هارون بن خارجه عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قلت : أحى له ولده كيف أعطى مثلهم معهم ؟ قال : أحيا له من ولده الذين ماتوا قبل ذلك بأجلهم مثل الذين هلكوا يومئذ .

ولأن النص لا يشير إلى إحياء ميت من أهله ، ولا أنهم أو بعضهم ماتوا في هذه الفتنة ، وأن «وهبنا» بعيدة عن إحياء ، فقد تعني الهبة إرجاع أهله إليه كما كانوا قبل الإبتلاء ، ثم أولد له مثلهم معهم .

ثم وفي أخذ الضغث-أن يضرب به ولا يبحث-دليل أنه كان ما حلف به مسموحاً له غير ممنوع ، تأديباً لزوجته في محنته ، إلا أنها لما رجعت عما صدر منها خفف الله عنها ، وليس ذلك حيلة شرعية فإن الله ليس ليحتال لنفسه وهو طرف الحلف ، وإنما احتراماً للحلف والحالف والمحلوف له كضابطة ثابتة في كافة الإلتزامات ، أن يحافظ عليها ، مهما يخفف عن وطئها حينها يخف سببها .

وفي ذلك لمحة إلى مدى التخفيف عن مجازاة المجرمين ، حين يخف الإجرام ، أم في العقوبة زيادة على الإستحقاق كما في الزانين الذين لا يتحملان الحد المقرر لهم أو مريض^(١) .

مرکز تحقیقات و پژوهش علوم اسلامی

(١) الدر المنثور ٥ : ٣١٧- اخرج احمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني وابن عساکر عن سعد بن عباد قال : كان في ابياتنا انسان ضعيف مجذع فلم يرع اهل الدار الا وهو على امة من اهل الدار يعيث بها وكان مسلماً فرفع سعد شأنه الى رسول الله (صلی الله علیه وآله وسلم) فقال : اضربوه حله فقالوا يا رسول الله (صلی الله علیه وآله وسلم) انه اضعف من ذلك ان ضربناه مائة قتلناه ! قال : فخذلوا له عنكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه واحدة ففعلوا !

أقول : ان صح النقل فلا بد من اثبات شرعي للزنا حتى يحكم الرسول (صلی الله علیه وآله وسلم) بما حكم وهنا روايات اخرى بالفاظ اخرى يجمعها التخفيف عن الضعيف .

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ❶ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ❷ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ
الْأَخْيَارِ ❸ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ❹



اذكر ابراهيم في مختلف بلواه وصبره الحكيم ، واسحاق في محنته ،
ويعقوب في يوسف «أولى الأيدي» : الطاقات الروحية في مختلف شئون
الإصطبار والعبودية ، وأولى «الأبصار» وبصائر القلوب ، حيث كانوا
ييصرون نفاذاً إلى الأعماق ، وقد تعني «الأيدي» الأعمال
الصالحة «والأبصار» النظر الصائب الثاقب والفكر السديد .

«إنا أخلصناهم» فهم - إذاً - من المخلصين الذين ليس للشيطان إليهم
سبيل، كما درسناه هنا في أيوب ، أترى «أخلصناهم» دون مقابل وظرف
صالح؟ كلاً، وإنما «بخالصة» حيث هم اخلصوا أنفسهم فليس «أخلصناهم»
إلاً «بخالصة» وإنما خالصتهم هي ذكرى الدار ، ذكرى خالصة دون
شائبة : ذكرى الله في الدار الدنيا ، وذكرها أنها دار مجاز وممر ، وذكر

الدار الأخرى ، انها هي الحقيقة والمقر ، وقد تكون خالصة صفة للأيدي والأبصار ، أعمالاً خالصة ، وأبصاراً خالصة ، تجتمعان في «ذكرى الدار» .

فهذه الذكرى ذات العلاقتين بالشأتين ، هي التي جعلتهم يخلصون أنفسهم لله ، ولكن بخالصة ليس ليخلصهم لحد العصمة المطلقة ، فإنها إخلاص من الله يخالطه هي ذكرى الدار ، فليدركهم إخلاص من الله .

فالعصمة الربانية هي في ظرف العصمة البشرية دونما فوضى جزاف ، ولا ترجيحاً دون مرجح !

ثم «ذكرى الدار» هنا تذكر لهم ثم تذكير لغيرهم دون اختصاص بهم ، وإلاً لم يصلحوا لإخلاص العصمة الخاصة بالدعوة المعصومة .

«واذكر اسماعيل» بن ابراهيم صادق الوعد «واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار» وقد نجد لهم نبأ في الاخبار^(١) .

(١) في البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا (عليه السلام) فيما احتج به على جاثليق النصارى ان قال: ان اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى (عليه السلام) مشى على الماء واحيي الموتى وابره الائمة والابرص فلم يتخذنه امته رباً - الخبر .

وعن قصص الانبياء الصدوق عن الدقاق عن الاسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسيني قال : كتبت الى ابي جعفر الثاني (عليه السلام) اسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟ فكتب (عليه السلام) بعث الله عز وجل مائة الف نبي واربعة وعشرين الف نبي مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وان ذا الكفل منهم وكان بعد سليمان بن داود وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود ولم يغضب الا الله عز وجل وكان اسمه (عويديا) وهو الذي ذكره الله جلّت عظمته في كتابه حيث قال : «واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار» .

هؤلاء الرسل هم اقطاب الإصطبار في الله على مختلف درجاتهم، فلتكن ذكراهم تسليّة لخاطر النبي الأقدس وتقوية له في سفره الشاق الطويل الطويل، فهم رفاقه القدامى الذين عبدوا له سبيل السلام والإسلام عليهم السلام.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ

مَقَابٍ ❶ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْ مَّفْتَحَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ❷

مُنْكَبِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ❸

* وَعِنْدَهُمْ قُنُوسٌ أَلْطَرُفُ أَتْرَابُ ❹ هَذَا

بِمَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ❺ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَالُهُ مِن

نَفَادٍ ❻ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرَّ مَقَابٍ ❼ جَهَنَّمَ

يَصْلَوْنَهَا فَيَنسُ الْإِمَهَادُ ❽ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ

وَعَسَاقُ ❾ وَءَانَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ❿ هَذَا فَوْجٌ

مُقْتَنِعٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ⓫

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنَسَّ
 الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
 ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ
 مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذَتْهُمْ يَخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ
 الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

وهذا الذي ذكر من ذكرى اصطبار المسلمين ، أم هذا القرآن
 ككل وذكره فمن يتذكر به وهو الذي يتقي الغفلات «وإن للمتقين لحسن
 مآب» لا في الأخرى فحسب ؛ بل وفي الأولى كما في جموع المسلمين ،
 وطبعاً إن للطاغين لشر مآب ، وإلى حسن مآب للمتقين في دار الثواب :
 ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (٥٠) .

فلأن الأصل هو الجنة فلتكن مفتحة لهم الأبواب إلا من أغلقها على
 نفسه بما قدم ، ولكن النار ليست مفتحة الأبواب حتى يساق أهلها إليها ،
 فلهم ما قبل سوقهم مجالات لكيلا تفتح لهم أبوابها ، من صالحات يوم
 الدنيا ، وعقوبات يوم البرزخ ، وشفاعات قبل سوقهم إلى النار : «وسيق
 الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها .. وسيق الذين
 اتقوا إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ...» (٣٩ : ٧٣)

حيث الواو في جيئة اهل الجنة حالية ، وعدمها في جيئة اهل النار دليل فتحها فور وصولهم لا قبلها^(١) .

ومع ذلك الذكر المتواصل المديد لا تبقى للغافلين أية حجة يوم يقوم الأشهاد^(٢) .

في هذه الجولة نرى تقابلاً في المجموع والأجزاء ، في الأسماء والسمات وفي الميزات .

فهنا «للمتقين لحسن مآب» وهناك «للطاغين شر مآب» هنا «جنات عدن مفتحة لهم الأبواب» وهناك «جهنم يصلونها فبئس المهاد» ويا له من مسرح هو مصرح لكل مآب وكأنه حاضر! ففي جنات عدن :
﴿مُتَكِّثِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾^(٣) .

لهم راحة المتكأ وراحة الفاكهة والشراب ، وكذلك لهم متعة الفتيات والحوريات :

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثَرَابٍ﴾^(٤) .

(١) راجع سورة الزمر في الفرقان..

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٦٢ محمد بن يعقوب باسناده عن عبد الاعلى مولى آل سام قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : يؤق بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي افتنت في حسنها فتقول يا رب حسنت خلقي حتى لقيت ما لقيت فيجاء بمريم فيقال انت احسن ام هذه قد حسناها فلم تفتن ، ويجاء بالرجل الحسن الذي قد افتن في حسنه فيقول قد حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت فيجاء بيوسف فيقال انت احسن ام هذا ؟ قد حسناه فلم تفتن في حسنه ، ويجاء بصاحب البلاء الذي قد اصابته الفتنة في بلائه فيقول يا رب قد شددت علي البلاء حتى افتنت فيؤق بابوب فيقال بليتك اشد او بليتة هذا فقد ابتلي ولم يفتن !

«قاصرات الطرف» على أزواجهن ، لا تعداهن إلى سواهم لا في طرف العيون ولا طرف القلوب ، فهن لهم خالصات خالصات غير مشويات ، وهن «أتراب» : لِدَات مُنْشَأَتٍ مع بعض ، متماثلات الجمال ، متوافيات السن مع لِدَاتِهِنَّ ومع أزواجهن ، و«أتراب» كـ «ترائب» هي ضلوع الصدر المتقارنات .

﴿هَذَا مَا تُوْعَدْنَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) .

كما لا نفاذ زمنًا ليوم الحساب فلا حساب في مداه ، كذلك لا نفاذ «لِرِزْقُنَا» والله يرزق من يشاء بغير حساب .

هذه ضَفَّةُ الجنة ومن ثم ضفة النار وأين ضفة من ضفة ؟ :

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَبْسُوْنَ أَلْمِهَادُ (٥٦) .

ان «شرماب» وهو أسوءه ، و«يصلونها» وهو إيقاد النار ، إنها يشهدان أن «الطاغين» هنا هم رؤوس الطغيان، دون الأذناب الاتباع إلا من هم كأمثالهم، فأيات الصلي كلها تختصهم دون من دونهم : ولا يصلوها إلا الأَشْقَى . الذي كذب وتولى ، (٩٢ : ١٥) .

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) .

«هذا» حميم : شراب ساخن يحمُّ «وغساق» : قيع شديد التشنج يغسق ويظلم على آكله، كما غاسق الليل «وآخر» غير هذا «من شكله» في الحمة الحرارة ، والتثن «أزواج» فكل شراب النار حميم ، وكل طعامه غساق ، على ألوانها .

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ (٥٩).

ذلك هو الأصل في صلي النار، ثم وهذا فوج مقتحم معكم في صلي النار، كما اقتحموا معكم في الطغيان، دخلوه على بصيرة من باطله، رغم وضوح الحجة وضح الشمس في رابعة النهار، فدخولهم - إذا - مع الطغاة اقتحام بمشقة وتعب، لأنه خلاف واضح الحجة وخلاف العقل والفطرة، وذلك طغيان على الحق وتعامي للحجج، فهم إذا طاغون أتباع، كما هؤلاء طاغون أصلاء، مهما اختلف طاغ عن طاغ، ولا مرحباً بهم إنهم صالوا النار، فالأصلاء يدخلون النار قبلهم ليصلوها قبلهم صلاء أصيلاً، ثم هم حشاشات على صلاءهم!

«فوج مقتحم معكم» وأنتم قائلون لهم: لا مرحباً - فإذا هم بمعاكسة القول:

﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّوْهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (٦٠).

أنتم الأصلاء في الطغيان أحق بالمرحبة بكم، لأنكم وأنتم قد متمموه لنا حيث أضللتهمونا «فبئس القرار»!

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فِرْقَةٌ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ (٦١).

لأن من سن سنة سيئة فعليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئاً.

فهذه طلبه عادلة أن للمضلل عذاباً فوق العذاب، ومنه دخولهم قبلهم في النار للصلي الأول الأصيل للنار.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٢) ﴿أَتُخَذْنَا هُمْ سُخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ (٦٣).

«وقالوا» كل من في النار من الأصلاء والفروع «ما لنا لا نرى

رجالاً» كنا نعرفهم يوم الدنيا و«كنا نعدّهم من الأشرار»، إذ كنا نعدّ أنفسنا من الأخيار، فمن يخالفنا - طبعاً - كان من الأشرار .

ولماذا - فقط - رجالاً - والنساء المؤمنات أمثالهم ؟ لأنهن لا يبرزن حتى يعرفن .

فهؤلاء هم الأخسرون أعمالاً والذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» دون سائر الضالين الذين يرون أنفسهم في ضلال .

«أتخذناهم سخرى» يوم الدنيا خطأ منا ؟ «أم» هم معنا في النار ولكن «زاغت عنهم الأبصار» وبينما الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان ، يرونهم إذ يتراؤون .

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٤) .

النار عذاب من ناحية ، وتخاصيم أهل النار عذاب فوق العذاب ، وليس في الجنة تخاصم إلا وثام وثام .

قُلْ

إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾

قُلْ هُوَ نَبَوُّا عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ
 لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ
 إِلَيَّ إِلَّا أَمْرًا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٨٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ
 إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٨١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
 مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٨٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ
 كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ يَبْنَٰبِلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا
 خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٥﴾
 قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٨٦﴾
 قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى
 يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿٨٩﴾
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٩٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ

الْمَعْلُومُ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
 عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾
 لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
 مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ
 هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

«إنما أنا منذر» يثبت أصالة التوحيد ووساطة الرسالة، ثم «قل هو
 نبأ عظيم» هل يعني نبأ التوحيد لأقربيته في المكان والمكانة؟ واحتفاه
 بذكر القرآن: «هذا ذكر.. ما كان لي علم بالملأ الأعلى» يقرب نبأ
 القرآن كما و«إنما أنا منذر» يسمح أنه نبأ الرسالة، وسابق ذكر المعاد
 يلحقه نبأ عظيم^(١).

قد يعني «النبأ العظيم» ذلك المربع العظيم على الأبدال، على مختلف
 الدرجات في عظمها، و«أنتم عنه معرضون» صادق بالنسبة لكل بين
 مختلف المكذبين المعرضين.

(١) والروايات القائلة ان امير المؤمنين هو النبأ العظيم هي من باب الجري والتفسير
 بالمصداق المختلف فيه الحاقاً بالمتفق عليه وهو الرسالة كما فصلناه في سورة النبأ.

ولأن النبا هو خير ذو فائدة عظيمة ، فما أعظم عظيمه ، ولكن حماق
الطغيان هم عنه معرضون !

ثم «إنما أنا منذر» يحصر كيانه الرسالي في الإنذار كتكليف عام للرسول
بالنسبة للعالمين أجمعين ، وكونه بشيراً يختص بمن يتأثر بالإنذار .

إذاً فـ «ما كان لي علم بالملا الأعلى إذ يختصمون» تخلّ له عن علم
الغيب إلا ما يوحى إليه : «إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين» .

«الملا الأعلى» نجده هنا ، وثانية في الصافات : «لا يسمعون إلى
الملا الأعلى ويؤذفون من كل جانب» (٨) .

ولأن «الأعلى» هنا أفعل مطلق ، فملاء أعلى بصورة مطلقة مكانة أو
مكاناً ، وهم أمناء الوحي تكويناً وتشريعاً من الكروبيين .

فقبل أن ينزلوا المحي من قبل الله على الرسول «ما كان لي علم بالملا
الأعلى» ولكنه يعلم بما يوحى قدر ما يوحى ، أترى ذلك الملا الأعلى حتى
من الرسول الذي «دنى فتدلى» فكان قاب قوسين أو أدنى ؟ كلاً ! حيث
الأعلى مكاناً ليس هو الأعلى مكانة ، والرسول وهو «أول العابدين» لا
ريب أنه أعلى من كل أعلى إلا ربه الأعلى !

ولأن الرسول ليس ملاً كشخص ، فـ «الملا الأعلى» غير مفضلين
عليه ، إلا على سائر الملا ، وحتى إذا كان ملاً فهو مستثنى عن مطلق
الأعلى .

وترى فيم كانوا يختصمون ؟ قد يكون هو الاختصام في خلق
الإنسان : «إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين» . ولكن أين
هنا الاختصام إلا بين إبليس وربه ؟ وليس الرب من الملا ، ولا إبليس
من ملائ عال فضلاً عن الأعلى .

أو أن اختصاصهم مطوي عنه هنا، مذكور في البقرة: أنجعل فيها .. ولكنه - ايضاً - ليس اختصاصاً بينهم ، بل سؤال استفهام عن الله كيف يجعل فيها من بفسد فيها ؟ .

ثم - وعلى أية حال - كيف يختصم الملا الأعلى وفيهم يختصمون ، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟

هذا الإختصاص - وبقرينه الإفتعال - ليس ليعني الخصومة ، وإنما هو الحوار حول الوحي النازل إليهم وما سوف يتنزل ، وتقدم الوحي عليهم ثم إلى الرسول ، لا يقدمهم في مكانة الوحي على الرسول ، فما هم إلا وسائط الوحي الرسالي للرسول ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ! .

وقد يعني الإختصاص - فيما يعنيه - ما علّه حصل من «إني خالق بشراً من طين» كما تلمح له : إذ قال ربك .. فحار المختار منهم لذلك الإختيار وحصل الحوار : «إذ قال ربك ..» .

ولقد فسرنا قصة آدم والملائكة وإبليس في مواضيع عدة ، وهنا زيادات في تنبيهات :

١ - «وكان من الكافرين» تبين نفاقه حين كان مع الملائكة فأبرز كفره حين الأمر بالسجود ، ولو كان من الملائكة ما عصى فضلاً عما كفر ومنذ الأول ، كلاً ! إنه «كان من الجن ففسق عن أمر ربه» .

٢ - «لما خلقت بيدي» ترى الظرف يتعلق بـ «خلقت» ؟ خلخته بيدي «استكبرت» علي ؟ أم «بيدي استكبرت» حيث خلقتك ايضاً بيدي ، وأقدرتك بيدي ؟

قد يعنيهما «بيدي» وما أحلاه جمعاً جامعاً للتنديدين بهذا اللعين .

وترى ما هما اليدان هنا وفي أمثاله : «بل يدها مبسوطتان» (٥) :
 (٦٤) واليد مفرداً في سواه : «قل من بيده ملكوت كل شيء» (٢٣) :
 (٨٨) ؟

اليد هنا وهناك كناية عن القدرة والنعمة والسماحة ، وعليها هنا وفي
 أضرابها كناية عن كرامة القدرة القمة ، حيث الخلق تختلف حسب الدرجات في
 القابليات والفاعليات والعطيات : «لقد خلقنا الإنسان في أحسن
 تقويم» «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

وعلى اليدين هنا يد الخلق لجسم آدم وروحه ، حيث الشيطان تناسى
 اليدين الثانية وأكبَّ إلى الأولى ففُضِّل نفسه على آدم : «قال أنا خير منه
 خلقتني من نار وخلقته من طين» ولو أن إبليس نظر إلى نورية آدم ولم ينظر
 إلى نارية نفسه لم يكن منه ما كان !

وإنه الحسد ينضج من ذلك الرد الكافر ، والتغافل عن العنصر الكريم
 الزائد على الطين في آدم ! «استكبرت» على أم على آدم ، والأول كفر
 والثاني فسق ، وقد جمع بينهما ، فاستكبر على الله وعلى آدم وأم كنت من
 العالين ، على الله ؟ ولا إله إلا الله ! أم على آدم ، وليس العلو إلا بعلو
 الروح ، وحتى إذا كنت من العالين على آدم فليس لك أن تعلو على الله في
 أمر آدم ، فإنه «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» .

ويلوح من جوابه كأنه من العالين على آدم : «قال أنا خير منه خلقتني
 من نار وخلقته من طين...» ولكنه إستكبار على الله ، تحكياً للقياس
 الباطل على حكم الله .

وترى هنا «العالين» على آدم وقد خلق في أحسن تقويم ؟ أجل ،
 عالين على آدم لا على كل الناس ، فأهل بيت الرسالة المحمدية هم

العالون على آدم ومن فوقه من النبيين ، ولكنهم لو كانوا يؤمرون أن يسجدوا
الله شكراً لما خلق أباهم آدم لما كانوا يتركون !

هنالك صدر الأمر برجم الشيطان الرجيم : «قال فاخرج منها فإنك
رجيم . وإن عليك لعنتي الى يوم الدين»

وما هو مرجع ضمير المؤنث في «منها» ؟ إنه اللجنة التي كان فيها آدم :
«فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين» (٧ : ١٣) دون
الرحمة إذ لم يكن الشيطان في الرحمة ولم يسبق ذكر إلا للجنة !

هنا اللعين يستنظر ربه إلى يوم الدين ، فيستجاب «إلى يوم الوقت
المعلوم»^(١) ولو كان هو - فقط - يوم الدين لكان الجواب - كذلك - هو يوم
الدين ، وعلى الوقت المعلوم يعني يوم الدين نهاية ، ويوم القائم مهلة
واسعة ، حيث يضيق عليه بين اليومين لأنه من أيام الله ، فلا دولة فيه
للسيطان مهما كانت له بعض السلطة !

وهناك يتهدد اللعين الرجيم ذرية آدم ، تحديداً لمنهجه وطريقه معهم :

«قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^{٤٩} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ^{٥٠}» وليس
استثناء المخلصين تطوعاً منه وتراحماً ، ولكن عجزاً ، فإن الله هو الذي
أخلصهم : «انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» اذا فالمخلصون في خطر
عظيم واعظم منهم غيرهم ، والمخلصون لا خطر عليهم .

«قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ^{٥١}» لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ^{٥٢} .

(١) فصلناه في سورة البقرة وغيرها فراجع .

وترى «منهم» تعني من المجموعة ، فالمخلصون - فقط - هم لا يدخلون الجحيم ؟ وهذا خلاف الضرورة والنص أن الجنة هي للمتقين ، سواء السابقين وأصحاب اليمين ، وكل من رجحت حسناته على سيئاته آمن هو! أم تعني التابعين ، العائشين بحساب الشيطان الرجيم ، فـ «من تبعك» لا نعم من تبعه في صفائره ، أم وفي كبائر مكفرة بثوبة ام شفاعه!

أم «لأملأن» لا يدل على حتمية العذاب فـ «إن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً» ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً» .

ولكن الداخلين هنا هم كافة المكلفين من أهل التقوى والطغوى ، ثم ينجوا أهل التقوى ، والنص هنا «من تبعك منهم» .

ثم وملاً الجحيم ممن تبعه منهم يعم الداخلين الخالدين ، مؤبدين وغيرهم ، كما يعم غير الخالدين ، وهؤلاء الثلاث هم تابعوه ، الذين يعيشون على حسابه ، دون المتقين على درجاتهم «ثم تنجي الذين اتقوا ...» .

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فلا أتصنع وأتحل بما ليس لي ، ولا أماري حتى في عدم سؤال الأجر ، فمن الدعات من لا يسأل أجراً على تكلف وتصنع ، أو يدعي فوق مكانته على تكلف ، ولكن «وما أنا من المتكلفين» كما هو لائح من كل أقوال وأعمال ، لا نعرف تكلفاً ولا يعرفنا تكلف طول الحياة رسالية وقبلها .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ .

إن القرآن ، وإن نبي القرآن إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأ ذلك الذكر بعد حين ، إذ تتذكرون هنا بذكراه ، أم تعرضون فذكراه حين الموت ، ثم ذكرى بأكملها حين الحساب ، أحيان ثلاثة ، ينفع اولاهها ، ثم ولات حين مناص ، إذ فات يوم خلاص .

(۳۹) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأْنَا أَنَّهُا خَمْسُونَ وَسِتُّونَ آيَةً

مركز تحقیق کتب پویر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَتَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ

مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْ
 الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
 مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
 الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا
 فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ
 تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ
 رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَبَشِّرْهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِ
 يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا
 رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
 إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
 قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾
 أَمِنْ هُوَ قُنِيتُ ۚ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ

وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يٰعِبَادِ
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا
لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾
قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ
دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ
مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ
اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾

تسمى هذه السورة بالزمر لأنها تتحدث عن الزمر جملة وتفصيلاً ،
ففي جملتها سوق الذين كفروا إلى النار زمراً وسوق الذين اتقوا إلى الجنة
زمراً ، وتفصيلاً حيث تتحدث على طولها عن زمر الجنة وزمر النار .

وكلها تحوي محوى موضوع واحد هو توحيد الله تعالى ، طائفة بالقلب
في تعاقب جولاتها تطبع فيه حق التوحيد والتوحيد الحق ، وتمنع عنه تسرب
كل شرك ، حيث تستعرضها في صور شتى .

وتقارب آياتها في صلاتها يبرزها كأنها نزلت كما ألقت وألفت كما نزلت ،
حيث الصلة الاليفة تبعد اختلاف تاليفها عن تنزيلها ، وليست بذلك بدعاً
من السور فكم لها من نظير .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) إنا أنزلنا .

كما أن إنزال الكتاب من الله العزيز الحكيم كان جملة في إحكام في ليلة
القدر دفعة دون تدريج ، كذلك تنزيل الكتاب تفصيلاً في تدريج طول
البعثة هو من الله العزيز الحكيم ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من
لدى حكيم حميد ﴾ (١١ : ١) فـ « الكتاب » المنزل هو المنزل مهما
اختلفت صورة الجملة عن صورة التفصيل .

(تنزيل الكتاب) مبتداً و (من الله) خبره المؤكد ، أو أنه خبرٌ
للبسمة ، أنها تنزيل الكتاب في تفصيله المجمل فإنها تحوي الكتاب جملة كما
الكتاب كله تحويه تفصيلاً ، أم إنه خبر لـ (هذا) أمّاذا من مبتدئه ؟ وكلُّ
محتمل والأول أجهل وفاقاً لأدب اللفظ دون حذف ، ولأدب المعنى حيث
أردف التنزيل بالإنزال .

فعزة الله وحكمته باهرتان في هذا التنزيل كما هما في ذلك الإنزال ،
ومن تنزيل الكتاب (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) !

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (١٦) .

(إنا أنزلنا) تأكيد مثلث في (إن) وتكرير (نا) لجمعية الصفات في مثلث الحق : (أنزلنا بالحق) (اليك بالحق) (الكتاب بالحق) حق أنزل إلى حق إنزالاً بحق ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ومن لم يجعل الله له من نور فما له من نور !

فالحق سمة الكتاب في أصله ونزوله ومزله ، أترى كيف بالإمكان تسرب الباطل في ذلك الحق ؟ ! إذاً (فاعبد الله مخلصاً له الدين)

و (الدين) يوم الدنيا هو الطاعة ، وهو يوم الأخرى جزاء الطاعة ، وهو بروز حقيقة الطاعة ولا جزاء لها إلا هي ، (فاعبد الله مخلصاً له الدين) : الطاعة في عبادة السر والعلائية ، في النية والعقيدة المطلوبة ، وفي أعمال الجارحة الظاهرة جهاراً وخفية ، دون شرك ولا رثاء الناس أمن ذا حتى نفسك ، متخلياً عن سوى الله ، متخلياً بالله .

فإخلاص الطاعة لغير الله إلحاد في الله ، ومشاكسة الطاعة لله ولغير الله إشراك بالله ، وإخلاص الطاعة لله توحيد في طاعة الله (فاعبد الله مخلصاً له الدين) أنت يا حامل الرسالة السامية ، لتكون نبزاً تنير الدرب على الدينين كيف يدينون الله في طاعته وعبادته ! ولتقوم الحياة فرادى وجماعات على هذا الأساس ، مراساً في إخلاص وإخلاصاً في ذلك المراس ، وليكون مراساً وجاه كل إشراك بالله في أي حقل من الحقول .

ليس الدين الخالص كلمة تقال ، فكثيرون يتكلمون بالإخلاص ولا يدينون ، إنما هو منهاج حياة في كافة الجنبات يبدأ من تصور فتصديق فاعتقاد، وينتهي إلى نظام عملي في حياة الفرد والجماعات .

(ألا) : فانتبهوا - إعلاناً عالياً مدوياً في إذاعة قرآنية ، وتعبيراً جلياً

جليلاً مجلجلاً للعالمين أجمع : ﴿اللَّهُ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فكما له الألوهية والربوبية الخالصة دون نِدَمٍ ولا ضِدٍ ولا شريك ، كذلك له الدين الخالص طاعة وعبادة ، فلا يُعبد في ميزان الله - وهو الحق - إلا الله ، ولا يطاع إلا الله ، اللهم إلا من يحمل رسالة الله كوسيط في طاعة الله ف (من يقطع الرسول فقد اطاع الله) .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣)

إنه لا ولي في كافة معاني الولاية الحق إلا الله ، أمَّن يلي شرعة الله والدعوة كوسيلة إلى الله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء) يعبدونهم من دون الله ، لقد هرفوا فخرفوا في أسطورتهم العاذرة في تخيلهم : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) (١٠ : ١٨) !

عبادة غير الله يبعد العابد عن الله ، لأنها تسوية بالله ، فكيف تعبد طريقاً إلى الله : (ليقربونا إلى الله زلفى) ؟ ! فالمعبود الوثن لا يعقل ، فلا يقرب ولا يبعد إلا تبعيداً في فعل العابد ، والمعبود الطاغوت طاغ على الله فكيف يقرب إلى الله زلفى ، والمعبود العابد من ملك أو نبي أمَّن ذا من الصالحين هم يتقربون إلى الله بدينه الخالص ، ويقربون إليه بالدين الخالص ، فكيف يقربون إلى الله زلفى بما ينافر دعوتهم في بعدها ؟ بالوث العباد الخاسرة الكاسرة !

ولقد احتج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجاجه مع قادة الأحزاب ، على مشركي العرب قائلاً : (وانتم قلمَ عبدتم الأصنام من دون

الله ؟ فقالوا : نتقرب بذلك إلى الله تعالى ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أو هي سامعة مطيعة لربها عابدة له حتى تتقربوا بتعظيمها إلى الله ؟ فقالوا : لا - قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : فأنتم الذين نخشعونها بأيديكم فلأن تعبدكم هي لو كان يجوز منها العبادة - أخرى من أن تعبدوها إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم وعواقبكم والحكيم فيما يكلفكم ^(١) .

وفي الحق إن تسوية غير الله بالله في أية منزلة من منازل الربوبية ضلال مبين : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين (٢٦) : (٩٨) وظلم عظيم : (إن الشرك لظلم عظيم) فكيف تكون - إذا - حال من يعبد من دون الله ولا يعبد الله ، زعم أنه يقرب زلفى إلى الله ! إنه أظلم وأطغى وأضل سبيلاً ! حيث الزلفى هي القرية الزلفى ^(٢) الراجعة على قرية العبادة دون إشراك ! فيا لهم مُراماً ما أبعد أن يعتبروا عبادة غير الله أفضل وأحظى من عبادة الله .

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

وهكذا خيل إلى بعض الصوفية إذ يوجهون خطابهم في (إياك نعبد وإياك نستعين) إلى صورة المرشد القطب ، زعماً أنهم لا يليقون لخطاب دون فصل لبعدهم عن ساحته تعالى وبعده في محبته عنهم ، فليعبدوا مقرباً عند الله ليقرّبهم بذلك إلى الله ! وهم بذلك يزدادون بعداً عن الله ، كما ازداد طاعوتهم بعداً على بعد (ظلمات بعضها فوق بعض) ! وهم بهذه الهرطقة الجاهلة القاحلة ينزلون الرب عن ساحته ، ويمسّون من كرامته ،

١ - الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل وفيه : ثم أقبل على مشركي العرب ...
٢ - الزلفى هي مؤنث أزلّف فهي أفعّل تفضيل في القرب والحظوة .

مخالقين أمره في عبادته الخالصة ، ورافعين درجة من يزعمونهم عباده إلى
درجته الخاصة !

(إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) (يحكم) بين الموحدين
وسواهم ، وبين المشركين في مختلف شركهم ، وبينهم وشركائهم ،
والمشركون هم المحكومون في هذه الثلاث - (إن الله لا يهدي من هو
كاذب) في إشراكه بالله ، (كفار) لأنهم الله ، لا هدى في الأولى ولا في
الأخرى ، فالإشراك بالله محكوم في كافة المحاكم العادلة ، لدى الفطرة
والعقل والشرعة الإلهية ، ولا يملك أية برهنة إلا حجة داحضة (ما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم
يكدرها) !

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤)

(لو) تنحو نحو الممتنع ، حيث اتخذ الولد له يمتنع ، ولماذا يتخذ
ولداً ؟ ألقي يرثه بعد موته ؟ وهو الوارث لخلقه حياً لا يموت ! أم ليساند
في سلطانه ؟ وهو المساند لكل سلطان ، غنياً لا يستند ولا يساند ! أم
لوحشة عن وحدة ؟ ووحشة الوحدة ليست إلا لضعيف عن ضده الأقوى ،
ولا ضد له فضلاً عن الأقوى ! أمّا ذا من أسباب اتخاذ الولد ؟ وهي كلها
متأصلة عن ساحة الربوبية : (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما
في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله
ما لا تعلمون) (١٠ : ٦٨) ؟

كل ذلك في بوتقة الإستحالة حياً عن فقره تعالى ونقصه ، كذلك
والتبني تشريعاً فإنه مجاز فيها تجوز حقيقته : (وقالوا اتخذ الله ولداً بل عباد

مكرمون .. (٢١ : ٢٦) فهم المصطفون في العبودية دون النبوة التشريعية .

ومع الغرض عن هذه الاستحالة « لاصطفي » هو « مما يخلق » و « ما يشاء » دون نظيرة لاصطفاء المشركين ما يخلقونه كما يشاءون ! « سبحانه » عن أن يتخذ ولداً ، أو يصطفي مما يخلق ما يشاء ولداً ، أو يصطفيه غيره ما لا يشاء له ولداً ، لأنه « هو الله الواحد القهار » واحد لا يثنى بالتخاذ ولداً أو إصطفاءه ، وقهار لا يحتاج إلى ولد يرثه أو يسانده ! .. ولكنهم إصطفوا لله ولداً ليسوا ليصطفوه لأنفسهم « أفأصفاكم ربكم بالنبين واتخذ من الملائكة أنثاً » (١٧ : ٤٠) ؟

ولو تخطينا هذه الإستحالات فاتخذ الله ولداً ، أم ولد لأبعد تقدير ، لم يكن لزامه أن يُشرك به إلا بإذنه دون الأهواء « سبحانه هو الله الواحد القهار » .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٥٠) .

آية فريدة في تكوير الليل والنهار على بعض ، قد تعني معنى فريداً من الملاحم الغيبية هو كروية الأرض ودورانها .

تكوير الشيء إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة ، فتكويره على شيء إدارته عليه منضماً إليه ، فكل من الليل والنهار دائر على زميله منضم إليه ، فالكرة الأرضية تنقسم دائباً إلى أفقي الليل والنهار ، متصلين ببعض ، وكل ركب الآخر دورياً ، وكما هو الثابت علمياً والمشاهد عينياً ، فلا وقت من الأوقات ولا آن من الأوان ، إلا أن نصف الكرة ليل والنصف الآخر المقابل له نهار ، فكل مكور على الآخر ، وهما حسب

الفصول والأيام في تبادل التناقص والتزايد : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » (٢٢ : ٦١) وهما متلاحقان حيثاً : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » (٧ : ٥٤) .

فكلما تدبر الشمس عن أفق يقبل فيه الليل فيغشى النهار في طلبه الحثيث ، وكلما تقبل يدبر فيه الليل فيغشاه النهار ! فلولا كروية الأرض لاستحال تكوير كل من الليل والنهار على الآخر ، فإما ليل فقط أم نهار فقط ! ولولا دوران الأرض لاستحال إسلاج كل في الآخر ، وغشيانه الآخر هو الآخر ! .

كُور الليل من ناحية وكُور النهار من أخرى يقتضيان دورين للكرة الأرضية ، فلولا كُور السطح نهاراً لم يكُور النهار على الليل ، ولولا كُور السطح المقابل ليلاً لم يكُور على النهار ، حيث التقابل المسطح ليس كُوراً ، فإنما هو التقابل النصف دائري لمكان الكورين .

فهذه الآية ترسم أنسق تعبير وأدقه لكُور الأرض ودورها حول نفسها وحول شمسها ، لا نجده في الصلاحيات الجغرافية طول التاريخ الجغرافي !

ثم في الآية ثلاثة مواضع تدلنا على إمكانية ولزوم المعاد الحساب :

« خلق السماوات والأرض بالحق » .

فعل حق الخلق فيهما يحق المعاد ، ولو كان باطلاً لبطل المعاد : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » (٣٨ : ٢٧) « ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٤٤ : ٣٩) . فلو كانت الحياة هي الدنيا لحق فيها الحساب ، وإذ لا حساب هنا على الظلم الوفير فخلق العالم باطل لولا عالم الحساب .

ثم في تكوير كل من الليل والنهار على بعض تقريب لإمكانية الحياة

بعد الموت كما الموت بعد الحياة ، وهما لإحياء الإنسان حياة لائقة كما أن الليل والنهار حياة في الأولى سباتاً وإبصاراً^(١).

وأخيراً في جري الشمس والقمر لأجل مسمى دليل ثالث على أجل مسمى .

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا نَصْرَفُونَ ﴾^(٢).

« خلقكم » نوع الإنسان الحالي في طوله التاريخي وعرضه الجغرافي ، دون المخاطبين فقط زمن النزول حيث الخطاب من زمرة القضايا الحقيقة ، لا الواقعية الفعلية ، فهي كآية النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً ... » .

« من نفس واحدة » باديء الخلق آدم أبو البشر ، دون ثانيه وما يتلوه فإنه من نفسين اثنتين لا واحدة « ثم جعل منها زوجها » بعدما خلق النفس الواحدة وفيها خلقكم جملة كبداية ، جعل منها زوجها وفيه خلقكم تفصيلاً ، ثم لاثالث لتفصيل الخلق كما لا ثاني لجملته ، إذاً فمبدأ النسل الإنساني ككل في تفصيله ليس إلا نفسين ، وأسطورة الحورية والجنينة ، على تضارب الروايات فيها ، لا توافق القرآن هنا ولا سيما آية النساء « وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً » ، وهم « الناس » المخاطبون أجمع ، فلو كان هنالك لبث الناس ، رجالاً كثيراً ونساءً ، مدخل من ثالث ورابع لكذب القول

١ - راجع تفسير الآية ٣٩ من الدخان ففيه تفصيل الدليل على البعث على ضوء حق الخلق .

« منها » والآية في مقام العرض لواقع التناسل أولاً وأخيراً !

و « جعل منها زوجها » هنا و « خلق منها زوجها » هناك تعبيران عن خلق الزوج الأول المجهول لنفس واحدة و « منها » جنسية ونشوية ، فهما متجانسان ، لا في البداية فحسب ، بل على طول الخط كما تلمح له « ثم » الدالة على التراخي ، وليس خلقكم إلا بعد ما جعل منها وخلق زوجها ، وهذه دلالة ثانية ترفض ثالثاً ورابعاً من حورية وجنية وهما ليستا « منها » ثم « زوجها » ناشئة منها في البداية ولا تنشأ الحورية والجنية من الإنسان على أية حال ، كدلالة ثالثة على إبطال هذه الأسطورة ، وتفصيل البحث عنه تجده في آية النساء مما يشي ككل بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن الإنساني مبدأ « نفس واحدة » وتناسلاً « جعل منها زوجها » دون تدخل نكائن آخر أولاً وأخيراً .

« وأنزل لكم من الأنعام ... أنزولاً من السماء إلى الأرض ؟ وليس الله إله السماء فقط أو مكاكن السماء حتى يعني إنزاله لنا رحمة إنزالاً من السماء » وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (١٥ : ٢١) ومعلوم أن العندية هنا ليست مكانية إذ ليس له مكان ، وإنما عندية العلم والقدرة والرحمة ، فتنزله ككل ، وإنزال ثمانية أزواج ، إنزال لرحمة من عنده ، نزولاً من عليائه إلى دنيا البشر « فإنزاله ذلك خلقه إياه »^(١) كما « وأنزلنا الحديد ... » .

هذا ، ولا يعني الإنزال من السماء إلا في تصريح بالسماء « وما أنزل من السماء من ماء ... » (٣ : ١٦٤) و « ثمانية أزواج » مفسرة في آية

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٧٦ عن الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال في الآية : فإنزاله ...

الأنعام : « ومن الأنعام حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ .. ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين .. ومن الأبل اثنين ومن البقر اثنين .. » (١٤٢ - ١٤٤).

﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ .

فلنا في بطون أمهاتنا خلق بعد خلق في ظلمات ثلاث ، فما هما الخلقان وما هي الثلاث ؟ « خلقاً بعد خلق » تشير إلى التطور الخلقي الجنيني منذ النطفة إلى إنشائه خلقاً آخر : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢٣ : ١٤) .

فـ (سلالة من طين) هي المني الذي جعل في قرار مكين « ألم يك نطفة من مني يُمْنَى » (٧٥ : ٣٧) فـ « خلقاً بعد خلق » لا تعني اثنين ، وإنما تطور الخلق في مراحل السبع ^(١) هذه .

والظلمات الثلاث هي « ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة » ^(٢) وهي الكيس الذي يغلف الجنين ، وهو يستقر في الرحم المستقر في البطن ، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة في مراحلها وظلماتها

١ - راجع آية العلق في سورتها من تفسير الفرقان ج ٣٠ ص ٣٦٣ - ٣٦٥ ، تجد فيه كيفية انعقاد النطفة وما يليها من الخلق بعد الخلق .

٢ - نور الثقلين ٤ : ٤٧٧ في المجمع هو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام) وفي كتاب التوحيد للمفضل بن عمر المنقول عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الرد على الدهرية قال : سنبديء يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به فأول ذلك ما يدير به الجنين في الرحم .

الثلاث ، وعين الله ترعاها ، وهل للعلماء مع كشوفهم العلمية المتقدمة وجهودهم المتواصلة واحدة من هذه المراحل في الأضواء ، فضلاً عن السبع وفي ظلمات ثلاث .

وانها رحلة قصيرة الزمن بعيدة الاماد ، غريبة الأبعاد في مختلف التطورات لخلية هزيلة في تلك الظلمات إلى إنسان كامل الأعضاء ! وهو محبوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا يزال ذلك غذائه حتى إذا كمل خلقه ، واستحكم بدنه، وقوى أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء، هاج هذا الطلق-بأمه فأزعجه أشد إزعاج-ذا عنفة حتى يولد !

سبحان الخلاق العظيم ! -

رب إنك « ابتدعت خلقي من مني بمنى ثم أسكتني في ظلمات ثلاث بين لحم وجلد ودم ، لم تشهر بخلقي ولم تجعل إلي شيئاً من أمري ثم أخرجتني إلى الدنيا تاماً سويّاً »^(١) ف« ذلكم الله له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟ أفتعبدون ما لا يضركم ولا ينفعكم ولا يخلق شيئاً ؟ » أم هذا الذي انشأ في ظلمات الأرحام وشغف الأسنار نطفة دهاقاً وعلقة عاقاً وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً »^(٢) !

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا

١ - من دعاء الامام الحسين (عليه السلام) يوم عرفه : وابتدعت خلقي ...

٢ - نهج البلاغة عن الامام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) .

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٦﴾

رغم هذه النعم السابقة ، سابقةً ولاحقةً فـ «إن تكفروا» بالله كفراً أو كفراً ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ » (١١ : ٥٧) « ولا تضروه شيئاً » (٩ : ٣٩) « فإن الله غني عنكم » لا تنقصون منه شيئاً ولا تزيدونه كثيراً ولا قليلاً .

فلا شكركم ينفعه شيئاً ولا كفركم يضره شيئاً « والله الغني وأنتم الفقراء » (٤٧ : ٣٨) وإنما يأمركم بشكره حيث « وإن تشكروا يرضه لكم » لا له « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه .. » (٢٧ : ٤٠) يرضى شكره لكم طاعةً وعبادةً لصالحكم أنتم « وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني حميد » (١٤ : ٨) و « عباده » هنا كل عباده ، لا الشاكرون فقط ، إذ ينقلب إلى عسكه في الكافرين ، فيرضى لهم الكفر ولا يرضى لهم الشكر ! وفيه إعداء للكافرين في كفره وتركه لشكره ، فإنما المكلف بالشكر هو الشاكر بطبعه لا سواء !

فـ « لا يرضى لعباده » نفي لرضاء الكفر تكويناً وتشريعاً ، ولذلك ينهى عنه على أية حال ، ولكنه ليس ليحملهم على شكره وألاً يكفروا تسييراً حيث التكليف يتطلب الاختيار .

ثم الرضا والغضب من الله كسائر صفاته ، لا تعنيان فيه تعالى تحوّل الحال، إذ لا يتغير بانغيار المخلوقين شكراً أو كفراً أماذا؟ من غيار ، فرضاء هي موافقة المصلحة فالثواب ، وغضبه خلافها فالعذاب ، وكل من الثواب والعقاب هو صورة واقعية تبرز يوم القيامة عن الشكر والكفر صورة طبق الأصل ، فـ « ما تجزون إلا ما كنتم تعملون » !

« ولا تزر وازرة وزر اخرى »^(١) لا يحمل الشاكر وزر الكافر ، ولا يحظو الكافر حظو الشاكر مهما تقاربت الأنساب أم تغاربت ، « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » - « ثم » بعدما تقضون هذه الأدنى « إلى ربكم » في ربوبية الحساب والجزاء بعد ربوبية التكليف « مرجعكم » إليه فقط لا سواء ، فإنه هو ربكم لا سواء « فينبئكم » بعد تغافل في تساهل « بما كنتم تعملون » إن خيراً فخير وإن شراً فشر - لـ « انه عليم بذات الصدور » .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ أَتْدَادًا يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ »^(٢) .

هذه هي سيرة الإنسان وسيرته ، أن فطرته وهي الأصلية في كيانه ، تبرز عارية في حالة الضر ، متكشفة عن غبارها ، ساقطة عنها ركامها وأوهامها ، حين تنقطع الأسباب ونحار الأبواب ، حيث يتناسى الإنسان كل سبب لفشلها ، ويذكر ربه مصلحياً فـ « فدعا ربه منيباً إليه » راجعاً عما كان يدعوه في غير ضره - إليه ، نوبة بعد أخرى « ثم إذا خَوَّلَهُ نعمة » أعطاه نعمة عظيمة بعد أن كشف ضره ، وكل نعمة هناك عظيمة ، فكشف الضر نعمة ، وإعطاء نعمة بعده نعمة على نعمة « نسي ما كان يدعوه إليه » من ضر منيباً إليه و« نسي التوبة إلى الله »^(٣) : « وإذا مس الانسان

١ - راجع تفصيلها الى الآية في سورة النجم .

٢ - « ما » بين موصولة وموصوفة ففي الاولى تعني « الضر » وفي الثاني تعني التوبة حال الضر وهما هنا معنيان ، والثاني نص الحديث التالي في نور الثقلين ٤ : ٤٧٨ ، ح ١٦ في روضة الكافي باسناده عن عمار الساباطي قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل : « وإذا مس الانسان ضر . . » قال : نزلت في ابي الفضيل انه كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عنده ساحراً فكان اذا مسه الضر يعني السقم دعا ربه منيباً اليه يعني تائباً اليه من قوله في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما

الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره... (١٠ : ١٢) .

« ما كان يدعو إليه من قبل » ليس إلا ضره وتوبته لا ربه ، فإنه كان عند ضره يدعو ولا يدعو إليه ، والتعبير انصریح عن الله هنا « نسي ربه » و « ما » لا تناسب ساحته وهو المعبر هنا عن نفسه المقدسة ، ثم « وجعل الله إنداداً » هي الاخرى قرينة على انه ليس ربه وإلا لاكتفى بضميره « وجعل له ... » !

« نسي ... وجعل الله إنداداً » كما كان قبل ضره ، والند هو المشارك في جوهر الذات فهو أعم من المثل المشارك في الذات والصفات ، والإنداد هنا تعم الوسائل الظاهرة التي يعيشها بعدما بطلت ، والأوثان بعدما ضلت ، وسائر المحاولات بعدما كُلت ، فاضطر - بعد ثالوث الإنداد التي تبنّاها في حياته - أن ينيب إلى ربه ، وبعد ما خوّله نعمة منه نسي إنابته إليه وجعل الله إنداداً في ثالوثها المنحوس « ليضل عن سبيله » التي اتضحت في ضره ، تغطية على تعطية الرب ، كأنها من الإنداد ، وما أخونه وأظلمه وأكفره ، أن يقضي وطره من إنابته حين ضره ، ثم يخيل إلى المستضعفين أن الإنداد هي التي كشفت ضره وخولته نعمته .

« قل » هذا الكفور المبين والأحق اللعين « تمتع بكفرك قليلاً » وكلّ متاع الدنيا بحياتها قليل « إنك من أصحاب النار » .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً ﴾

يقول « ثم اذا خوله نعمة منه » يعني العافية « نسي ما كان يدعو إليه » يعني نسي التوبة الى الله عز وجل مما كان يقول في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه ساحر ولذلك قل الله عز وجل : قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من اصحاب النار ...

رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا
الْأَلْبَابِ (٩).

هناك صورة مطموسة نكدة مرهقة تقابلها هنا صورة وضيئة وضاءة
مرهقة ، حساسة وشفافة مشرقة ، أتلك هي الخيرة النيّة « أمن هو قانت »
يلزم الطاعة متخضعاً « آناء الليل » نصفه او انقص منه قليلاً . أوزد
عليه ورتل القرآن ترتيلاً « حال كونه فيها » ساجداً أو قائماً ، وعلّ « راکعاً »
هنا مضمّن في « ساجداً » بقرينة « قائماً » وإن الصلاة هي خير موضوع فهي
خير قنوت ! « يحذر الآخرة » حذراً عن موجبات عقابها على أية حال
« ويرجو رحمة ربه » رجاء بما يقدمه من صالحات تصلح للرجاء ، فهو عائش
حياته بين الخوف والرجاء .

فأين تلك الجهالة الحمقاء الخواء ، وهذه المعرفة اللثلاء « قل هل
يستوي الذين يعلمون » قانتين في سجود وقيام ، عائشين بين الخوف
والرجاء على الدوام ، « والذين لا يعلمون » المضلون عن سبيل الله ؟

فالعلم المخرج عن الإستواء هو المعرفة بالله وتحقيق مرضاة الله ، مهما
جهل مختلف الصّلاحيات من علم الظاهر أو علّم : « يعلنون ظاهراً من
الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠ : ٧) .

فربّ عالم لا عقل له ولا معرفة . وأعلمهم إبليس اللعين ، وليست
الرفعة في ميزان الله إلا للإيمان ومعرفة الإيمان : « يرفع الله الذين آمنوا
والذين أوتوا العلم درجات » (٥٨ : ١١) فالأصل هو الإيمان ، والمعرفة هي
سبيل الإيمان .

هنا « الذين آمنوا » و « الذين لا يعلمون » و « أولو الالباب » فهل
الأولون والآخرون سواء ، في اللّاء سواء بينهم وبين « الذين لا يعلمون » ؟
أمّاذا ؟

عَلَّهِمْ هُم فَإِنَّهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ، أَمْ هُم لَيْسُوا هُنَا إِيَّاهُمْ حَيْثُ الشَّاهِدُ يَخْتَلِفُ عَنِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ ، فَكَمَا أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ « الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » كَذَلِكَ لَيْسُوا مِنَ « الَّذِينَ يَعْلَمُونَ » مَهْمَا كَانَ مِنَ أُولَى الْأَلْبَابِ مَنْ يَعْلَمُونَ ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُم فِي سَبِيلِ الْعِلْمِ وَلَمَّا يَعْلَمُوا ، فَالْبَابُ تَدْفَعُهُمْ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُوا ثُمَّ يَعْمَلُوا ، وَمِنْ « الَّذِينَ يَعْلَمُونَ » مَنْ هُم فَوْقَ أُولَى الْأَلْبَابِ ، كَالْعَصُومِينَ (عَلَيْهِمُ السَّلَام) وَلَمْ يَسْبِقِ التَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِأُولَى الْأَلْبَابِ كَمَا لَا يُسَمُّونَ قَوَّامِينَ فَإِنَّهُمْ تَخَطُّوا دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ إِلَى مَحْضِ الْإِسْلَامِ : « فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ . . » (٦٥ : ١١) « الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (٣٩ : ١٨) .

فَقَدْ يَنْطَبِقُ هَذَا التَّقْسِيمُ الثَّلَاثِي عَلَى الْمُرُويِّ عَنْ أَثَمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَام) « لَقَدْ ذَكَرْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَشِيعَتَنَا وَعَدُونَا فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » فَنَحْنُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَعَدُونَا الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَشِيعَتَنَا أُولُوا الْأَلْبَابِ »^(١) وَيُشَبِّهُهُ الْمُرُويُّ عَنِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْمَجْتَبَى « نَحْنُ النَّاسُ وَشِيعَتُنَا أَشْبَاهُ النَّاسِ وَسَائِرُ النَّاسِ نَسْنَسُ » .

وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّفْسِيرِ بِأَظْهَرِ الْمَصَادِقِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ وَلَهُمْ مَصَادِقُ دُونَ ذَلِكَ تَعْمَهُمُ الْآيَةُ .

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٧٨ ح ١٧ الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد ابن سليمان عن أبيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال لا يَبْصُرُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! لَقَدْ ذَكَرْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ . . وَرَوَاهُ مِثْلَهُ جَابِرٌ وَأَبُو بَصِيرٍ وَزُرَّارَةُ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَمُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ وَحَسَنُ الْعَجَلِي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَام)

ثم العلماء الذين يذبون عن ساحة الدين بحجج الله التي علمهم إياها هم من الذين يعلمون^(١) والذين لا يذبون بل ويذبلون وترذلون هم من الذين لا يعلمون « إنما يتذكر أولوا الألباب » !

وأولوا الألباب هم أولوا العقول الناضجة وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما قسم الله لعباده شيئاً أفضل من العقل فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل وإقامة العاقل خير من شغوص الجاهل ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمته ، وما يضمم النبي في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين وما أدى العقل فرائض الله حتى عقل منه ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل من عقلائهم ، هم أولوا الألباب الذين قال عز وجل : « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

١ - المصدر ح ٢٢ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروى عن الحسن العسكري (عليه السلام) انه اتصل بابي الحسن علي بن محمد العسكري (عليه السلام) ان رجلاً من فقهاء الشيعة كلم بعض النصاب فافحمه بحجته حتى ابان عن فضيخته فدخل على علي ابن محمد (عليه السلام) وفي صدر المجلس دست عظيم منصوب وهو قاعد خارج الدست ويحضرته خلق من العلويين وبني هاشم فما زال يرفعه حتى اجلسه في ذلك البست واقبل عليه فاشتد ذلك على اولئك الاشراف فاما العلويون فأجلوه عن العتاب واما الهاشميون فقال له شيخهم يابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هكذا أتوثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبين والعباسيين ؟ فقال (عليه السلام) اياكم وان تكوفوا من الذين قال الله تبارك وتعالى : « ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » اترضون بكتاب الله حكماً ؟ قالوا : بلى قال : أوليس قال الله عز وجل « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فكيف تتكرون راعي لهذا لما رفعه الله ان كسر هذا لقفلان الناصب بحجج الله التي علمه اياها لأفضل له من كل شرف في النسب

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٦).

هل أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول لعباد الله : « يا عبادي » متشاكماً ربه في عباده ؟ وهو خلاف الضرورة التوحيدية وعشرات من النصوص القرآنية ! أم إنه لفئة في ندائهم بقربهم لمكان إيمانهم ، فيقربهم إلى الله زلفى بعد الإيمان بتقوى الإيمان ، فلا هم مخاطبون هنا حضوراً ، ولا معنيون بالخطاب عُيُياً ، وما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا حاملاً لخطابه تعالى ، فما قوله لهم إلا « يا عباد الله المؤمنين » أو « يقول لكم ربكم يا عبادي » ؟ أم يقرأ نص الآية دون نقص ولا زيادة وكما هو دأبه في حمل الوحي ؟ تلميحاً لهم أن ربهم يخاطبهم هنا وهو الوسيط .

فلأن مجرد الإيمان في القلب ليس إحساناً في إيمان ، فترك التقوى إساءة في إيمان ، و « قل .. اتقوا ربكم » تقوى في تطبيق الراجبات ، وتقوى عن طغوى المحرمات ، جمعاً بين إيمان الجوارح إلى إيمان الجوانح وهو الإحسان في الإيمان ، ومما يلزم له الأمر بالتقوى بعد الإيمان ، أن الطغوى تُجامع الإيمان بل وبعض الشرك أيضاً : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة » والظرف هنا متعلق بالإحسان فإنه يختص بالأولى وهي دار عمل ، دون الآخرة وهي دار جزاء ، ولا تعلق له بـ « حسنة » فإنها لا تختص بالأولى إلا شطر منها قليل ، مهما عمّت الحسنة حياة الدنيا والآخرة : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » (٣ : ٣٠١) .

إنه ليست فقط في الحياة الآخرة لهم حسنة ، بل والحياة الدنيا حيث يعيشونها مع الله ورضوانه ، ولهم سلامة الروح وراحته ، واضمثنان القلب

وسكوته ، فكل نائبة لهم في سبيل الإيمان منية أمام مرضاة الرحمن ، ثم في الآخرة لهم حسنة خالصة لا تشوبها سيئة : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٧ : ٣٢) .

ولأن التقوى قد تعترضها تقية تحدها ، أم طفوى تزيلها حين تعيش في أرض الطغاة .

فهناك هجرة من أرض الطفوى إلى غيرها حفاظاً على تقوى الإيمان « وأرض الله واسعة » : « يا عباد إن أرضي واسعة فإياي فاتقون » (٥١ : ٣٩) مما يدل على ناحية - على وجوب الهجرة حفاظاً على التقوى ، ومن أخرى أن أرض الله لا تخلو من فاسحة لتطبيق التقوى لحد ما ، فما دامت هناك أرض بالإمكان أن تتقي الله فيها أو تكون أتقى فواجب الهجرة لزام عليك دون أية عاذرة ، إلا لمن « لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » (٤ : ٩٩) .

فإن كان في إقامتك في بلدة أو شخصوك عنها إلى أخرى ضرورة لك خلاف التقوى ، أو قلتها ، فعليك بشخص أو إقامة تقوى فيه على تقوى ، فالأصل في حياة المسلم كلها - حيث يتبناه فيها كلها - هو التقوى في أي ظرف من زمان أو مكان يحافظ فيه على كرامة التقوى .

وإن لم تسطع على تقوى مطلقة فتقية هي تقديم الأهم على المهم على أية حال في كل حل وترحال .

وذلك يتطلب صبراً على الحرمانات ، على طاعة الله وعن معاصي الله^(١) ، وعند المصيبات فـ « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » :

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨١ ح ٢٩ في اصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله (عليه

توفية بغير حساب وأجرأ بغير حساب « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١٦ : ٩٦) وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (اذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان ثم تلا هذه الآية)^(١).

لا نجد في سائر القرآن لغير الصابرين توفية الأجر بغير حساب ، فللذين صبروا لله وفي الله على الحرمانات والأذيات والهجرانات ، لهم منزلتهم الخاصة بين المؤمنين إذ يوفون أجرهم بغير حساب : لا حساب في

السلام) قال : إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه فيقال لهم من انتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر فيقال لهم على ما صبرتم ؟ فيقولون : كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله فيقول الله عز وجل صدقوا أدخلوهم الجنة وهو قول الله عز وجل « انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » .

١ - المصدر عن المجمع روى العياشي بالاسناد عن عبد الله بن سنان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . وفي الدر المنثور ٣٢٣ - اخرج ابن مردويه عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله اذا احب عبداً او اراد ان يعافيه صب عليه البلاء صباً ويحبه عليه حثاً فاذا دعا قالت الملائكة (عليهم السلام) صوت معروف قال جبرئيل (عليه السلام) يا رب عبدك فلان اقض حاجته فيقول الله تعالى دعه اني احب ان اسمع صوته فاذا قال يا رب قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك وعزتي لا تدعوني بشيء إلا استجيب لك ولا تسألني شيئاً إلا اعطيتك إما ان اعجل لك ما سألت وإما أن ادخر لك عندي افضل منه واما ان ادفع عنك من البلاء اعظم منه ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتنصب الموازين يوم القيامة فيأتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلما ينصب لهم ميزان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية انهم كانوا في الدنيا ترضى اجسادهم بالمقاريض عما يذهب به أهل البلاء من الفضل وذلك قوله : انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب .

أجرهم وتوفيته إذ تكفّر سيئاتهم ، ولا في أعمالهم ، ولا في حسابهم ، ولا في أمد أجرهم ، فهم - إذاً - في مربع اللّاحساب وذلك حسابهم إذ صبروا في الله بغير حساب .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مَخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾^(١١) إخلاصاً في طاعته وعبادته لأعلى القمم ! ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١٢) أولية تتخطى طول الزمان وعرض المكان ، وهو فوق الزمان والمكان ، فإنها أولية في المكانة والزلفى : « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » (٤٣ : ٨١) فلا مسلم في العالمين يسبقه أو يدانيه ، من الملائكة والجنة والناس أجمعين : « .. قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » (٦ : ١٤) .

إنه كان عليه أن يحتل الأولوية المطلقة في الإسلام ، وقد فعل ، وإلّا فكيف يأمره ربه بما لا يسطع ، أو يخالف أمر ربه فيما يسطع ، فقد أمره الله وهو طبق أمره ففارق العالمين في إسلامه الله رب العالمين .

« أول من أسلم » يستغرق ماضي الإسلام أيا كان وأيان ، ثم « أول المسلمين » يستغرق مثلث الزمان ، فلا يعني الأولوية فقط - إسلامه قبل دعوته إليه ، فإن صيغته الخاصة « أن أسلم قبلكم » وقد كان مسلماً لله منذ فطامه في الملك ، ومنذ خلق الله الخلق في الملكوت ، ولكنه حقق الأولوية في إسلامه في عهده الرسالي بجهاده المتواصل وجهوده المتأصل .

فصاحب الدعوة هو الأول في إخلاص الدين والإسلام ثم يدعو ، وهو أول من أسلم وأول المسلمين في نطاق دعوته ، ولكن الرسول الخاتم هو الأول في إسلامه طول الزمان وعرض المكان لأنه رسول إلى الرسل وشهيد الشهداء .

ولكنه مع هذه المكانة العليا ليس ليأمن العذاب إن عصى كسائر العصاة حيث التقوى هي التي تتبني الأمن من العذاب :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٣).

هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم ، فهلا يخاف المرسل إليه إن عصى بُغْيَةَ الشفاعة ؟ زيادة الفرع على الأصل ! اللهم إلا بشروطات الشفاعة حيث تزيل ذنوب العصيان ، فرجاء الشفاعة - إذا - ممن يتهدر في العصيان - إعتقاداً على الشفيع - هراء من الرجاء ، حيث الشفيع هو رهن عصيانه فكيف يشفع لسائر العصيان : «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» (٢١ : ٢٨) الله دينه وهو من ساءته سيئته وحسنته حسنته ، دون المتهدر الذي لا يبالي أحسن أو أساء رجاء الشفاعة ، ولا سيما شفاعة المعبودين من دون الله ! وإذا يخاف الرسول إن عصى ربه عذاب يوم عظيم على عظيم منزلته عند الله ، فأحرى بالمرسل إليهم أن يخافوا عذابه ، وإن كان خوف العذاب ليس لزامه واقع العذاب إذ قد يُعفى عنه بتوبة أم رجاحة الحسنات أم شفاعة أو ترك كبائر السيئات ، فلأن استحقاق العذاب عند العصيان محتم ، ونفس العذاب بهذه الأمور غير محتم فهنا خوف العذاب دون واقعه .

﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ (١٤) دون مشاكسة في عبادتي وشوب في

ديني ، مهما وعدتموني بمواعيدكم أو توعدتموني ، وهنالك المفاصلة التامة حين لا تعبدون الله وترجون أن أعبد ما تعبدون :

﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الَّذِينَ ﴾ (١٥) .

هنا « فاعبدوا » أمر إمر هو أمر من النهي حين لا يجدي نهى ، بل

وصوى المنهي ان يُنهي أمر الناهي إلى ما انتهى إليه في إشراكه بالله العظيم .

« قل إن الخاسرين » حق الخسران كان لا خاسر سواهم « الذين خسروا أنفسهم » لا فحسب بل « وأهلهم » حيث يضلونهم كما هم « خسروا . . » يوم القيامة « ألا ذلك » البعيد البعيد « هو الخسران المبين » حيث يبين خسارة يوم الدنيا ويوم الدين .

﴿ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٦) .

« لهم » تلمح بصالحهم ، تنديداً أو تأكيداً أن لو كان لهم - لا عليهم - شئ فهو « من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » والظل هو الستر العالي الشامل ، و « من فوقهم ومن تحتهم » تعنيان الظل الظليل حيطة بهم دون إبقاء « ناراً أحاط بهم سرادقها » .

و « ذلك » العذاب البعيد البعيد ، المخيف المخيف « يخوف الله به عباده » لكي يتقون « يا عباد فاتقون » حتى تتقوا ذلك العذاب المهيئ .

هنا إنتقالة من مسرح الذين طغوا إلى مسرح الذين اتقوا ، واين مسرح من مسرح ؟ :

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا

الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ

عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَآوَلَتْكَ هُم أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۝
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ
مَبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
الْعَهْدَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ
بَنَاتِيعَ فِي الْأَرْضِ ۖ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ
يَهْبِجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا
لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ
اللَّهِ ۖ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ
ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۖ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا

لَهُمْ مِنْ هَادٍ ۝ ٢٣ أَفَنُ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ
الْقَبْرِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۝ ٢٤
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّخِذُوا لَهُمْ آيَةً ۝ ٢٥
لَا يَسْمَعُونَ ۝ ٢٦ فَآذَقَهُمُ اللَّهُ الْحُزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ ٢٧
ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ۝ ٢٨ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ۝ ٢٩ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ
وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ٣٠ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۝ ٣١
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقَبْرِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تُحْصَوْنَ ۝ ٣٢
* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ
جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ فِي جَهَنَّمَ مِثْوًى لِلْكَافِرِينَ ۝ ٣٣ وَالَّذِي

جَاءَ بِالْصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ^{١٧} أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
 لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ^{١٨} ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
 لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
 بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ
 عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
 فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ
 أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فَبَشِّرْ عِبَادِ^(١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ
 اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ^(١٨)﴾.

الطغيان هو تجاوز الحد في العصيان، والطاغوت مبالغة الطاغى فهو
 المبالغ في الطغيان ، فهو الطاغى على عباد الله وعلى الله ، حيث يستضعف
 عباد الله ، ويستكبر على الله إلحاداً في الله أو إشراكاً بالله ، أو مساماةً
 ومساواةً لله ، أم ترفعاً على الله إذ يدعي أنه إله من دون الله : « أنا ربكم
 الاعلى » فكل طاغوت على دركاتهم . ولأن الطاغوت صيغة مبالغة فاللام
 فيه تعني الموصول وهو صلته فيشترك فيه المفرد والجمع : الذي يطغى

والذين يطفنون ، وقد استعمل هنا جمعاً لمكان « ها » وكما في غيرها :
« والذين كفروا أوليائهم الطاغوت . . » كما استعمل مفرداً : « يريدون أن
يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » (٤ : ٦٠)

ومن الغريب القريب تساوي العدد بين الطاغوت والمستضعف، ثمانية
بثمانية ، مما يلمح بأن لكل مستضعف طاغوتاً. ولماذا طاغوت الجمع يرجع
إليه هنا ضمير المفرد الأنثى ؟ لأنها - فقط - الأصنام والأوثان التي لا تعقل ؟
والطاغوت هو العاقل الذي يدعو إلى نفسه بديلاً عن الله، فلا طغيان فضلاً
عن الطاغوت لغير العاقل !

أم لان الطاغوت وهو عاقل ، يكون من لا يعقل وأرذل منه حيث لا
يعقل : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذي لا يعقلون » (٨ :
٢٢) ؟ « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » (٥٥) وهذا
هو الحق في أنوثة الطاغوت، وما ألفتة تعبيراً عن كيانهم الضئيل، وذكر
الطاغوت هنا من واجب الإجتنب ذكر لأنجس ما يُعبد من دون الله ،
فغيره مطوي معه ، ولا سيما أن الإنابة إلى الله تقتضي رفض كل الآلهة من
دون الله .

« والذين اجتنبوا الطاغوت . . » مواصفات ثلاث لمن يعبد الله مخلصاً
له السدين مهما اختلفت الدرجات ، ابتداءً بالسلب : « اجتنبوا
الطاغوت . . » وتوسطاً في الإيجاب « وأنابوا الى الله » وانتهاءً إلى مسك
الختام : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وهكذا يكون دور الحياة
لمن يؤمن بالله : « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » ثم
من دونهم دركات وجاه الدرجات، وبين عليا الدرجات ودنيا الدرجات
متوسطات .

ليست الهدى واللب - فقط - السلب : « اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها »

ما لم يلحقه الإيجاب : « وأنابوا الى الله » كما ليست هي الإيجاب ما لم يسبقه السلب ، فلا ينفعك « لا إله » إلا أن يلحقها « إلا الله » ولا « إلا الله » إلا أن يسبقها « لا إله » إيجاباً موثقاً مخلصاً بعد سلب مطلق .

فقد تسلب ثم لا إيجاب كمن لا يعبد إلهاً ولا يعبد الله ، أم قد توجب ولا تسلب كمن يشرك بالله ، إذا فكلمة الحق الهدى هي « لا إله إلا الله » .

وعبادة الطاغوت دركات ، كما الإنابة إلى الله درجات ، فقد يُعبد الطاغوت كما الله ، طاعة مطلقة ، فعبادة التآليه من دون الله هي أنحس دركات العبادة للطاغوت ، وقد يُطاع دون تأليه ولا طاعة مطلقة فهي أيضاً عبادة للطاغوت مهما كنت مسلماً « ومن أطاع جباراً فقد عبده »^(١) وبينهما متوسطات .

فإذا تركت عبادة الطاغوت وطاعته عقائدياً وعملياً فهناك الإنابة إلى الله ، رجوعاً إليه بعد فصال ، حيث الفطرة ومعها العقل تحكم بعبادة الله لا سواه ، فإذا ترك الطاغوت فلإنابة إلى الله .

وهناك بشارتان إثنان ، أولاهما للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله ، أن « لهم البشرى » والثانية لهم حين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

أترى ما هو القول الذي يستمعون وما هو أحسنه ؟ هل إنه مطلق القول

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨١ عن المجمع روى ابو بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية انه قال : انتم هم ومن اطاع جباراً فقد عبده ، وفي اصول الكافي بسند آخر عن ابي عبيدة الخذاء عنه (عليه السلام) في حديث طويل حول الآية « والعبادة طاعة الناس لهم » .

شيئاً وحسناً وأحسن ؟ ولا حُسنٌ للشيء حتى تعمه « يتبعون أحسنه » !
ولماذا يستمعون عبادُ الله الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله ، يستمعون
سوء القول وهو الغي اللغو « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » (٢٥ : ٧٢)
لا يرونه ولا يسمعون ولا يتبعون ! حتى « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه »
(٢٨ : ٥٥) فكيف إذا يستمعون ؟ ! اللهم إلا سماعاً أو إستماعاً للرد
والنقض، وله أهله الخصوص دون عامة المؤمنين ، والآية تتحدث عن كُتلة
الإيمان ككل دون خصوص أهل النقض الحافظين لشرعة الله .

إنَّ استماع القول لأولي الألباب لا بد أن يعني معناً إيمانياً ، بين
تكامل باتباع أحسن القول وهو يعمهم ، وبين نقض لسوء القول وهو
يخص العلماء منهم ، فاذا لا يعني لا هذا ولا ذاك فلُغية الوقت وتهذره ، ام
ضلالٌ عن الهدى وتكثُرهما بهيذان عن اولي الألباب ، اللهم إلا أن
يعنى من استماع سوء القول استحكام حسنه وأحسنه عنده إن كان من
أهله .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

ولا يختص « يستمعون القول » بتلقي السمع الأذن ، إذ يعني تلقي
القول والرأي وأكثره بسمع الأذن ، فقد يُتلقى القول بكتابة أو إشارة
أماذا ، فالمقصود تفتيش الآراء الحسنة بُغية الحصول على أحسنها فاتباعها
علمياً وعقائدياً وعملياً أماذا ؟ ولا يتأتى إتباع الأحسن إلا بعد تمييزه باجتهاد
في تفصيل أو إجمال ، فالإجتهاد - إذاً - فرض على أية حال ! فمن لا
يستمع القول ، حاصراً إتباعه بما يعقله في نفسه ، فكثيرة أخطائه ،
وعظيمة بلاءه، فما هو من أولي الألباب، ويقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا في
الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٤١ : ٥٣) فلا تكفي رؤية
الآيات الانفسية لتبين الحق ، ومن الآيات الآفاقية آيات الرسالات التي
هي لزام الهدى لأولي الألباب .

والإنسان أياً كان - سوى المسدد بالعصمة الإلهية - هو في معرض الأخطاء حين يستقل برأيه ، فعليه استماع مختلف الأقوال كشورى بينه وبين أصحاب الأقوال ، ثم يتبع الأحسن ، فإن في تفتيش الآراء تنبيهات على موارد الخطأ والصواب ، بل قد يتبه الإنسان للأحسن حينما يسمع غير الأحسن بل والسيء ، فحينما يفيد استماع القول السيء إتباع الأحسن ، يُعتبر السيء من الحسن طريقاً إلى إنتباه الأحسن .

ومن يستمع إلى كل قول سيئاً وسواه دون أن يعنى نقضاً أو يقدر عليه ، فمتهدرة أوقاته وهو على أشراف الضلال ، وحين عناية النقص فخارج عن نطاق الآية لمكان « فيتبعون » .

ومن يستمع إلى حسنة الأقوال ولا يتبع أحسنها فما هو من أولي الأبواب ، ولا ينتفي الحسن لحسنه ، وإلاً فلماذا ترك الأحسن إلى الحسن وهو جنة وسوء الإلتباع أو صدفة لهوى ومصلحة .

وأما من « يستمعون القول » إتباعاً للحق « فيتبعون أحسنه » فـ « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الأبواب » .

وحسن القول هو حقه الصواب ، أم حكاية عن الحق الصواب ، أو قريباً إلى واقع الحق الصواب .

فأحسنه في هذا المثلث هو أحقه وأحكمه وأقربه إلى الحق ، والآخر هو محور البحث عن كيفية التقليد وشروطه ، وكيان الإجتهد بشروطه .

قد تكون لك القدرة على استنباط الأحكام باتّباع أحسن الأقوال تمييزاً علمياً بمحور الكتاب والسنة فعليك إتباع أحسنها وإن كان خلاف الشهرة أو الإجماع ، حيث الميزان الأول والآخر في شرعة الله هو كتاب الله ثم سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما يروى عن الإمام الصادق

(عليه السلام) : « العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري »^(١) فهما أحسن القول واقعاً، والأقرب إليهما والأشبه بهما هو الأحسن تقديراً وهو الأوفق لهما تفسيراً .

وقد لا تسطع على استنباط الأحكام بتفصيل، فهناك استنباط الإجمال أن تتعرف إلى الأعلّم الأتقى، فإن قوله أحسن القول لأنه أقرب إلى الحق الصواب ، فعليك تقليده .

وقد تنقسم الأحكام إلى اجتهاد وتقليد إن لم تسطع على الاجتهاد المطلق ، فالقول عن اجتهاد هو أحسن من القول بتقليد ، إضافة إلى ما تحمله آية الذكر « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٢١ : ٧) فلا سؤال تقليداً إن كنت تعلم اجتهاداً .

وقد تنقسم التقليد حيث الأعلمية نسبة بين المسائل، فتقليد مثلاً في أبواب العبادات الأعلّم فيها والأتقى ، وفي أبواب المعاملات والسياسات أمّا هي من أبواب أو مسائل- تقلد الأعلّم فيها والأتقى .

فعلى المؤمن على أية حال إتباع الشريعة عن اجتهاد بتفصيله أم إجماله مهما يسمى إجماله تقليداً ، فإنه اجتهاد في الحصول على الأعلّم الأتقى .

وعليه التحري الدائب في المسائل غير الضرورية ليحصل على الواقع أو الأقرب إليه والأحرى بالإتباع ، حركة دائمة نحو التكامل علمياً كما هو نحوه عملياً، فيجنى بجناحي العلم والعمل المتكاملين إلى الاجواء الأحرى والأرقى من الكمال الذي تعنيه الشريعة الإلهية .

١ - الحجّة البيضاء للفيض الكاشاني بسند عنه (عليه السلام) .

والقول المستمع أعم من الإخبارات والإنشائات ، ومن أصول الدين وفروعه ، ومن كتابات الوحي وسواها ، فعلى غير المشرع أن يستمع إلى مختلف الوحي فيتبع أحسنه في ميزان الفطرة والعقل ، ألا ذلك هو القرآن العظيم ، وعلى المشرع أن يستمع إلى مختلف المذاهب للشرعة فيتبع أحسنه في ميزان الكتاب والسنة .

وعلى المتمذهب المذهب الأحق الأحسن أن يستمع إلى مختلف القول في أصول الدين وفروعه فيتبع أحسنه ، وفي كل الفرض هو المستطاع من الإستماع وإتباع الأحسن .

ومن إتباع أحسن القول فيما يرتأيه أصحاب الشرائع فيما تحقق فيه الشورى من أمور فردية أو جماعية ، شورى فتوائية أم سياسية أماذا ، وليس الأحسن فيها الأكثر قائلًا إلا فيما تدل الأكثرية على الأقربية إلى الحق ، فقد يكون الأحسن رأي الأقل بمن فيهم الأعلّم الأورع ، اللهم إلا إذا تساوا ولم تُعرف رجاحة لرأي الأقل ، ولم يبق في البين مرجح إلا كثرة العدد ، فهنا الأحسن رأي الأكثر بنفس السند الدائر السائر للترجيح وهو كونه الأوفق والأشبه بالواقع حين لم يبق مرجح إلا هو .

فليست الشهرة والأكثرية لها دور في الإتباع إلا أن تحملًا برهانًا على أنها أقرب إلى الحق ، إلا فيما استأصلت البراهين إلا الأكثرية لأهل الشورى وهم أهل الرأي ، المتوفر فيهم صلاحيات الشورى كما فصلناها في آية الشورى .

إلى هنا إتباع الأحسن من المفروض الذي لا محيد عنه ، وقد يجرى دون فرض في الواجبات والمندوبات التخيرية ، فاتّباع الأحسن فيها أحسن وليس لزماً يؤثم بتركه « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ومن إتباع أحسن القول-بعد العلم والعمل والعقيدة-نشره كما استمع
« فيحدث به كما سمعه ولا يزيد فيه ولا ينقص منه »^(١) وقد تعنيه «أحسنه»
فيما عنت ، أنه أحسن الإِتِّباع بعد أحسن القول^(٢).

هؤلاء « لهم البشرى » وهم « عباد » ببشارة بعد الأولى و « أولئك
الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » بُشْرَيَان بَعْدَهُمَا سمة العبودية
« لهم البشرى فبشر عباد » ثم الهداية الإلهية « هداهم الله » ثم « أولئك هم
أولوا الألباب » .

وهذه الخمس ليست لمن سواهم ، إستمعوا القول ولم يتبعوا أحسنه ،
أم لم يستمعوا أمّن ذا من الخارجين عن هذه الشروط الخمس ، وإن لم
يكونوا سواء في الضلالة وسقوط الألباب .

فهذه الآية هي الوحيدة في سائر القرآن بياناً لفرض الإجتهد والتقليد
كلّ على شروطه ، يجمعهما « فيتبعون أحسنه » ولا تدل آية الذكر إلاّ
على مطلق السؤال « إن كنتم لا تعلمون » فلتقيّد بآية الأحسن ، ثم لا
حاجة إلى تكلفات عقلية أم روائية ، ضعيفة الدلالة ، متعارضة الأدلة ،
فإنما العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري !

والتقليد الأعمى دون حجة شرعية ، ولا سيما إذا كان خلاف الكتاب
والسنة ، هو من زمرة عبادة الطاغوت ، وإن لم يكن المقلّد طاغوتاً ، حيث

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨٢ ح ٣٤ علي بن ابراهيم بسند عن ابي بصير قال قلت لابي
عبد الله (عليه السلام) قول الله جل ثنائه « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه »
قال : هو الرجل يسمع الحديث فيحدث ... وفي نقل آخر زيادة : جاءوا به كما
سمعوه - ذيلاً - وهم المسلمون لآل محمد - صدراً
٢ - ففي احسنه المعنيان - احسن القول واحسن الاتباع مهما كان الثاني على هامش الأول .

التقسيم الثنائي يخرجهم عن اللب والهدى ، فهو داخل في عبادة الطاغوت مهما اختلفت دركاتها .

أم إنه بين عبادة الطاغوت وبين اتباع أحسن القول ، فالتقسيم إذاً ثلاثي أماذا ؟

وخلاصة القول في الآية أنها تحريض على الإجهاد في الحصول على أحسن القول حسب المستطاع ، وتحريك للمسلمين بحركة دائبة نحو الحسنى في المعارف والعقائد والأعمال ! .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ (١٩) .

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان حريصاً على هدى الضالين والمنحرفين وهم مصررون على ما هم وهو متحسر ، وهنا الله يريجه عن عبثه ويسقط عنه تكلف الدعوة حين لا تثمر « أفمن حق عليه كلمة العذاب » - دونما بداء منه ولا من الله - أنت تتكلف في هداه « أفأنت تنقذ من في النار » حيث يعيش نار الضلالة فإلى نار الجحيم ؟

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢٠)

أهل الطغوى حقت عليهم كلمة العذاب ، ولأهل التقوى كلمة الثواب ، ومن ذلك « لهم غرف مبنية من فوقها غرف » في جنات الخلود ومن قبلها في جنات البرزخ ، والغرفة هي المنزل الرفيع ، وما أجملها إذا كانت « من فوقها غرف » قصوراً طباقاً عالية « تجري من تحتها الأنهار » ومن فوقها الأشجار، أتراها بماذا بنيت ومن ذا بينها؟ بينها الله برحمته كما تبتاها أهلوها بتقواهم ، تبنى لهم كما يشتهون ولديه مزيد . . . وهم في الغرفات آمنون » (٣٤ : ٣٧) « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوثنهم من

الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ، (٢٩) :
(٥٨) .

وبماذا يبينها الله تعالى ، نسمع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : بناها الله لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد مقوفها الذهب محبوكة بالفضة^(١) تجري من تحتها الأنهار ، في أرض الجنة رحمة فوقية وأخرى تحتية خلاف ما لأهل الطغوى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار ! ألا فانظروا « وعد الله » ترون « لا يخلف الله الميعاد » لاني من زمر الجنة وزمر النار ، كسنة دائبة دون تخلف قيد شعرة ، خلاف وعد الشيطان حيث يخلف وعده في الدنيا وفي الآخرة .



١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨٢ ح ٣٦ القمي في الآية قال حدثني ابي عن الحسن بن محبوب عن محمد بن اسحاق عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : قال علي (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تفسير هذه الآية بماذا بنيت هذه الغرف يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا علي تلك غرف . . . لكل غرفة منها الف باب من ذهب على كل باب منها ملك موكل به وفيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بالوان مختلفة حشوها المسك والعنبر والكافور وذلك قول الله : « وفرش مرفوعة » فاذا دخل المؤمن الى منزله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك والكرامة وألبس حلل الذهب والفضة والياقوت والدر منظوماً في الاكليل تحت التاج وألبس سبعين حلة حرير بالوان مختلفة متوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الاحمر وذلك قوله « يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ » فاذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحاً فاذا استقرت بولي الله منزله في الجنة استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله اياه فيقول له خدام المؤمن ووصفائه مكانك فان ولي الله قد اتكى الى اريكته وزوجته الحوراء العيناء قد ذهبت اليه فاصبر لولي الله حتى يفرغ من شغله قال : فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمتها تمشي مقبلة وحوها

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢١) .

« أنزل » هنا دون « ينزل » تدل على نزول سابق ، فهو نصيب الأرض من ماء السماء حينما كانت يابسة عطشى ، فرويت بماء السماء : « وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإننا على ذهاب به لقادرون » (٢٣ : ١٨) .

ورؤية ذلك الإنزال هي علمية كشهود ، تخص حضرة صاحب الرسالة العظمى (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم نعم كل من يعلم أن ماء الأرض كله من السماء ، على ضوء الوحي ، أم الكشوف العلمية التي أثبتته .

« أنزل .. فسلكه ينابيع في الأرض » والسلوك هو النفوذ في الطريق ، وقد نفذ الماء في الأرض فأصبح ينابيع تنبع من تحتها ماءً صافياً صافياً بلا كدر ولا ضرر ، بعدما أخذ من الأرض بقضاءها كل ضرر وكدر ، فالأرض مصفأة لمياهها .

وهذه الينابيع بين فوارة أرثزية ، وفائرة فوق الأرض ، أم تتكشف آباراً تحت الأرضية ، ويد الله تمسكه فلا يضيع ويذهب في الأغوار البعيدة بحيث لا تنال الأيدي البشرية !

« ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه » بذلك الماء المنزل من السماء^(١) من عيون وآباره وأنهاره وأمطاره ، دون خصوص الينابيع حيث لا تكفي ولا تتوفر في كل أكناف الأرض ومناكبها .

١ - رجوعاً لضمير المرد الى « ماء » دون « ينابيع » .

أم إنه ينابيع للأغلبية الساحقة من تروية الأرض بها ولا حصر هنا
ينافي ترويتها بالأمطار ، ولكنه لا يناسب أفراد الضمير إلا بتأويل ماء الينابيع
وهو عليل .

وهل إن « زرعاً » يخص نباتاً على غير ساق ؟ وهو يُخرج كل نبت ساق
ودون ساق ! والزرع لغوياً هو مطلق الإنبات ! إلا أن في مقابلته بالأشجار
دليلاً على اختصاصه بغير الأشجار كما في آيات عدة^(١) ولكنه دون مقابل قد
يعم الأشجار ، كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، اللهم
إلا الأشجار حيث لا تعم النبت دون ساق ، وعلى أية حال فلا ريب في
أغلبية استعمال الزرع في غير الأشجار ولكن قرينة الموقع هنا وعدم
اختصاص اللغة بغير الأشجار يعمانه للأشجار ، ولكننا الموقع يخصه مهما
عمت اللغة لمكان الهيج والإصفرار والحطام المتواصل ولا يناسب إلا غير
الأشجار « زرعاً مختلفاً ألوانه » بجاء واحد وتراب واحد مهما اختلف الحب
والنوى ، أفلا يدل ذلك على تصميم قاصد من إله واحد ؟ « ثم ييج »
يجف لحد النهاية في اليوسة « فتراه مصفراً » بعد اخضرار « ثم يجعله
حطاماً » : فتاتاً من تبين وحشيش : « فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله
على كل شيء مقتدراً » (١٨ : ٤٥) .

« ان في ذلك لذكرى لأولي الالباب » تذكرهم بحكمة وإقتدار ورحمة
متواصلة ، وأن الدنيا دار بلاء وامتحان وممرٌ الى مقر فخذوا من عمركم
لمقركم ، وان الموت هو النهاية ، ومن ثم حياة ، كما الزرع يموت ثم يحيى

١ - ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب « ١٦ : ١١ » وجنات من اعناب
وزرع ونخيل « ١٣ : ٤ » جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً اكله
٦ : ١٤١ « وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً » ١٨ : ٣٢ « وزروع ونخل طلعها
هضيم » ٢٦ : ١٤٦ .

على طول الخط ، والماء هنا مثل للحياة المبتلاة بزرع وإصفرار وحطام ولكنه باق لا يفنى فكذلك الحياة مهما تغيرت الأحوال بإخضرار وإصفرار !

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢٢).

أولوا الأبواب هم الذين شرح الله صدورهم للإسلام فهم على نور من ربهم ، كما استناروا بأنوار فطرهم وعقولهم، آيات أنفسية ومن ثم الأفاقية ، « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » حيث قست فيما تنورت، لا إستنارة منهم ولا إنارة من ربهم « أولئك في ضلال مبين » يُبين بمظاهر الأقوال والأفعال .

« أفمن شرح الله .. » خير أم القاسية قلوبهم من ذكر الله ؟ لا يستويان ! « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » حيث تقسوا فلا تلين منه فتطمئن .

الصدر هو برآنية القلب ، كما العقل هو برآنية الصدر ، فإذا كمل العقل تم اللب ، وإذا تم اللب انشرح الصدر ، وإذا انشرح الصدر تنور القلب وهو آخر المطاف في السلوك إلى الله .

وكما القلب هنا وفي أمثاله هو قلب الروح ، كذلك الصدر واللب والعقل ، مهما كان كل في مكانه من سمياته ، فالعقل في المسخ واللب في عمقه ، والصدر في الصدر والقلب في القلب ، وكل من جنبات الروح حيث يعمها ويخلق عليها وهي درجات فوق بعض .

وإردات القلوب هي من صادات الصدور ، تصدر عنها إليها فتقلبها ، إن خيراً فنور وإن شراً فظلام ، فانشراح الصدر بالحق هدى وضيقه عن الحق ضلال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »

ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد إلى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ، (٦ : ٢٥) .

فكما ينزل الله من السماء ماءً فينبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه ، كذلك ينزل ذكراً ونوراً لتلقاه الصدور المنشرفة فتلقها إلى القلوب الحية ، دون الصدور الحرجة الضيقة، والقلوب المقلوبة القاسية، فإين قاسية مظلمة من منشرفة نيرة ؟

أترى ما هي علامة الإنشراح والنور ؟ إنها على المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت »^(١) .

ف « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وأن أبعد الناس من الله القلب القاسي »^(٢) .

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨٥ ج ٤٠ عن روضة الواعظين للمفيد روي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ « افمن شرح الله صدره ... » فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن النور إذا وقع في القلب انفسح له وانشرح ، قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! فهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : التجافي ... وفي الدر المنثور ٥ : ٣٢٥ اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! فهل ينفرج الصدر قال نعم قالوا هل لذلك علامة قال نعم التجافي ... وفيه اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية فقلنا يا رسول الله كيف انشراح صدره قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا فما علامة ذلك قال : الانابة ...

٢ - الدر المنثور ٥ : ٣٢٥ - اخرج الترمذي وابن مردويه وابن شاهين في الترغيب في الذكر والبهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تكثروا ... وفيه اخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَابًا مَثَابٍ تَقَشِعُ عَنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣).

أترى تدافعاً بين هذه التي تحكم بكون الكتاب متشابهاً كله ، وبين التي تعمم الأحكام له كله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١١ : ١) وثالثة هي آية التقسيم : « .. منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. » (٣ : ١) ؟ « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » !

الإحكام والتشابه أمران نسيان ، فالقرآن محكم كله قبل تفصيله : « تلك آيات الكتاب الحكيم » (٣١ : ٢) - « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت .. » فهو إحكام وجاء تفصيل وقبله ، ثم وحكيم كله جملة وتفصيلاً : « حكمة بالغة فما تغني النذر » (٥٤ : ٥) « والقرآن الحكيم » حكمة في كيانه أياً كان وأياً كان ، في تفصيله وقبله ، في لفظة ومعناه ومغزاه ، في بلاغه وبلوغه وحكمه ، وفي أي حقل من حقوله ، دون أن يتسرب إليه أمر غير حكيم ، أو يتدخل فيه حكيم أو غير حكيم ، فحكمة القرآن هي أفضل برهان على رسالة من جاء به « والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين .. » !

ثم وهو متشابه كله-وجاء التهافت والتدافع-تشابه المثاني : المعاطف ، عطفاً لبعض على بعض ، وانعطافاً مع بعضه البعض ، حيث يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض ويشهد بعضه لبعض .

وآله وسلم) قال : يورث القسوة في القلب ثلاث خصال حب الطعام وحب النوم وحب الراحة .

وهو محكم في أمه ، متشابه في سواء ، إحكام الدلالة على مغزاه تفهماً ، وتشابهها لغير البالغ فهمه ، دون قصور في الدلالة ، ولا عضالة في التعبير ، إلا جزالة لأعلى قمم الفصاحة والبلاغة ، ولكنها الأفهام درجات ، والقرآن يخلق على كافة الدرجات ، فأية واحدة هي محكمة لمفسر وهي متشابهة لآخر وما هي إلا هي ، على حدّ المروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) : « المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله » !

إنه متشابه المثاني كله ، ومتشابه المعاني بعضه ، ومحكم المعاني كله ، فإنه أحسن الحديث ، وقصور الدلالة من أقبح الحديث ، وتناقض الأبعاض من أقبح الحديث ولكن :

« الله نزل أحسن الحديث » ، لا سواء ، وكل حديث الله أحسن من سواء ، وكما الله نفسه حديث أحسن من سواء : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » (٤٥ : ٦) ولكن أحاديث الله في مختلف الرسالات بين حسن وأحسن ، وهذا القرآن هو أحسن الحديث بقول مطلق ، لا يوازي ولا يسامى طول الزمان وعرض المكان « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » ، (٥٥) .

ولقد عبر عن القرآن بالحديث في إثني عشر موضعاً أخرى في الذكر الحكيم^(١) وهو ما يتحدث عنه ، فمنه ما يتحدث كسائر الكون ، ومنه ما يتحدث ولا يتحدث كمكون الكون ، يتحدث عن كل محدث بلسان حال أو مقال وعلى أية حال ، فلسان الفطرة والعقل يتحدثان عنه ، ولسان التكوين والتشريع يتحدثان عنه ، ويتلوه أحسن الحديث ، فهو حادث يتحدث عن كل

١ - وهي هنا و : ٤ : ١٤٠ و ٦ : ٦٨ و ٧ : ١٨٥ و ٦ : ١٨ و ٤٥ : ٦ و ٥٢ : ٣٤ و ٥٣ : ٥٩ و ٥٦ : ٨١ و ٦٨ : ٤٤ و ٧٧ : ٥٠ و ١٢ : ١١١ .

شيء : « لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (٦ : ٥٩) ويحدث عنه كل من كملت عقولهم ، إذا فهو « أحسن الحديث » : « نوراً لا تطفأ مصابيحهم وسراج لا يخبو توقده ، وبحر لا يدرك قعره ، ومنهاج لا يضل نهجه وشعاع لا يظلم ضوؤه ، وفرقان لا يحمد برهانه وبنيان لا تهدم أركانه . . »

ولأنه « أحسن الحديث » بقول مطلق فهو - إذا - آخر حديث من عليا الوحي ، لا حديث بعده ، فلا شرعة ولا رسالة بعده .

« كتاباً متشابهاً » بعضه ببعض ، في ألفاظه ومعانيه ، في أغراضه ومغازيه ، دوناً اختلاف ولا قيد شعرة فإنه « مثاني » : معارف ، فأياته كلها لصق بعض ، في مواصلات دون أية مفاصلات ، وفي تجاوزيات دون تهافت وتفاوت ، فقد « نزل القرآن ليصدق بعضه بعضاً فلا تجعلوه يكذب بعضه بعضاً نثراً لأياته نثر الدقل » (١) .

ومن تشابه أبعاضه مع بعض انسجام أحكامه ومعارفه في وحدة جامعة تناسب الأجزاء « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فأحكامه الفردية تجاوب الجماعية ، وأحكامه العبادية تناسب السياسية ، وأحكامه الإقتصادية تناسج هذه وسواها ، دون أي صدام والتظام بين حقوله المختلفة صورة ، الواحدة سيرة ! ومتشابهاً مع قضية الفطرة والعقل ، وحاجيات العالمين أجمعين إلى يوم الدين دون إبقاء .

ومتشابهاً مع سائر الوحي مهما كان أحسن منه فإنه « أحسن الحديث » ويؤيده ويبشر به سائر الوحي الأصيل .

١ - من الخطبة ١٩٣ عن الامام امير المؤمنين في نهج البلاغة وقد اوردها بتمامها في مفتاح المجلد الثلاثين .

ومتشابهها مع محكمه في هذا التفصيل « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت »
نسخة طبق الأصل .

« كتاباً متشابهاً مثاني » وترى ما هي الصلة بين جمع المثاني صفة لمفرد الكتاب ؟ علماً صفة لاياته في مثانيها كلها، وصفة للكتاب كله في مثانيه كلها ، فـ « المثاني » جمع المثنية ، تعني المعطوف ، لانعطافها كلها مع بعض ، ولا سيما التي تتحدث عن موضوع واحد ، فهي تفسر بعضها بعضاً وتنطق بعضها على بعض ، وهي ثلاثم بعضها بعضاً في مختلف حقولها ، مثنية هنا في إثنين .

وهي جمع المثني لأنها تثني على مرور الأوقات وكرور الحاجات فلا تُدرس-ولا تنقطع-دروس سائر الكتب ، كما وهي تجدد حالاً بعد حال في فوائده وإشراقاته ، فالقرآن يجري كجري الشمس ، لا غروب لإشراقته ، ولا أقول لإضائته .

وقد نزلت آياته مثني ، واحدة نزولاً وأخرى تأليفاً : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه » (٧٥ : ١٨) ولا جمع إلا بعد نزول .

وهي جمع مثني الثناء ، فالقرآن معارض للثناء عليه في كله ب كله ، لـ « انه قرآن كريم » « بل هو قرآن مجيد » ! وهو في مثانيه المكرورة ، وعلى تجدد الحالات والحاجات المعروضة عليه ، المستضيئة به ، وفي مثاني معاطفه تفسيراً لبعضها البعض ، وموافقةً لبعضها البعض ، وفي مثني تأليفه الأليف ، هو في كل ذلك مثاني ومجالات للثناء ، وما أجملها خماسي المعاني للمثاني ، مما يحض على الثناء .

فالقرآن العظيم كله مثاني بكل هذه المعاني ، مهما كانت لـ « سبعا من المثاني » منزلتها الخاصة بين سائر المثاني « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » (١٥ : ٨٧) .

« متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » خوفاً مما قدمت يدها لهم فهم في وجل وارتعاش وقشعريرة الجلود كخلفية لاقشعرار القلوب
 « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » فهم بين خوف مما قدمت أنفسهم ، ووجاء مما عرفوا من رحمة ربهم ، يعيشونها طول حياتهم .

فطالما قلب المؤمن يضطرب وجلده يقشعر من الكتاب المتشابه المثاني حين يرى نفسه قاصرة عما يتوجب عليها تجاهه ، ويسمع ربه العظيم يكلمه ، فيغشى قلبه خاشعاً ويقشعر جلده خاضعاً خائفاً وجلاً .

ولكنه يطمئن بعد ذلك إلى ذكر الله : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فهم عندما سمعوا آيات العظمة والجلال طاشوا ، وإذا سمعوا آيات الرحمة والجمال عاشوا ، فهم بين طيش وعيش ، وخوف ورجاء حيث القرآن أخذ بأزمة قلوبهم ، وقد سئل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تفسير الترنيل فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « حركوا به القلوب » أجل و « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . . . » ! فالغالب على من يستمع القرآن الخشية والخشوع ، مهما لان قلبه وجلده إلى ذكر الله ، ولكنه بعدما ملء خشيةً وانقلاباً « ثم تلين » ! فلا تعني الخشية الصعقة « إنما هو اللين والركة والدمعة والوجل »^(١) .

١ - تفسير البرهان ٤ : ٧٤ عن الكافي بسند عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قلت : ان قوماً اذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حدثوا به صمق احدهم حتى يرى ان احدهم لو قطعت يدها ورجلاه لم يشعر بذلك فقال : سبحان الله ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا إنما هو اللين والركة والدمعة والوجل ، اقول : يعني (عليه السلام) من الخشية عوناً بين الغشية واللين ، والا لكان الائمة غير خاشعين او هم مغشي عليهم في جميع احوالهم حيث يعيشون القرآن فيها .

تري لماذا هنا « إلى ذكر الله » وليس كما هناك « بذكر الله » ؟ قد تكون
« إلى » لاجئة إلى وقت اللين بعد الإضطراب ، أنها تضطرب مقشعرة بكلام
الله ، فلما سلكوا به إلى ذكر الله ، فملئت به قلوبهم ، لانت بعد
اضطراب ، فراراً منه إليه ، وفراراً من كلامه إلى ذكره « ألا بذكر الله
تطمئن القلوب » !

أنت تزور عظيماً يكلمك بما يتوجب عليك ، فتأخذك الهيبة والرغبة لأول
وهلة ، ثم بعد هنيئة تستكن إليه وتنعطف بعطفه ولطفه ، فيلين قلبك بعد
اضطراب ، وتفرح بعد اكتئاب !

كذلك الله وأحرى بكلامه وفوق خلقه قدر ما يفوق خلقه ،
يقشعر منه جلدك ثم تلين إلى ذكره « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » !

و « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحات عنه ذنوبه كما يتحات
عن الشجرة اليابسة ورقها » (١) .

﴿ ذَلِكْ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾
ولكن هدى الله وإضلاله ليسا فوضى جزاف ، فإنما يهدي الله من يهدي
توفيقاً له في هداه ، مزيداً واستمراراً ، ويضل من ضل تركاً له فلا يوفقه
ويذر في طغيانه يغمه وفي غيه يتردد .

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا
كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٢٤) .

في الإتقاء بالوجه وجهان قد تعنيها الآية ، إتقاء في الدنيا فيوم القيامة
ظرف لسوء العذاب ، واتقاء يوم القيامة فهو ظرف الإتقاء .

١ - المجمع روى عن العباس بن المطلب ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
قال : ...

والوجه الأول هو كل الوجه قلباً وقالباً أن يتقي الإنسان يوم الدنيا سوء العذاب يوم القيامة بوجهه الظاهر والباطن، في كل مواجهة لنية واعتقاد أو عمل أماذا ، فهو يتقي سوء العذاب بوجهه في كل وجوهه ومواجهاته ، هل يستوي هو ومن لا يتقي فهو ظالم « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » !

والوجه الثاني هو وجه القلب ، فلأنه أشرف الأعضاء ، مظهر الحس والحس وصومعة الحواس ، فإذا اتجه إلى الإنسان عذاب إتقى بيده وسواها من أعضاء وجهه، حفاظاً على الأشرف الأعلى ، حيث فيه حفاظ عليها كلها ، ففيه سمعه وبصره وقمه ولسانه ، وإذا تعطلت الأعضاء أو عُطِلَتْ ، فاليدان مغلولتان إلى العنق أماذا لغيرهما ، فهو - إذا - يتقي بوجهه سوء العذاب حين يلقى في النار : « أفمن يلقى في النار خيراً ممن يأتي آمناً يوم القيامة » (٤١ : ٤٠) حيث يلقى فيها مكتوباً فأول ما تمس النار وجهه ، فيتقي بوجهه سوء العذاب وهو الإلقاء مهاناً في النار .

وما أخطره موقفاً « وجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قتره . أولئك هم الكفرة الفجرة » ومع هذا الهول في زحمة العذاب يتلقى كلمة التائب عذاباً فوق العذاب : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » بسجوهكم وكل الوجوه ! والمعنيان عليهما معنيان مهما كان الثاني أوجه ، والقرآن حال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه ، ومن الأحسن الجمع بين الحسن والأحسن ، فإنه أحسن من ذلك الأحسن ، اللهم إلا أن يختص الحسن بعناية التفسير فغير حسن .

ثم يلتفت من مشهد الحاضرين إلى مشهد من الغابرين ليدل على سنة الله في الكافرين ، غائبين وحاضرين ، ليصبح أهل الذكرى من فعلتهم حاذرين .

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿ (٢٦) .

إن عذاب الدنيا أياً كان ليس إلا ذوقاً للخيبة والعذاب ، « ولعذاب الآخرة أكبر » وأخزى « لو كانوا » في الحياة الدنيا « يعلمون » فسنة الله في المكذبين ماضية ، ومصارع القرون الغابرة شاهدة ، ويكفي هذا الذكر لمن يذكر والله من ورائهم محيط .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ (٢٨) .

لا يبقى القرآن ولا يذر مثلاً للذكرى إلا ويضربه « لعلهم يتذكرون » أمثلة فطرية وعقلية وحسية وكونية أما ذا من امثال واقعية، دون اختلاق لما لا يكون أم يستحيل .

مركز تحقيق كامبوري علوم إسلامي

و « الناس » هنا مثل لأفضل محور لوعي القرآن ويتبعه الجن أمن ذا من المكلفين ، إذ ليس القرآن - فقط - كتاب الناس ، فلا أقل من أنه للجنة والناس ، ومهما كان هناك من المكلفين من هو يوازي الناس ، فلأن صراح الخطاب في القرآن موجه إلى الناس ، فلا ضير أن يصبح الناس فيه هم الأساس .

« قرآنًا » يُقرأ ، وما أسهله تناولاً معجزة تُقرأ « عربياً » واضحاً بيناً لا تعقيد فيه ، لا تفهوماً فتصديقاً ، ولا تطبيقاً طول الزمن ، فهو عربي في كافة الحقول ، تحويه كافة الفطر والعقول « غير ذي عوج » في قرآنه وعربيته « عربياً غير ذي عوج » على مر العصور ، فلا يُخلق على الرد ومضي الزمن وتقدم العلوم والعقول، وتوسع الحاجات في مختلف الحقول ، وقد يعنيه ما

يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تفسيراً له « عربياً غير ذي عوج » ، القرآن كلام الله غير مخلوق ^(١) وهو حجة تحكم ولا يحكم عليه وكما يروى عن علي (عليه السلام) « ما حكمت مخلوقاً ما حكمت إلا بالقرآن » ^(٢) « عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون » ولا يطغنون ، ومن أمثال القرآن :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣).

الشكوس هو العسر وسوء الخلق ، فالمتشاكسون هم المتعاسرون المتشاجرون لشكاسة خلُقهم ، فمن الشركاء من هم العدول المتنافسون وليست إلا في حق ، ومنهم من هم شركاء متشاكسون وليست إلا في غير حق ، ويضرب الله هذا المثل الأمثل لرجل الشرك ورجل التوحيد ، فالمشرك هو كعبد يملكه شركاء متشاكسون ، موزعاً بينهم فيه يتخاصمون ، حائراً لا يستقر على منهج ، ومائراً لا يقدر على مدخل واحد ومخرج ، لا يملك إرضاءهم أجمع فهم عليه ساخطون .

وهكذا يكون دور المشرك في اتجاهاته ولا سيما بين الطواغيت ، يعيش عيشة متناقضة متباغضة ، لا يدري من أي إلى أي .

ويتلوه الذي يعبد نفسه ويعبد ربه إثنين اثنين ، مهما كان موحداً في التأليه ، فإنه مشرك بالفعل في أعماله واتجاهاته لا يهدف هدفاً واحداً

١ - الدر المنثور ٥ : ٣٢٦ - اخرج الديلمي في سند الفردوس عن انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : .. اقول : « غير مخلوق » علته من الاختلاق ام الخلق العتيق ، ألا يخلق على مر الدهور !

٢ - المصدر اخرج ابن ابي حاتم في السنة والبيهقي في الاسماء والصفات عن الفرغ بن زيد الكلاعي قال قالوا لعلي (عليه السلام) حكمت كافراً ومنافقاً فقال : ...

ثم المرائي الذي يعبد ربه رثاء الناس « ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فشالوث الإشراك منحوس حسب مختلف دركاته ، في حياة رذيلة مضطربة تُخرج الإنسان عن وحدته إلى كيان ممزق مفرق .

والموحد هو كعبد سَلماً لرجل ، إذ يملكه سيد واحد ، عالماً بطلباته ، متوجهاً إلى مرضاته ، فهو في راحة عن تناقض الحياة وتضاد الطلبات ، فالقلب المؤمن بحقيقة الإيمان هو الذي يقطع رحلات الحياة على هدى واضحة ، إذ لا يعرف ولا يهدف إلا مصدراً واحداً ومصيراً ومسيراً واحداً منحاً ومنعاً ، فتستقيم اتجاهاته في مختلف الحقول إلى هذا المبدء المصير ، عابداً له وحده ، ومطيعاً له وحده ، ومعلقاً آماله وأعماله عليه وحده ، معلقاً يديه بحبل واحد ، يشد بكل إمكانياته عروته ، يعيش في الأرض متطلعاً إلى إله السماوات والأرض ، رافضاً سواه وراءه ظهرياً .

« هل يستويان مثلاً » حتى يستويان مثلاً ؟ فذلك في جحيم الحياة الدنيا قبل الآخرة ، وهذا في جنة الله هنا قبل الآخرة « الحمد لله » على وحدته وأمره بتوحيده توحيداً لاتجاهات الحياة نحو الكمال « بل أكثرهم لا يعلمون » مدى نحوسة الشرك وإكثابه، وطيبة التوحيد وإكسابه .

وترى إذ « لا يعلمون » فمرفوع عنهم تكليف التوحيد حيث « رُفع ما لا يعلمون » ؟ كلاً ! حيث الجهل هنا متجاهل عامد ، ومتعاضل شارد ، وكيف لا يعلمون وهذا من أوضح موارد العلم لمن له مُسكة حتى المجانين ، فضلاً عن العقلاء العارفين ، ولذلك « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » !

وكما الإشراك بالله - أيأ كان - فيه نحوسته وانجرافه ، كذلك الإشراك برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسوى به من دونه، فيقطع كما

يطاع. وقد يروى عن علي (عليه السلام) قوله : أنا ذلك الرجل السلم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(١) ثم من يحملون رسالة الله كما هو من الأئمة المعصومين (عليهم السلام)^(٢) ثم العلماء الربانيون ، مهما كان الإشراف في هذا المربع دركات حسب الدرجات ..

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

« ميت وميتون » في صفة مشبهة دالة على ثبات ، دلالة على أن الموت لزام لهم كلهم لا يفلت عنه قالت مهما كان نبياً وحتى أنت يا سيد الانبياء^(٣).

ولا يعني الموت هنا الفوت ، وإنما موت الأبدان حقيقة بخروج الأرواح ، وذوق الموت للأرواح تحلصاً عن الأبدان وهي أحياء في البرزخ

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨٥ عن المجمع وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالاسناد عن علي (عليه السلام) انه قال ... وفي معاني الاخبار باسناده الى عمرو بن شعبر عن جابر عن ابي جعفر (عليه السلام) عن امير المؤمنين (عليه السلام) مثله .
٢ - المصدر عن روضة الكافي باسناده عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : اما الذي فيه شركاء متشاكسون فلان الذي يجمع المتفرقون ولايته وهم في ذلك يلعن بعضهم بعضاً ويرا بعضهم من بعض فاما رجل سلم لرجل فانه الاول حقاً وشيعته ...

٣ - المصدر ٤٩ في عيون الاخبار باسناده قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما نزلت هذه الآية « انك ميت وإنكم ميتون » قلت يا رب اتموت الخلائق كلهم وتبقى الانبياء ؟ فنزلت « كل نفس ذائقة الموت » ثم اننا ترجمون ؟ أقول : لا يبقى بعد نص الآية الأولى شك في انه (صلى الله عليه وآله وسلم) يموت مع الباقيين حتى يزول بعموم الآية الثانية ، فالحديث إذا مركوس او معكوس ان الثانية نزلت قبل فسأل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سؤاله فنزلت الأولى نصاً انه يموت .

ثم في القيامة الكبرى ، وهناك فارق بين « من شاء الله » وسواهم، أنهم لا يصعقون ويفزعون يوم الصعقة الموت عن البرزخ ، فإنه كُوت الأرواح: « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله » (٣٩ : ٦٨) .

ليس الموت آخر المطاف في رحلة الحياة ، إنما هو حلقة بعدها أصل الحياة « يا ليتني قدمت لحياتي » وهناك إختصاص العباد المشركين كما كانوا يختصمون في الدنيا في مواليتهم وفيما بينهم : « قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » (٢٦ : ٩٧) « لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد » (٥٠ : ٢٨) و « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » (٣٨ : ٦٤) إختصاصاً متصلاً بين الحياتين دون إهمال « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » (٣٦ : ٤٩) .

العُباد مَن دون الله يختصمون فيما بينهم وكما يختصم المعبودون، ثم ثالث ثلاثة إختصاص العُباد والمعبودين ، ثالث منحوس ، ثم إختصاص بين الرسل والمرسل إليهم ، وبين كل الدعاة والمدعوين : « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » (٢٥ : ٣٠) وأين إختصاص من إختصاص ؟ !

ومن الإختصاص ما هو بين الأمة مع بعض في ظلمات « في الدماء »^(١)

١ - الدر المنثور ٥ : ٣٢٧ اخرج عبد بن حميد عن الفضل بن عيسى قال لما قرئت هذه الآية قيل يا رسول الله فما الخصومة قال : في الدماء، واخرج عن الزبير بن العوام قال لما نزلت « انك ميت ... » قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إنكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال نعم لينكرن ذلك عليكم حتى يؤفني الى كل ذي حق حقه .

وسواها، ثم لا خصام بين العدول إلا مع سواهم حجاجاً عليهم وتبكيئاً،
وحق الظالم والمظلوم بين الدواب والأنعام^(١) فضلاً عن سائر المكلفين
كالزوجين والخدمة والمخدومين وأهل الأسواق^(٢) والجارين^(٣)
والامراء والرعايا^(٤) وحق الأرواح مع الاجساد^(٥) فالخصام هناك
واقع بين كل ظالم ومظلوم من الجنة والناس والحيوان أماذا ؟

١ - المصدر ٣٢٨ اخرج احمد بسند حسن عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ليختصم يوم القيامة كل شيء حتى الشاتين فيما انتطعتا .
٢ - المصدر ٣٢٨ - اخرج الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن ابي ايوب ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت لزوجها وتشهد يده ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخدامه بمثل ذلك ثم يدعى اهل الاسواق وما يوجد ثم دوائق ولا قواريط ولكن حسنات هذا تدفع الى هذا الذي ظلم وسيأت هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يوق بالجارين في مقامع من حديد فيقال اوردوهم الى النار فوالله ما ادري يدخلونها او كما قال الله : وان منكم إلا واردها .

٣ - المصدر - اخرج احمد الطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أول خصمين يوم القيامة جاران .

٤ - المصدر - اخرج البزار عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يجاء بالامير الجائر فتخاصمه الرعية .

٥ - المصدر اخرج ابن منده عن ابن عباس قال يختصم الناس يوم القيامة حتى يختصم الروح مع الجسد فيقول الروح للجسد انت فعلت ويقول الجسد للروح انت امرت وانت سولت فيبعث الله تعالى ملكاً فيقضي بينهما فيقول لهما ان مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير اني ارى ها هنا ثماراً ولكن لا أصل ليها فقال له الضرير اركبني فتناولها فركبه فتناولها فايها المعتدي فيقولان كلاهما ؟ فيقول لهما الملك فانكما قد حكمتما على انفسكما يعني ان الجسد للروح كالطية وهو راكبه .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢).

من كذب على الله أن له شركاء أم لم يوح إلى أحد أمّاذا من أكاذيب ، ثم كذب بالصدق إذ جاءه وحياً وموحى إليه بآياتها البينات ، فمن اظلم منه ، إنه في الدرك الأسفل من الظلم كذباً على الله وتكذيباً بما جاءه عن الله ، مهما كان له أمثال في دركه .

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣٣).

لعل « الذي جاء بالصدق » وجاء « من كذب على الله » هو الذي جاء الله بكل صدق، صادقاً به ويتوحيده وبأقواله .

كما الذي « صدّق به » وجاء من « كذب بالصدق إذ جاءه » ، هو المصدق لما جاءه عن الله من وحي بمن جاء من رسل ، تخصّصاً بينهما في بعدين فـ « أولئك هم المتقون » .

ولماذا « أولئك » ؟ و « الذي » مفرد ؟ علّه لأن « الذي » يعم الرسول والمرسل إليه ، وكلّ عبدة نعم المكلفين المصدقين أجمعين فـ « أولئك هم المتقون » ! .

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء كمّن قبله بالصدق عن الله ، وصدّق بما جاء به وبما جاء به من قبله ، والمرسل إليه جاء إليه بالصدق في كيانه ووحيه ، وصدق بالصدق الذي جاءت به رسله ، فهما على- جمعيتها معاً معنيان فـ « أولئك هم المتقون » ثم احتمال ثالث أن « الذي جاء بالصدق » هو الرسول « وصدق به » هو المرسل إليه^(١) .

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٤).

لهم عند ربهم في مقامات القرب والزلفى « ما يشاءون » مشية مختارة وليست مختارة ، و « ذلك » العظيم العظيم « جزاء المحسنين » . . أتراهم إن شاءوا رؤية الله ، أم شاءوا أن ينالوا درجات الأنبياء ، أم شاءوا زوجات المتقين الآخرين فلهم كل ذلك حيث « لهم ما يشاءون » ؟

كلاً ! فليسوا ليطلبوا المحال ، وهم على علم أن رؤية الله مستحيلة ، ومن المجيء بالصدق والتصديق به تصديق أنه لا يرى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » .

ثم ولأنهم يعرفون درجاتهم ليسوا ليطلبوا فوقها مما يخص من فوقهم فإنه طلب لغير العدل ، والطلب ما فوقه من مكانة إما ظالم متناول ، أو جاهل متعاضل ، وهم عن هذه الظلمات والجهالات مبعدون .

ثم ولأنهم لهم ما يشاءون من زوجات فلم يشتهون زوجات آخرين ، وهكذا تطلب عارم ناشيء إما عن فقدان ولهم ما يشتهون ، أو عن طيش

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « وصدق به » قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي المجمع انه المروي عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام ، أقول ومنه ما في تفسير البرهان : ٤ : ٧٦ محمد بن العباس بسند عن أبي الحسن (عليه السلام) قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) في الآية وذكر مثله أقول : ولقد اخرج الحفاظ وأرباب المسانيد والمؤلفون مثله كابن المغازلي في المناقب وابن عساكر في فلك النجاة والكنجي في كفاية الطالب ١٠٩ والقرطبي في الجامع لاحكام القرآن ١٥ : ٢٥٦ وأبو حيان في البحر المحيط ٧ : ٤٢٨ والسيوطي في الدر المنثور كما مضى ، والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥١ والالوسي في روح المعاني ٣٠ : ٣ واخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وعَدوان:» ويخرج أضغانهم « ثم وكل هذه خلاف المجيء بالصدق والتصديق به !

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥).

« أسوء الذي عملوا » مما يدلنا على أن المحور المعنى في « جاء بالصدق وصدق به » هم المرسل إليهم الذين يجوز عليهم السوء والأسوء حتى يكفر ، دون المرسلين المعصومين ، فـ « عنهم » هنا راجع إلى بعض المعنى من « الذي جاء بالصدق وصدق به » إن كان يشمل الرسل .

ثم و « أسوء الذي عملوا » هو الإشراك بالله قبل الإيمان ، حيث المجيء بالصدق والتصديق به أحسن الأعمال فيكفر الله به أسوء الأعمال فضلاً عن سوءها ، وهذه سنة ثابتة بالنسبة للأسوء قبل الإيمان ، ثم وبعده « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » (٤: ٣١) دون توبة ، ويكفر كذلك كبائر السيئات بتوبة وشفاعة ، فهذا المثلث من الأسوء مكفر لكرامة الصدق والتصديق به ، ثم « ويجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون » وهو الصدق والتصديق ، ففيها الأجر العظيم والتكفير العظيم ، وكل ذلك من فضله العميم .

﴿الْيَسَّ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧).

من أسباب النزول أنهم قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لتكفرن عن شتم آهتنا اولنا مرنها فلتجنتك فترلت (١) .

إن الله يكفي عباده الصالحين من نبيين ومتقين على درجاتهم من بأس الكافرين المتربصين بهم دوائر السوء ، فأكفى الكفاية - إذاً - هو لاكفى النيين « فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » (٢ : ١٣٧) « والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٦١ : ٨) .

إن هناك معركة مصيرية بين الداعية إلى الحق والقوى المضادة المرجفة لقلوب خوت أم تكاد ، والله واعد عباده الصالحين أن يكفيهم في كل بأس ينال من ساحة الرسالة والإيمان مهما كان برحة الاستشهاد .

« ويخوفونك بالذين من دونه » ! وكل من سواه ليس إلا دونه ، وعبد الله لا يخاف في سبيل الله إلا الله دون من دونه . « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء »^(١) .

أتري بعد أن هناك كافياً إلا الله ، والكفاية تعني الإعتناء لحد عدم الحاجة إلى غير الكافي ؟ كلا ! إنما الكافي هو الله دون سواه حيث الكفاية تعني تمام الربوبية ولاية « وكفى بالله ولياً » (٤ : ٤٥) وعلماً « وكفى بالله عليماً »^(٧٠) ووكالة « وكفى بالله وكيلاً »^(٨١) وشهادة « وكفى بالله شهيداً »^(٧٩) وخبرة وبصيرة « وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً » (١٧ : ١٧) وحساباً « وكفى بنا حاسين » (٢١ : ٤٧) وهداية ونصرة : « وكفى بربك هادياً ونصيراً » (٢٥ : ٣١) وقوة وعزة : « وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » (٣٣ : ٢٥) وشهادة على كل شيء : « أو لم يكف بربك أنه على

(صل الله عليه وآله وسلم) : وعنه قال : بعث رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) خالد بن الوليد ليكسر العزى فقال سادنها وهو قيمها يا خالد اني أحذر كها لا يقوم لها شيء فمشى اليها خالد بالفأس وهشم أنفها .
١ - عيون اخبار الرضا عنه (عليه السلام) .

كل شيء شهيد (٤١ : ٥٣) .

أترى هذه الصفات الإثني عشر التي هي لزوم الكفاية ، توجد في غير الله ، وحتى محمد (صلى الله عليه وسلم) والأئمة الاثني عشر (عليهم السلام) حتى يصح الدعاء المختلق « يا محمد يا علي إكفياني فإنكما كافياي » مهما صح « وانصراني فإنكما ناصراني » حيث الكفاية أخص من النصرة ! إن ذلك لا يشبه شرعة القرآن وسنة نبي القرآن ، فـ « ليس لك من الأمر شيء » !

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ
ضُرَّهُ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَقَرَّبُ
أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٠﴾
إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِنَافْسِهِ فَمَا يَصُلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ ۝ (١١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
 فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
 الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ۝ (١٢) أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ
 أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْعًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ (١٣) قُلِ لِلَّهِ
 الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ۝ (١٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ
 يَسْتَبْشِرُونَ ۝ (١٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ (١٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ
 الْقَبْرِ وَمَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۝ (١٧)

وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا مَسَّ الْأَنْسَنَ ضُرُّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا
خَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ مِ
فِتْنَةٍ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ لَمَّا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ مُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ وَلَقَدْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣٨)

هذا من أسئلة الججاج على المشركين المقرين أن الله هو خالق
السموات والأرضين ، فلماذا - إذا - يدعون من دون الله من يُخلق ولا
يُخلق ، ولا يكشف ضرراً يريد به الله ، ولا يمسك رحمة يرسلها الله « قل
حسبي الله » في كشف ضر وإرسال رحمة ، وكفاني الله عن كل بأس وزحمة و
« عليه » لا سواء « يتوكل المتوكلون » .

فلماذا يخاف عبد الله ومن ذا يخاف وهو في سبيله إلى الله ؟ فقد انقطع
الامل عن سواء وانقطع الخوف والجدل ، إذ ليس له بدل إلا جنابه
المتعال ، فهو كاف عبده ، وهو الرقيب على عبده ، وهو الوكيل لعبده ،
وهذه هي الطمأنينة دون خيفة ، والثقة دون زعزعة ، والمضي في سبيل الله
حتى النهاية دونما تخلف قيد شعرة .

ولفظة غير ذوي العقول « ما » وضمير الجمع المؤنث الراجع إليه
« هن » تعريضان بأن ما يدعى من دون الله لا يعقل ، وهو في الأصنام
والأوثان مشهود ، وفي الطواغيت معهود، حيث الطفيان على الله خلاف
العقل ، ثم في الملائكة والنبين مردود، فإنهم لا يتقبلون أن يُعبدوا من دون
الله ، فكأنهم لا يعقلون عبادتهم إذ هم ناكرون ! هم كانوا يخوفون الرسول
(صلى الله عليه وآله وسلم) بمن دون الله ، وهو يخوفهم ونفسه بالله « إن
أرادني الله بضرب هل هن كاشفات ضره ... » ؟ ثم يرسلهم إلى مكائنتهم أن
يعملوا على حدها هذه :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(٣٩) مَنْ
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ ^(٤٠) ۖ

« إعملوا » ضدي وخلاف ما أوحى إلي وأرسلت به إليكم « على
مكائنتكم » : منزلتكم وإمكانيتكم ^(١) .

« اعملوا ... » ف « اني عامل » على مكائتي ، معاركة صاخبة كل على
مكانته ، رغم أني وحدي وأنتم كثرة ، أنتم لکم أموال وليست لي أموال ..
« فسوف تعلمون » عين اليقين ، وليس بعد الموت فحسب بل وفي الدنيا
« من يأتيه » منا « عذاب يخزيه ويحمل عليه عذاب مقيم » هو عليه إزام دون
فكالك .

١ - المكانه هي المنزل وهي الإمكانية ، وكلما كانت المنزل أقوى فالإمكانية أوسع ، فهذا
محدد ذو بعدين أن كرسوا إمكانياتكم على مستوى منزلتكم علماً ومالاً وقوة أمأذا .

وهذه مباحلة عملية مع الذين لا تفهم الدعوة بأية حجاج إلا مزيد
لحجاج ، وهذه نهاية المطاف لداعية الحق حينما تبلغ الحجاج ذروته ، ولا
يتقبل المدعو أية برهنة إلا ردأ بقوله الزور ، وانتفاجة الغرور .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ
فَلِنَا يَضِلَّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٤١) .

« أنزلنا » إنزالاً « بالحق » عليك « بالحق » « الكتاب » بالحق ، كتاب حق
بأنزال حق على نبي حق « فمن اهتدى » بمثلث الحق « فلنفسه » دون أن
يتنفع به الله ورسوله « ومن ضل فإنما يضل عليها » لا على الكتاب الحق
ورسول الحق والمرسل الحق « وما أنت عليهم بوكيل » تجرهم إلى الهدى :
« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

و « للناس » هنا كما في غيرها دليل أنه « هدى للناس » فهم - إذا -
قادرين على تفهمه ف « للناس » تعلمه و « للناس » تطبيقه و « للناس »
نشره ، وأنت رسول الله إلى الناس بكتاب الله « للناس » .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي
قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٢) .

هذه هي الآية الأم دلالة على حقيقة الموت والحياة البرزخية بعد
الموت ، وتجاوبها بعض الشيء آية الأنعام : « هو الذي يتوفاكم بالليل
ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم
ثم ينبتكم بما كنتم تعملون » (٦١) .

أترى أن بينها وبين التي تجعل التوفي لملك الموت : « قل يتوفاكم ملك
الموت الذي وكل بكم » . . « (٣٢ : ١١) » والتي تجعله لسائر الملائكة
المرسل : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » (٦ : ٦١)

وأضرابها : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » (١٦ : ٣٢) « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » (١٦ : ٢٨) « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » (٤٧ : ٢٧) .

هل إن هنالك تهافتاً ثلاثياً ؟ كلاً ! فالمتوفي الأصيل للأنفس كلها طيبة وظالمة هو الله ، والموكل لذلك كعامل بأمر الله هو ملك الموت حيث يدير شؤون الأموات ، ثم الموكلون تحت إمرته بأمر الله هم رسل من الله ! فلا محي ولا يميت إلا الله دون واسطة ، أم بوساطة هو في غنى عنها، ولكن المتوفي لا ياهل أن يتوفاه الله دون وسيط .

فقد يتوفي الله دون وسيط من هو أرقى من ملك الموت وأعلى محتداً كالرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن حذى حذوه ، وليس حضور ملك الموت بمحضره حين التوفي إلا تشريفاً والمتوفي هو الله : « وإما نرينك الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم » (١٠ : ٤٦) .

« أما ملك الموت فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه ويوكل رسله من يشاء من خاصته ممن يشاء من خلقه يدبر الأمر كيف يشاء وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأن فيهم القوي والضعيف ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلا أن يسهل الله له حمله وأعاناه عليه من خاصة أوليائه وإنما يكفيك أن تعلم أن الله المحي وانميت وأنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم »^(١) .

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٨٩ ح ٦٥ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه وقد سأل رجل عما اشبه عليه من الآيات وأما قوله : - ثم ذكر الآيات المذكورة في المتن - فإن الله تبارك وتعالى يدبر الأمر كيف يشاء ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء ، وأما ملك الموت ...

هنالك ثلاثية التوفي ، من الله للرعييل الاعلى ، ومن ملك الموت بإذن الله لمن يتلونهم الخاصة ، ومن سائر الملائكة بدرجاتهم لسائر الناس بدرجاتهم أو دركاتهم ، وإن كان الله هو المتوفي فيها كلها !

ترى وكيف يصح هذا التقسيم وآية ملك الموت تخاطب ناكري البعث : « وقالوا : إذا ضللنا في الأرض أإننا لفي خلق جديد . قل يتوفاكم ملك الموت . . . » ؟ ولكنه يعني التوفي بوسيط وليس إلا تحت رئاسة ملك الموت بأعوانه الملائكة الآخرين « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » أو . . . ظالمي أنفسهم ، فانهم تفسران توفي ملك الموت أن ليس كله بيده دون وسيط ، وكما تفسران مع سائر الآيات « الله يتوفى الأنفس » أن ليس كل توفيه دون وسيط .

إذا فالمتوفي لأطيب الطيبين هو الله ، وللخصوص منهم بعدهم هو ملك الموت ، ولسائر الطيبين سائر ملائكة الموت ، وللظالمين أنفسهم أدنى الملائكة مهما كانوا كلهم معصومين فـ « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » (٢٢ : ٧٥) .

ثم ما هو التوفي ، والأنفس المتوفاة هنا ؟

ليس التوفي هو الإمامة نفسها ، بل هو أعم منها حيث هنا يطلق على الإمامة : « والتي لم تمت في منامها » وفي أخرى على أخذ الروح والجسم دون إماتة ولا إنامة عن هذه الكرة الأرضية إلى غيرها : « إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا . . . » (٣ : ٥٥) مع العلم أن المسيح حي يرزق حتى الآن : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » (٤ : ١٥٩) وحتى الآن ما آمن به المسيحيون كلهم فضلاً عن أهل الكتاب كلهم ، فليكن حياً حتى الآن .

فالتوفي في معنى جامع لهذه الثلاث هو الأخذ وإبقاء ، مهما كان المأخوذ هو الإنسان بروحه وجسمه كما في المسيح (عليه السلام) أم بروحه ككل كما في الإمامة « فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت » (٤ : ١٥) والموت لا يميت ، أم بروحه بعضاً كما في الإمامة ، فإبقاء الأخذ في كل بحسبه ، إبقاء للمأخوذ كوناً وكياناً ، أجراً وجزاء ، دونما إبقاء هنا أو هناك ، وكذلك الله يتوفى حين يتوفى وبعده ، إبقاء دون إبقاء .

والأنفس هنا ليست هي الأرواح بالاجساد ، مهما كان المجموع نفساً ، كما كل نفس ، اللهم إلا توفياً لها بعد توفي الانفصال ، فإبقاء معاً في حفظ الله دون أن يضل منها شيء : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد.. قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم » (٣٢ : ١١) فلولاً تعني توفي الجسم مع الروح لما كانت إجابة عن إشكال : « ضللنا في الأرض » إذ يعنون ضلال البدن بأجزائه .

فهناك عند الإمامة توفيان متداخلان فـ « الله يتوفى الأنفس حين موتها » إذ يفصل الروح بكامله عن البدن ، ويحفظها بكاملها عن الضياع والضيال ، وقد لا تعني آية التوفي هذه إلا الأول ، ولا سيما أن النوم أيضاً هنا توفٍ ولا يؤخذ فيه الجسم .

إذا فالأنفس في توفي الإمامة هي الأرواح بكاملها دون إبقاء، من إنسانية وحيوانية ونباتية ، فهي تموت بذلك التوفي « حين موتها » ولا يعني موتها فوتها ، وإنما انفصالها عن أجسادها وبطلان تصرفاتها فيها ، وإلا فهي أحيى مما كانت في الحياة الدنيا ، كما أن موت البدن - وهو ميت في نفسه - يعني انفصال الحياة عنه وبطلان انصرافه بتصرفات الروح، وأين موت من موت ؟

النفس تذوق الموت لإنفصال ولا تموت « كل نفس ذائقة الموت » (٣ : ١٨٥) فما موتها هنا وفي أمثالها : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن

الله ، (٣ : ١٤٥) « إلا ذوقاً للموت ، أو يعني موت أبدانها اللهم إلا هنا حيث « يتوفى الأنفس » : الأرواح « حين موتها » .

« والتي لم تمت في منامها » كذلك الله يتوفاها ، ولكنها ليست النفس الروح بتمامها ، بل هي الروح الإنسانية المدبرة المدبرة لحياة اليقظة ، ثم تبقى الحيوانية والنباتية إبقاء لأصل الحياة نمواً وانضماماً لغذاء وتنفساً دون تحسّس ، فمعنى توفى النفس النائمة - إذاً - هو اقتطاعها عن الأفعال التمييزية والحركات الإرادية كالعزوم والصعود وترتيب القيام والقعود وسائر الأفعال الاختيارية .

وبدمج النباتية في الحيوانية ، وهي لزامها - فلاقل تقدير - لكل إنسان نفسان متحدتان متمازتان في حياة ، ثم تنفصل الإنسانية في حياة النوم ، برزخاً مؤقتاً حتى اليقظة ، وتنفصلان عنه عند الموت فتعيشان دون هذا البدن في الحياة البرزخية ، وفي القيامة حياة أرق وأرقى !

ثم بالنسبة لهذه التي لم تمت في منامها « فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » يمسك النفس الإنسانية المتوفاة لكيلا تنجذب إلى الحيوانية المبقاة ، حيث الإمساك يلمح إلى التجاذب بينهما للإلتحام ، تداوماً للحياة الدنيوية ، فلولا الإمساك لانجذبت الإنسانية الى الحيوانية ، وبالإمساك ينعكس الإنجذاب : « ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » .

فالتلاحم بين نفسي الإنسان لزام حياتهما هنا وفي البرزخ ، فلا تعيش الإنسانية دون الأخرى ، كما لا تعيش الأخرى دون الأولى ، ف « ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس وإن

أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح . . «^(١) وسبب كشعاع الشمس أحسن تعبير عن التجاذب بينهما على فصال ، فضلاً عن حالة الإتصال !

فكما «الله يتوفى الأنفس حين موتها» بتمامها ، كذلك يتوفى « التي لم تمت في منامها » لأولاهها « فيمسك التي قضى عليها الموت » وحتى يتم الموت « ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » رجوعاً إلى الحياة ، فقد يتحقق الموت في وصال للنفسين كحال اليقظة ، أم في فصال لهما كحال الموت ، يتوفى الأولى أولاً بالإقامة والثانية ثانياً بإمساك الأولى حتى تنجذب الثانية إليها .

١ - تفسير العياشي بإسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ما من عبد . . . وهو قوله سبحانه : الله يتوفى الأنفس حين موتها . . فمهما رأت في ملكوت السماء فهو بما له تأويل وما رآته بين السماء والأرض فهو بما يخيله الشيطان وليس له تأويل (البرهان ٤ : ٧٧) وفي نور الثقلين ٤ : ٤٨٩ ح ٦٤ عن كمال الدين وإتمام النعمة بإسناده إلى داود ابن القاسم الجعفري عن محمد بن علي الثاني (عليه السلام) قال : أقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) ذات يوم ومعه الحسن بن علي (عليه السلام) وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين مثلك على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلم على أمير المؤمنين فرد عليه السلام فجلس ثم قال يا أمير المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل أن أخبرني بهن علمت أن القوم ركبوا من أمرك ما أقضي عليهم انهم ليسوا بمؤمنين في دنياهم ولا في آخرتهم وإن تكن الأخرى علمت أنك وهم شرع سواء فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) سألني عما بدا لك قال : أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه وعن الرجل كيف يذكر ونسى وعن الولد كيف يشبه الأعمام والأخوال ؟ فالتفت أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أبي محمد الحسن بن علي (عليه السلام) فقال : يا أبا محمد أجبه فقال (عليه السلام) أما ما سألت عنه من أمر الإنسان إذا نام أين تذهب روحه فإن روحه معلقة بالريح والريح معلقة بالهواء إلى وقت ما يتحرك صاحبها لليقظة فإن أذن الله عز وجل برد تلك الروح على صاحبها جذبت تلك الروح الريح وجذبت تلك الريح الهواء فرجعت الروح فاسكنت في بدن صاحبها وإن لم ياذن الله عز وجل برد تلك الروح على صاحبها جذب الهواء الريح وجذبت الريح الروح فلم ترد إلى صاحبها إلى وقت ما يبعث . . .

إذا فـ « النوم اخ الموت » ومثل له بمثله كبراعة إستهلال ، فانه توفى كما هو ، مهما افترقا بتوفي الروح كله أو بعضه فـ « هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى .. » (٦٠) : (٦١) « ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، فحين تفكر في النوم والموت نجد بينهما تقارناً بفواصل يخص الموت ، فالنوم - إذا - آية حسية مكرورة طول الحياة تدل على إمكانية الحياة مع الموت وبعده ، معه حيث النائم ميت في نفسه حي في روحه ، حياتاً برزخية أولى ، فلتكن في الموت حياة برزخية ثانية بعده وكما النائم يبعث باستيقاظ ، كذلك الميت يبعث للحياة الاخرى بنفخ الصور .

وإرسال النفس بعد توفيتها في المنام قضاء لأجلها ، آية إرسالها بعد موتها قضاء لأجرها .

واليقظة بعد النوم آية أن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

وآية للرحمة المتواصلة الإلهية تقطع عن الإنسان معاذيره كيلا يقول « إذا جاء أحدهم الموت رب ارجعوني لعلني أعمل صالحاً فيما تركت .. » .

وكما أن راحة النوم عن حركات التعب ونهضات النصب آية أخرى تُنجّل الإنسان أمام ربه إذ يذكّرهما ، فليراقب أعماله بعده ، وكما ترى في منامك رؤى آت صادقة لمكان تجرد أكثر مما في اليقظة ، وهناك تنفتح لك شعبة من الوحي فتري ما لا تراه في اليقظة ، كذلك - وبأخرى - بعد الموت حيث تتجرد أكثر من النوم ، داخلاً في عالم تمامه الصدق ، فتري ما لم تكن تراه في حياتك الدنيا يقظة ونوماً ، حيث تُكشف عنك غطاءك كلها : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .. « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ^(٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٤٤) .

اتخذوا من دونه آلهة « أم اتخذوا من دون الله شفعاء » يشفعون لهم عند الله إذ يقولون : « هؤلاء شفعاءنا عند الله » ؟ « قل أ » تتخلفونهم شفعاء « ولو كانوا لا يملكون شيئاً » لأنفسهم فضلاً عن سواهم « ولا يعقلون » فكيف - إذا - يملكون ؟

ثم ليس كل من يملك شيئاً ويعقل هو يملك الشفاعة عند الله ، فإن « الله الشفاعة جميعاً » في شرعة وتكوين ، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون « (٤٣ : ٨٦) .

فهو الذي يملك الشفاعة من يملكها على شروطها التي هو قَرَرها لا سواء ، فكيف ترجون الشفاعة ممن ليس يملك شيئاً ولا يعقلون ، وحق إذا ملكوا وعقلوا و « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » (٤٣ : ٨٦) « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٢١ : ٢٨) !

فإنما الشفاعة في ملك الله وعباده لمن يملك السماوات والأرض ثم إليه يرجعون ، وليس إلا الله وحده لا سواء ، ف « الله الشفاعة جميعاً » من أي كان ، لأنه المبدء المبدع وإليه المعاد ، فكيف يحق لأحد أن يشفع في ملكه وعنده إلا بإذنه « من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه » (٢ : ٢٥٥) ؟ .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَلَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ^(٤٥) .

كلُّ من الإشمزاز والإستبشار غاية في بابه ، : إمتلاء القلب غياً تظهر آثاره في الوجه مغبراً ، وامتلاء سروراً تظهر آثاره في الوجه متهللاً !

وهب هم يشركون بالله ما لم يأذن به الله، فلماذا يسمتزون من ذكر الله وحده ويستبشرون من الذين من دونه ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إسمتزازاً من الإله الأصيل الخالق، وإعتزازاً بالشريك المخلَق ، ذلك بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فلهم ما يشتهون فيما يعبدون ، وفي الحق ما هم بمشركين كما يدعون ، بل هم موحدون لعبادة شركائهم ، رافضون لعبادة ربهم ، فهم - إذاً - أنحس من الملحددين الناكرين لله ، العابدين لغير الله .

لا تقل إنهم مشمتزون - فقط - من توحيد الله : « إذا ذكر الله وحده » ومستأنسون إذا ذكر مع شركائه، فإنهم « إذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » فهم يرفضون ذكر الله وحده ومع شركائهم ، وإذا ذكروه معهم فإنما الهدف الأصيل شركائهم .

وهكذا نرى جماعة من الموحدين ، أنهم لا يستأنسون بذكر الله استيناسهم بذكرى رسله وأوليائه ، كما لا يأنسون بكتاب الله أنسهم بخليط الأحاديث من الغث والسمين والخائن والأمين ، وهذا شرك خفي في المؤمنين بالله قد يصبح ركاساً فيجلو : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » !

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦) .

الحاكمية بين المختلفين تتطلب حيلة علمية بسائر شروطها المتعاضلة المتفاضلة ، ولذلك لا يحكم بين عباد الله أصالة إلا الله ، والرسول رسالة والائمة ولاية ، والعلماء الربانيون-الأقرب منهم فالأقرب إلى ساحة العصمة القدسية - خلافة عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى .

« فاطر السماوات والارض » الذي خلقهما هو أعلم بهما ومن فيهما كوناً

وكياناً وفِعْلاً وافتعالاً، وهو «عالم الغيب والشهادة» الحاكم الوحيد القهار بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، حكماً في الدنيا بشرعته المبينة للحق، وحكماً في الآخرة ولا رسالة هناك ولا كتاب، اللهم إلا كتاب الشريعة والأعمال.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا بِحَسَبِئِهِمْ^{١٧} وَبَدَأَ
لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)^(١٨)

«الذين ظلموا» هنا المشركون والناكرون لحياة الحساب فالثواب و العذاب حيث «حاق بهم ما كانوا به يستهزئون» وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين... كل ظلم «وان الشرك لظلم عظيم» «...ألا لعنة الله على الظالمين. يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون» (٤٥:٧)

فهم الذين لم يستجيبوا لربهم فد «الذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد» (١٣: ١٨).

وهم الذين كفروا «ان الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم» (٥: ٣٧) «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار لن يتقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» (٣: ٩١) وملء الأرض ذهباً هي كل «ما في الأرض جميعاً ومثله معه» فهذا مثل لعظيم الفداء يوم القيامة الكبرى، و«ملء الأرض» ايضاً في آيتها تعني المثل «ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض

الأرض لاقتدت به .. « (١٠ : ٥٤) فلا تنافي بين مثلث الآيات : « ما في الأرض » .. ومثله معه ، و « ملء الأرض ذهباً » حيث الكل أمثال عن كثرة الفداء .

ثم هنا إستحالة في قبول الفداء من بعدين ، ف « لو » تُحيل أن يكون لهم ما في الأرض ، و « لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً » تُحيل قبول أي فداء منهم مهما كان أطول الأضلاع في مثلثه ، هول ملفوف في ثنايا التعبير الرهيب لا جَوْل عنه بأية فداء وإن في صورها المستحيلة وحتى « بود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيهِ » (٧٠ : ١٤) .

ومع رد الفداء - لو كان - وبعده « بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » من حق المبدء والمعاد ووحية الرابط بين المبدء والمعاد ، فلم يكونوا يحتسبون ذلك المستقبل العتيد الشديد ، والإحتساب حكم لأحد النقيضين من غير أن يحيطر الآخر بباله ، وهو خلاف الحساب فإنه إفتعال من الحساب، وتكلف كاذب يناقض الحساب ، وقد كانوا يحتسبون أن الحياة هي الدنيا ، فلم يكونوا يحتسبون أن بعدها أخرى هي أخرى قضية الحساب .

ثم ومن ثم « وبدا لهم سيآت ما كسبوا » بعدما كانوا عنها غافلين عمين : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

يوم الدنيا كانت سيآتهم في إحتسابهم حسنات ، أم ما كانت سيآت إذ « زين » الشيطان أعمالهم فصدتهم عن السبيل وكانوا مستبصرين « ثم في يوم الحساب يكشف الغطاء عما عملوا » وحق بهم ما كانوا به يستهزئون «

إذ كانوا يستهزئون بالعذاب الحساب ، فتزل بهم ما كانوا يحتسبون ! مريع من ركام العذاب دون تفلت عنه ولا تفلت .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(٤٩) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيَّصِيهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ^(٥١) ۝

هذه طبيعة الإنسان وسجيته ، نسيان الله وذكر من سواء ، فإذا مسه ضُرٌّ ولما يحل به - حيث المس ذريعة الحلول - هناك « دعانا » أن نكشف الضر عنه « ثم إذا خولناه نعمة منا » : « نسي ما كان يدعوا إليه من قبل » ^(٤٩) و « قال إنما أوتيته على علم » ! .

فرغم أن « نعمة منا » هي محوِّلة غير مملوكة ، فهي عطية مؤقتة فتنة « بل هي فتنة » وهي « منا » لا منه ، لا ذاتياً ولا استحقاقاً ، بالرغم من كل ذلك « قال إنما أوتيته على علم » حاصراً هذه العطية الربانية أنها آتية « على علم » مني وخبرة واستحقاق « بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

أكثر المتنعمين لا يعلمون أن نعم الله فتنة وكما أن نقمه فتنة « وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني . كلا . . . » (٨٩ : ١٦) .

ومن ثم قليل منهم يعلمون أنها فتنة ، أتري أنهم المؤمنون حقاً فلا يغترون بنعمة ، ولا ييأسون بنقمة ، فهما لهم أمام الله على حد سواء ، فهم راضون بمرضاة الله ؟ وهناك من يعلم أنها فتنة ولكنه يفتن بها ! ومنهم قلة قليلة يعلمون ولا يفتنون ، ثم و « لا يعلمون » في الأكثر ليس إلا جهل

التجاهل والغفلة ، جهلاً عامداً دون قصور ، حيث الجاهل القاصر معذور .

وليسوا هم بدعاً من قائلِي هذه القولة فـ « قد قالها الذين من قبلهم » من أضرابهم وهم الأكثرية الساحقة في التاريخ « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » على هذه القولة الجوفاء الخواء « فأصابهم سيأت ما كسبوا » إصابة يوم الدنيا وأخرى يوم الدين « والذين ظلموا من هؤلاء » الحاضرين وإلى يوم الدين « سيصيبهم سيأت ما كسبوا » على سواء « وما هم بمعجزين » الله .

نجد هذه الآية وأضرابها تكشف عن الفطر والعقول رُكام الأهواء الهاوية والشهوات الخاوية ، تعريةً من العوامل المصطنعة ، وتجريداً للإنسان في ضلاله عن كل حجة ، ضارباً إلى أعماق التاريخ في الغابرين ، وربطاً بينهم وبين الحاضرين والذين يستقبلونهم إلى يوم الدين ، حيث الكفر ملة واحدة ، وفي علة واحدة ، فإلى جهنم وبئس المصير .

وإنها تلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين ، مَنْ هم أشد منهم قوة وأكثر آثاراً في الأرض وعماراً « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

ألم يعلموا بعدُ أن نعم الله بلايا وامتحانات قد تبوء إلى إمتهانات ، فهي من الله على جهلهم لا منهم « على علم » منهم ؟ فإن لم يعلموا :

﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) .

وهذا أمر ملموس أنه هو الذي يسط الرزق وهو الذي يقدر ، فكم من كاد في طلب الرزق الواسع ، وعالم كيف يكسبه وقد قدر عليه رزقه ، وكم من متبطل جاهل يأتيه رزقه واسعاً رغداً من حيث لا يحتسب .

وليس هذا التقدير استجاشة للبُطالة والعُطالة ، وتجميداً للطاقات البشرية ، فإنما أمرٌ بين أمرين ، فلا أن يسط الرزق وقدره رهينان - فقط - لسعي الإنسان أو هموله ، ولا أن الله يسط الرزق ويقدر كفوضى جزاف تعمية للمساعي وهو القائل « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

إنما عليك أن تسعى قدر الحاجة والإستطاعة ، دون تحميم على ربك أنه رازقك قدر سعيك ، أو يقتصر عليك إن لم تسع قدر حاجتك وطاقتك ، فإنما عليك السعي وعلى الله التكلان في متوجات السعي .

سعة الرزق هي حصيلة معدات ليست كلها بيدك ، فقد يعدها لك ربك إن رآه صالحاً لك أو في كل النظام ، أم لا يعدها لخلوه عن صالح هنا أو هناك ، ثم يسع الرزق لمن سعى دونك حيث يعدُّ له معداته الخارجة عن سعيه ، إذاً فهو الذي يسط وهو الذي يقدر ، رغم واقع المساعي بمختلف درجاتها ، إذاً فعليك الحركة قدر المستطاع وعلى الله البركة كما يشاء ، زائدة على سعيك أم ناقصة عنه ، فإن لم تسع إتكالاً على رازقك فما لك إلا ما لغير الساعين من جوع أم بلغة الحياة أماذا ؟

وفي تخلف المسببات عن أسبابها المعدة لها دليل صارم لامر دله أن في الغيب مسبباً للأسباب ليس لينتظم في خيبرتنا تحت الأسباب ، إلهاً واحداً يسبب الأسباب أم يترها عن كونها أسباباً ، وهو الذي « يسط الرزق لمن يشاء ويقدر » رغم ظواهر الأسباب ، تنظيماً للكون كأصلح ما يكون ، وتدلّياً أن هنا مكوناً واحداً قديراً عالياً فوق الأسباب ، خفياً وراء الأسباب .

﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
 جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ
 وَأَسْلِبُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٨﴾
 وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ أَنْ تَقُولَ
 نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ
 لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦٠﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ
 مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦١﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي
 كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٢﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَتِي
 فَكَلَّبتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ
 أَلْبَسَ فِي جَهَنَّمَ مَنُوءَىٰ لِلْمُكَابِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَنُجِّيَ اللَّهُ الَّذِينَ
 اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٥﴾

هنا بعد الهول الرهيب للذين ظلموا وتقطع الآمال ، وتميز الحال واضطراب البال ، لا يغنيهم أي فداء عما ظلموا بما أسرفوا على أنفسهم ، يفتح الله أبواب التوبة والأوبة والغفران بمصاريعها ، حتى ليطمع أهل الكبائر العظائم في رحمة الله غير قانطين عنها ، ولكنها فرصة متاحة بشروطها في أوانها قبل إفلاتها وفوات الأوان إحالة وسطى بين الخوف المطلق فليأس وإيلاس ، وبين الرجاء المطلق فاللأمبالاة والارتكاس :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا .. واتبعوا . ﴾

وإنها أرجى آية في كتاب الله وأوسعها^(١) تنزل في وحشي بن حرب وكل حرب وحشي حين يدعى إلى الإسلام ، وهو يسترخص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أسرف ، فتزل : إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » (٧٠ : ٥) فلا يقنع لأنه شرط شديد فلعلني لا أقدر على هذا ، فتزل : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤٨ : ٤) فكذلك الأمر « فلا يُدرى يغفر لي أم لا فهل غير هذا فأنزل الله آية الإسراف هذه فأسلم فقال الناس يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنا أصبنا ما أصاب وحشي قال (صلى الله عليه وآله وسلم) بلى للمسلمين عامة^(٢) .

- ١ - الدر المنثور ٥ : ٣٣١ - اخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال قال علي اي آية اوسع فجعلوا يذكرون آيات القرآن « من يعمل سوءاً او يظلم نفسه ... ونحوها فقال علي رضي الله عنه ، مافي القرآن اوسع آية من « يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم ... »
- ٢ - المصدر اخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان بسند لين عن ابن

وما أحبها الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية فقال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن أشرك ؟ فسكت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ألا ومن أشرك ثلاث مرات^(١) وظاهره الإشراك بعد التوحيد^(٢) رغم

عباس (رضي الله عنه) قال : بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعو الى الاسلام فارسل إليه يا محمد كيف تدعوني وانت تزعم ان من قتل او اشرك او زنى يلقى أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً وأنا صنعت ذلك فهل تجدي من رخصة فانزل الله والامن تاب .. فقال وحشي هذا شرط شديد الا من تاب .. فلم يلا أقدر على هذا فانزل الله ان الله لا يغفر ان يشرك به .. فقال وحشي هذا ارى بعد مشيئة فلا يدري يغفر لي ام لا فهل غير هذا فانزل الله يا عبادي .. قال وحشي هذا فهم فأسلم .. وفيه أخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن وحشي قال : لما كان من امر حمزة ما كان التقى الله خوف محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في قلبي خرجت هارباً اكمن النهار واسير الليل حتى صرت الى اقاول حمير فنزلت فيهم فاقمت حتى اتاني رسول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعوني الى الاسلام قلت وما الاسلام ؟ قال : تؤمن بالله ورسوله وتترك الشرك بالله وتقتل النفس التي حرم الله وشرب الخمر والزنا والفواحش كلها وتستحم من الجنابة وتصلي الخمس قال : ان الله قد انزل هذه الآية يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم .. فقلت : اشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله فصافحني وكناني بأبي حرب .

١ - المصدر اخرج احمد وابن جرير وابن ابى حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الایمان عن ثوبان قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ما أحب ...

٢ - المصدر اخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : نزلت هذه الآيات في عياش بن ابي ريعة وليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا اسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتنوا فكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً ابداً ، اقوام اسلموا ثم تركوا دينهم =

انه ارتداد ملياً أو فطرياً ، ولا يتنافى وجوب قتل المرتد كما يقتل القاتل أمن ذا وتقبل توبته ، وقتله من كفارته ، فالآية - إذا - تشمل مثلث الإشراف بالله دون سواه ، فالله لا يغفر الإشراف لمن مات مشركاً ، ويغفره لمن كان مشركاً ثم آمن ، أم أشرك بعدما آمن ، تقية أم إرتداداً .

ولأن « الذنوب جميعاً » تعم كافة الذنوب شركاً فما دونه فـ « يا عبادي » تعم كافة المذنبين مشركين ومن دونهم ، حيث ينظر إلى واقع العباد فينسبهم إلى نفسه ، لا إلى عبادتهم حتى تختص بالعباديين وليس لهم الذنوب جميعاً ، فالآية عامة في منطوقها ، مهما كان المؤمنون أخرى بها .

ولأن الذنب هو الأخذ بذنوب الشيء وهو كل فعل يُستَوْحَم عقابه ، فلا يخص الصغائر ، ولا الكبائر دون الشرك والكفر ، والإسراف على النفس - وهو تجاوز الحد عليها - يشمل ثلوث الذنوب دون إبقاء ، وقد عد الله تعالى التبيي وما فوقه من دركات الكفر من الذنوب : « وقالت اليهود والتصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم .. » (٥ : ١٨) وخرافة البنوة الإلهية وسائر كفرهم من ذنوبهم ، وكما « كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم » (٨ : ٥٢) ، وكل هذه وأضرابها إسراف من المسرفين على أنفسهم لا على الله إذ لا تُنال ساحته بما يفتعله خلقه .

أترى كيف يغفر الشرك بين الذنوب جميعاً و « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ؟

إنه الغفران المطلق للشرك ، أن يغفر من مات على الشرك كما قبله ، لا مطلق الغفران حيث يُغفر الشرك قبل الموت ، وآية الإسراف تعني مطلق

« بعذاب عذبه فنزلت هؤلاء الآيات وكان عمر بن الخطاب كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياش والوليد وإلى أولئك نفر فأسلموا وهاجروا .

الغفران، لا سيما وأن موردها التوبة عن الشرك قبل الموت ، دون آية
الشرك حيث تعني بعد الموت ، ثم و « ما دون ذلك لمن يشاء » بلا فوضى
جفاف .

أترى آية الاسراف تُسرف في غفران الذنوب دون شروط ، من توبة أو
شفاعة أما هي من مكفراتها ؟ وآية الشرك تربطه بمشيئة الله وقد تعني
شروطاتها المسروقة في آياتها !

كلاً فإنها إضافة إلى سائر آيات الغفران ، المحددة حدوده ، المقررة
شروطه ، هنا تأمر بالإنابة إلى الرب ، والإسلام له، واتباع ما أمر به، بما
يجمع جملة شروطات التوبة « وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له . . واتبعوا
أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة . . »
إضافة إلى ذكر أمد التوبة أنه قبل الموت لا بعده ، فإطلاق آية الاسراف
مربوط بالتوبة أم أي مكفر قبل الموت ، ولا سيما بالنسبة لذنوب الشرك^(١) .

وترى أنها تغفر حقوق الناس بحجب حقوق الله ؟ وحقوق الناس لا
تغفر إلا بعد ان يغفر الناس ! حيث « الذنوب ثلاثة فذنوب مغفور وذنوب
غير مغفور وذنوب نرجو لصاحبه ونخاف عليه ، ومن الذي لا يغفر مظلماً
العباد . . »^(٢) .

١ - الدر المنثور ٥ : ٣٣٢ - اخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز لاحق بن حميد السدوسي
قال : لما أنزل الله على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) « يا عبادي . . . قام نبي الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) فخطب الناس وتلا عليهم فقام رجل فقال يا رسول الله
والشرك بالله ؟ فسكت فأعاد ذلك ما شاء الله فأنزل الله « ان الله لا يغفر ان يشرك به
ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » أقول : استثناء الشرك يخص بما بعد الموت لمن مات
مشركاً .

٢ - نور الثقلين ٤ : ٤٩١ ح ٧٥ .

إنها مغفرة على شروطها المسروقة في محالها ، وهذه هي الآية المطلقة الأم في باب الغفران ، تلميحاً إلى مثلث من شروطه جملة والتفصيل في سائر آياتها دون إهمال ولا فوضى جزاف .

وأيها تمنع عن القنوط من رحمة الله ما كان للغفران مجال . ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، (١٥ : ٥٦) ولكن أكثر الناس إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ، (٣٠ : ٣٦) .

وليست رحمة الله على سعتها نصيب إلا من يأهلها ، قريباً أم بعيداً بدرجاتها . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ، (٢ : ٢٢٨) و إن رحمة الله قريب من المحسنين ، (٧ : ٥٦) ..

إن الغفران رحمة لمن أسرف على نفسه ما لم تكن ظلماً على الصالحين ، وتشجيعاً للإسراف يوم الدنيا وتعطيلاً للحساب يوم الدين ، فلا تشمل - لأقل تقدير - الشرك وسائر الكفر لمن مات كافراً ، مهما شملت ما دونها بشروطاتها العادلة والفاضلة يوم الدنيا ويوم الدين .

والرواية القائلة « والذي نفس محمد بيده لو لم تخطأوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون فيغفر لهم »^(١) حيث تشجع على الخطأ معروضة على

١ - الدر الثور ٥ : ٣٣٢ - اخرج احمد وأبو يعلى والضياء عن انس قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : والذي نفسي بيده لو اخطأتم حتى تملا خطاياكم ما بين السماء والارض ثم استغفرتم لغفر لكم والذي نفسي محمد بيده لو لم تخطأوا ... و اخرج ابن ابي شيبة ومسلم عن ابي ايوب الانصاري سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لو لا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم .

القرآن والسنة القاطعة، فمضروبة عرض الحائط ، كالتّي تؤيس عباد الله عن رحمة الله^(١) فما هو إلّا عواناً بين الخوف والرجاء ، دون ترسلّ اللامبالاة في الأخطاء رجاء فوضى ، ولا تمحلّ القنوط عن رحمة الله خوفاً مطلقاً ، فلئما هو كما قال الله « ولا تقنطوا من رحمة الله . . وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له . . واتبعوا احسن ما أنزل إليكم من ربكم . . » .

و « يا عبادي » تذكير بأنهم ليسوا إلّا عباد الله ، و « الذين أسرفوا على أنفسهم » إسرافاً في التخلف عن عبودية الله نكراناً لله ، أو اشراكاً بالله ، أو كفراً بآيات الله ووحيه ، أم تركاً لشرعة الله كلاً أو بعضاً ، إسرافاً يقنط العبد عن رحمة الله ويهبطه يأساً إلى نقمته ، ولكنه على إسرافه في آية دركاته يشرّ برحمة الله بعدما ينهى عن القنوط منها ، وقد ولج في العصيان ولجّ في الطغيان ، شاردأ عن الطريق ، مارداً عن الحقّ الحقيق ، ويا لها من رحمة واسعة نديّة رحيّة ، ولكنها ليست بفوضى رديّة ، فهناك الإنابة والإسلام للرب وإتباع أحسن ما أنزل .

﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾^(٥٤) .

فلولا الإنابة قبل الموت فالعذاب بالباب وقد تقطعت الأسباب وحارت الألباب ، والإنابة هي الأوبة إلى أفياء الطاعة بعدما أسرف في تركها ، رجوعاً إلى الله نوبة بعد نوبة مرة بعد أخرى .

١ - المصدر اخرج ابن الضريس وابو القاسم بن بشير في اماليه عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال : ان الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصيه ولم يؤمنهم عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة عنه الى غيره انه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا خير في علم لا فهم فيه ولا قراءة لا تدبر فيها .

ثم إسلاماً لله بعد إسلامه لغير الله ، إسلاماً بقلبه وقالبه ، بجوارحه وجوانحه ، فلا يبقى من كونه ولا كيانه إلا إسلامٌ لله ، فأما أن يلفظ بالإنابة والإسلام وقلبه ساه وعمله واه ، فما هي بإنابة وما هو بإسلام ! ولماذا الإسلام بعد الكفر وأخرى منه الإيمان ؟ لأنه بعد الطغيان فيناسبه الإسلام وهو قبل الإيمان ومعه وبعد الإيمان ، درجات ثلاث من الإسلام ترجى على رسلها بعد الإنابة ، وأقلها التسليم في المظاهر خروجا عن الطغيان .

فهيأ أيها المنصفون قبل فوات الأوان « من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » فإنما النصرة الرحمة قبل الموت ولما بات العذاب .

فهيأ هيأ إلى الإنابة والإسلام ، فالوقت غير مضمون ، والرب غير ضامن ، وقد يحل الموت وهنا الفوت ولات حين مناص ، وقد أفلت الخلاص « ثم لا تنصرون » إذ لا توبة بعد الموت ولا أوبة بعد الفوت .

ثم كما ليس الغفران إلا بشروط ، كذلك الإنابة والإسلام هما على شروط :

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٥٥) .

وإنه القرآن « أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » واجب الإتياع علمياً ومعرفياً وعقائدياً وعملياً « من قبل أن يأتيكم العذاب بغةً » هنا أم بعد الموت « وأنتم لا تشعرون » واجب الإتياع أو واقع العذاب ، وقد تلمح بغة العذاب بأنه عذاب الاستئصال « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده » (٤٠ : ٨٥) أم ومعه عذاب البرزخ ومن ثم القيامة وأجمعه ثالث العذاب ، وأيقنه الآخرون، وأتقنه الأخرى ، فاشعروا

الإنابة والإسلام والإتباع « من قبل ان يأتاكم العذاب بغتة » فلا يفيدكم شعور بعده إلا عذاباً فوق العذاب :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتُ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ ﴾ (٥٦).

تفريطاً في طاعة الله وعبادته حيث « أسرفوا على أنفسهم » أو تفريطاً في الإنابة والإسلام والإتباع ، تقصيراً ذا بعدين « في جنب الله » يتحسر عليه بعد قوات الأوان .

والجنب هو جانب الشيء إنساناً وسواه : « يتجافى جنوبيهم عن المضاجع .. » (٣٢ : ١٦) « أعرض ونأى بجانبه » (١٧ : ٨٣) وقد يستعاد للسمت القريب والناحية : « وناديناه من جانب الطور » (١٩ : ٥٢) « والصاحب بالجنب » (٤ : ٣٦) أو يجرد عن القرب أيضاً كما عن العضو ويبقى السمت والسبيل « ويقذفون من كل جانب » (٣٧ : ٨) .

ولأن الله سبحانه يتعالى عن الجنب العضو، والسمت الناحية، وحتى لو كان له هذا الجنب استحال التفريط فيه واقعياً وفي الإسراف على النفس ، فلم يقل « أسرفوا على ربهم » إذ لا ينال من ساحته أبداً ! فجنبه - إذا - قربه وسبيله ووجهه وجهته، تجريداً عن الزمان والمكان وكما في كل فعل أو صفة بجنبه سبحانه حيث يجرد كما يناسب التجرد الإلهي السامي .

إذا ذ « جنب الله » هو قربه ، وهو طاعته وعبادته المقربة إليه^(١) وهو

١ - كما في نور الثقلين ٤ : ٤٩٦ ح ٩٤ في محاسن البرقي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال ان اشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا العدل ثم خالفوه وهو قول الله عز وجل « ان تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله » .

القريب لديه ، وهو السبيل اليه ، والمصرف على نفسه، مفترط في قرب الله فإنه قريب ، وأقرب إليه من جبل الوريد ، أفسرافاً في عصيانه بمحضره ؟ وهو مفترط في طاعته وعبوديته ، وهو مفترط في رسله وأوليائه، الدالون إليه الحاملون أوامره ، وهو مفترط في السبيل إليه رسولاً ورسالة وطاعة وعبادة .

إذاً فكل تخلف عن شرعة الله ، أصلية وفرعية ، إنه تفريط في جنب الله ، إن في توحيده ، أو رسالته ، أمّن يحملون رسالته وهم درجات .

فكما أن نكران الله والإشراك بالله وترك طاعته وعبادته تفريط في جنب الله ، كذلك نكران الرسول القريب لديه ، الدال إليه، تفريط في جنب الله ، ذلك ونكران وصيه الولي وأوصيائه الأولياء تفريط في جنب الله وكما يروى متواتراً « جنب الله أمير المؤمنين (عليه السلام) » أو « نحن جنب الله »^(١) بياناً لمصداق من جنب الله يختلف فيه بين الأمة ، إلحاقاً له بجنب

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٩٤ ح ٨٢ في خطبة لعلي (عليه السلام) وأنا جنب الله الذي يقول : ... وفي المناقب لابن شهر آشوب ابو ذر في خبر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ابا ذر يوق بجاحد علي يوم القيامة اعمى ابكم يتككب في ظلمات يوم القيامة ينادي يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وفي عنقه طوق من النار، وفي الكافي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) في الآية : جنب الله أمير المؤمنين (عليه السلام) وكذلك ما كان بعده من الاوصياء بالمكان الرفيع الى ان ينتهي الامر الى اخرهم والقمي عن الصادق (عليه السلام) نحن جنب الله ورواه العياشي عن الباقر (عليه السلام) ، وفي المناقب عن الصادق والباقر والسجاد والرضا (عليهم السلام) جنب الله علي، وفي بصائر الدرجات عن الصادق (عليه السلام) قال : أنا شجرة من جنب الله فمن وصلنا وصله الله ثم تلا هذه الآية، وفي كفاية الخصاص ص ٤٣٧ يرويه من طريق اخواننا عن محمد بن ابراهيم النعماني عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الرسالة المتفق عليها ، مصداقاً ثالثاً من جنب الله بعد الله ورسوله .

« وأنبيوا . . وأسلموا . . واتبعوا » حذارُ « أن تقول نفس » مسرفة غير منية ولا مسلمة ولا متبعة « يا حسرق . . وإن كنت لمن الساخرين » للدين والدينين ^(٥٦) .

وهذه قولة صادقة من المسرفين الساخرين ، وقد تكون لهم أخرى كاذبة يكذبون بها ويعذبون :

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٥٧) وقد استحالوا تقواهم بما استحالوا هداهم من الله ، قولة جارفة في بُعديها ، إنهم كانوا مضطرين في إسرافهم ، وكان مستحيلاً على الله هداهم « لو أن الله هَدَانِي . . ! وقولة ثالثة هي ترجُّ للمحال ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٥٨) .

مركز تحقيق كتاب ترمذ علوم اسلامی

وعن صاحب مناقب الفاخرة في العترة الطاهرة عن أبي بكر وعن إبراهيم بن محمد الحمديني بإسناده عن خثيمة الجعفي عن الصادق (عليه السلام) ، ويرويه من طريق أصحابنا عن محمد بن يعقوب عن موسى بن جعفر وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) وعن أبي عبدالله وعن ابن بابويه عنه (عليه السلام) وعن محمد بن عباس الماهيار عنه عن آبائه وعن الباقر (عليه السلام) وعن الرضا (عليه السلام) وعن الشيخ في مجالسه وعن الباقر (عليه السلام) وعن ابن شهر آشوب عن زين العابدين والباقر والصادق وزيد بن علي (عليهم السلام) وعن الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ومحمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات وإلى سبعة عشر سنداً عنهم عليهم السلام

١ - إن هنا تخفيفاً عن المثقلة أي وأنني كنت لمن الساخرين .

فإِذَا بِجَوَابِ صَارِمٍ عَنْ هَذِهِ وَتِلْكَ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩) .

« بلى » إنني هديتك و « قد جاءتك آياتي » التي بها يهتدى « فكذبت
بها » أنت في خيار دون إجبار « واستكبرت » عنها بكل إصرار « وكنت » أمام
هذه الآيات وبجنب الله « من الكافرين » .

ثم وجواب الكرة هنا أن لا جواب ، أم « قد جاءتك . . » من زمرة
الجواب ، وقد فصل في غيرها « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » (٦ :
٢٨) « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما
يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٤ :
٧٥) « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما
تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (٣٣ :
٩٩) ف « قد جاءتك . . » إجمال عن هذين الجوابين وما أجمله ! فالمسرفون
على أنفسهم هم متحسرون في ثالوثه المتحوس ، بين متحسر على ما فرط في
جنب الله ، ومتقوّل على الله ما هو منه براء « لو أن الله هداني » ومرتجّ
مستحيلاً له على الله « لو أن لي كرة » والجواب لفظياً هو الجواب « بلى قد
جاءتك آياتي . . » وعملياً :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٦٠) .

وقد تلمع « ويوم القيامة » بعد هذه القيلات ، أنها قبل يوم القيامة ،
حين يرون عذاب الإستئصال ، وحين الموت دون استئصال ، وهما بداية
رؤية العذاب المحتوم حين لا يرجون عنها إفلاتاً ولا محيداً ، وقد يؤكد أنه
قوله الكذب على الله يوم القيامة غير مسموحة ولا ممنوحة ، فكيف تقول
نفس « لو أن الله هداني . . » اللهم إلا سماحاً لمزيد العذاب ، ليكون

عذاباً فوق العذاب، وقد تلمع « حين ترى العذاب » ان هذه القولة الثالثة لنفس القائل الأول والثاني ، بفارق أنها حين ترى العذاب : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » (٦ : ٢٧) والثانية قبل رؤية العذاب حالة الحساب ، والأولى قبل الحساب « حتى إذا جاءتهم الساعة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » (٦ : ٣١) قولات ثلاث في حالات ثلاث لكل نفس مسرفة عليها .

ولأنهم واجهوا آيات الله بوجوه منكرة كافرة مستكبرة فهم يوم القيامة « وجوههم مسودة » بما سودوها قبلها « أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » ؟ وقد يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : يُجاء بالجبارين والمتكبرين رجالاً في صورة الذر يطوهم الناس من هوانهم على الله حتى يقضى بين الناس ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار ، قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما نار الأنيار ؟ قال : عصارة أهل النار ،^(١) أتراهم - فقط - المتكبرين على الله ؟ كلاً وهم في دركات حسب الدرجات ، من مستكبر على الله ، أو على رسول الله ، أم على أئمة الهدى أمناء الله ، ف « من ادعى أنه إمام وليس بإمام وإن كان علوياً فاطمياً »^(٢) هو ثالث ثلاثة

١ - الدر المنثور ٥ : ٣٢٣ - اخرج احمد في الزهد عن ابي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : وفيه بسند عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يحشر المتكبرون يوم القيامة امثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون الى سجن في جهنم يشربون من عصارة اهل النار طينة الخبال، وفيه عن انس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توايت من نار يطبق عليهم ويجعلون في الدرك الاسفل من النار .

٢ - نور الثقلين ٤ : ٤٩٦ في كتاب - اعتقادات الامامية للصدوق وسئل الصادق

سورة زمر/ آية ٦٢ - ٧٥ ٣٧١

بين المتكبرين ، ومن ثمَّ كل من ادعى مقاماً روحياً ليس له ، كان يحتل
المرجعية العليا وفي العلماء من هو فوقه ، مهما اختلفت عذاباتهم
بحساباتهم ، فمنهم من يخلد في النار مهاناً ، ومنهم من يخرج بعدما قضى
منها وطَّره ، ومنهم من لا يدخلها .

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَاقَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴾ (٦١).

وكما يعذب الله الذين طغوا بطغواهم ، كذلك « ينجي الله الذين
اتقوا » بتقواهم ، حيث فازوا بها فوزهم العظيم ، فهو - إذاً - ينجيهم
« بمِثَاقَتِهِمْ » دون أية فوضى هنا أو هناك ، مهما كان هنا قضية الفضل
وهناك قضية العدل « وأن ليس للانسان إلا ما سعى »!

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي
الله

خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ

(عليه السلام) عن هذه الآية قال : من زعم انه امام وليس بامام ، قيل وان كان علويًا
فاطمياً قال : وان كان علويًا فاطمياً ، اقول : هذا من باب الجري والتطبيق على المصداق
المختلف فيه ، ورواه مثله في ثواب الاعمال عن ابي جعفر (عليه السلام) .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ
 هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا
 الْخَاشِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٩﴾
 بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ
 حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ
 فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا
 وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ
 بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ
 مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن
حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾
وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمرًا حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
طِبِّتُمْ فَاَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَوَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ
مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾^(٦٢)

« الله » لا سواء لا استقلالاً ولا مشاركة او معاونة « خالق كل شيء » جملة وتفصيلاً ، جماعات وفرادى ، وإحياء الأموات أَمَّاذا من خلق يظهر على أيدي الرسل ، كل ذلك من خلق الله يبرزها على أيديهم تدليلاً على اختصاصهم بالله ورسالاتهم عن الله « وهو » لا سواء « على كل شيء » خَلَقَهُ « وكيل » يكل أمره « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) .

وخالقيته لكل شيء مما أجمع عليه الموحدون ، بل والمشركون أيضاً وكما سئلوا فاجابوا : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله .. »^(٣٨) وعلى حدّ المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ليسألنكم الناس عن كل شيء حتى يسألوكم هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله ؟ فان سئلتهم فقولوا : كان الله قبل كل شيء وهو خالق كل شيء وهو كائن بعد كل شيء^(١) وأما المستول عنه « مَنْ خَلَقَهُ » هو المخلوق، لا كل شيء لأنه شيء ، فالله الأزلي الذي هو قبل كل شيء ، والابدي الكائن بعد كل شيء ، ليس من الشيء المخلوق حتى يسئل عنه « مَنْ خَلَقَهُ ؟ »

فـ « كل شيء » بقرينة « الله خالق » يعني كل شيء مخلوق ، ولو أن كل شيء بحاجة إلى خالق ، خالقاً ومخلوقاً، استحال وجود كل شيء ، حيث لا ينتهي إلى خالق غير مخلوق ، إذا فكل شيء أصبح مخلوقاً دون خالق ، أم لا يوجد أي شيء !

١ - الدر المنثور ٥ : ٣٣٣ - اخرج البيهقي في الاسماء والصفات عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

هذا السئوال المتعنت هو نظرية البعض من فلاسفة الماركسية ، زاعماً أن الوجود - أياً كان - لا يستغني عن علة تعاصره ، وافترض موجود دون خالق . يناقض هذه الضابطة .

وقد تغافلوا عن أن الحاجة إلى خالق ليست قضية الوجود بما هو وجود ، وإلا كانت المادة الأولية الأزلية على زعمهم بحاجة إلى خالق ، وإنما هو الوجود الحادث المادي، يُسئل عمن خلقه لأنه مخلوق ، وهذا يهدم صرح أزلية المادة ويبني صرح الخالق الأزلي وراء المادة .

فوجه قولتهم « مَنْ خلق الله إذا كان هو الخالق لكل شيء » ؟ نقول : من خلق المادة الأولية إذا كانت هي المتطورة والمطورة لكل شيء . وجوابهم : أن المادة خالقة غير مخلوقة لأنها أزلية ، هو جوابنا وبأحرى : أن الله خالق غير مخلوق لأنه أزلي كما برهن به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجاجه المنيرة ، وإذا كان الله خالق كل شيء ، فكل شيء فقير إليه لا يملك لنفسه شيئاً ، إذاً « وهو على كل شيء وكيل » يكل أمره فيما يكل في أمره ، ولولا وكالته على كل شيء ، إيكالاً لها إلى أنفسها، لزال كل شيء ، أو كل كل شيء فيما يصلحه ويدبر أمره .

أترى « كل شيء » هنا وهناك يعم أفعال العباد ؟ إذاً فهم مسيرون فيها لا حيلة لهم ، فلماذا يثابون أو يعذبون ؟ ! أقول : لا ونعم ، لا - حيث الشيء يعني شيء الذات ، لا وشيء الفعل مما له فعل ، وحيث يعنيهما أيضاً فلا - حين يُعنى خلقاً لها ينافي التخيير ، ونعم - حين يُعنى أنه الخالق للمختار واختياره وفعله بالإختيار .

فالفعل المختار له نسبة إلى الفاعل المختار حيث اختاره دون إجبار ، ونسبة أخرى إلى خالق كل شيء ، إذ لولا إرادته بعد إختيار المختار لما حصل الفعل المختار ، فإنه « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين » ويعد كل

ذلك فالخلق هو التقدير وهو منه على أي تقدير ، في شيء الذات وشيء الفعل دون أن ينافي الاختيار ، فإله هو المقدر تخيراً دون تسير حيث يحضر مقدمات الأفعال إبقاء لحال الاختيار وحوله .

ثم ترى كل ممكن شيء لإمكانية وجوده ، فليُخلق ما أمكن إيجاده ، ولكنه لم يُخلق إلا ما يصلح في تقدير الحكيم دون سائر ما أمكن ؟

نقول : كل شيء هو كل ما يوجد أم وجد أو هو موجود ، وهو بطبيعة الحال صالح لأن يُخلق ، لا كلما يمكن إيجاده ، إلا بتأويل أن بإمكانه وفي قدرته أن يخلق كل ممكن ، ولكنه لحكمته لا يخلق إلا ما يصلح في نظام التكوين !

وليس - فقط - خالق كل شيء وكلياً عليه ثم لغيره تدبير كل شيء أم بعض الشيء ، بل و :

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٦٣).

« له » دون « وله » تلميحاً إلى أن ذلك لزام خالقيته لكل شيء ووكانه على كل شيء ، ثم وتقديمه على « تقاليد ... » يحصرها له دون سواء ، فليست مقاليد السماوات والأرض لمن سواء استقلالاً أم مشاركة أم معاونة .

والمقاليد واحدها مقلد ، كما الأقاليد واحدها إقليد وهما بمعنى ، أهو المفتاح ؟ ولفظه « مفاتيح » كما آيتها ، بل هو من القلد القتل ، والمقلاد مبالغة القتل ، وهو أبلغ تطويق لما ينقسم بطبعه .

فالسماوات والأرض بأمورهما ، المنفلتة في ذاتها ، هي منفلتة لأبلغها

بارادة الخالق لكل شيء ، الوكيل على كل شيء ، والسموات والأرض ، صيغة أخرى عن كل شيء .

فكما أن الله هو خالقهما ، كذلك له مقاليدهما صدأ عن الانفلات ، وسدأ عن الانفراط ، وحجزاً عن التفريط والإفراط .

فله - لا سواه - رتقهما وفتقهما ، وله فتح أبوابها بخيراتها وبركاتها من إدرار الأمطار وإبراق الأشجار وسائر وجوه المنافع وعوائد المصالح ، مادية ومعنوية أمّا هيه .

ف « الله خزائن السماوات والأرض ... » « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (١٥ : ٢١) « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » (٦ : ٥٩) مقاليد ومفاتيح وخزائن من الغيب والشهود ، فهو الذي يرتق وهو الذي يفتق ف « ما يفتح الله من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ... » .

« والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » في هذا البين ، فإن لهم كل رين وشين ، إذ لم يفتحوا صفحات قلوبهم ووجوههم إلى آيات الله فيعتبروا بها ويتبصروا .

﴿ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾^(٦٤) فبعد أنه الخالق لكل شيء ، الوكيل على كل شيء ، وله مقاليد كل شيء ، « تأمروني » أن « اعبد » خلقه « أيها الجاهلون » الغافلون المتجاهلون ، عرضاً سخيلاً سحيقاً نابعاً عن الجهل المطلق المطموس والقلب المركوس المعكوس ، تأمروني أن اعبد غيره وأتركه ، أو أن أشرك به غيره في عبادته ، وهذه وتلك إذا قسمة ضيزى وضلال ميين ، وكما سوف تعترفون حينما انتم في النار تسجرون : « تالله إن كنا لفي ضلال ميين . إذ نسويكم برب العالمين » .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٥).

الشرك أياً كان ومن أيّ كان وأيان يُحبط العمل إلا إذا كان قبل العمل الصالح النابع عن إيمان لاحق ، ومن الشرك الرثاء ، فإنه يُحبط العمل المرائي فيه حتى وإن كان الرثاء بعده ، أم قبله ولما يتوب عنه ، وكما يستفاد ذلك الإطلاق من آية الكهف « . . . فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١١٠) آيتان تتجاوبان في ذلك، ولكن الثانية خاصة بالإشراك الرثاء، والأولى تعمه والإشراك بالله .

فالإشراك بالله أم في عبادة الله لا يقبل المصلحية ، أن يشرك الداعية مغبة أن يميل المدعو، إلى توحيد الله ولن ، إذ لو كانت نيته صالحة لما تطلّب من الداعية إشراكاً يميل - كما يدعي - إلى تركه ، وحتى إذا صدق في قوله فلا مبرر أن يفسد الداعية نفسه لإصلاح غيره فـ « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (١٥٥ : ٥) .

أثرى النبي - على توحيده القمة الصارمة - يشارف أو يقارف إشراكاً بالله حتى يُتهند ومن قبله من المرسلين « لئن أشركت » ؟ إنه - لو كان - لم يكن إلا مصلحياً ظاهراً جذاباً للمشركين إلى توحيد الله كما تطلبوه إليه ، أم هو من باب « إياك اعني واسمعي يا جاره » (١) لكي يسمعه المشركون

١ - نور الثقلين ٤ : ٤٩٧ ح ١٠٠ عيون الاخبار عن ابن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليس من قولك ان الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى قال فما معنى قول الله - الى ان قال - : فاخبرني عن قول الله « عفى الله عنك لم اذنت لهم » قال الرضا (عليه السلام) هذا مما نزل بإياك اعني واسمعي يا جاره ، خاطب الله بذلك نبيه واراد بالامة وكذلك قوله « لئن اشركت ليجبطن عملك وتكونن من الخاسرين » وقوله تعالى : ولولا -

عن هذه الإذاعة القرآنية فيقطعوا آمالهم فلا يطلبوا إليه مشاركتهم في إشراكهم لفترة ، ويسمعه المسلمون فيعلموا أن إشراكهم بعد الإيمان أخرى بالإحباط ، إذا كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على محنته يحبط عمله لو أشرك ولن^(١) ، فلا يعني « اياك اعني واسمعي يا جاره » انه (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس هو المعنى بالخطاب، بل يعني تعميم الخطاب لغيره بالأولوية حين يعنيه^(٢) وهذا لا ينافي العصمة حيث الخطاب يعني مثل قوله « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » فالعصمة ليست لتتافي التكليف بالواجب وترك الحرام مهما لن يترك الواجب ولن يفعل الحرام .

ففي « لئن أشركت » إذاً ثلاث واجهات ، تكليف النبي إستمراراً لترك الإشراك ، وقطعاً لآمال من يريدون منه الإشراك مغبة إيمانهم ، وتحويلاً للمؤمنين أنهم ماخوذون بالتكاليف الإلهية وبأخرى حين

ان ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، قال : صدقت يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

١- وما يقربه ما في مناقب ابن شهر آشوب عن صحيح الدارقطني ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) امر بقطع لص فقال اللص يا رسول الله قلمته في الإسلام وتامره بالقطع؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو كانت ابنتي فاطمة فسمعت فاطمة فحزنت فتزل جبرئيل بقوله : لئن أشركت ليحبطن عملك » فحزن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتزل « لو كان فيها الهة الا الله لفسدنا » فتعجب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك فتزل جبرئيل وقال ، كانت فاطمة حزنت من قولك فهذه الآيات لموافقتها لترضى ، أقول هذا من باب الاولوية ان لو اخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأشراك وسواه فغيره أخرى دون ان ينظر الى محنته ومزلته .

٢- القمي عن الصادق (عليه السلام) ان الله عز وجل بعث نبيه باياك اعني واسمعي يا جارة والدليل على ذلك قوله عز وجل : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » وقد علم الله ان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) يعبد ويشكره ولكن استعبد نبيه بالدعاء اليه نادياً لامته .

يؤخذ النبي بها ، فـ « اياك اعني » في الواجهة الأولى « واسمعي يا جاره » في الآخرين ! يبدء صراحاً بالأنبياء (عليهم السلام) - وهم لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً - تنبيهاً لمن سواهم إلى تفرد ذات الله بالعبودية له وتوحد الخلق في مقام العبودية بمن فيهم الأنبياء دوغما استثناء ، والتأكيد في « ليحبطن ولتكونن » يؤكد التهديد بالنسبة للآخرين إذا كان يشمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لو أشرك !

والإشراك بالله هو القمة المعنية هنا في إحباط العمل ، ويتلوه الإشراك برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومين سلام الله عليهم أجمعين في التأويل والمصداق الخفي المختلف فيه^(١)، وكما تختلف دركات الإشراك الظلم فكذلك دركات الإحباط حسبها .

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدُوْكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٢).

لا تعبد غير الله ولا تشرك بالله « بَلِ اللَّهِ » لأنه الله الواحد « فاعبد » « وكن » في توحيد العباد « مِنَ الشَّاكِرِينَ » لله .

فلو سُمِعَ لك أو أُمِرَ أن تعبد غير الله وأنت أعلى وأرقى من كل من سوى الله ، لحبطت منزلتك ، ولو كان على مستواك كان ترجيحاً عليك دون مرجع ، وحتى لو كان أعلى منك كان ظلماً للحق ، بل إن هذا الثالث كله من الشرك ظلم فإن الشرك لظلم عظيم وضلال مبین « تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » ..

١ - المصدر في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن الحكم بن بهلول عن رجل عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : يعني ان اشركت في الولاية غيره « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » يعني بل الله فاعبد بالطاعة وكن من الشاكرين ان عضدتك باخيك وابن عمك .

إذا فترك غير الله « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » في أن أمرك بتوحيده ، وفي عبادته ، فأين التراب ورب الأرباب ، فلأنه أكرمنا وسمح لنا- بل وأمرنا- أن نعبد لا سواه، لنستظل بظل رحمته ونخطو خطوات ، لذلك « وكن من الشاكرين ».

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٧).

« وما قدروا الله حق قدره » في ألوهيته وهم يشركون به بعض خلقه ، ولا يعبدونه حق عبادته ، ولا يطيعونه حق طاعته متجاهلين عظمته ومجده .

ثم « وما قدروا الله حق قدره » في ربوبيته « إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » . . . (٦ : ٩١) وعلى الجملة « ما قدروا الله حق قدره إن الله قوي عزيز » (٣٣ : ٧٤) فقوته وعزته تقتضيان توحيده وإنزال وحيه بياناً لكيف يوحدون ويعبدون *تتبع كالمؤيد علوم ربي*

« وما قدروا الله حق قدره » حيث يرجعون إليه في قيامته « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » .

فنكران توحيد الله تضييع لقدره ، ونكران وحيه تضييع لقدره ، ونكران قيامته تضييع لقدره ، وكل ذلك من الإشراك به « سبحانه وتعالى عما يشركون »!

وقدر الشيء منزلته المتميز بها عن غيره ، ولكل شيء قدر محدود جعله الله له « قد جعل الله لكل شيء قدراً » (٦٥ : ٣) ولكن الله ليس له قدر مجعول ولا محدود ، فباطل قدره أن يقدر بقدر المخلوقين كما يفعله المشركون وأدنى ، وحق قدره أن يوحد في كونه وكيانه ، في ألوهيته وربوبيته ، وفي أنه المبدء وإليه المعاد ، وله ما بين المبدء والمعاد .

«والأرض جميعاً» علها هذه الأرض جميعها ؟ أم جنس الأرض بسبعها المستفادة من آية الطلاق: «ومن الأرض مثلهن» وهي أخرى ، حيث المقام مقام الجمع في قيامة التدمير والتعمير يوم الجمع ، فلماذا تفلت الأرضون الستة الأخرى عن هذا الجمع ، وقد لا تشملها السماوات أم يبعد ؟ ثم التأكيد «جميعاً» لا يأتي إلا للجمع ، فلا يقال جاء زيد جميعاً .

وترى «الأرض جميعاً» ليست قبضته يوم الدنيا حتى تكون «قبضته يوم القيامة» ؟ .. إنه أقبض الأرض عباده يوم الدنيا عارية مضمونة ، دون أن يتخل عنها في ملكها ، ولكنها يوم الأخرى تخرج عن هذه القبضة العارية ، فهي هنالك له ملك خاص قد ارتفعت عنها أيدي المالكين من بريته ، والمتصرفين فيها من خليقته ، وقد ورث تعالى عباده ما كان أودعهم من ملكها يوم الدنيا ، فلم يبق ملك ولا مالك إلا نظر

وليست قبضته - فقط - ملكه ، بل وجمعها بعد بسطها ، وتدميرها بعد تعميرها ، وكما «والسماوات مطويات بيمينه» جمعاً لأقطارها ، وطياً لانتشارها : «يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب» (٣٩ : ٦٧ ، ف «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض»^(١)

وإنها ليست القبضة الإلهية قبضة اليد الجارحة ، كما ليس طي السماوات بيمينه الجارحة ، وإنما هي القدرة اللامحدودة ، فمن قال إنها قبضة الأنامل ما قدره حق قدره^(٢) .

١- الدر المنثور عن أبي هريرة سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ...

٢- الدر المنثور اخرج عن ابن عباس قال مر يهودي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو جالس قال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع السماوات على فم وأشار بالسبابة .

ف « سبحانه » عن اليد الجارحة بأنعملها « وتعالى » عن أن يُشرك به غيره أو يشبه بغيره « عما يشركون » .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ يَنْظُرُونَ ﴾ (٦٨) (١) .

هذه أصرح آية في الجمع بين نفخي الإمامة والاحياء ، ثم لا نرى صريحة فيها إلا لإحداهما ، والأخرى هي الأكثر ، ومن الأولى وهي الأقل منها : « ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب .. » (٣٧ : ٨٨) وقد عبر فيها عن الموت الناتج عن النفخة الأولى بالصعقة والفرع .

والنفخة هي الصيحة وهي كما هي مرتان للإمامة والاحياء ، ظلما بينهما معاكسة في قلة الذكر وكثرتها في الذكر الحكيم ، فالنفخة أكثرها في الاحياء والصيحة في الإمامة .

مركز تحقيق كتاب علوم اسلامی

والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه كل ذلك يشير باصابعه فأنزل الله « وما قدرُوا الله حق قدره » أقول واخرجه مثله عن مسروق عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلافه المروي عن ابن مسعود عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مضروب عرض الحائط انه جاء خبر من الاحبار الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا محمد إنا نجد ان الله يحمل السماوات يوم القيامة على اصبع والارضين على اصبع والشجر على اصبع والماء والثرى على اصبع وسائر الخلق على اصبع فيقول : انا الملك فضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما قدرُوا الله ... أقول : ضحكه كان تنديدا وكما تندد به الآية .

١- راجع الجزء ٣٠ ص ٣٤ من الفرقان تجد تفاصيل النفخ في الصور .

و « ثم نفخ فيه أخرى » هنا دليل على أن الأولى هي نفخة الإمامة وصيحتها ، والتعبير عنها بالصعقة ، علّه تلميح أنها صعقة الروح حيث الجسم لا يصعق ، والموت بخروج الروح عن البدن - وهو حي في برزخه - ليس صعقة ، لا للجسم ولا للروح ، ثم و « من في السماوات ومن في الأرض » حيث تعم الأحياء هنا وفي البرزخ وهم أموات عما هنا ، لمحة كدلالة ثانية أن الأرواح هي المصعقة وفزعها كما في آية النمل .

ففي النفخة الصيحة ، ليست لتموت - فقط - الأبدان ، فإن أهل البرزخ منهم قد ماتت أبدانهم من ذي قبل ، ولأن الأرواح يغشى عليها دون موت ، لأنها نفخة الإمامة ومن ثم الإحياء ، بل إنها تموت في غشيتها وصعقتها ، فلا أن لـ « من في السماوات والأرض » صعقة دون موت ولا موة دون صعقة .

وإنما جمع بين الأمرين ، طالما الأحياء - إذاً - لا برزخ لهم ، والأموات تموت أرواحهم في البرزخ كما الأحياء هنا دون برزخ ، فعند ذلك تبطل الأشياء وتغنى فلا حس ولا محسوس ... (١) .

١ - نور الثقلين ٤ : ٥٠٢ ح ١١٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال السائل : افتتلاشى الروح بعد خروجه عن قاله أم هو باق ؟ قال (عليه السلام) : بل هو باق الى وقت ينفخ في الصور - فعند ذلك ... ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك أربعمئة سنة تسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين ، وقد يقربه ح ١١٥ عن ارشاد المفيد ولما عاد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من تبوك الى المدينة قدم عليه عمرو بن معدي كرب الزبيدي فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اسلم يا عمرو يؤمنك الله من الفزع الاكبر فقال : يا محمد ! وما الفزع الاكبر فاني لا افزع ! فقال يا عمرو ! انه ليس كما تظن وتحسب ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر ولاحي الا مات الا ما شاء الله ثم يصاح بهم صيحة أخرى فينشر من مات ويصفون جميعاً ...

«إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» حَيْثُ يَفْظُلُونَ دُونَ صَعْقَةٍ وَلَا فَرْعَةٍ، سِوَا الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ - حَيْثُذ - وَالْأَمْوَاتِ، فَلَا مَوْتَ لَهُمْ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ لِكِرَامَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَأَنَّهُمْ وَجَّهَ الرَّبُّ «كُلَّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، كَذَلِكَ وَجْهَ الرَّبِّ، وَمِنْهُ هَؤُلَاءِ الْأَكْرَامُ الَّذِينَ كَانَتْ حَيَاتُهُمْ فِي كُلِّ وَجْهَاتِهَا وَجَنَابَاتِهَا فِي وَجْهِ الرَّبِّ، فَهُمْ - إِذَا - بِأَقْوَانِ بَقَاءِ اللَّهِ، لَا تَصْعَقُهُمُ الصَّعْقَةُ وَلَا تَفْزَعُهُمُ الْفَرْعَةُ.

أَتَرَى مِنْهُمْ «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ»؟ لَا رَيْبَ أَنَّ مِنْهُمْ الرَّعِيلَ الْأَعْلَى مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ، وَهُمْ الْوَاحِدُ وَالْإِثْنَانُ وَالْخَمْسَةُ وَالْأَرْبَعَةُ عَشَرَ^(١) الْمُعْصُومِينَ الْمُحَمَّدِيِّينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَعَلَّ مِنْهُمْ سَائِرَ أَوْلِي الْعِزِّ وَكَمَا فِي الْمَسِيحِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) «وَيَوْمَ أُبْعِثَ حَيًّا» فَإِنَّ الْحَيَّ لَا يَبْعَثُ حَالَةَ الْحَيَاةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ «مَنْ شَاءَ اللَّهُ» وَالْأَنَّ كَانَ حَقَّ الْقَوْلِ «أُبْعِثَ مَيِّتًا» فَ«أُبْعِثَ حَيًّا» إِنْتِقَالًا مِنَ الْحَيَاةِ الْبَرْزَخِيَّةِ إِلَى الْآخِرَةِ، وَمَنْ ثُمَّ يَحْيَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَمَا فِيهِ: «وَيَوْمَ يَبْعَثُ حَيًّا» بِنَفْسِ الدَّلَالَةِ، أَمَّنْ ذَا مِنْ أَضْرَابِهِمَا بَيْنَ النَّبِيِّينَ.

وَإِذَا كَانَ الشَّهْدَاءُ عَنْ شَاءِ اللَّهِ كَمَا يَرَوَى^(٢) فَأُخْرَى بِالنَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ

أَقُولُ: النَّشْرُ الْأَوَّلُ هُوَ مَوْتَ الْأَمْوَاتِ بَارِوَا حُهُمْ، وَالنَّشْرُ الثَّانِي هُوَ حَيَاتُهُمْ بِالصَّيْحَةِ الثَّانِيَةِ.

- ١- الْوَاحِدُ هُوَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَالْإِثْنَانُ هُوَ عَلِيٌّ، وَالْخَمْسَةُ هُمَا وَقَاطِمَةُ وَالْحُسَيْنَانِ، وَالْأَرْبَعَةُ عَشْرُهُمُ وَالتَّسْعَةُ مِنْ ذُرِّيَةِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ).
- ٢- كَمَا فِي الدَّرِّ الْمَنْشُورِ ٥: ٣٣٦ عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: سَأَلَ جَبْرِئِيلُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ... مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقَهُمْ؟ قَالَ: هُمُ الشَّهْدَاءُ مُقْلِدُونَ بِأَسْيَافِهِمْ حَوْلَ عَرْشِهِ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَجَائِبٍ مِنْ بِأَقْوَاتٍ...

وهم افضل منهم ان يكونوا عن شاء الله ، وقد تلمح آيتا حياتهم عند ربهم أنهم ممن شاء الله ، فلتكن حياة تخصهم بين الأموات فإن لهم حياة عامة يصعقون عنها إلا من شاء الله .

وإذا كان الشهداء وهم الدرجة الثالثة من الأصفياء ممن شاء الله ، فليكن منهم جبرائيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش وكما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(١) كما منهم كافة النبيين فإنهم قبل الشهداء بدرجتين اثنتين .

﴿ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(٦٨) .

« ثم » هنا قد تلمح أن ليس الفصل بين النفختين بقليل ، و « ينظرون » هي نظر العيون ونظرة القلوب ، حيث ينتظرون ماذا يؤمر لهم من رب العالمين بعد نفخة الإحياء ، حالات متتابعة لا تدافع بينها : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » (٥١:٣٦) مسرعين « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » (٧٨: ١٨) فإنهم بعد نسلهم إلى ربهم أفواجا لموقف الحساب ، قيام ينظرون حسابهم ، وهنا :

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٦٩) .

الأرض هذه ليست هذه الأرض ، حيث « تبدل الأرض غير الأرض » (٤٨: ١٤) « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » (١٤: ٦٩) وإنما هي

(١) المصنف اخرج القرياني وعبد بن حميد وابو نصر السجزي في الابانة وابن مردويه وانس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ونفخ في الصور فصعق ... قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله ؟ قال : جبريل و

أَرْضُ الْقِيَامَةِ السَّاهِرَةِ «فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» (١٤: ٧٩) وَهِيَ أَرْضُ الْحَشْرِ الْحَسَابِ ، وَمِنْ ثَمِ أَرْضِ الْجَنَّةِ «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمُ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» (٧٤) أَمْ أَرْضُ النَّارِ .

وترى أن «نور ربها» هو «نور السماوات والأرض» كما في آية النور؟ وهذا كائن منذ خلق الله الخلق ما هي كائنة! «وأشرق» هي إشراقة بعد النفخة الثانية! ونور الله أعم من نور الرب حيث تضمن ربوبيته! اللهم إلّا نور الهداية الخاصة زمن الدولة الأخيرة الإلهية بالقائم المهدي (عليه السلام) حيث تتجمع أنوار الرسالات الإلهية فتشرق الأرض بعد ظلامتها حيث تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً^(١)؟ ولكنه قبل القيامة الكبرى، وإن كان من مصاديق «أشرق الأرض» جرياً وتأويلًا .

أم هي نور ربوية الحساب عدلاً وفضلاً حيث يكشف الغطاء عن الأبصار: «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (٣٣) وعن المبصرات والسموعات: «يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً» (٣٠: ٣) نور مطلق لا ظلام معها حيث «تبلى السرائر» (٩: ٨٦) «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» (٦٩: ١٨) ولكي يتم نور

(١) نور الثقلين ٤: ٥٠٣ ح ١٢١ عن القمي بسنده عن الفضل بن عمر انه سمع ابا عبد الله (عليه السلام) يقول في الآية: رب الأرض يعني إمام الأرض، قلت: فإذا خرج يكون ماذا؟ قال: إذا يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر ويحتزون بنور الامام، ورواه مثله في ارشاد المفيد عند (عليه السلام): إذا قام قائمنا... اقول لأن النور هنا هي نور الهداية التي يحملها القائم (عليها السلام) فقد يصح نسبتها الى الامام مهما كانت من الله تعالى .

الربوبية لاهل الخسر في الحساب : « ووضع الكتاب » : كتاب الشريعة ميزاناً وكتاب الأعمال ليوزن به .

« وجيء بالنبين » سثوالاً عن رسالتهم « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين » (٧ : ٦) واتقاء لشهادتهم : « ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (٤١ : ٤) « والشهداء » بعدهم من الصديقين المعصومين كائمة الدين : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس .. » (٢٢ : ٧٨) (١).

فالأئمة (عليهم السلام) شهداء من الرسول على الناس ، وشهداء لأعمالهم تلقياً وإلقاءً ، وشهداء في سبيل الله ، فمن أخرى منهم - إذاً - في حظيرة الشهادة ، وقد تعم الشهداء كل مستشهد في سبيل الله حيث هي جمع الشاهد والشهيد ، فلتعها معاً : الشاهد الشهيد وغير الشهيد .

وكذلك سائر الصديقين « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .. » (٥٧ : ١٩) « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » (٣ : ١٤) .

ومن الأرض بأكنافها وفضائها « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » (١١ : ٥) ومن الأعضاء : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ : ٢٤) آمن ذا وماذا من شهداء ؟

(١) تفسير البرهان ٤ : ٨٨ ح ٤ القمي قال قال في الآية الشهداء الأئمة والدليل على ذلك قوله في سورة الحج « ليكون الرسول ... » .

وهناك . . وقد تمت شروطات القضاء العدل محكمة وشاهداً ومشهوداً عليه وأعمالاً، حيث « أشرفت الارض بنور ربها » « وقضي بينهم بالحق » الناصع الخالص دونما تحطٍ ولا خطأ قيد شعرة « وهم لا يظلمون » نقيراً ولا فتيلاً .

﴿ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٠)

وهنا « ما عملت » دون « جزاء ما عملت » دلالة واضحة على أن الأعمال - خيراً وشرأ - هي بنفسها الجزاء ، بما تظهر في ملكوتها وحقائقها ، حيث « أشرفت الارض بنور ربها » و « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٣٧ : ١٠) ؟ .

ثم - وكل هذه الشهادات بحذافيرها ليست لتثبت شيئاً عند الله « وهو أعلم بما يفعلون » بل ولكي يعلم العاملون أن الله كان عليماً بما يعملون ، ويعلموا هم ما ربما كانوا ينسون أو يجهلون فلا يكذبون .

هناك يصدر حكم الرب دون نقاش وجدال ، فإنه مشهد النور والظهور ، بشاهد العدل والرب النور ، فلا كلمة تقال ، ولا صوت يرتفع ، فمن ثم :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ (٧٢)

هنا زمر النار ومن ثم زمر الجنة ، فليس كل زمرة واحدة ، حيث الكفر دركات فزمر النار دركات ، كما التقوى درجات فزمر الجنة درجات .

للنار « سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم (١٥ : ٤٤) وللجنة ثمانية .

والزمرة هي الجماعة، فهنا جماعات وهناك جماعات بفارق مختلف الدرجات والدرجات ، ولأن النار طباق سبعة ولها سبعة ابواب فعل أهلها سبع جماعات ، بفارق مختلف الشيطانات .

من شيطان - وبقر - وتعلب فهذه ثلاث ، ومن شيطان بقر ، او شيطان ثعلب - او ثعلب بقر وهذه ثلاث اخرى ، ومن شيطان ثعلب بقر ، جامعاً لثلاث الشيطانات فانه في الدرك الاسفل من النار^(١) فلكل درك شيطانه ، يدخل من بابه « فادخلوا ابواب جهنم . . » وقد تكون اسمائها الماثورة تناسب دركاتها^(٢) وسوق هؤلاء الزمر الى جهنم سوف يكون مهاناً « يوم يدعون الى جهنم دعاء » (٥٢ : ١٣) « ونسوق المجرمين الى جهنم ورداً » (١٩ : ٨٦) .

أترى الذين كفروا تشمل اصحاب الكبائر غير التائبين ولا المشفع لهم ؟ وهم بين مسلمين ومؤمنين آمن هم من غير الكافرين ! وليسوا هم من الذين كفروا مستكبرين وفي جهنم خالدين والآية تعنيهم !

ام هم من الذين اتقوا ؟ وقد طغوا هؤلاء وبغوا ، وابن الذين اتقوا من هؤلاء الذين طغوا معها كانوا في زمرة المؤمنين او المسلمين !

(١) وهذه خصائل الانسان المرفولة المقسمة الى سبع .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٠٤ عن المجمع عن امير المؤمنين (عليه السلام) ان جهنم لها سبعة ابواب اطباق بعضها فوق بعض ووضع احدي يديه على الاخرى فقال هكذا . وان الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض فاسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية .

إنهم عوانٌ بين هؤلاء وهؤلاء ، فلا هم من أهل الجنة بهكذا تكريم :
 « سلام عليكم .. » ولا من أهل النار مستكبرين وخالدين ، فإنهم آخر
 مصيرهم الجنة مهما دخلوا النار ، أم عذبوا قبل النار ، فإنه قضية العدل
 جزاءً وفاقاً .

« حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » فأبوابها مغلقة - إذا - قبل أن
 يجيئوها ، خلاف أهل الجنة ، فإن أبوابها مفتوحة قبل أن يجيئوها لمكان
 « فتحت أبوابها » حيث الواو حالية تعني أنها مفتوحة حين مجيئهم إياها :
 « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » (٣٨ : ٥٠) .

« فتحت أبوابها » ولما يدخلوها « وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل
 منكم » من جنسكم ، فالرسالة المجانسة برسول مجانس للمرسل إليهم هي
 الحجة البالغة عليهم وكما في يس وغيرها « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم
 رسل منكم .. » فرسول الإنس من الإنس ورسول الجن من الجن ،
 وكذلك التجانس في سائر الأجناس وراء الإنس والجن .

« رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم و.. » فإنما هي إتيان الرسالة
 المجانسة وتلاوة آيات مبشرة ومنذرة كحجة بالغة ، فلا موقع لأبعاد الزمان
 والمكان والقوميات والإقليميات والعنصريات ، وإنما رسالة إنسان إلى إنسان
 أم جن إلى جن أمَّن ذا ، سواء أكان الرسول - بالفعل - فيهم ، أم قضى
 نحبه ورسالته حاضرة ، أو هو الذي يتلو عليهم آيات الله ، أمَّن يحملون
 عنه رسالته ، فإنما هي الحجة البالغة الإلهية الواصلة كالرسول ، يبلغ دون
 زائدة ولا ناقصة ، اللهم إلا فرعية لا تصطدم أصل الحجة ، كالزمن بعد
 كل نبي وإمام معصوم حجة ، ولا سيما إذا كان كتاب شرعته حاضراً دون
 زيادة أو نقيصة كما القرآن العظيم .

فالركن الركين في الدعوة الإلهية تلاوة آيات الله المبشرة والمنذرة :

« .. يتلون عليكم آيات ربكم وينثرونكم لقاء يومكم هذا : يوم السوق إلى جهنم .. »

« قالوا بلى » وقد جاءتنا رسالة منا يقصون علينا آياتك ربنا : لنا لقاء يومنا هذا « ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » أنهم كفروا بآيات ربهم ، لا أنها حقت فكفروا .

« قيل ادخلوا أبواب جهنم .. » ولماذا « أبواب جهنم » والباب يدخل منها دون أن تدخل هي بنفسها « وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد » (١٢ : ٦٧) ٤ .

هناك ثانية (١٦ : ٢٩) وثالثة (٤٠ : ٧٦) مثلها ، قد تعني كلها دخول كل زمرة من باب ، وكما الدخول في الأرض المقدسة : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة .. » (٥ : ٢١) « وادخلوا الباب سجداً » (٢ : ٥٨) ، وقد تعني أن هناك دخولين ، دخول كل باب ، ثم دخوله دركه من بابه .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

ولكن الجنة ولها أبواب دون طباق ، لا يفترق دخولها عن أبوابها ، ولا يفترق زمر المتقين الداخلين فيها دخولاً من أبوابها ، وكل يعرف قدره ومقامه ، وهم يتعارفون في منازلهم على مختلف درجاتهم .

« وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » (٧٣) .

هب إن هناك سوقاً للذين كفروا إلى جهنم لأنهم لا يبحثونها دون سوق ، فلماذا يساق الذين اتقوا إلى الجنة ، ولهم إليها شوق دون سوق ؟

هذا سوق الإحترام وذلك سوق الإخترام وابن سوق من سوق ، حيث يساقون إليها بكل تبجيل وتجليل ، ولأن « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو

إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (٦٧: ٤٣) فلا يرضى أحدهم ان يسبق الآخرين مهما كان حقه السباق، فهم - إذا - يساقون مع الرفاق حيث لا يرضون السباق.

أَمْ وَلَآنَ «الَّذِينَ اتَّقُوا» فِي إِطْلَاقِهَا هُمُ الرِّعِيلُ الْأَعْلَى ، الَّذِينَ لَا يَعَذِّبُونَ أَبَدًا ، هُمْ - حَيْثُ - غَارِقُونَ فِي مَشَاهِدَةِ جَلَالِ رَبِّهِمْ وَجَمَالِهِ ، حَيْثُ يَعِيشُونَ مِنْذُ بَعْثِهِمْ جَنَّةَ الرِّضْوَانِ ، فَلَا تَهْمُهُمْ جَنَّةُ الْجُثْمَانِ ، لِذَلِكَ وَذَلِكَ وَذِيَّكَ فَهَمْ يَسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ «حَتَّى إِذَا جَاءَهَا» وَالْحَالُ أَنَّهَا «فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا» مِنْ ذِي قَبْلِ ، تَهَيَّأَتْ لَهُمْ وَتَهَيَّأَتْ «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا . . .» وَهَنَّاكَ لَا خَبْرَ عَنِ الْخَبْرِ لـ «حَتَّى إِذَا . . .» حَيْثُ فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، لِذَلِكَ فَهَنَّاكَ لَا خَبْرَ عَنِ الْخَبْرِ إِلَّا «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ - طِبْتُمْ - فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ»: «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» (٥٨ : ٣٦).

«يَسَاقُ الْمُتَّقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَ (قَدْ آمَنُوا مِنَ الْعَذَابِ وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِمُ الْبُيُوتُ وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيةً ، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا تَخْشَعُ وَاسْتَغْفَارًا ، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا تَوْحُّشًا وَانْقِطَاعًا ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ ثَوَابًا وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا فِي مَلِكٍ دَائِمٍ وَنَعِيمٍ قَائِمٍ»^(١).

«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» هُنَا كَمَا سَلِمْتُمْ هُنَاكَ لِرَبِّكُمْ «طِبْتُمْ» هُنَاكَ فَطِبْتُمْ هُنَا «فَادْخُلُوهَا» الْجَنَّةَ «خَالِدِينَ» وَابْنَ خَالِدِينَ مِنْ خَالِدِينَ ؟

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٧٤).

(١) فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ مِنْ خُطْبَةٍ لِعَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَمَّا قَرَأَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِلَى الْجَنَّةِ زَمْرًا .

والأرض هنا - كما اسلفناها - هي أرض الجنة ، و « حيث نشاء » ليست إلا حيث يشاء الله ، إذ ما يشاءون إلا أن يشاء الله ، وكل عارف درجته ومنزلته ومنزله « فنعم أجر العاملين » دون - فقط - المؤمنين ، حيث العمل الصالح هو ركيزة الإيمان وثمرته .

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٥) .

العرش هنا مصدر الأوامر الربوبية لأهل المحشر ، والملائكة - عليهم - حملة تلك الأوامر تنفيذاً لها وهم « يسبحون بحمد ربهم » لسك الختام كما في وعد البداية « وقضي بينهم » المكلفين المتخلفين ، وطبعاً ليس منهم الملائكة الذين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » أم قضي بين الصالحين ، أنبياء وأئمة وملائكة أمّن هم! وبين الطالحين أي كانوا « بالحق » في صراحه « وقيل الحمد لله رب العالمين » من قائل إلهي أو ملائكي أم وأهل الجنة أجمعين « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

(۴) سُورَةُ غَافِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمَاهِجِينَ وَشَابِعُونَ



مرکز تحقیق کتب پویا علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ②
 غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ③
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ④ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ⑤
 كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ
 كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا
 بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑥ وَكَذَلِكَ
 حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
 النَّارِ ⑦

سورة تسمى باسم رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه، لأنه كان
 ثورة على الفرعونية الجبارة لصالح الإيمان، في حين لا تسمى باسم الكثير

من المرسلين في سائر القرآن إلا إبراهيم ونوح ومحمد ممن دارت عليهم الرحى، ويونس وهود ويوسف ممن دونهم، ثم نرى مريم ولقمان والمؤمن تتسمى باسماء هؤلاء الثلاثة وهم ليسوا من النبيين.

والمؤمن هي أولى الحواميم السبع وهي كلها تاج القرآن^(١) وديباج القرآن^(٢) وهي ثمرات القرآن^(٣) وروضة من رياض الجنة^(٤) ويا لها من سبع كالسبع ابواب الجحيم تغلقها على القاريء المؤمن بها^(٥) ولقد فضل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما فضل الحواميم^(٦).

(١) - نور الثقلين عن المجمع انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...
(٢) الدر المنثور ٥ : ٣٤٤ عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٣) المصدر اخرج ابن الضريس عن اسحاق بن عبد الله قال بلغنا ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لكل شجرة ثمر وان ثمرات القرآن ذوات حم من روضات مخصات معشبات متجاورات فمن احب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم ...

(٤) المصدر اخرج الديلمي وابن مردويه عن سمرة بن جندب مرفوعاً : ...

(٥) المصدر اخرج البيهقي في شعب الايمان عن الخليل بن مرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الحواميم سبع وابواب جهنم سبع تحمي كل حم منها تفقه على باب من هذه الابواب تقول اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني .

(٦) اخرج ابن نصر وابن مردويه عن انس بن مالك سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان الله اعطاني السبع مكان التوراة واعطاني الراآت الى الطواسين مكان الانجيل واعطاني ما بين الطواسين الى الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفضل ما قرأهن نبي قبلي .

وتختص المؤمن من بينها بعد التنزيل بـ «هو العزيز العليم» مما يوحى بانها تحمل. عزة وعلماً، ومن العلم العزيز حمل العرش: «الذين يحملون العرش ومن حوله» وهم حملة عرش العلم فيما يحملون، ومن عزته عز المؤمن من آل فرعون: «وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله...».

ثم الكتاب بوجه عام يحمل من عزته تعالى وعلمه ما أمكن حمله للعالمين إلى يوم الدين، وإذا كان «حَم» نداء لأحمد - محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مَنَزَّلَ وحي الكتاب من الله العزيز العليم، فد «تنزيل الكتاب...» مبتدأ بخبره، تناديه «حَم» أن تنزيل الكتاب يخص العزيز الحكيم، كما وأن اصطفاة محطّة الوحي ليس إلا منه و«ليس لك من الأمر شيء»!.

أو أن «حَم» مبتدأ والجملة خبره، فأحمد - محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو تنزيل الكتاب، حيث القابلية ظرف للفاعلية فكأنه هو التنزيل، أم أن محمداً هو القرآن والقرآن هو محمد منزّلان «من الله العزيز العليم»! وكما في «يس» وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو الا ذكر وقرآن مبين» (٦٩) وليس «هو» هنا الا «هو».

لتنزيل الكتاب مرحلتان أولاهما تنزيله نجوماً متفرقة، وأخراهما تنزيله مؤلفاً كما هو الآن، وكلاهما يحملان من عزته تعالى وعلمه ما أمكن ويليق بخاتمة الوحي.

ولأن الغالب على جو السورة هو المعركة الثورية بين الحق والباطل بآية صورة، حاملة معارض لمصارع الغابرين وعبرة للباقيين، لذلك تبتدىء فيها

تبدأ بوصفي العزة والعلم، ليعلموا ألا غالب على كتابه بعزة أو علم،
فإنه لكتاب عزيز - «أنزل بعلم الله» فلا طاقة به لمن سوى الله.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ (٣).

هذه الست والعزير العليم أوصاف ثمانية كأبواب الجنة الثمان، تفتح
السورة بها، مزيج من صفات الجلال والجمال لتدلنا على أنه تعالى أرحم
الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

وإنها مجموعة صفات ذات علاقات موضوعية بمحتويات السورة، فكل
موضوعاتها تتعلق بهذه الثمان، التي تحمل بُعدي الجلال والجمال،
المتوحدتين فيما تتوحد بذاته الواحدة، منحصرة فيه منحصرة عن سواه!

والعطف بين غافر الذنب وقابل التوب لانعطافهما في أصل الرحمة مهما
كان الثاني من مصاديق الأول، والذنب هو الأخذ بذنب الشيء، ويستعمل
في كل ما يستوخم عقابه، فإن كانت عقبى الأولى فهو من أحسن
الصالحات وإن كانت الأخرى فمن أنحس الطالحات.

والغفر هو الستر دفعاً أو رفعاً، فالغفر عن ذنوب المعصومين يختص
بالذنب الصالح كما للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): «ليغفر لك الله
ما تقدم من ذنبك وما تأخر...» وهو بالنسبة للطالح، لهم دفع وصدد أن
عصمهم الله من الزلل وآمنهم عن الخطأ، وما استغفارهم إلا كالأول
فكالأول أم كالثاني فكالثاني، دون رفع لخلفية عصيان على أية حال.

والتَّوْب هو الرجوع الى الله، إما عن عصيان فهو قابله، أم عن

نقصان بلا عصيان فبأحرى، أم لجأ إليه عما يعترضهم من بواعث النقصان والعصيان ولما، فأولى لهم ثم أولى، كما للمخلصين من عباده، والمخلصين ان يتقبلهم في حماه ويفتح لهم بابه بلا حجاب.

انه «غافر الذنب وقابل التوب» في موضع العفو والرحمة فضلاً وهو «شديد العقاب» في موضع النكال والنقمة عدلاً، غفراً وعقاباً على شروطها، المسروقة في الذكر الحكيم.

«في الطول» وما له من حفاوة وإكرام ان يحذف عقابه بغفوه وطوله والطول هو المنة والإنعام الطائل، لا انقطاع له بانقطاع العبد عن ربه، فكلما استغفر بعد ذنب ام تاب يجد الله تواباً رحيماً، ثم لا انقطاع له اذا ركز في محله اللاتق، ومن طوله أن يعفو عن شديد العقاب بعد ركزه بحقه إن لم يكن خلاف العدل بالنسبة لآخرين.

«لا إله إلا هو» في هذه وتلك أمانيه من اختصاصات الألوهية ومنها: «إليه المصير» لا سواء مهما كان ولياً أو نبياً فضلاً عن سواء، فهو المبدأ لا سواء، وهو المرجع لا سواء، وليس الأمر بينهما إلا له لا سواء.

﴿مَنْ يُجَادِلْ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ (١).

ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم ماؤاهم جهنم وبئس المهاد (٣: ١٩٧).

للذين كفروا تقلب في البلاد بتقلب على أهل البلاد، بعدما جادلوا في آيات الله، طغياناً ذا بعدين: على الله وعلى عباد الله، مما يغرن من يتغرن

بظواهر الحياة الدنيا، فـ «لا يغرنك» ، فانهم كفروا في جدالهم في آيات الله وما هم بغالبين «وانه لكتاب عزيز» . وليس لهم إلا متاع قليل «وكل متاع الدنيا قليل ثم «ماواهم جهنم وشس المهاده» لأنهم ركزوا على الكفر فلا رجوع حتى يتوب الله عليهم، فـ «الذين كفروا» هنا يخصهم دون من يتوب فيتوب الله عليهم ويخفف عنهم .

فلأن جدال الكافر هو كافر الجدال وحجتهم داحضة فلا خوف منهم على آيات الله ، ولأن تقلبهم قليل مهما طال الأمد فلا تغلب في تقلبهم على الله مهما كان على عباد الله ولكنه «متاع قليل» فلا يغرك تقلبهم في البلاد ، و «آيات الله» هنا تعم التدوينية القرآن والتكوينية من نبي القرآن وبيناته وسائر الآيات آفاقية وأنفسية ، والجدال فيها بالحسنى يأتي بالحسنى وبالسؤاى يأتي بالسؤاى ، فالأولى جدال المؤمنين ليستحكموا عراها والأخرى جدال الكافرين ليستهدموا هداها «فلا يغرك تقلبهم في البلاد» ثم و «جدال في القرآن كفر»^(١) وإن لم يكن عن كفر.

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٤٥ - اخرج عبد بن حميد عن ابي هريرة قال قال : رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . و : مرأ في القرآن كفر واخرج عبد بن حميد عن ابي جهنم قال اختلف رجلان من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آية فقال احدهما تلقيتها من في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال الآخر انا تلقيتها من في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأتيا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فذكرا له ذلك فقال : انزل القرآن على سبعة احرف واياكم والمرأ فيه كان المرأ كفر، وفي كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لعن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبياً ومن جادل في آيات الله فقد كفر قال الله عز وجل : ﴿ ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد ﴾ .

و«تقلبهم في البلاد» هو تطويرهم وتطورهم من طور إلى طور ومن دور إلى دور، نعمة ودولة أماهية من زخرفات حياة الغرور.

جدال الذين آمنوا في آيات الله يُخيف ويعز غير ثابتي الإيمان دون انتقاص فيها وانتقاص لها ، ولكن المؤمن ما يجادل في آيات الله إلا استنباطاً لها ، ولو انجرف الى جدال بالباطل ومراءٍ اصبح كفراً عملياً كما نبه به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولكن الذين كفروا هم وحدهم المجادلون في آيات الله إبطالاً لها ، وإضلالاً للمصدقين بها ، فهم وحدهم يجادلون فيها دونما حجة لهم إلا داحضة « فلا يغررك تقلبهم في البلاد » مهما تحركوا وملكوا واستمتعوا فانهم الى اندحار ويسوار « جهنم يصلونها وبش القرار » ف « لا يحسن الذين كفروا أنما غلب لهم خير لأنفسهم إنما غلبهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٣ : ١٧٨) « ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون » (٨ : ٥٩) .

« فلا يغررك تقلبهم في البلاد » ! فذلك القلب والتقلب « متاع قليل ثم إلينا يرجعون » فنعاقبهم بما كانوا يعملون .

« فلا يغررك . . . » ولا تنضايق يا رسول الهدى فكم لهم من نظير « فأخذتهم فكيف كان عقاب » .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٥٠) .

فهم داحضون كما حجتهم داحضة .

﴿ وَكَذَلِكَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٠) .
فقد جمع لهم دحض يوم الدنيا التي دحض يوم الدين .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
 بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
 وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
 وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
 آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّغَاتُ وَمَنْ تَقَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
 فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكَ أَنْفُسُكُمْ
 إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا
 أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ نَافِلِينَ فَإِتْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ
 مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ
 وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ

تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾

من الذين يحملون العرش ثمانية: « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (١٧ : ٦٩) ^(١) « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » (٣٩ : ٧٥) .

حمة العرش يومئذ ثمانية ، وما ندري قبله كم هيه ، هل هم الثمانية ام زائدة او ناقصة ؟ ثم « ومن حوله » ومنهم الملائكة ، هل هم من هؤلاء الحمة ؟ فلماذا اقردوا عنهم ان كانوا من « الذين يحملون العرش » ! ام هم المحمولون مع العرش من حوله ؟ وحمل العرش - فقط - هو المحور في آية الثمانية ! إلا ان تدلنا على حملهم « والمملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » « وترى الملائكة حافين من حول العرش » !

واين هي الدلالة إلا احتمالاً في آية « من حوله » مع احتمال انهم ممن يسبحون بحمد ربهم « مع « الذين يحملون العرش » لا وأنهم المحمولون معه ! إلا ان واضح التعبير عنه « الذين يحملون العرش يسبحون .. ومن حوله » ففي عطف من حوله - دون فصل وردفه ايحاء - على اقل تقدير - انهم محمولون مع العرش ، وان كانوا مع الحمة يسبحون ويؤمنون ويستغفرون .. » ^(٢) .

(١) راجع ج ٢٩ ص ٩٥ من الفرقان تجد تفصيل البحث حول العرش وحملته الثمانية .

(٢) البرهان ٤ : ٩٠ محمد بن يعقوب بسنده عن صفوان بن يحيى قال سألني ابوقرة المحدث ان أدخله على ابي الحسن الرضا (عليه السلام) فاستأذنته فاذن له فدخل فسأله عن الحلال والحرام ثم قال افترى ان الله محمول ؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) كل محمول مفعول مضاف الى غيره محتاج والمحمول اسم نقص والحامل فاعل وهو في اللفظ مدحوخ وكذلك قول القائل فوق وتحت واعلى واسفل وقد قال الله : « والله الاسماء الحسنى فادعوه بها » ولم يقل في كتبه انه المحمول بل قال : انه الحامل في البر والبحر والممسك للسكاوات والأرض ان تزولا والمحمول ما سوى الله ولم يسمع احد آمن بالله وعظمه قط قال في

وعلى أية حال فالحامل افضل من المحمول واكمل ، فمن يُحمَلون مع العرش هم دون الحاملين ، أفبقى بعد احتمال أن استوائه تعالى على العرش جلوسه عليه وارتيكائه فيحمل مع المحمولين ، وقد كان ولا عرش ولا حامل له حيث «كان اذ لا كان» ! ومن أفضل حملة عرش العلم والرحمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأوصياء من بعده: وهم محمد وعلي والحسن والحسين ومن المحمولين نوح وابراهيم وموسى وعيسى^(١).

دعائه : يا محمول ، قال ابو قرّة : ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وقال : الذين يحملون العرش فقال ابو الحسن (عليه السلام) العرش ليس هو الله والعرش اسم علم وقدره والعرش فيه كل شيء ثم اضاف الحمل الى غيره خلق من خلقه لأنه استعبد خلقه بحمله عرشه وهم حملة علمه وخلقاً يسبحون حول عرشه وهم يعملون بعلمه وملائكته يكتبون اعمال عبادهم واستعبد اهل الأرض بالطواف حول بيته والله على العرش استوى كما قال ، والعرش ومن يحمله ومن حول العرش والله الحامل لهم الحافظ لهم المسك القائم على كل نفس وفوق كل شيء وعلا كل شيء ولا يقال محمول ولا اسفل قولاً مفرداً لا يوصل بشيء فيفسد اللفظ والمعنى ، قال ابو قرّة : فتكذب بالرواية التي جاءت ان الله اذا غضب انما يعرف غضبه ان الملائكة الذين يحملون العرش يجذون ثقله على كواهلهم فيخرون سجداً فاذا ذهب الغضب خف ورجعوا الى مواضعهم فقال ابو الحسن (عليه السلام) عن الله تبارك وتعالى فقد لعن ابليس الى يومك هذا هو غضبان عليه فمتى رضي وهو في صفتك لم يزل غضباناً عليه وعلى اوليائه وعلى اتباعه كيف تجتري ان تصف ربك بالتغير من حال الى حال وانه يجري عليه ما يجري على المخلوقين سبحانه وتعالى لم يزل مع الزائلين ولم يتغير مع المتغيرين ولا يتبدل مع المتبدلين ومن دونه في يده وتدبيره وكلهم اليه يحتاج وهو غني عن سواه .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٩١ ح ٦ بسند عن محمد بن مسلم قال سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول في الآية يعني محمداً وعلياً والحسن والحسين (عليهم السلام) ونوح وابراهيم وموسى وعيسى يعني هؤلاء الذين حول العرش، وفيه ح ١٦ شرف الدين النجفي قال وروى عن عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال قال ابو جعفر (عليه السلام) في «الذين يحملون العرش» يعني الرسول والأوصياء من بعده يحملون علم الله عز وجل ثم قال «ومن حوله» يعني الملائكة .

وعلمهم حملة عرش العلم والرحمة: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»
 فهم دائبون في «يسبحون بحمد ربهم» «يؤمنون به ويستغفرون...»
 تسبيحاً بالحمد، لا حمداً فقط أو تسبيحاً فقط، حيث التسبيح سلب لما لا
 يليق بذاته المقدسة دون إثبات، والحمد إثبات في معرض الإحباط لقدسية
 الذات، ولكنها التسبيح بالحمد هو سلب بلسان الإثبات جامعاً بين السلب
 والإثبات، وهو الحري في توصيف الذات، فقولهم إنه عليم، تسبيح له عن
 الجهل بإثبات علم، وتسبيح له عن سائر العلم لسائر الخلق، يعني أنه
 ليس بجاهل على الإطلاق ولا بعالم كالعلماء!

«ويؤمنون به» إيماناً صارماً واصباً يناسب حملة العرش ومن حوله
 وتسبيحهم بحمد ربهم، وقد تلمح «يؤمنون به» على وضوح الإيمان لهؤلاء
 الكرام، إلى الرد على الذين يتخذونهم أرباباً من دون الله من ملائكة
 ونبيين، وهل الرب يؤمن بالرب مهما اختلفت الدرجات؟ أم «يؤمنون
 به» واحداً لا شريك له فلا يُعبد إلا هو، فهل يؤمن الشريك بالوحدانية
 لشريكه؟ وملامح الإيمان أياً كان ظاهرة في وحدة الكون وتناسقه، ووحدة
 التدبير وترافقه، ووحدة الوحي بتواتره، فليس لكل من هؤلاء ربوبية بعرضه
 الخاص، وإنما حمل لعرش العلم والرحمة إلى من يشاء من عباده دون خيرة
 لهم ولا اقتداء، فإنما هم حملة مأمورون «لا يعصون الله ما أمرهم
 ويفعلون ما يؤمرون».

«يستغفرون للذين آمنوا» وليس لسائر المكلفين إذ لا يغفر إلا للذين
 آمنوا، وليس لأنفسهم عله لأنهم معصومون لا يعصون، أو وأن من آداب
 الدعاء أن يدعو الداعي لغيره متناسياً نفسه، ثم الله يغفر له كما للمدعويين،
 ولكن «واستغفر لذنبك وللمؤمنين» قد تطارده، والرسول وهو أفضل حملة
 العرش يؤمر بتقديم نفسه في الاستغفار، فقد تعني «يستغفرون...»
 بعدما استغفروا لأنفسهم، ودعاء الاستغفار تختلف عن سائر الدعاء، فعل

الداعي أن يصلح نفسه باستغفاره لنفسه حتى يستصلح غيره باستغفاره لهم ، مهما كان الإستغفار عن غير ذنب فإنه إستصلاح الإستكمال والدفع عما يطرده ، عصمة عن كل وارد وشارد لا يناسب ساحة النبوة .

حملة العرش ومن حوله « يستغفرون للذين آمنوا » قائلين قبله ما يحيى جو الغفران :

« ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً . . » قضية سعة عرش الرحمة والعلم ، فلا تسع الرحمة ما لم يسع العلم ، ولا تفيد سعة العلم ما لم تسع الرحمة « ورحمتي وسعت كل شيء » فسعة العلم والرحمة معاً هي التي تسمح لمطلق الغفر والغفر المطلق عن أي ذنب كان ، فلأنه واسع الرحمة والعلم ، لذلك « إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم . . » (٥٣ : ٣٣) .

ولأنك واسع العلم والرحمة فواسع المغفرة « فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » فليست التوبة لفظة تقال ، أم نية تُنال ، أم عقيدة كامنة ، فإنها كلها ذرايع لاتباع سبيل الله ، فلا غفران للذين تابوا ولم يتبعوا سبيل الله ، إذ ليست التوبة إلا عن انحراف السبيل .

وترى إذا كانت رحمته وسعت كل شيء كما علمه فلماذا يحرم عنها غير المؤمنين؟ إنها وسعت كل شيء إمكانية الشمول دون ضيق أو مضايقة ولكن « فسأكتبها للذين يتقون . . » « قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون.الذين يتبعون الرسول النبي الأمي . . » (١٥٧:٧) .

وإذا تم الغفران بالتوبة فقد تمت الوقاية عن عذاب الجحيم ، فما هو إذاً موقف « وقهم عذاب الجحيم » بعد « فاغفر » ؟ علماً الوقاية دفعا عن العصيان حتى لا يحتاج إلى توبة وغفران ، أم وتعم الدفع والرفع عموماً

بعد خصوص ، اجتثاً صارماً لبواعث الجحيم ، وقد نعم « السيثات »
سيثات المسيئين سواهم ألا تلحقهم بخلفياتها وكما « وقاهم الله سيئات ما
مكروا وحق بآل فرعون سوء العذاب »^(٤٠) فانها وقاية الدفع عما مكروا
بموسى ان يفتكوا به ويقتلوه ! .

﴿ رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٤١)

وإذا كانت الدعاء « للذين آمنوا وتابوا واتبعوا سبيلك » فـ « هم » في
« ادخلهم » يعمهم ، فما هو إذا موقوف « ومن صلح من آبائهم وازواجهم
وذرياتهم » وهم داخلون في « وادخلهم » إذ كانوا مؤمنين فإينهم ممن
« صلح » ؟ .

« مَنْ صَلَحَ مِنْ » تُقَيَّد « الذين آمنوا » بالمؤمنين الأصول ، فتعني هي
المؤمنين الفروع وكما في الطور : « والذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان
ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب
رهين »^(٤٢) إلا في آبائهم وازواجهم في ظاهر اللفظ ، ولكنها الذرية في الطور
هي ذرية الإيمان فتشملهم من آباء وازواج وأولاد ، الذين عاشوا بالإيمان
على هوامش الأصول ، حيث « اتبعتم ذريتهم بإيمان » .

وعلى الأزواج نعم الذكران والأنثى كما نعم كافة القرناء في الإيمان ،
واختص بالذكر الآباء والذريات لاختصاص قرابة الإيمان ، فذرية الطور
تشمل الثلاث هنا ، والذرية هنا تقابل الآباء والأزواج ، كما الأزواج هنا -
علها - تشمل كافة القرناء أنساباً وغير أنساباً .

ولماذا « إنك انت العزيز الحكيم » في موضع الغفر والرحمة ؟ لانها من
لوازم وسعة العلم والرحمة ، استشفاعاً بسعة رحمته وعلمه يضع العزة حيث
تقتضيها الحكمة !

﴿ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٩)

« وفيهم » تعني الذين آمنوا كلهم من أصول وفروع ، وظرف الوقاية هنا اعم من الدنيا والآخرة ولكن الأهم هي الثانية : « ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته » .

والسيئات حين تُفرد دون مقابل تعني المعاصي كلها صغيرة وكبيرة ، فوقايتهم إياها يوم الدنيا تعم الرفع والدفع ، رفعا بالتوبة لمن ابتلي بها ، ودفعاً بالتسديد عمن هاجت عليه ولما يبتلى ، وهذا يليق بأصول الإيمان وذلك يناسب فروعه .

ثم إذا تَبَقَّتْ سيئات عُمِلت دون توبة عنها أم توبة من الله عليه لِعُظْمِهَا أما إذا من مُنْعَةِ الوقاية ، فبقيت لـ «يومئذ» القيامة الكبرى فـ « ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته » حين لا توبة هناك ، وقاية بشفاعة أمأهيه ، ووقاية السيئة «يومئذ» لا تعني السُّدَّ عَنْ اقترافها ، وإنما جُودَها عن بروزها ، حيث الجزاء هو السيئة بنفسها فـ «إنما تجزون ما كنتم تعملون» فالسيئة التي بقيت حتى (يومئذ) توقى وتمحى «وذلك هو الفوز العظيم» .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخِيَّتْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿ (١١)

المقت هو اشد الكُره ، فقد كرهوا أنفسهم بأشدّها لما دُعوا إلى الإيمان بحججه ولصالحهم في الدارين فكفروا ، وقد خِيلَ إليهم أنهم غالبون أحرار في شهواتهم وكفّتهم حظوة الحياة الدنيا عن أية حياة ، ولكن « مقت الله أكبر » فإنه صُراح المقت دونما شبهة أو خفاء ، فليس يعني عذاباً أكثر مما يُستحق ، بل هو أكبر في مظاهره بنصوعه وهم ماقتون أنفسهم ومحسبون

أنهم يحسنون صنعا قصوراً عن تقصير .

انتم تطلعون اليوم على مصيركم بكفركم دونما غفلة ، وقد كنتم يوم الدنيا في غفلة ، وما أوجع ذلك التذكير في التأنيب في ذلك الموقف الرهيب العصيب !

ثم الجواب منهم ليس إلا كلمة التباب للذليل البائس اليائس « ربنا » وقد عاشوا نكران ربوبيته ! انهم يستعطفون الرب بعطف ربوبيته ، وقضيتها العذاب عدلاً للكافرين ، كما أنها الثواب فضلاً للمؤمنين . « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين . . » وما هما الإمامتان والإحياتان ؟

ترى الإمامة الأولى هي الموتة الكائنة قبل الحياة الدنيا ، فالإحياءة الأولى هي إحيائها ، ثم الإمامة الثانية هي عن الحياة الدنيا فالإحياءة الثانية هي عن البرزخ إلى الحياة الأخرى : « وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (٢ : ٢٨) ؟ (١)

والموتة الأولى ليست عن إمامة ، وإنما خلقت الأجنة ميتات ثم أحييت ! ثم ليست لهم في هاتين الموتتين ذكرى يعترفون بها بذنوبهم ، مهما كانت لهم في الإحياءة الثانية فليكتفوا بها في اعتذارهم وذكرهم !

أم إن الأولى إمامة عن الحياة الدنيا ثم الإحياء للبرزخ ثم الإمامة عنه والإحياء للأخرى ، ولم يذكرها الإحياء في الدنيا إذ لم تكن لهم فيها ذكرى وسبب للإيقان بالأخرى ، حيث « فاعترفنا بذنوبنا » تفرع إعترافهم بإمامتين وإحيائتين في كلها هذه الذكرى ؟

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٤٧ - اخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال : هي مثل التي في البقرة « وكنتم امواتاً فأحياكم . . . » ومثله عن ابن عباس وقناة .

والحياة البرزخية لا تحتاج إلى إحياء آخر بعد الإحياء في الأولى ، فانها استمرارية الحياة الدنيا ، إذ لم يحصل بالموت إلا انفصال الروح ببدنه البرزخي عن بدن الدنيا ! ثم ولا ذكرى في هذه الاماته الاولى وقد كانوا معترفين بها « ان هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين » (٤٤: ٣٥) وانما هي في حياة بعدها ، ثم موت وحياة اخرى للاحرى ! ام ان الموته الثانية هي عن إحياء الرجعة^(١) ثم الإحياء الثانية هي للاحرى ، ولم تذكر الإحياء للحياة الدنيا اذ لم تكن فيها ذكرى ؟

ولست الرجعة إلا لمن محض الايمان محضاً او محض الكفر محضاً ، وليس الذين كفروا كلهم محضين للكفر محضاً ، وهذه المقالة تحكي عن حالة عامة لأهل النار ، كما هي لأهل الجنة ، مهما استثنى عن هؤلاء « إلا من شاء الله » ولكنهم داخلون فيمن يرجع فموتان ايضاً ، او استثنى الاحياء يوم الصعقة ، والممحضون منهم ايماناً او كفراً داخلون فيمن يرجع ، فقليل هؤلاء الذين يموتون موة واحدة وهم الاحياء يوم الصعقة ، غير محضي الايمان او الكفر !

ام الاولى هي عن الحياة الدنيا ، والثانية عن الحياة البرزخية ، والإحياء الاولى للاولى والاعرى عن الموة البرزخية للحياة الاخرى ، وفي مجموعها الذكرى إن لم تكن في كل منها ، فقد جبروا نكرانهم « ان هي إلا موتتنا الاولى » باعتراف « امتنا اثنتين » ونكرانهم « وما نحن بمنشرين » باعتراف « واحييتنا اثنتين » .. « فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل » ؟

(١) المصدر ح ١٩ القمي قال الصادق (عليه السلام) ذلك في الرجعة وفي البرهان ٤ : ٩٣ ح ٢ رجعة المعاصر عن الحسن بن محبوب عن محمد بن سلام عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : هو خاص لا قوام في الرجعة بعد الموت فتجري في القيامة فبعداً للقوم الظالمين .

فآيات الصعقة في النفخة الأولى تعم « من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله » وهم ليسوا بمن شاء الله فتشملهم صعقة الموت مع من تشمل إلا من شاء الله ، وإن كانت للأحياء يوم الصعقة موة واحدة هي عنها ثم إحياء ثانية للأخرى ، ولكنها الأكثرية الساحقة هم أهل البرزخ يوم الصعقة .

فمن الناس من له إماتات وأحياء آت ثلاث، وهم ممن يرجعون يوم الرجعة وهم أموات يوم الصعقة وليسوا بمن شاء الله وقليل ما هم !

ومنها من لهم إماتة واحدة وهم الأحياء يوم الصعقة من غير أهل الرجعة وليسوا بمن شاء الله ، وقليل ما هم !

ومنها من له إماتتان وإحيائتان ، كسائر الناس وهم أهل البرزخ يوم الصعقة ، فكثير منهم تأخذه الصعقة وهي إماتته الثانية ، وقليل منهم هم ممن شاء الله ، فموتتهم الثانية هي عن حياة الرجعة، وهل يوجد من هم أحياء يوم الصعقة وهم ممن شاء الله فلا يموتون بها ، وما هم ممن يرجعون يوم الرجعة ، فلا موة لهم إلا إحياء واحدة للحياة الدنيا وهي تستمر إلى الأخرى ؟

كلّا ! ف « كل نفس ذائقة الموت » بين إماتة واحدة أمّا زادت ، ف « من شاء الله » كلهم ممن عَصِيَ الإيمان محضاً فراجع يوم الرجعة ثم يموت ، وما منهم من يظل حياً إلى يوم الصعقة فهي تأخذ أحياءها كأقل موة .

فالضابطة العامة هي الإماتتان والإحيائتان ، مهما شذ عنها أقل منها أو أكثر ، وقد تزيد إلى أربع كالذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، إن لم يكن ممن شاء الله وهو من أهل الرجعة ، فقد أميت عن الحياة الدنيا مرات ثلاث ،

ثم الرابعة يوم الصعقة ، ولكنها الآية تتحدث عن الأغلبية الساحقة فإن لهم إمامتين اثنتين وإحيائتين ، مهما كان موردها اهل النار ، « فهل إلى خروج » أياً كان وايان ولو بعد ردح كثير من الزمن « من سبيل » أياً كان وعلى أية حال ، فالمستدعى هناك سبيلٌ ما إلى خروج ما خرجاً عن أبد النار: « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نُعَمِّرْكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فيما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) .

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (١٢)

« ذلكم » المقت الأكبر من الله « بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم » بوحدته « وإن يشرك به تؤمنوا » بكثرت « فالحكم » إذا في سبيل من خروج سلباً وإيجاباً « لله العلي » عن الشركاء « الكبير » عن الحاجة إلى الشركاء ، وما حكمه إلا « انكم ماكنون » !

فـ « إذا » تُحقق موضوعه و « دعي » تضرب إلى عمق الماضي تلميحاً إلى أن التوحيد سابق محقق أصيل طول الزمن ، فإنه قضية العقل والفطرة ، ودعوة الرسالة الدائمة ، ومدلوله سائر الآيات آفاقية وأنفسية . ثم « إن » تُشكك « ويشرك » لطارىء المستقبل ، لأن الشرك طارئ مشكك في تطاول من أهل الزمن ! لا حجة له في أي حقل من الحقول ، أم أي عقل من العقول ، فيا لهم من حماقة معمقة ، وتناس لكل موهبات الإنسانية والحيوانية . أن يؤمنوا إن يشرك ويكفروا إن يوحد !

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا
وَمَا تَذَكَّرُوا إِلَّا مِنْ يُنِيبٌ ﴿١٣﴾ فَأَدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ
ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ
مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ
الْقُلُوبُ لَدَى الْخَنَابِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ
وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الْصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

* أُولَٰئِكَ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ^{١٣} كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا
 فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
 مِنْ وَاقٍ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ ۝^{١٤}
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۖ ۝^{١٥} إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
 وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ۖ ۝^{١٦} فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
 وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ ۝^{١٧}
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۖ ۝^{١٨}
 وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ

لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ ۖ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ
 وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ
 كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۖ (٢٨) يَنْقُومُ لَكُمْ
 الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ
 اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا
 أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۖ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ
 إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۖ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ
 نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا
 لِلْعِبَادِ ۖ (٣١) وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۖ (٣٢)
 يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَذْزِبِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ وَمَنْ

يُضِلُّ اللَّهُ فَعَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَ كُرَيْسُ
 مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا زَلَّتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۚ حَتَّىٰ
 إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
 ءَايَاتِ اللَّهِ وَيُغَيِّرُ سُلْطَانَهُمْ أَنْتُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ
 جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَنِي آيَاتُكَ بِرُحْمٍ أَعْلَىٰ أَبْلُغُ
 الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ
 وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ
 وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
 يَقَوْمِ إِنَّمَا هِيَ دُنْيَا فُتْرَتِ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ

الْفَرَارِ ⑩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا دُونِ حِسَابٍ ⑪ * وَيَنْقُومُ مَا لَمْ
أَدْعُوهُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ⑫ تَدْعُونِي
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوهُمْ
إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ⑬ لَا جَرَمَ لَكُمْ أَنْ تَدْعُونِي إِلَى لَيْسَ
لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ
وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ ⑭ أَمْ أَحَبَبُ النَّارِ ⑮ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ
لَكُمْ وَأَفِيضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ⑯
فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِفَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ ⑰ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ⑱

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ^(١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ^(١٤) ﴾

« هو » الله الواحد « الذي يريكم آياته » الدالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته الحسنى ، والكون كله آياته من آفاقية وأنفسية « وينزل لكم من السماء » مادية ومعنوية « رزقاً » لأبدانكم وأرواحكم « وما يتذكر » آياته البينات ورزقه النازل « إلا من ينيب » إليه ويرجع عن غفوته وغفلته إلى فطرته وفكرته .

ف « لو كان لربك شريك لأنتك رسله » ^(١٤) وأراك آياته ، والآيات كلها مجمعة عليه ، دالة إليه ، حيث الكون مكرّم جامع ، وكتاب بارع ، يدل على مكوّنه دلالة ناصحة ناصعة ، دوغما منورة ، ولا منازعة ، او مضادة ومناقضة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » في ذوات ودلالات .

واذ كان واحداً تدل عليه آياته في كفاية الجهات والجنات « فادعوا الله مخلصين له الدين » إخلاصاً له في طاعته وعبادته « ولو كره المشركون » وكراحتهم منفية في الفطرة وحسب ما تهدي إليه الأدلة ، كما تلمح إليها « لو » الإمتناعية ، إلا أن غشاوات الفطرة تجعل من المحبوب مكروهاً ، ومن النور ظلمات .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ^(١٥) ﴾

(١) عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) .

مواصفات ثلاث لله تعالى تقتضي ان ندعوه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، وهي من صفات الأفعال دون الذات المقدسة المتعالية عن هذه الصفات .

أترى أن له درجات تُرفع ويتدرج إليها ؟ وله درجة واحدة دائبة لا زائدة ولا ناقصة هي الألوهية !.

هذه الدرجات الرفيعة هي التي يُدرج إليها أهلها كمن يلقي عليه الروح من أمره : « نرفع درجات من نشاء » (٨٣: ٦) إذ « هم درجات عند الله » (١٦٣: ٣) « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » (١٣٢: ٦) « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » (١٢: ٧٦) « يرفع الله الذين آمنوا والذين اوتوا العلم درجات » (٥٨: ١١) .

فلانه ذو العرش علماً وتربية وتديراً أمأهيه ، فهناك درجات إلى عرشه لكل على حدّه ومثله دونما فوضى جزاف ، فمنازل العز ومراتب الفضل التي يخص بها عباده الصالحين وأوليائه المخلصين رفيعة الأقدار، مشرقة المنار ، فهي الدرجات التي يرفع عباده إليها ، لا التي يرتفع هو بها ! تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وتأويل الرفيع إلى معنى الرافع تأويل عليل ، فإنما هو الرفيع : بملك الدرجات الرفيعة ، فيرفع بها من يشاء من عباده « ذو العرش » فله عرش الربوبية بكافة جنباتها لا سواء ، تجتمع في عرشه أزمة الأمور ، ويتنزل منه كل أمر برفيع الدرجات حسب القابليات .

« يلقى الروح من امره » إلقاء من أمره لا سواء ، وروحاً من أمره لا سواء: « قل الروح من أمر ربي »^(١) « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » (١٦ : ٢) تنزيلاً من أمره بالروح من أمره لا أمر في شيء من أمره لسواء .

تري الروح. هنا هو الروح القدس، روح العصمة والتسديد المستكن في قلوب المعصومين^(٢) أم هو الروح الأمين «نزل به الروح الأمين على قلبك .. » (٢٦ : ١٩٣) « قل نزل به روح القدس من ربك بالحق » (١٦ : ١٠٢) وهما جبريل الأمين^(٣) ؟ أم هو روح السوحي: « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي .. » (١٧ : ٨٥) فالكل ملقى ومتزل على من يشاء من عباده ، مهما كان روح السوحي هو الأصل ، وروح العصمة ظرف لنزوله ، والروح الأمين سبب لإنزاله ؟

قد يعني الروح الملقي من أمره هذه الثلاثة متأصلة روح الوحي ، وهو أحق أن يسمى روحاً وأحرى من سائر الأرواح، لأن المكلفين يحبون به من موت الضلالة وينشرون به من مدافن الغفلة والمتاهة .

و « من يشاء من عباده » ليست مشية فوضى جزاف ، بل هي اصطفاء: « إن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » « لينذر يوم التلاق »

(١) ف « من امره » حال أم صفة للإلقاء والروح فكلاهما من امره .

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٩٤ ح ١ علي بن ابراهيم قال قال روح القدس وهو خاص لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة (عليهم السلام) .

(٣) البرهان ٤ : ٩٤ ح ٢ القمي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال سأله عن قول الله عز وجل : ينزل الملائكة بالروح من أمره فقال : جبرئيل .

إنذاراً لاثقاً برب العالمين لكل العالمين، ثم تبشيراً لمن آمن منهم ، فالإنذار هو حجر الأساس الذي ترتكن عليه دعوة الرسالات ومن ثم التبشير « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » (١٣: ٧) و « يوم التلاق » هو القيامة التي تتلاقى فيها الأرواح بأجسادها بعد فصال، ويتلاقى أهل الحشر عن آخرهم « يلتقي أهل السماوات والأرض »^(١) فهو يوم بروز الكل للكل فهل يخفون على الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟ ثم تلاق في وثام تام لأهل الإيمان ، وفي محاجة وصدام بين سواهم، وتلاق رابع بين المكلفين وأعمالهم، وخامس تلاقى جزاءهم، وهل يعم التلاق لقاء الله في يوم الله ؟ علّه نعم « واعلموا أنكم ملاقوه » (٢ : ٢٢٣) « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية » (٨٤ : ٦) وعلّه لا، حيث التلاق لقاء من الجانبيين وهو من الله حاصل منذ خلق الخلق ، وقد تختلف الملاقاة عن التلاق ، حيث الثانية تفاعل بين اثنين على سواء، والأولى فعل من الملاقى بتقبل من الملاقى، فبما هما على سواء، اللهم إلا أن تعنيه ضمن ما عتته من تلاقى أهل الحشر وسواء، فكما أنه يوم الفصل كذلك هو يوم التلاق ، كل في موقفه وعلى حده .

ولأن الإنذار هادف يوم التلاق ، فلتعني التلاق لقاء الله في يوم الحساب حتى يتحقق حق الإنذار ، إذ لا خوف من سائر التلاق لولا لقاء الله ، مهما عنت سائر التلاق .

﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ ﴾^(١)

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٥ ح ٢٤ في معاني الاخبار بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض .

اتراهم لم يكونوا يوم الدنيا الفراق بارزين لله حتى يبرزوا له يوم التلاق ؟ اجل ولكنهم لم يكونوا بارزين لانفسهم ولا لمن سواهم إلا من شهد ، فُخِّلَ إليهم أنهم مستورون حتى من ربهم ، وأما اليوم فقد كُشف الغطاء فبرزوا عن مثلث الغطاء ، فزال الخيال أنهم مستورون عن الله « لا يخفى على الله منهم شيء » عندهم ، كما لم يخف على أية حال ! « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » (٦ : ٢٨) « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » (٦٩ : ١٨) لأنه « يوم تبلى السرائر » ويوم « حصل ما في الصدور » كما وكان لهم الملك يوم الدنيا ابتلاءً وامتحاناً مهما كان حقه لله ، ويوم التلاق « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ا حيث يتضاءل المستكبرون، ويتزوي المتجبرون، ويقف الكون كله خاشعاً لله في ذل إعلاّتْ وإسراراً ، مهما خشعت له يوم الدنيا إسراراً .

في يوم التلاق هو الملك لا سواء ، وهو السائل والمجيب لا سواء ، اللهم إلا إجابة الأنبياء والرسل والحجج^(١) ومن ثم إجابة أهل الحشر كلهم إذ تبين لهم انه الحق^(٢) .

أم إنه في موقف لا مجيب فلا جواب إلا لله حيث « يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه ، كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها ،

(١) راجع ج ٢٧ الفرقان ص ٤٦٤ ففيه تفصيل البحث عن الألفة .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥١٤ ح ٢٥ في كتاب التوحيد بسند عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في اب ت ث انه قال : الالف الاء الله - الى قوله - : فاليم ملك الله يوم لا مالك غيره ويقول الله عز وجل لمن الملك اليوم ثم تنطق ارواح انبيائه ورسله وحججه فيقولون لله الواحد القهار .

بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان ، عدمت عند ذلك الأجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور ، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير إمتناع منها كان فناءها ولو قدرت على الإمتناع لدام بقاءها ^(١) .

أم إنه يعني الموقفين ، فيهما الملك لله الواحد القهار ، وعلى أية الحالين فـ « من شاء الله » هم أحياء عند الصعقة لا يصعقون مهما أجابوا أم سكتوا ، فردّ هو سؤاله على نفسه « الله الواحد القهار أين الجبارون ؟ وأين المتكبرون ؟ وأين الذين ادعوا معي إلهاً آخر ؟ أين المتكبرون ونخونهم ؟ » ^(٢) .

﴿ الْيَوْمَ نَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ^(٣)

« ما كسبت كل نفس » هو السبب للجزاء على حدّه عدلاً في العقاب وفضلاً في الثواب ، والسبب هو المسبب فـ « إنما تجزون ما كنتم تعملون » (٦٦ : ٧) إذ يظهر العمل بملكوته فهو هو الجزاء ، فـ « لا ظلم اليوم » حيث العمل لا يزيد على نفسه ولا تختلط عليه الحسابات ولا تطول فـ « إن الله سريع الحساب » .

فالزيادة على العمل ظلم ، والخروج عن حدّ العمل عقاباً ظلم ، ولأن كل عمل محدود زماناً وأثراً أيّاً كان ، فالعقاب اللا محدود ظلم ، بل

(١) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥١٤ ح ٢٧ - القمي بسنده عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في حديث طويل يستعرض فيه موت الكون كله أقول ويستثنى منه « من شاء الله » حسب التصريح القرآني .

لا يعقل حينها يكون العمل هو الجزاء ، إلا أن يجعل من العمل المحدود
اللا محدود من نفسه أو من ملكوته « وما ربك بظلام للعبيد » .

وأما اللا محدود من جزاء الصالحات فهو قضية الفضل ، لا - فقط -
ظهورها بملكوتها، فإنها محدودة في أصلها وفي جزائها بملكوتها عدلاً ، ولا
محدودة بفضل الله « عطاء غير مجذوذ » !

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَازِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ^(١٨) ﴾ .

« أزفت الأزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » (٥٣ : ٥٧) ^(١) .

« وأنذرهم » أهوال يوم القيامة « الأزفة » : القرية ، فإن كل أت قريب
وقد مضى من عمر الدنيا كثيره البعيد ، فلم يبق إلا الأزفة القريب ، « إذ
القلوب لدى الحناجر » لأن الانقاس خنقتها من الهائلة ، فأنفسهم - إذاً - أزفة
الزهوق عند الأزفة، وكما في الحرب يوم الأحزاب « إذ زاغت الأبصار
وبلغت القلوب الحناجر » ^(١٠) ، « كازمين » في شدة الإغتمام ، ويزيد كظماً
من ظلم فـ « ماللظالمين » إذا « من حميم » قريب بمحيهم بحمة القرابة وهمتها
« فلا أنساب بينهم يومئذ (٢٣ : ١٠١) » ولا شفيع يطاع « مهما كانت
هنالك شفعاء لا تطاع ! » .

إن القيامة الهائلة بنفسها منكرة ، فكيف إذا كانت أزفة زاحفة ،
فالأنفاس يومئذ لاهثة ، والقلوب لدى الحناجر زاهقة، وما لهم من حمة ولا
شافعة .

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ^(١٩) ﴾ .

(١) راجع ج ٢٧ الفرقان ص ٤٦٤ ففيه تفصيل البحث عن الأزفة .

هنالك أنفـس أمينـة وأخرى خائنة « ولا تزال تطلع على خائنة منهم ... » (٥ : ١٣) ثم ولكل جارحة وجانحة أمانة وخيانة والله « يعلم خائنة الأعين » مثلاً لـجارحة « وما تخفي الصدور » مثلاً لـجانحة .

فلقد « قسم أرزاقهم وأحصى آثارهم وأعمالهم وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير »^(١).

« خائنة الأعين » صفة مضافة إلى موصوفها ، وكونها مصدراً وصريحاً الخيانة خلاف الصحيح والفصيح ، ثم ليست لكل الأعين خيانة وهي قضية المصدر !

للجوارح خيانات و « خائنة الأعين » أسرها تدليلاً وأسرعها نفاذاً ، وأخطرها نفوذاً ، ولذلك تختص من بينها ، ثم الخيانة قد تكون جهرية ، فيعلمها غير الله كما يعلمها الله ، وقد تكون خفية رياء الناس ، وهي المناسبة هنا « خائنة الأعين » حيث المرائون يغتمونها كأنها الله كما الناس لا يعلمها .. ألم تر إلى الرجل ينظر إلى شيء وكأنه لا ينظر فذلك « خائنة الأعين »^(٢) فهي إذاً - سارقة النظرة ، لا كل نظرة عاصية مهما كانت خائنة لمكان « يعلم » .. « وما تخفي الصدور » نظرة تخفيها كما تخفي الصدور ، وإن يعلم الله كل خيانات النظرة وسواها بين لا يحتاج إلى بيان فإنه عيان .

وهلاً تجوز خيانة الأعين حتى فيما يجوز كأن تشير غمضاً إلى شخص فيعاقب باستحقاق ؟ علها لا إلفيا لزم الأمر دون مندوحة ، ولكنها تقية لا تليق بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فكل أمره ضراح وقد يروى عنه

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥١٧ ح ٣٣ في معاني الأخبار بإسناده إلى عبد الرحمن بن سلمة الحريري قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الآية فقال : ألم تر ...

أنه « لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين »^(١) ولو لم تنبغ لأي مكلف فيها يجوز لم يخصه « لنبي » !

ف « لخائنة الأعين » مصاديق ثلاثة أنحسها سارقة النظرة المحرمة عن يرائون الناس ولا يراعون الله ، وي كان الناس أخرى بالرعاية ، وأقلها فيما يجوز إلا لنبي أمن ذا ، وأوسطها كل نظرة محرمة غير سارقة ، وسواء في هذه الثلاث أكانت النظرة إلى شخص أو شيء أو أمر ، فإنها على أية حال خائنة ، مهما اختلفت دركات الخيانة لحد الكراهية لغير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وعلى ما تخفي الصدور ، تعم السر وأخفى « فإنه يعلم السر وأخفى » (٢٠ : ٧) ما تخفيه إختياراً عن سواها ، وما تخفيه إضطراراً إذ لا تعلمها في حالها ماذا تكن في استقبالها ؟

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢٠) مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

وقضاء الله بالحق دون سواه ، دليل آخر على ألا إله سواه ، قضاء في

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٤٩ - اخرج ابو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس الا اربعة أنفار وامرأتين وقال : اقتلوهم وان وجدتموهم متعلقين باستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاخبطاً عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس الى البيعة جاء به فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر اليه ثلاثاً كل ذلك يابى يبايعه ثم بايعه ثم اقبل على اصحابه فقال اما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حين رأي كففت يدي عن بيعت فيقتلوا فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما في نفسك هلاً أو مات الينا بعينك قال : انه لا ينبغي لنبي ان يكون له خائنة الأعين .

التكوين » إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون « (٣ : ٤٧) أو في التشريع » وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه « (١٧ : ٢٣) أم في خلافات خاصة ، كلها في الأولى ، وما سوى الوسطى في الأخرى ، فهو - فقط - يقضي بالحق في الدنيا والآخرة بمثلث القضاء ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء .

أترى الشيء هنا يعم الشيء الحق والباطل ، ودعاة الحق يقضون بالحق ، ودعاة الباطل يقضون بالباطل فكيف « لا يقضون بشيء » مهما لا قضاء لمن دونه تكوينياً ؟ أم هو الشيء الباطل والقضاء به كثير ؟

« الذين يدعون من دونه » يعم الدعاة والمدعو إليهم ، لمكان « يدعون » دون يدعونهم ، فقضاء دعاة الباطل ليس بشيء في التشريع والقضاء فإنه باطل ، ولا في التكوين لأنه من أصله زائل ، ثم المدعو إليهم بين من لا قضاء له أصلاً كالأصنام والأوثان ، فحقاً إنهم لا يقضون بشيء ! وبين من يقضون بالحق فلم يقضوا بشيء يهواه دعائهم كالملائكة والنبين ، ومن يقضون بالباطل وليس الباطل بشيء ! طالما الشيء المقضي به فيمن دونه لا يعم التكوين .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (١٣)

فمن لا يقضي بشيء بين العباد كيف يكون إلهاً أو شريكاً لله « إن الله هو السميع البصير » ؟

﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (٢١)

الم يرجعوا الى فطرهم وعقولهم ، ولم يسمعوا الى رسلهم ، وبعد هذين
إذ تركوهما « أو لم يسير في الأرض » سيراً تاريخياً في أحوال الغابرين
وأهوالهم « فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم » فيعتبروا بمن
قبلهم « كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض » فلم تمنع قوتهم وآثارهم
الأشد عن أخذ الله « فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من » أخذ « الله من
واق » فيا لمصارع الغابرين من معتبر وهم واقفون موقفهم فهل من
مذكر ؟ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢٢) .

وهكذا تكون عاقبة الكفر بآيات الله البينات ، أخذاً في الأولى قبل
الأخرى ، تدليلاً على مدى الأخذ في الأخرى .

ومن أنحس النماذج للذين كانوا من قبلهم ثالوث فرعون وهامان
وقارون ، كل يمثل جانباً من الكفر والمجموع جملة الكفر ، تتجاوب في
ضخامة الصراع بين الكفر والإيمان في ذلك المقطع من التاريخ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢٤) .

فرعون وهامان وملاهما لم يكونوا من بني اسرائيل وقد أرسل إليهم
موسى رسالة قاصدة ، مما يدل على أن هذه الرسالة السامية غير محصورة في
بني اسرائيل مهما كانوا هم المحور الأصيل فيها « ثم بعثنا من بعدهم
موسى بآياتنا إلى فرعون وملكه فظلموا بها .. » (٧ : ١٠٣) (١) .

(١) ينضم ملا فرعون إليه في الرسالة الموسوية في الآيات التالية : ١٠ : ٧٥ و ١١ : ٩٧ و
٢٣ : ٤٦ و ٢٨ : ٣٢ و ٤٣ : ٤٦ .

فرعون هو الضلع الأكبر من ذلك الثلاث، ويذكر في سائر القرآن^(١) مرة ، وهامان مثله ووزيره (٦) مرات وقارون ابن عم موسى (٤) مرات ، وتجمعهم أجمع هذه وآية العنكبوت « وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات »^(٢) .

ولأن هؤلاء الثلاثة هم المحور الاصيل في السلطة الفرعونية إستكباراً وإستعماراً وإستعماراً ، تتجاوب مع بعض في السلطة التامة على المستضعفين ، لذلك أصبحوا أصول المرسل إليهم من المستكبرين ، كما وبنو إسرائيل هم أصول المرسل إليهم من المستضعفين ، ثم الفروع للأولين « ومثله » وللآخرين سائر المستضعفين في الرسالة الموسوية .

نرى ما هو الفارق هنا بين « آياتنا وسلطان مبين » وهي مكروية في هود والمؤمنين^(١) وآيات أخرى تخص السلطان « وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين » (٥١ : ٣٨) « وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » (٤ : ١٥٣) « قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومع اتباعكما الغالبون » (٢٨ : ٣٥) .

السلطان هو السلطة عقلياً أمّا ذا ببرهان ، أم واقعياً ، فهو - على أية حال - أمر لا يُغلب ، بل ويُغلب ، فهل هو فقط آية الشعبان إذ كانت أم الآيات الموسوية ، أفردت بالذكر بعد الآيات أم دونها لأنها هامتها ، وقد غلبت كل سحر من السحرة عما برهنت لهم أنها آية خارقة إلهية ؟

أجل إنها سلطان من هذه الناحية ، ولكن « ونجعل لكنا سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتباعكما الغالبون » برهان لا مردّله أنها ليست

(١) « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » ١١ : ٩٦ « ثم أرسلنا موسى وإخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين » ٢٣ : ٤٥ .

يفكر فيما يرى إذ « ما أهدىكم إلا سبيل الرشاد » فكل ما يراه ويعمل هو هدى ورشاد ، وكل ما يراه ويعمله غيره هو ضلالة وفي غير سداد، لا يسمحون لأحد - أياً كان - أن يظن أنهم خاطئون ، ولا أن يرتأي إلى حوار رأيهم رأياً ! وهذا هو معنى الطاغوت أن يجمع بين طغواه على الله وعلى عباد الله !

ذلك الاستبداد الأحق باطل أينما كان ، وفيمن لبس ملابس الإيمان وظهر بمظهر الإمام للمؤمنين ، يستبد برأيه ويأخذ هو برهانه دون برهانه ، سناداً إلى اجتهاده ، سداً لباب العلم ، وصداً عن أي حوار قد يخالفه فيما يرى ، وهكذا استبداد طريق الجحيم .

لا يحق تأصيل الرأي واستئصال ما سواه من رأي ، إلا - أولاً - الله وبرهانه معه ، وكل قوله وفعله برهان ، ثم ليرسل الله صدوراً عن الله ، ومن ثم للمعصومين من خلفائهم حيث يصدر عنهم، ونراهم كيف يواجهون الشعوب بكل تواضع ، وقد يُظهرون أنفسهم معهم مظهر المشاورين ، وليوجهوهم إلى ما هم عليه من حق الوحي ببرهان لا قبل له .

نرى الداعية ينتقل إلى بيان مثال لباس الله بعد أصل التحذير ، دون أن يرد على شخص الطاغية كانه عديم الوجود ، ولأنه لم يأت ببرهان حتى يرد عليه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدُ ظُلُمَاتٍ لِلْعِبَادِ (٣١) ﴾ .

هناك «ان جاءنا» يدخل نفسه فيما يجوز بحجته ، وهنا « أخاف عليكم » حيث المؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولأنه أمر واقع لا

حجر الإيمان تحمله كأقواء إلى الأنسال الآتية ، ولماذا أبناءهم دون بناتهم لأنهن لسن ليحملن الإيمان بعد قتل الأبناء تخوفاً ، وفي بقائهن مأرب لهم : « واستحيوا نساءهم » من الحياة إبقاءً لهن خادعات لهم ، ومن الحياء سلباً له منهن مُتَعاً جنسية^(١) « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » لمن آمن حتى يرجعوا كفاراً ، وللنساء حتى لا يؤمنن ولا يؤمنن رجالهن في إيمانهم ، وقد فعل فرعون هذه الفعلة وكاد هذه الكيدة « وما كيد الكافرين إلا في ضلال » تلمح أنه ما نُقِذ أمرهم كما امرؤ ، أم لم يهديهم إلى مرادهم كما قرروا ، فأصبح كيدهم في ضلال ، وخاب سعيهم على أية حال ، فإنهم « آمنوا معه » فتحول فرعون إلى استئصال محور الإيمان ومنبعه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾ (٣٦) .

هنا يتفرد فرعون بالطاغية : رأس الزاوية - برأيه الخاص : « ذروني أقتل موسى » وهو بين من لا يرتأي رأيه كما يلمح من « ذروني » وبين من يرتأيه « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » فقتل الأبناء واستحياء النساء كمتفق عليه حيث « قالوا اقتلوا » وقتل موسى يختلف فيه « ذروني » و « قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين » (٢٦ : ٣٦) وذلك قبل إيمان السحرة ، فأحرى بمنعهم بعد إيمانهم حيث الإرجاء هادف تبين أمره وقد تبين ، فقويت المعارضة في قتله .

وقد يختلف منعه قبل الحشر وبعده ، فقبل تبين أمره لا ينهي قتله مشاكله أو يزيد لها ، إذ قد يوحى للجماهير بتقديسه والحماس له برسالاته ، وبعده إذ آمن به جماهير ، ويتحذر الآخرون أن يستفحل أمره بقتله وقد

(١) وعلى الثاني الاستفعال هنا للسلب كما في موارد عدة .

آمن به السحرة ، فقتله إذا يزيد في حياته ، وعلى أية حال « منعه رشده »^(١) سياسياً أو مذهبياً .

واحتتمال آخر في « ذروني » أن لم يكن هناك من يمنعه إلا تأجيلاً ليتضح أمره ، فإنما كان يخاف من قتله بما رأى من آيات صدقه ، ومن عدم قتله انه يفشله في قومه كيف لا يسطع على سلطته أن يقتل موسى ، فجمع بين الأمرين في قوله الماكرة « ذروني أقتل موسى » حتى لا يقال إنه ما تجرأ على قتله ، وإنما منعه مانع، وردعه رادع من أهل نصحه وحاشيته !

وقد يلوح تلاحق « اقتلوا وذروني » أن فرعون كان يرى قتل موسى والذين آمنوا معه جميعاً ، فتكاً بالرسول والمؤمنين استئصالاً لجذور هذه الرسالة ، واستهزاءً بربه « وليدع ربه » فإن كان ربه قوياً فلينجح في ذلك الصراع ، ولماذا « أقتل موسى » لانه يسعى في الأرض فساداً فـ « اني اخاف أن يبدل دينكم » إلى دينه وهو أصل الفساد « أو أن يظهر في الأرض الفساد » تشكيكاً في دينكم ، واختلافاً بينكم وتخلفاً فيكم .

ومن الطريف جداً حجة فرعون في ذلك التصميم الفاتك ، وهو مكرور عبر الأجيال المتفرعة أمام المصلحين على توالي الزمان ومختلف المكان ، أن يظهر الباطل الكالح في مظهر الحق الصالح ، ويظهر الحق في مظهر المفسد الطالح ، ليستجيش مشاعر الشعب المستضعفين ضد الداعية المصلحة ، المطالبة بحقوقهم من المستكبرين

تري بماذا يواجه موسى هذه الطاغية ؟ إنه يواجه شعبه المحطمين المستغفلين بكلمة الحكمة :

(١) نور الثقلين ٤ : ٥١٨ في كتاب علل الشرايع باسناده الى اسماعيل بن منصور ابي زياد عن رجل عن ابي عبد الله (عليه السلام) في قول فرعون : ذروني اقتل موسى « ما كان يمنعه ؟ قال : منعه رشده ، ولا يقتل الانبياء ولا اولاد الانبياء الا اولاد الزنا .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴾ (٢٧)

يستبدل قولة فرعون « وليدع ربه » بـ « إني عذب بربي وربكم » لكيلا
يُحِيل إليهم أن ربه غير ربهم بل هو واحد لا شريك له رغم مزاعم
المشركين، ولكي يعطف بهم إلى العوذ بربهم ممن عاذ به موسى ثم يعمم
الإستعاضة « من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » حيث لا تختص من
فرعون ، وهناك فراعنة عدة ! ودرجاً لفرعون إدراج سائر المتكبرين دون أن
يحسب له حسابه الخاص، تذليلاً لسلطوته، وكسراً لنخوته ، يُظهر كأنه لم يسمع
قولته ، ولم يأمله للمخاطبة ، ولا التحدث عنه بشخصه أمام الشعب ، وما
الطفه حجاجاً صارماً أمام الفرعنة الجبارة ، وما أعطفه للشعوب
المستضعفة ! . ف « كل متكبر » ليس رداء الكبرياء من دون حق ، ويزيده
كبرياءً وعتواً أنه « لا يؤمن بيوم الحساب » أنه لا حساب في قوله وفعلته ،
فهو يعيش القوضى اللأحساب ، على حساب الكبرياء والجبروت .

ثم المضي في « عذت » مؤكداً بالتأكيد الخاص « إني » مما يُطمئنهم أن
ربه وربهم يعيده من كل طاغية ، كما أعاده منذ ولادته ، ثم ترعرعه في
حجر فرعون ، ثم قيامه برسالاته ، فذلك منه - إذاً - ملحمة غيبية تُعدُّ في
عداد آياته البينات وكما قال الله « ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما
بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ولحد الآن نرى غلبه على فرعون دون أن
يصل إليه ، حتى أصبح ملاً فرعون يمنعونه عن قتله وهم تحت سلطته
وجبروته !

فيا لداعية الحق من سلطان لا يُغلب أمام فرعون الطاغية ، وهو صفر
اليَد عن كل عِدَّة مادية وعُدَّة ، ولا يملك إلا عوذة بالله أن ينصره على
عدوه كما وعده « انتما ومن اتبعكما الغالبون » .

ولقد جراً موسى بحجته الصراح مؤمناً بكنتم إيمانه حتى أبرزه مناصراً
صارماً لموسى الرسول (عليه السلام) :

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ
يَكْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ﴾ (٢٨).

هذا الرجل نعم الرجل كل الرجل ، وقد يحق له أن تسمى السورة به
« المؤمن » اذ اصبح ركن الدعوة المناصرة للرسالة الموسوية ، حيث انتدب
في هذه المعركة الصاخبة الدموية ، انتدب يدفع عن موسى ويحاج فرعون
وملاه بحجج ناصحة ناصعة ، سالكاً فيه مسالك ومعرضاً نفسه لمهالك .

« وقال رجل » لا يسميه حيث الأصل في تبقي الشخصيات هو
الرجولات بسماتها وبصماتها دون الأسماء ، فسواء أكان الرجل نبياً^(١) أم
سواء ، قبطياً^(٢) أم سواه ، فالمحور الرئيسي هنا رجولته بإيمانه: « مؤمن من

(١) نور الثقلين ٤ : ٥١٩ ح ٤٢ في امالي الصدوق باسناده الى عبد الرحمن بن ابي ليل
رفعه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل
ياسين الذي قال « اتبعوا المرسلين . . » وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلي بن ابي طالب
(عليه السلام) وهو افضلهم .

اقول : حزقيل كان نبياً اسرائيلياً فلم يكن من آل فرعون ، ولو كان هذا الرجل نبياً لياً
كان لكان مذكوراً بسمة النبوة فإنها أعلى درجات الإيمان ، والنبى لا يكتفى إيمانه إذ لا تقية
للالنباء ، ثم حزقيل ولد بعد موسى بفرون ، فمن المستحيل إذاً كونه « رجل من آل
فرعون » !

(٢) المصدر ح ٤٠ في عيون الاخبار في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون
في الفرق بين العترة والامة وفيه قالت العلماء فان خبرنا هل فسر الله الاصطفاء في الكتاب؟
فقال الرضا (عليه السلام) فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطناً .

آل فرعون يكتُم إيمانه « أترأه إسرائيلياً يكتُم إيمانه من آل فرعون ؟ وصحيح التعبير عنه « يكتُم إيمانه من آل فرعون » ! فقد كان من آل فرعون وقومه وكما يخاطبهم « يا قوم » وكان « من آل فرعون يكتُم إيمانه » دون آل موسى ، فالمعنيان معنيان : « رجل مؤمن من آل فرعون - من آل فرعون يكتُم إيمانه » حتى رأى ضرورة التقيّة المعاكسة أن حفظ الإيمان تناصراً للرسول برسالته أوجب من حفظ النفس ، وقد كان حفظ نفسه أوجب من إظهار إيمانه حين لم يكن بهذه المثابة ، فلكل حال مقال ، ولكل مقال حال^(١).

« قال « مستكراً تصميمهم » أتقتلون رجلاً لا لشيء إلا « أن يقول ربي الله » وأنتم لا تنكرون الله مهما كنتم به مشركين ، فقد يعترف بربوبية



وموضِعاً ... واما الحادي عشر فقول الله عز وجل في سورة المؤمن حكاية عن قول رجل من آل فرعون « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه ... » فكان ابن خال فرعون فنسبه الى فرعون بنسبه ولم يصفه اليه بدينه وكذلك خصصنا نحن إذ كنا من آل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بولادتنا منه وعممنا الناس بالدين فهذه فرق بين الآل والامة فهذه الحادية عشرة وفي تفسير البرهان ٤ : ٩٥ ح ١ القمي عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال كان خازن فرعون مؤمناً بموسى قد كنتم إيمانه ستمائة سنة وهو الذي قال الله : وقال رجل ... » .

(١) المصدر ح ٣٨ في بصائر الدرجات عن ابي جعفر (عليه السلام) قال له رجل ان الحسن البصري يروي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من كنتم علماً جاء يوم القيامة ملجئاً بلججاً من نار ؟ فقال : كذب ويحه فاين قول الله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه » ثم مد بها صوته فقال : فليذهبوا حيث شاءوا اما والله لا يهدون العلم الا ههنا ثم سكّت ثم قال : عند آل محمد وفي المجمع عن ابي عبد الله (عليه السلام) التقيّة من ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقية له والتقية ترس الله في الأرض لان مؤمن آل فرعون لو اظهر الاسلام لقتل .

الإله الأصل الذي يصدق كل المتألهين ، ثم لا يفترى عليه بشركاء ،
« يقول ربي الله وقد جاءكم » على قوله « بالبينات من ربكم » فإن ربه هو
ربكم مهما أشركتم به ما لم يشركه هو ، فقوله يوافقكم في أصل الربوبية ،
وتوافقه الفطرة وقد جاءكم بالبينات ، فكيف تقتلون ، وما له من ذنب إلا مقالة
حق ثابتة بالبينات !

وما يروى عن الإمام علي (عليه السلام) أن أبا بكر أشجع الناس
وأفضل من مؤمن آل فرعون^(١) تخالف كتاب الله ، فأية الشراء تفضل علياً
على الإطلاق: «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله» (٢: ٢٠٧)
وهذه الآية تمدح مؤمن آل فرعون على كتمان إيمانه من قبل تقيّة وعلى
إبرازه هنا تقيّة معاكسة للحفاظ على أهمّ من نفسه .

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٥٠ - اخرج البزاز وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي (عليه
السلام) قال : أيها الناس اخبروني بأشجع الناس قالوا أنت ! قال : لا قالوا : فمن ؟ قال
أبو بكر ، لقد رأيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأخذته قريش هذا يحثه
وهذا يبلله وهم يقولون أنت الذي جعلت الألهة إلهاً واحداً قال فوالله ما دنا منا أحد إلا
أبو بكر يضرب هذا ويجاهد هذا وهو يقول ويلكم اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ثم رفع
علي (عليه السلام) بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال انشدكم بالله أمؤمن
آل فرعون خير أم أبو بكر خير من مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتُم إيمانه وهذا رجل
أعلن إيمانه .

أقول : لا تخفى المواقف البطولية الأفضل والأخرج من هذا بكثير لعلي (عليه السلام) ثم
لعبد المطلب وأبي طالب وغيرهم في مناصرة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) وآية الشراء
تكفي تكذيباً لهذه الرواية ، وكفاها كذباً ذليلاً « وهذا رجل أعلن إيمانه » أمؤمن آل
فرعون لم يعلن إيمانه حين قال « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » فليكن مثل أبي بكر ، بل
أفضل منه حيث الفرعة الجبارة في عهده اخطر من المشركين زمن الرسول ، ثم « يكتُم
إيمانه » كان تقيّة منه قبل هذا الموقف وكانت لزاماً عليه حفاظاً على نفسه ، فلما انعكست
التقيّة أبرز إيمانه مناصراً لموسى في موقف أخرج من موقف أبي بكر إن صدق حديثه !

ثم وعلى أسوء الاحتمالات - لو شككتكم في أمره رغم بيناته - « وإن يك كاذباً فعليه » فقط « كذبه » لا وعليكم « وإن يك صادقاً يصبكم » لأقل تقدير « بعض الذي يعدكم » .

أترى مدعي النبوة يجب أو يجوز تصديقه ولا يصلح قتله أو تكذيبه لأنه « إن يك كاذباً فعليه كذبه » والكذب في هذه الدعوة ينال المصدقين ويضلهم عن السبيل أكثر من الداعية ، بل وله حظوته من الرئاسة الباطلة ، وعليهم شقوتهم تحت نير الضلالة ، ثم وعلى هذا الأساس لا يجوز تكذيب مدعي الرسالة حين لم يثبت صدقه ولا كذبه ؟

كلا ! حيث المورد هنا قطعي الصدق بيناته « وإن يك كاذباً » تنازل في احتمال في فرض المحال ، فالكذب هنا ليس في دعوى النبوة ، بل هو في توحيد الإله وأهوال القيامة ، فإن يكن الداعية كاذباً في أنباء من النبوة وهو صادق في نبوته بيناته ، فكان الله شريك ، ولم يكن هنالك حساب يوم القيامة ، فلا يضركم بقاءه في دعواه ، ولا تصديقه ، فإنما هو لا سواء يحمل عبء كذبه ، فلا عليكم قتله فإن « عليه كذبه » حيث يفضحه ربه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا عتة الوثين » (٤٦: ٦٩) ! وموردها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ثبوت نبوته .

« وإن يك صادقاً » حيث يجوز - لأقل تقدير - صدقه ، تنازلاً عن واجب صدقه « يصبكم بعض الذي يعدكم » في الأولى والأخرة ، فطريقة الاحتياط - إذا - ألا يقتل ولا يكذب فإن في تصديقه نفعاً بلا ضرر إلا عليه « إن يك كاذباً » !

وهذه الحجة الباهرة يحتج الإمام الرضا (عليه السلام) على الزنديق الناصر للحساب ، إذا لم يكن حساب فنحن وإياكم شرع سواء ، لم يضرنا

ما عبدنا ، وان كان هناك حساب فنحن الناجون وانتم المالكون، وهذه حجة أخيرة على من لا يصدق البينات .

ثم المشكوك في دعوى النبوة-إذا لا يملك حجة على صدقه وأنت لا تملك حجة على كذبه-لم يصح تكذيبه والفتك به إلا في أصل النبوة إذا لا تصدق إلا ببيناتها، وقد ملكها موسى بتسع آيات، وأما فيما يخبر به من أخطار مترتبة فالخائطة العقلية تقتضي ترتيب آثار صدقه ، وهكذا تكون أنباء الأنبياء إنذاراً عما يعدون .

فكيف يجوز قتل موسى الرسول « أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات » ثم كيف يجوز قتله « وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم » - ومن ثم فـ « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » سواء كان مدعي النبوة وأنباءها الغيبية فـ « لأخذنا منه باليمين » أم مكذب النبوة على بيناتها الصادقة فـ « إن أخذ ربك لشديد »! ومن طريف هذا الحجاج تقديم احتمال الكذب للنبي سداً لعجالة التكذيب إن قدم احتمال الصدق، وكما يقدم التردد لداعية الحق « إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » دون « أنتم أو نحن .. » وهذا منتهى النصفة في الحجاج أن يقدم المحاور لنفسه أسوأ الاحتمالات ثم يردها بلطف دون عنف .

وهذا منتهى المطاف في حجاج النبوات لمن لا يصدق أية بينات ، أننا نفرض - على استحالة - كذب صادق النبوة فيما يعد للآخرى ، وحتى مع التغامض عن نبوته ، فقضية الاحتياط - إذا - ألا يكذب فضلاً عن قتله ، حجة يقبلها كل ذي مسكة وحتى ذي جنة ، ولكن حماقي الطغيان ليسوا ليصدقوا أية حجة « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » .

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٢٩).

خير حجاج من مؤمن آل فرعون وجاء شر لجاج من فرعون ، يقول الداعية « يا قوم . . » كحجاج ثالث لا مرد له لنصرة الحق « لكم الملك اليوم » لأطول الزمن وعلى أية حال « ظاهرين في الأرض » غالبين فيها مستعبدين ، هذا يومكم ردح الامتحان « فمن ينصرنا » أنا وإياكم سواء « من بأس الله إن جاءنا » في يوم الله ؟ « وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم » فهل ينصركم ملككم اليوم ولا يأتي يومئذ إلا بأساً على بأس حيث ارتكن على بؤس ! ويقول الطاغية كلمتيه اللأغيتين دون أن تحمل أية حجة إلا لجاج استكبار ، إنني حق وفوق الحق ، فما أراه هو الحق لا سواء « ما أريكم إلا ما أرى » دون ما يراه غيري أوتراه حجة وبرهنة وإنما « ما أرى » ليس إلا فـ « إني أنا ربكم الأعلى » ! حيث « أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ونشئ المهاد » فالرأي الحاسم الرشيد هو قتله سداً عن تغيير الدين وصدداً عن الفساد .

إن الفرعنة الطاغية بأية صورة وعلى أية حال ، تحاول ولا تزال أن تحمل الشعوب على ما تراه ، فلا تسمح لأحد سواء في رأي سواء ، ولا مصدراً وولياً في أمر إلا إياه ، والله الذي خلق السماوات والأرض يتبني أحكامه وأوامره على أوضح البراهين ما أمكن تفهمه للعالمين ، ثم « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » !

داعية الحق يحمل الشعوب على التدبر والتفكير وانتخاب الأصلح ابتداءً من نفسه ، إن كان حقاً بيناته فاقبلوه وإن كان باطلاً فافرضوه .

وداعية الباطل الطاغية « ما أريكم إلا ما أرى » ولا حق لأحد أن

يفكر فيما يرى إذ « ما أهديكُم إلا سبيل الرشاد » فكل ما يراه ويعمل هو هدى ورشاد ، وكل ما يراه ويعمله غيره هو ضلالة وفي غير سداد، لا يسمعون لأحد - أياً كان - أن يظن أنهم خاطئون ، ولا أن يرتأي إلى حوار رأيهم رأياً ! وهذا هو معنى الطاغوت أن يجمع بين طغواه على الله وعلى عباد الله !

ذلك الاستبداد الأحق باطل أينما كان ، وفيمن لبس ملابس الإيمان وظهر بمظهر الإمام للمؤمنين ، يستبد برأيه ويأخذ هو برهانه دون برهانه ، سناداً إلى اجتهاده ، سداً لباب العلم ، وصداً عن أي حوار قد يخالفه فيما يرى ، وهكذا استبداد طريق الجحيم .

لا يحق تاصيل الرأي واستئصال ما سواه من رأي ، إلا - أولاً - الله وبرهانه معه ، وكل قوله وفعله برهان ، ثم لرسول الله صدوراً عن الله ، ومن ثم للمعصومين من خلفائهم حيث يصدر عنهم، ونراهم كيف يواجهون الشعوب بكل تواضع ، وقد يُظهرون أنفسهم معهم مظهر المشاورين ، وليوجهوهم إلى ما هم عليه من حق الوحي ببرهان لا قبل له .

نرى الداعية ينتقل إلى بيان مثال لبأس الله بعد أصل التحذير ، دون أن يرد على شخص الطاغية كانه عديم الوجود ، ولأنه لم يأت ببرهان حتى يرد عليه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ^(٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدُ ظُلُمَاتٍ لِلْعِبَادِ ^(٣١) ۝

هناك « ان جاءنا » يدخل نفسه فيما يجوز مجيئه ، وهنا « أخاف عليكم » حيث المؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولأنه أمر واقع لا

مردّد له عن الكافرين وإن المتقين في مقام أمين ، والأحزاب المتحزبة ضد الرسالات هم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من المكذبين ، « إني أخاف عليكم مثل داب » هم : عاداتهم في تكذيبهم آيات الله ، وعاداتهم في جزائهم بما كذبوا^(١) دأباً بدأب ، « وما الله يريد ظليماً للعباد » فانه جزاء وفاق ماله من فراق ، ويا له من داب يخاف عليهم أصبح فيهم ركناً يمثل به سائر الدأب في تاريخ الكذابات : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا » (٣ : ١١) : « كفروا بآيات الله » (٨ : ٥٤) كذبوا بآيات ربه (٨ : ٥٤) !

ولماذا « مثل داب قوم » واحد لأنهم واحد بطبيعتهم وكيانهم ، مهما كانوا أقواماً حسب واقعهم وكونهم ، فكما الكفرملة واحدة فقونه كذلك واحد هو الذي يتجلى فيه بأس الله ، وهذا من بأس يوم الأولى ، وإلى تطرّق ليوم آخر من أيام الله وهو يوم التناد :

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ^(٣٢) يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَذِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٣٣) .

وما أطفه ترتيباً رتيباً لإندازهم من « بأس الله إن جاءنا » وهو أقل تقديرأ بأساً وإحتمالاً ، ف « إن » تُشكك ، والدنيا تخفف ، وهو أقل الاحتمالات من « إن يك صادقاً فعليه كذبه » ثم يوم الأحزاب وهو أوسط تقدير محققاً ثابتاً للأحزاب ، ومن ثم اليوم الآخر يوم التناد ! « يوم ينادي أهل النار أهل الجنة^(٣٤) » ، كما نتنادى نحن وإياكم هنا وابن تناد من تناد :

(١) في الدأب الأول إضافة المصدر إلى الفاعل وفي الثاني إضافته إلى المفعول أي دأب الله لهما .

(٣٢) نود العقليين ٤ : ٥١٩ ح ٤٤ في معاني الأخبار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : يوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة : ان أفيضوا عليا .

« وتنادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » (٧ : ٥٠) والتناد بينهم وبين ربهم : « أولئك ينادون من مكان بعيد » (٤١ : ٤٤) « ينادون لحقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم أذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » (٤٠ : ١٠) « ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد » (٤١ : ٤٧) « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » (٢٨ : ٦٥) ثم محاجة وتناد بينهم « إذ يتحاجون في النار » فهم في مثلث من التناد ، بعد إذ رفضوا هنا صالح التناد « ومن يضلل الله فما له من هاد » .

إنهم يتنادون قبل دخولهم الجحيم ويعدده ، عائشين هناك تصابيحاً وتناوحاً لأصوات في زحام وخصام ، يوليهم ويدبرهم خوفاً وفراراً .

« يوم تولون » عن شركائكم وعقائدكم وأعمالكم « مدبرين » عن ثالوثها فراواً ولات حين فرار ، مولين مدبرين عما كنتم له متولين وإليه مقبلين « ما لكم من » بأس « الله من عاصم » فانه المتقم هناك لا سواء ، وله الملك لا سواء ، فانه الديان لا سواء « ومن يضلل الله فما له من هاد » لإضلالاً يوم الدنيا بعدما ضلوا « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وآخر يوم الآخر بعدما ضلوا عن صراط الجنة ، ضلالاً عن ضلال ، يتيهان إلى ما ضلوا يوم الدنيا « وما الله يريد ظليماً للعباد » !

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ^(٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرٌ مَقْنَأٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ

« يوسف » هذا هو المعروف المسماة به سورته ، اللامعة ثورته ، وهذه الآية هي الفريدة تدليلاً على رسالته السامية قبل موسى وكأنه « كان رسولاً نبياً »^(١) رفيع المنزلة في رسالته ، يتلو تلو من دارت عليهم الرحي وعلها قريبة إلى موسى زمناً كما تلمح له « لقد جاءكم » وقد عرفنا من سورته أنه بلغ في ثورته مبلغ الملك أم كبير وزراءه ، وعلى أية حال حصل على مكانة عظيمة في مصر خد كان له عرش « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً » وهو - على جمعه بين السلطة الروحية والزمنية - « فما زلتم في شك مما جاءكم به » ومعه بيناته في سلطنته ، واستمر التشكك « مما جاءكم به حتى إذا هلك » مات عن رسالته على حاله « قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً » إستراحة لموته وإرتياحة لهلكته ، فانطلاقة عن الشك في رسالته إلى تأكيد من انقطاع الرسالة : « قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً » ف « لن » هذه كانت كامنة في قلوبكم متحولة إلى شك لردح السلطة الكائنة ، ثم تحولت إلى ما كانت ، فأنتم أولاء الحماقى الصلّتين الصلّدين في الكفر و « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » يرتاب في البيئات ويسرف في إرتياب ، ومن خلفياته أن يضل الله ختماً على قلبه .

« الذين يجادلون في آيات الله » إبطالاً لها وإخاداً لنائرتها « بغير سلطان آتاهم » أيأ كان وأيان « كبر » ذلك الجدال الإبطال « مقتاً عند الله » لبيئات آياته حين تكذب بغير سلطان « وعند الذين آمنوا » حين تكذب على علمهم وبمحضرهم « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » فلا فسحة لقلبه ولا مجال لنور المعرفة ولا شطراً قليلاً ليصبح منفذاً لرؤية الحق حيث

(١) المصدرح ٥ : المجمع عن كتاب النبوة بالاسناد عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قلت : فكان يوسف رسولاً نبياً؟ قال : نعم أما تسمع قول الله عز وجل : لقد جاءكم يوسف بالبيئات .

الطبع « على كل قلب متكبر جبار » طبعاً شاملاً لا يبقى على أثر ، وسداً كاملاً لا يرجى معه أي مفر ، فوا ويلاه إذا ختم الله على كل القلب ولات حين مناص ولا منفذ لخلاص !

وهذه الآية اليتيمة بين آيات الحتم ، حيث تعممه على كل القلب ، ولأنه في أسفل دركات الكفر والنكران من الإنس والجان ! فالقلوب ثلاثة ، قلوب طامة بالنور ، تامة في كمال النور ، فكلها نور دون ظلام فهي في أفضل الدرجات ، وقلوب مختومة بظلمة لا مجال فيها لنور ، فهي في أسفل الدركات ، وقلوب هي عوان بين ذلك مهما اختلفت درجاتها بين مؤمن ومن يفتش عن إيمان .

أترى فرعون الطاغية يغير رأيه بعد هذه الجولة الضخمة التي تأخذ بأزمة القلوب غير المختومة؟ كلا! ولكنه لا يرى بداً من ردة فعل غير التي أبداها لحد الآن ، ولكي يغير المتأثرون بدعوة الداعية ، تظاهراً هو تظاهرة أمام المستضعفين بلون غير الذي كان حتى الآن أمام الداعية :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِي صَرِّحْ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ^(٣٦) .
أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه كاذباً وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ^(٣٧) .

الصرح هو العرش فقد يكون للجلوس عليه كـ « صرح عمرد من قوارير » (٢٧ : ٤٤) وأخرى للصعود عليه تطلعاً إلى عالٍ وكما يطلبه فرعون من هامان ، وهو برج عال كأعلى ما يمكن ، خروجا عن الأسباب الأرضية إلى أسباب سماوية ، فكما في الأرض مركبات موصلة إلى أخرى هي أسباب للتنقلات الأرضية ، كذلك للسماء ، فهنا صرح يطلع عليه على أسباب السماوات ، ثم الركوب على مركبة سماوية إطلاعا على ما فيها من كائنات كامنة !

ولا يمكن الارتقاء في الأسباب إلا لمن يملكها علماً واقتداراً وكما يتحدث

القرآن : « أم لهم مُلك السماوات والأرض وما بينهما فليترقا في الأسباب » (٣٨ : ١٠) أسباباً يقصر عنها العلم مهما جال جولته في السماوات والأرض ، فهي إذاً أسباب خارقة للعادة ، خفية إلا لمن أطلعه الله ، وكما أوتي ذو القرنين من كل شيء سبباً « فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس .. ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس .. ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين .. » (١٨ : ٨٥ - ٩٢) .. مهما كانت لنا أسباب تعمنا أم تخص الخصوص من علماء الأسباب روحياً ومادياً « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » (٢ : ١٦٦) .

فالعالم بأسره يعيش مثلث الأسباب وإن كان لكل أهل ، ولقد سمع فرعون أن هناك أسباباً لارتقاء السماوات واشتبهى أن يبلغ الأسباب « لعلني أبلغ الأسباب » وقد خيل إليه أنه رب الأرض ويده أسبابها : « أنا ربكم الأعلى » ثم لم يجد في الأرض إله موسى فيني صرحاً يطلعه ليبلغ أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى ، كأنه كائن في السماء .

وقيلة القائل إن الله في السماء ، فما كان يعرف فرعون مكانة إله موسى ولا مكانه إلا تعريفاً من موسى فاخذ يطلع إلى إله موسى في السماء ؟ إنها قولة زائفة تزيفها تصاريح موسى حول الإله : « قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » (٢٦ : ٢٩) .

فهذه سخافة الرأي من فرعون أن لو كان لموسى إله فلا بد أنه في

السماء ، إذ لا أرى في الأرض من إله غيري فـ « لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً » أن له إلهاً .

وهكذا يمّوه الطاغية فيداور ويحاور علّه يجد مفراً من لجة الحجة ، ولكيلا يواجه الحق جهرة وصراحاً ، ولا يعترف بوجوده فضلاً عن وحدانيته التي تهز عرشه وجبروته ، فليس فرعون بالذي يفتش عن إله موسى ، وعلى هذا الوجه المادي الساخر، اللهم إلا استخفافاً واستهتاراً من ناحية ، وتظاهراً بالإطلاع إليه بأسباب السماوات من أخرى ، فلذلك يخرف ويهرف فيما يخرف ويخرف ، تطرقاً بالمحال « أبلغ أسباب السماوات » وإلى محال أكد « فأطلع إلى إله موسى » ومن ذا الذي يتساءله في تطلّعه وتضلّعه وإطلاعه إلى ماذا ؟ حيث الجواب سوف يكون : لم أطلع إليه ، أم لم يكن فيما اطلعت ، « واني لأظنه » موسى « كاذباً » أن له إلهاً غيري ، أم وجدت في السماء من يدعي أنه إله موسى « واني لأظنه » إله موسى « كاذباً » فتتهى الحوار في كيدته إلى ميده « وكذلك زين لفرعون سوء عمله » أن زينه الشيطان وعله أصبح أشطن من الشيطان ! « وصُدَّ عن السبيل » بما صدّها عن نفسه فانسدت عليه « وما كيد فرعون إلا في تباب » فقد كاد كيدَه كلّه في الأرض وإلى السماء ولكي يدحض حجة الحق ، ولكنه أصبح في تباب بعدما آمن السحرة كلهم أجمعون ، وأغرق فرعون بجنوده أجمعين ، غرقاً بكيدته مرتين و « ذلك هو الضلال البعيد » !

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٣٨).

هنا - وقد بلغ من كيد فرعون التوصل إلى أسباب السماوات - يستمر الذي آمن بحجته، كأن لم يتكلم فرعون بشيء ، استخفافاً به ولأنه لا جواب لهوائه ، فإنما يعاكس قولة فرعون من قبل « وما اهديكم إلا سبيل

الرشاد « بقوله « يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » وابن رشاد من رشاد ؟ هكذا يتحدث بكلمة الحق دون ان يهاب سلطانه والمتأمرين معه .

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مُتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ^(٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْشِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ مِنْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(٤٠) .

« إنما » تحصر « هذه الحياة الدنيا » بانها « متاع » متاع المتعة الفانية ، ومتاع التجارة الباقية ^(١) « وان الآخرة هي دار القرار » فخذوا من عمركم لمركم ، ومن المتعة الفانية تجارة باقية لن تبور .

يرهن هكذا مرشداً لهم بعدما أثبت لهم بما أثبت وحدانية الله وحقانية اليوم الآخر ، حيث النصيحة دون برهان لا تفيد الناصر .

ومن عدل الله تعالى يوم الحساب « من عمل سيئة فلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » فإنها هي بملكوتها دون زيادة أو نقصان ، اللهم إلا بتوبة أو شفاعة أمأهيه ، وقضية المماثلة بين السيئة وجزائها أنه محدود كما هي فهو متناه كما هي متناهية ! « ومن عمل صالحاً » أي كان « من ذكر وأُنْشِ » دون فارق بينهما لإبصالح العمل ، « وهو مؤمن » حيث الإيمان ركن لصلاح العمل فهو دونه حابط « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » (٥ : ٥) وإذا كان جزاء السيئة بحساب فثواب الحسنة بغير حساب ، مهما كان لكل حسنة حساب في « بغير حساب » حيث الجنة من فضل الله ورحمته ^(٢) والنار من عدل الله ونقمته .

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٥١ - اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شيء خيراً من المرأة الصالحة التي اذا نظرت اليها سرتك واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٢٠ ح ٤٨ في كتاب التوحيد حديث طويل عن

وهذا هو سبيل الرشاد ايماناً وعملاً وعقيدة في صيغة موجزة سائغة
لائقة بالداعية ، تعريفاً بالدارين، وصورة جامعة من خلفية الأولى
للأخرى .

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ^(١١) تَدْعُونَنِي
لِأَكْفَرِ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
الْجَبَّارِ ^(١٢) .

ولماذا « ما لي » وليس العجائب إلا بما لهم من دعوة زائفة ؟ لأن « ما
لهم » واضح وضح الشمس أنهم عاشوا هوامش الضلالة ، مرتزقين وفي
الإضلال ، فليوجه السؤال إلى نفسه « ما لي » إستحضاراً لحاله وما له من
بيئة ، فهل فيه ضلال كامن يدفعهم لدعوته إلى النار ؟ وهو معلن بالحق في
أشد الأخطار ! فلا مطمع إذاً ولا مطمح في دعوته إلى النار ، فليس إلا
أنهم هم الضالون إلى ذلك الحد العجيب ، أنهم يدعون داعية الحق إلى
الباطل فبالى نار ، وهذه الحالة البئسية هي من خلفيات الطبع « على كل
قلب متكبر جبار » ألاً يحصر ضلاله في نفسه ، بل ويضل من يضل ويحاول
في إضلال من لا يضل فهو في ثالث الضلال المنحوس !
وكيف « أشرك به ما ليس لي به علم » ويعلم الذي آمن ألا شريك

امير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيه وقد سأله رجل عما اشبه عليه من الآيات واما قوله
عز وجل ﴿ قَاوِلُكُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بغير حساب ﴾ قال رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) قال الله عز وجل : لقد حققت كرامتي - او قال - : مودتي لمن يراقبني
ويتحاب بجلالي ان وجوههم يوم القيامة من نور على منابر من نور عليهم ثياب خضر قيل
من هم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : قوم ليسوا انبياء ولا شهداء
ولكنهم تحابوا بجلال الله ويدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب نسأل الله ان يجعلنا
منهم برحمته .

له ؟ وهو مجارة مع المشركين أنني وإياكم لا نعلم - لأقل تقدير - أن الله شريكاً ، حيث الآيات آفاقية وأنفسية ليست لتدل له على شريك ، ولا أنه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن له شريكاً ، واتباع غير العلم محظور في كافة الحقول لدى أصحاب العقول ، وأنا أدعوكم إلى ما تقتضيه العقول، وأنتم تدعونني إلى ما ترفضه العقول ، أنتم تدعونني « لأكفر بالله » به وبتوحيده « وأنا أدعوكم إلى العزيز الجبار » وأين دعوة من دعوة !

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (١٣)

« لا جرم » : لا بُدَّ حقاً دون ريب « أن ما تدعونني إليه » من طواغيت وأوثان « ليس له دعوة في الدنيا والآخرة » أتري كيف لا دعوة للطاغية في الدنيا وقد وصلت لحد تدعوا دعائه الذي آمن وهو في قمة الإيمان ، والدعوات والدعايات الطائفة المزخرفة للطفاة تملك من كل وسائل الإعلان ما لا تملكه دعاة الحق ، مهما لا يملكون دعوة في الآخرة .

علَّ « دعوة » تعم دعوة منه كهذه ولا تُحسب بحساب إذ لا تملك أية برهنة، فليست هي حقاً بدعوة فـ « له دعوة الحق . . » (١٣ : ١٤) لا سواه .

ثم دعوة من أنبياء ، ولم يعهد دعوة من صاحب رسالة بيناته لطاغوت أو وثن ، بل وهم مجمعون على توحيده « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢١ : ٢٥) .

فهم - إذاً - آلهة دون رسل داعية ! ومن ثم « ليس له دعوة » تستجاب أن تنفذ أوامرهم كما الله ، إذ لا يملكون في الكون تغييراً ولا تحويراً في كلمة نافذة « أن يقول له كن فيكون » وأخيراً لا يقدرّون على إجابة دعوة

« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » (٣٥ :
 ١٤) « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباطط فيه
 إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (١٣ :
 ١٤) .

ففي مربع الدعوة لا تجد لهم ضلعاً ضليعاً إلا ضئيلاً من دعوة باطلة
 لا تملك أي برهان ، فليست هي أيضاً بدعوة ، فهل تجد إلهاً دون دعوة في
 الدنيا وهي تجواله ، وبأحرى « ولا في الآخرة » فالملك يومئذ لا
 يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، « وأن مردنا إلى الله » دون
 الآلهة التي ليس لها دعوة « وأن المسرفين » في نكران الحق « هم أصحاب
 النار » لا سواهم مهما دخلوا النار بكبيرة موبقة ثم يخرجون ، فأصحاب
 النار هم الأبدون في النار .

وهذه جولة أخيرة في حجاج الذي آمن وجاء اللجاج العارم من آل
 فرعون فأصبحوا في ارتجاج ، ولا سيما في ختامها حيث يخبرهم عن
 مستقبلهم أسفاً على ماضيهم وحالهم ولات حين مناص :

﴿ فَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ ﴾ (٤٤) .

لم يبق عليّ بعد هذه الحوار من شيء « فتذكرون » هنا وفي
 الأخرى « ما أقول لكم » ولا تنفعكم الذكرى « وأفوض أمري » في مكرهم
 عليّ « إلى الله » فلاقوه إلا بالله « إن الله بصير بالعباد » بصير بمن يدعو
 إليه ما أمكنه لحد الخطر على نفسه ونفيسه ، وبصير بمن يصر في إنكار
 واستكبار ، فلا بد وأن ينصره عليهم وكما فعل ، فقد كان هناك تخاوف ،
 إخافة من آل فرعون وإجابة عنها بـ « فتذكرون .. » وأفوض أمري إلى
 الله .. » .

وترى ما هو الأمر الذي يفوض إلى الله ، ولا تحمله إلا هذه الآية في سائر القرآن ؟

« أمري » لا تعني كل أمر ، فإنما هو أمر الحياة في خطورتها عقيب هذه الدعوة الصارمة وليس بيده ، وأمر الدعوة حيث بلغت إلى آخر المطاف فلا حول له ولا قوة إلا كما فعل ، فليس هو أمر التكليف أن ينسحب المكلف عن أمره وهو في استطاعته فيفوضه إلى الله ، ولا الأمر الذي ليس منه ولا إليه مما يختص بالله فإنه كله لله ليس لأحد فيه أمر سواء ، إذا فهو أمر بين أمرين ؛ أن يواصل في تحقيق ما حل كما يستطيع ، ويفوض أمره إلى الله فيما لا يستطيع ، اقتساماً لأمره بين أمرين ، مهما كان متوكلاً عليه في كلا الأمرين ، فليس التفويض - وهو الرد - إلا بعد تقويض ، دون الأمور المستطاعة المحولة إليك ، ولا غير المستطاعة المستحيلة عليك ، فلا رد فيها إلى الله ، إلا فيما لا قوة فيه إلا بالله وقد حول إليك .

« أفوض أمري » هذا « إلى الله » لا سواء ولا فوضى جزاف فـ « إن الله بصير بالعباد » حيث يأمرهم بما لا يستطيعون إنجاءه وإكماله ، فأنا قد عملت بواجبي كما أمرت ، ثم الله يكفيه فإنه الكافي لا كافي سواء .

فقد يريد الله أن أقتل دون دعوتي ولكي أفوز أنا وتفوز دعوتي ، كما قُتل الكثير من دعاة الحق دون دعوتهم إلى الحق ، أم يريد الإبقاء على تعجيزاً لعدوي ، أم وإفناء عدوي بعدي وهم ينظرون ، وأنا فائز على أية حال ما لم يمسوا من كرامتي إضلالاً لي أو انتقاصاً من إيماني .

إذا فليس كل من يفوض أمره إلى الله ، في دعوته إلى الله ، يضمن بقاءه فيها ، وإنما المضمون - إذا - الحفاظ على إيمانه ، والإبقاء على دعوته مهما قضى عليه في شخصه وكثيراً ما هم ، وهناك قلة قليلة كإبراهيم ويسف وآل موسى وجاه آل فرعون : « والمفوض أمره إلى الله في راحة الأبد

والعيش الدائم الرغد ، والمفوض حقاً هو الفاني عن كل همه دون الله تعالى كما قال امير المؤمنين (عليه السلام) : رضيت بما قسم الله لي ، وفوضت أمري إلى خالقي كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي . . . »^(١) والمفوض لا يصبح إلا سالماً من جميع الآفات ولا يمسي إلا معافاً بدينه »^(٢) .

﴿ فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَّ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ^(٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ^(٤٦) ۝

ظاهر إطلاق الوقاية هنا . خلاف الرواية^(٣) أنه قتل ، حيث الحق بآل فرعون هو غرقهم لما لا حقوا آل موسى ، والتفويض الى الله وقاية لكل من مكربه في سبيل الحق^(٣) .

(١ - ١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : المفوض . . . كذلك يحسن فيما بقي قال الله عز وجل في المؤمن من آل فرعون « وافوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » والتفويض خمسة احرف (ت ف و ي ض) لكل حرف منها حكم فمن اتى باحكامه فقد اتى به « التاء » من تركه التدبير في الدنيا و « الفاء » من فناء كل همه غير الله تعالى و « الواو » من وفاء العهد .
(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٢١ ح ٥٢ محاسن البرقي عن ابي عبد الله (عليه السلام) في قول الله « فوقاه الله سيئات ما مكروا » قال : اما لقد سطوا عليه وقتلوه ولكن اتدرون ما وقاه وقاه ان يفتنوه في دينه ورواه مثله في الكافي ، والقمي : فقال ابو عبد الله (عليه السلام) والله لقد قطعوه ارباً ارباً ولكن وقاه الله عز وجل ان يفتنوه عن دينه .

(٣) المصدر عن كتاب الخصال عن الصادق (عليه السلام) قال : عجبت لمن يفزع من اربع كيف لا يفزع الى اربع - الى قوله - : وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع الى قوله « وافوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » فاني سمعت الله تعالى يقول بعقبا « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

إن « ما مكروا » تشمل « أقتل موسى » فضلاً عما معه ، وإضلال الذين آمنوا معه ، ومن سيئاته قتله وإضلاله إذ خاض في حوار الصارم مع موسى بين الجماهير المحتشدة «فوقاه الله سيئات ما مكروا» تشمل من السيئات هذه وتلك - إذأ - فما قتلوه رغم ما مكروا « وحساق بآل فرعون سوء العذاب » بدلاً أن يحيق به سيئات ما مكروا !

وقد لا يكون قتله في سبيل دعوته من سيئات ما مكروا ، فانه من حسناته في حساب الله حيث الشهادة في سبيل الله كرامة ما فوقها كرامة !
وسوء العذاب هو العذاب السوء ، وكل عذاب سوء ، ولكنه كان سوء على سوء إذ غرقوا حينما ترائى الجمعان فأدخلوا ناراً فور غرقهم وهذا من سوء العذاب .

« وحساق » نزل وأصاب « بآل فرعون » فرعون ومن معه « سوء العذاب » حرق بعد غرق ، فه « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » ترى أنه عرض دون دخول ؟ ولماذا « غدواً وعشياً » ولا رياحة في النار ولا تخفيف ؟

العرض عبارة أخرى عن الدخول كحالة خاصة منه كما يعرض اللحم على النار لنضجه « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » (٤٦ : ٣٤) وقد يلمح أنهم متاع يعرض على النار وهي تشريعهم كما شروها أنفسهم من قبل ، فهم متاع النار ، ثم « غدواً وعشياً » دليل أنها نار البرزخ ، لا لأن القيامة ليس لها غدو وعشي ، فإنما لاختصاص العذاب بهما ، ورياحة بينهما، ولا راحة ولا مهلة لأهل النار الأخرى في

وتصديق الوعد و « الياء » اليأس من نفسك واليقين من ربك و « الضاد » من الضمير الصافي لله والضرورة إليه ... أقول : (٣) الثانية ذيل الحديث .

النار ، ودليل ثان « ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ». فهذا - إذاً - شديد العذاب ، ومن ثم أشده ، ولأن الأشد هناك مطلق بين أهل النار - فهم - إذاً - في الدرك الأسفل من النار فـ « أولئك هم وقود النار » وقال الذين في النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ^(١) وتخفيفه بين كل غدو وعشي هو تخفيف العذاب أياماً فوق يوم ! « فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » (٢ : ٨٦) « خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » (٢ : ١٦٢) لا تخفيفاً عن نفس العذاب ولا عن خلوده ولا عن فواصل بينه وإن كانت ساعة وأدى وكله تخفيف للعذاب ، و « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (٤ : ٥٦) وكفت نار الخلد نضجاً للجلود لأن ما ، فاذا نضجت غدواً ثم ظلت ناضجة دون تبديل إلى العشي نقض العموم المستغرق للأزمان في « كلما » . . إذا فهي نار البرزخ دون رب إذ لا توافقها مواصفات نار الخلود .

ولو أن عرض الغدو والعشي هو في نار الآخرة إذاً فهم من السعداء ^(٢) ولولا أن عرضهم هو دخولهم فما تعني « مما خطبأتهم أغرقوا فادخلوا ناراً » (٧١ : ٢١) وهي نار البرزخ لغرقى نوح كما تلك ناره لغرقى موسى ^(٣) ! .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٢٢ ح ٥٦ القمي قال رجل لأبي عبد الله (عليه السلام) ما تقول في قول الله عز وجل : « النار يمرضون عليها غدواً وعشيا » فقال أبو عبد الله (عليه السلام) ما يقول الناس ؟ فقال : يقولون انها في نار الخلد وهم لا يعذبون فيما بين ذلك فقال (عليه السلام) : فهم من السعداء فقليل له جعلت فداك فكيف هذا ؟ فقال : انما هذا في الدنيا فاما في نار الخلد فهو قوله « ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .
(٢) المصدر ح ٥٨ في الكافي باسناده عن محمد بن عثمان عن أبي عبد الله (عليه السلام)

فهذه الآية - إذاً - هي في عداد الآيات البرزخية ، وهي مع آية نوح (٧١) تعذب آل فرعون كآل نوح في نار البرزخ الكامنة في الماء ، وكيف بالإمكان وجود نار في الماء تحرق ؟ لأنها نار برزخية وهي في أعماق المواد الدنيوية كامنة ، فكما أن البدن البرزخي يختلف عن الدنيوي ، كذلك ناره وجنته ، فهما كامتتان في مكانتهما من مواد دنيوية ، يظهرهما الله لأهليهما في البرزخ دون أن تظهرأ لاهل الدنيا إلا لمن « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

فالبرزخ بناره وجنته عالم كامن في عالمنا ، لا يراه إلا أهله ، وكما النار كامنة في كافة الذرات لا يحرقها إلا كاشفو الذرة لحدماً ، ونحن نعيشها في موادنا كلها ، من ماء وثلج أماذا ؟

وهل إن « غدواً وعشياً » في البرزخ تعنيهما فيما نعيشهما هنا ؟ أم فيه غدو وعشي كما يناسبه وكما في الحياة الأخرى : « جنات عدن .. ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » (١٩ : ٦٢) تقرر للأخرى غدواً وعشياً كما للأولى مهما اختلفتا .

قال : سألت عن ارواح المشركين فقال : في النار يعذبون يقولون ربنا لاتقم لنا الساعة ولا تنجز لنا ما وعدتنا ولا تلحق آخروننا باولنا ورواه مثله عنه (عليه السلام) عن ابي بصير .

اقول : لعل عرضهم على النار ادخال في نار البرزخ وعرض الاراءة من بعيد على نار الآخرة وكما في الدر المنثور ٥ : ٣٥٤ اخرج ابن ابي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي ان كان من اهل الجنة فمن اهل الجنة وان كان من اهل النار فمن اهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ، وزاد ابن مردويه « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » ثم المقصود من الدنيا قبل القيامة حيث البرزخ في موازاة الدنيا .

إنهما للبرزخ ليسا قطعاً ما للأخرى ولما تات ، فقد يكونان وفقاً لما
للأولى وهو الأولى، إذ لا شمس للبرزخ تخصه ، اللهم إلا أن يعنيا طرفين
لواحد الزمن في البرزخ حيث يختلف عما للأولى ، اللهم إنا لا نعلم إلا ما
علمتنا ، وما هو ههنا إلا « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » أو أنهما ما
يوافق الأولى في البرزخ حتى إن لم يكن فيه غدوً وعشي .

وإِذْ يَخَاجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ
تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا
دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا

وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا
بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي
الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا
الْمُسِيءُ قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ

فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ
 ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
 سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾



مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

محااجة أهل النار عذاب فوق العذاب ، إذ لا تبوء إلا إلى تباب ،
 حصرة على حصرة وبواراً فوق بوار في النار : « وإذ يتحاجون في النار »
 الضعفاء والذين استكبروا « فيقول الضعفاء » القاصرون عن تقصير ،
 المقصرون في حياة التبعية حيث تناسوا استقلالهم ، فاستغلوا لما لم يستقلوا
 فعاشوا أرذل حياة وأعضله وهي حياة التبعية الهامشية للمستكبرين ،
 فأصبحوا أداة لافتعالاتهم ، آلات لتحقيق شهواتهم ، دونما حظوة لهم
 أنفسهم إلا قليلة متبعية على هوامشهم ، عبيد مرتزقة ، في حياة العمالة
 الجهالة ، وهم يحسبونهم معذورين حيث استضعفوا « فيقول الضعفاء للذين
 استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار » كما أغنيا عنكم نصيباً
 من حياة العار والدمار ، نصيباً بنصيب والله من ورائنا حسيب ، فيسمعون

الجواب الحاسم الجازم « إنا كلٌ فيها ان الله قد حكم بين العباد » فلا حكم لسواه إذ لا حاكم هنا سواه ؟ حاكم عدل في ذلك العدل .

وهل « يتحاجون » هنا يخص آل فرعون لسابقة حالهم ؟ علّه نعم فإنهم المخصوصون بذكرهم ، أو يعم سائر الكفار حيث الحاجة بين الضعفاء والذين استكبروا وهم أعم من آل فرعون مهما كانوا أنحس مصاديقهم ، فالمرور لا يخص حتى لو كانوا هم المورد ؟ « وقال الذين في النار . . » بعدها يؤيد العموم ، ومنطق الآية نفسها منطق العموم ! فهي - إذاً - محاجة بين ضعفاء التاريخ ومستكبريهم : « ويرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (١٤ : ٢١) .

و « الضعفاء » هنا لا تعني كل الضعفاء ، وإنما المقصرون في قصورهم واتباعهم ، دون المستضعفين « من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم . . » (٤ : ٩٨) فضلاً عن مستضعفي المؤمنين فإنهم ليسوا ضعفاء في ذوات أنفسهم وأفكارهم مهما استضعفوا في حركاتهم وسكناتهم ويظهر حياتهم « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . . » (٢٨ : ٥) .

بل هم الضعفاء المستضعفون « الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » (٤ : ٩٧) .

فما لم يكن ضعيفاً في نفسه لا يُستضعف في دينه ، بل يتبلور إيمانه مهما استضعف إلا الضعيف القاصر غير المقصر .

إن الضعفاء المقصرين تنازلوا عن كرامات الله وتغافلوا عن كرامة الإنسانية المستقلة الحرة المختارة، وانساقوا إنسياق الشياة وراء المستكبرين والبطغاة ، ولم يسمحوا لأنفسهم أن يقولوا « لا » اللهم إلا بلى في كل بلاء لعناء أوردوهم فيها ، ولا سمحوا أن يفكروا في هذه الحياة الرذيلة الهزيلة ، زاعمين أن المستكبرين يُغنون عنهم في الأخرى كما أغنوا - فيما خيل إليهم - في الأولى ، فجاء الجواب حاسماً لأوهامهم « إنا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد» ولو هدانا الله لهديناكم « لا يحين إلى استحالة في هدى الله إذ لم يكونوا من أهلها، ولكن أضلنا الله فأضللناكم !

وفي محاجة أخرى «إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قالوا بل لم تكونوا مؤمنين» (٣٧ : ٢٩) فقد كنتم ضعفاء في أصل الإيمان فاستغللناكم باستضعاف على ضعفكم ظلمات بعضها فوق بعض .

«إنا كلٌ فيها» فإن كلنا ضعاف لا نقدر على شيء ، فلا نجد لنا نصيراً ولا مصيراً إلا النار ولا يغنيها عنها شيء إلا البوار ، هنا يأس الضعفاء عن الكبراء فينعطفون إلى خزنة جهنم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ^(٤٩) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ^(٥٠) ۝

« الذين في النار» في نفسها تعم الخالدين والأبدن وغيرهما ، وتخفيف

يوم من العذاب، يعني المستحق الذي لا يقبل العفو، مهما كان من الذين يخرجون عن النار بعد رُوح بعيد أو قريب من الزمن، ولكن الآية التالية تختصهم بالكافرين الناكرين للرسالات وللمبدء والمعاد، فهم الأبدون في النار دون من يخرج فإنهم يستحقون تخفيف يوم وأيام من العذاب حيث مصيرهم الجنة والثواب .

ولماذا « لخزنة جهنم » مكان البعد البعيد عن الرب والآ جواب لهم منه ، ولذلك « أدعوا ربكم » دون ربنا أو رب العالمين، حيث انقطع عنهم عطف الربوبية بكفرهم .

و « يوماً من العذاب » قد يعني زماناً ما ملموساً من العذاب ، حيث المتقاضى في ذلك السعير الحارق البالغ ، ومن أهل النار عالمين أنهم يستحقونها جزاءً وفاقاً ، إنه ليس بطبيعة الحال إلا أقل زمان ، فعله واحد من الزمن الأخروي أياً كان ، فالיום في القيامة بين أدنى الزمان وطائلها وبينهما عوان ، ويعرف كل حسب القرائن ، كمثل اليوم في الدنيا وبينهما البرزخ العوان .

وهنا لا جواب لأهل النار من خزنتها إلا التأنيب العتاب، تذكيراً بسبب الدخول في النار :

« قالوا » ألم تك عندكم آيات من الأنفس والآفاق لكم فيها عبرة ، فإن لم تكن أو لم تعتبروا « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات » وترى معاصرو الرسل أتتهم رسلهم بالبينات فما بال الغيب يعاتبون بعثهم فيعذبون عذابهم ؟ القصد من إتيان الرسل إتيان الرسالات ببلاغها

وبلوغها ، فيما عاشت الرسالة بحمّلتها رسولاً وكتاباً آمناً ذا ، فالحجة بالغة دامغة وإن كان الرسول قضى نحبه ، كما قد لا تبلغ الرسالة والرسول حي يرزق ، فالمدار على بلوغ الرسالة الحجة بيناتها ، وكلما كانت أقوى فناكرها أخزى في حياته أم بعد مماته - « قالوا بلى » قد أتتنا رسلنا بالبينات « قالوا فادعوا » تعجيزاً في دعائهم « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » فكما عاشوا في حياة التكليف ضلّالاً ، فسوف يعيشون حياة الجزاء ضلّالاً في دعائهم أماذا ! .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٥١) .

وعلى هذه هي سابق وعد الله وسابغه : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » (٣٧ : ١٧٣) الذين آمنوا هم منصورون كما المرسلون ، فهم جميعاً جند الله الغالبون ! قاعدة صارمة مطردة طول التاريخ الرسالي دوغماً استثناء .

هنا تأكيدات أربع لتحقيق ذلك الوعد « إن - نا - ل - ننصر » إثنان لجمعية الصفات وهي أقوى تأكيداً ، والأخريان من أداة التأكيد .

وذلك تعقيب جاسم جازم يناسب الموقف الحاسم الباصم ، أن جند الله غالبون ومنصورون من رسل ومؤمنين ، لا فقط « يوم يقوم الأشهاد » بل و « في الحياة الدنيا » بينما نشاهد في تاريخ الرسالات أنهم بين شريد وجريح ومهتوك وقتيل ومكذوب من الأكثرية الساحقة بين المرسل إليهم ، فأين - إذاً - وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ومن هنا يدخل الشيطان

في النفوس ويتدسس ضعاف النفوس ، ليحملهم إلى التشكك في صدق الوعد أو التكذيب بصادق الوعد .

ولكن المناسبة بين الحكم والموضوع تقضي أن النصر هنا تدور حول موضوع الرسالة والإيمان ، وهما أمران معنويان ، والناس يقيسون بظواهر الأمور ، وفي فترة قصيرة من الزمان وحيزة محدودة من المكان ، ولكن فسيح الزمان ووسيع المكان بما فيها زمن دولة القائم المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يجعل الانتصار في المجموعة لـ « رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا » في السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية^(١) مهما اختصت قبل ذلك الزمن بالأخيرة .

ولو نظرنا إلى بُعدي الرسالة والإيمان معها وبها، لرأيتهما تنتصران دون ريب ، فأول ما تتطلبه منهما الرسالة ويطلبه صارم الإيمان أن يفنوا في سبيل تحقيقها حتى يُبرزوها بصورة أسمى وأقوى ، ولكي يعلم الناكرون أنها أئمن عند أصحابها من كل قيم الحياة ، فإنها كلها زهيدة ضئيلة أمام قضية الرسالة والإيمان!

إبراهيم يُلقي في النار ليلقي العقيدة وبلغها، ولكنه لا يرجع عنها إلا في هزيمة قصيرة وانتصار كبير « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » فحتى لو أنه احترق كما الكثرة الكثيرة من حملة الرسالات قتلوا في هذه السبيل ، فالمنتصر في سبيلها هو أصحابها ، حيث لا يُقتل إلا الرسل دون الرسالات ، وهي تزدهر وتنمو بهذه التضحيات .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٢٦ القمي باسناده عن جميل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ انا لتنصر رسلنا ﴾ قال : ذلك والله في الرجعة اما علمت ان انبياء كثيرة لم ينصروا في الدنيا وقتلوا وائمة من بعدهم قتلوا ولم ينصروا وذلك في الرجعة اقول : يعني مجموع النصيرين وهو تفسير باكمل المصاديق ، والا فالنصر الروحي حاصل هم على طول الزمن .

وسيد الشهداء الحسين بن علي صلوات الله عليهما يستشهد في تلك
الضورة المفجعة ، أترأه منهزماً في هذه المعركة ؟ في الحق إنه متصرف على
يزيد الطاغية ، فانه أبرز للأجيال مدى صمود الإيمان أمام أنحس
الطغاة حيث لا يرحم رضيعاً ، وأصبحت معركة العاشور مدرسة عالية في
القمة لمواصلة الفداء والتضحية في سبيل الله ، فقد نُصر هو والمؤمنون معه
في سبيل هذه الرسالة السامية .

هنالك النصر على اللذات والشهوات والرغبات في طريق تطبيق
الرسالات ، صموداً صارماً حتى التضحية بالنفس والنفس ، وتقديم كل
غسل ورخيص ، ولكي تبقى العقيدة ، ويبقى الحق ويزهق الباطل إن
الباطل كان زهوقاً .

أذلك هو النصر أم أن يبيع إيمانه بالثمن الأرخص الأركس : الحياة
الدنيا بزهرتها وزهوتها ؟

وفي كلمة قصيرة غير حصرية إن نصر الله يُرى « لرسلكم والذين آمنوا
في الحياة الدنيا » في غلب الحجة حيث تغلب الباطل ولا تغلب ، والغلب في
بينات الحق وزهوق الباطل ، والغلب الكامل في العاقبة فإن « العاقبة
للمتقين » وهي الدولة الأخيرة زمن القائم المهدي (عجل الله تعالى فرجه)
حيث يرجع المرسلون والذين آمنوا إلى محض الإيمان .

ليس النصر للذين آمنوا في الحياة الدنيا إلا إذا نصروا الله وهو محض
الإيمان « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »
(٤٧ : ٧) و « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » (١٦٠ : ٣) « ولننصركن

الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» (٢٢ : ٤٠) «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» (٣٠ : ٤٧) .

وأما الرسل فهم منصورون على أية حال مهما اختلفت صور النصر، فإن سيرها واحد هو انتصار الرسالة روحياً ، وقد تنتصر زمنياً ، حتى يتم لها الانتصار في الدولة الأخيرة : «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنتين إذ هما في الغار ..» (٩ : ٤٠) ، إنتصاراً لتداوم حياة الرسول، تكملة للرسالة في القدر الذي قدره الله ، وكما نصره الله بفتح مكة نصراً عزيزاً «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً» (٤٨ : ٣) .

ولقد نصر نوح بعد رده بعد من الزمن زمنياً بعد نصره على طول خط الرسالة روحياً: «قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك ..» (٢٣ : ٢٧) .

وفي إبراهيم «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وازادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين . ونجيناه لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» (٢١ : ٧١) .

وفي موسى : «ولقد مننا على موسى وهرون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم . ونصرناهما فكانوا هم الغالبين . وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم . وتركنا عليهما في الآخرين» (٣٧ : ١١٩) .

وفي عيسى بن مريم : «فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا

مسلمون ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . « (٣ : ٥٥) » وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً « (٤ : ١٥٩) .

ثم ولن قبلهم وبينهم وبعدهم من النبيين انتصارات توخدها غلبة الحجة بنصوع المهجة ، وزيادات في سلطات زمنية ما قل منها أو أكثر وحتى يأتي صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهناك يتم الإنتصار ويعم البسيطة وكل العالمين .

هنالك إنتصار لهم في الحياة الدنيا ومن ثم « يوم يقوم الأشهاد » وهذا تعبير فريد في القرآن تسمى فيه القيامة بـ « يوم يقوم الأشهاد » وما هي الصلة الوثيقة بينه وبين نصر الرسل ؟ إنه سمة لجانب من القيامة وهو قيامة الأشهاد ، حيث الأشهاد ينصرون الرسل والذين آمنوا في شهاداتهم في مربع الشهادة ، وهي إنتصار لهم فوق إنتصار :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٥٢﴾

حيث الأشهاد يشهدون عليهم دون إبقاء فلا تنفعهم معذرتهم بل « هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون » (٧٧ : ٣٦) وترى إذا لا يؤذن لهم فيعتذرون ، فكيف لا تنفعهم معذرتهم وهي تلمح أنهم يعتذرون ؟ .

لا يؤذن لهم نهي عن الاعتذار إذ لا ينفع: « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » (٦٦ : ٧) فعدم نفع الاعتذار

على فرضه مهانة ، وعدم الإذن فيه مهانة أخرى ، خلاف جند الله إذ كان لهم انتصار فوق انتصار ! « ولهم اللعنة » من الله والملائكة والنبیین والمؤمنين ، وبالنتيجة « ولهم سوء الدار » بما قدمت أيديهم ، لعنة بما يقوم الأشهاد ، وسوء الدار بما تقبل شهاداتهم عليهم ، قدر ما أساءوا في هذه الدار .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ^(٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^(٥٤) .

وهذه جماع الرسالة الموسوية على طولها حيث ختمت بانتصارها ، نموذجاً من نماذج الانتصار الرسالي ، بعد صبر وإنتظار :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ^(٥٥) .

بما حامل الرسالة الأخيرة وهي أثقل وأطول وأكمل من كافة الرسائل ، عليك بالصبر الجميل الطويل « إن وعد الله حق » أن ينصرك الله نصراً عزيزاً في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد هو عليك في هذه السبيل الشاق الطويل المليء بالأشلاء والدماء ، أن تستغفر لذنبك ، لذنب الرسالة التي تعيشها بأخطارها ، والدوائر المتربصة بها حتى يغفرها ويسترها عما يمسها بسوء وكما غفر الله بما فتح مكة نصراً زمنياً إلى روعي ، ومن قبل منذ الرسالة من الناحية الروحية .

وان تستغفر لذنبك : السيئات التي تعترضك قضية السلطة الزمنية ، وكذلك الروحية ، أن تدفعها عن ساحتك قبل أن تدنسها ، بكل ما تملك من إمكانيات ، وتفوض أمرك الى الله فيما لا تسطع على دفعه حين تُقَوَّضَ ظهرك ، فتصبح في مثلث الاستغفار عن ذنبك ، في العصمة المطلقة الإلهية وقمتها ، ولا رابع له من ذنب مقترف وعصيان حيث الساحة الرسالية بريئة

عن كل عصيان ، فضلاً عن رسول الرسل ومسيدهم (صلى الله عليه وآله وسلم) !

« وسبح بحمد ربك » لا تسبيحاً فقط ولا حمداً فحسب ، وإنما تسبيح بالحمد ، أن تصفه كما وصف به نفسه ، وتنزهه عن صفات المخلوقين ، وعن زيادة الذاتية منها على ذاته أو تركبها ، ومبائلة غير الذاتية منها لسواه تعالى ، فقولك « عالم » تعني منه « لا يجهل » - ولا أن « علمه كسائر الخلق » فلا نحيط بعلمه شيئاً ولا ندرك منه كما هو شيئاً . وهذا تسبيح بحمده ، وأما حمده دون تسبيح به فقد ينجرّف الى اثبات صفات تشبه صفات المخلوقين أماذا مما لا يليق بساحة رب العالمين .

« بالعشي والإبكار » وهل إنهما فريضة الفجر والعصر^(١) حيث السورة مكية والفرض في رده من العهد المكي كان لها ؟ « وسبح .. » أمر باستمرار الفرضين حتى يأتي أمر الله لأنه بدأ بهما ؟ حيث الصلاة بادئة بدء النبوة والآية بسورتها نازلة ردهاً بعد النبوة !

أم إن العشي والإبكار قليل نهار تعني الوقت كله ، وقد ذكر طرفاه لأنها أهم الأوقات للذكر والذكرى في مجموع الليل والنهار ، نيامة في العشي وإفاقة في الإبكار ، ففي إفاقة الإبكار مثال للحياة بعد الموت ، وفي نيامة العشي مثال للموت بعد الحياة ، فهما وقتان لها أهميتهما للذكرى ؟

أم إنهما تعنيان أوقات الصلاة كلها^(٢) وقد ذكرا بينها كأهم الصلوات

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٥٢ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : صلاة الفجر والعصر .

(٢) المصدر أخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : صل لربك بالعشي والإبكار قال : الصلوات المكتوبات .

والاوقات ، والقصد إلى الصلوات المفروضات في مجموعة الليل والنهار ؟

التسبيح بالعشى والإبكار مكرور في آيات مدنية: « وسبح بالعشى والأبكار » (٣ : ٤١) « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » (١٨ : ٢٨) وكما في أخرى - مثل هذه - مكية: « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » (٦ : ٥٢) اثنتان بائتين ، في إبكار مرتين وغداة مرتين والعشى في الأربع كلها ، فلا نحتمل أنها الفرضان حيث الخمس فرضت قبل المدنية بردح من الزمن .

ثم للإحتمالين الآخرين مجال ، والخمس المفروضات تشترك فيها ، فلما أن تعنيها الآية بخصوصها ، أم في عموم التسبيح وهي أهمه (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٥٦) .

ليس جدال هؤلاء الحماقى إنتصاراً لهم على الرسالة الإلهية ، فإنه « بغير سلطان أتاهم » وهو يعلم نقي أي سلطان ، كالذي يجادل دون أي برهان ، أم بسلطان الباطل : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » وكلاهما سيان في أنها « بغير سلطان أتاهم » .

هؤلاء الطغاة لا يجادلون في آيات الله بسلطان قاطع ولا ريبة أو شك هما في سبيل تحقيق الحق وإبطال الباطل ، حيث الشك في هذه السبيل شك مقدس ، فليس في صدورهم واحدة من هذه العاذرة « إن في صدورهم إلا كبر » متناسين أنفسهم ومتجاهلين أنهم مهازيل ضعاف ، لا حول لهم ولا قوة إلا بالله ، لذلك فهم يتنفخون ويتفجئون في تشامخ وتعالٍ وحتى على الله وآياته « وما هم ببالغيه » كبر في صدورهم نخيل

(١) راجع تفسير الآيات الثلاث الأخرى في محالها .

إليهم ، يهدفون إلى بلوغه في واقعهم أمام آيات الله « وما هم » على أية حال ، وفي أي حلّ وترحال وبأية وسيلة وإدغال « ببالغيه » فإنهم داحضون بكبرهم وبحججهم أمام حجج الله ، ومتى رأيت في تاريخ الرسالات أن يبلغ مناوئوها بكبر في صدورهم ، يبلغوا دحضها وإيحائها إلا دحض أنفسهم وفضحها « فاستعد بالله » من كيد هؤلاء ومبئدهم حين يحاولون تضليل المستضعفين « إنه هو السميع » مقالكم ومقالهم « البصير » بأحوالكم وأحوالهم ، فإنه ينصر حقه ويهدر باطلهم .

﴿ لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧).

« أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ؟ بل هي أكبر وأشد من خلقهم مهما كان الإنسان أحسن تقويماً ! وليس الأكبر والأشد في الخلق في ميزان الله ، فكل خلق له هين ، إنما هو في ميزاننا ، ولما يقيس الإنسان نفسه إلى السماوات والأرض وهما مجموعة الكون ، يطامن من كبريائه متصاعراً متضائلاً ، إلا أن يذكر خلقه « في أحسن تقويم » وليس إلا في استعداده القمة للإيمان القمة حيث الكافر « في أسفل سافلين » ! « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وهم الأكثرية الكافرة بالله ، المكذبة بآيات الله ، فلأنهم « لا يعلمون » متجاهلين متغافلين ف « إن في صدورهم إلا كبراً » ولكن « ما هم ببالغيه » .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا

الْمَسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٨) .

الأعمى والبصير مثل للجاهل والعالم ، والآخران للمؤمن الصالح

وسواء ، ولماذا « ولا المسيء » بدلاً عن « ولا الذين آمنوا » علّه يعني نفي المساواة بين أفراد « المسيء » بعد نفيها بينه وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بحذف اللأ فيهم عطفاً على « وما يستوي الأعمى . . » فقرينة العطف ونفي الإستواء بين المسيء تكفيان دلالة على حذف اللأ عن الذين آمنوا .

فهناك سلوب ثلاثة في الإستواء ثالثها بين أفراد المسيء المنقسم إلى المسيء إيماناً وعملاً فأسوأهم ، والمسيء إيماناً لا عملاً حيث يمكن فسيئهم ، والمسيء عملاً لا إيماناً فأقل سوءاً ، هم لا يستوون عند الله ، كما لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع مثلث المسيء ، وتشبهها « لا تستوي الحسنة ولا السيئة » وقد مضت ، واللأ استواء في مطلق الحسنة يعني حسنة الإيمان والعمل الصالح مفرداً وجمعاً، وهنا جمع بينهما ، فالإستواء حاصل بينهم لحّد ما مهما اختلفت درجاتهم « قليلاً ما تتذكرون » .

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩)

وهذه الأكثرية بين من يعلم ثم يجحد ولا يؤمن « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ومن لا يعلم متجاهلاً حتى يجهل رغم توفر البراهين على أنها آتية لا ريب فيها ، فلأن « لا يؤمنون » يعم « لا يعملون » و « لا يعلمون » لذلك يؤتى به دون « لا يعلمون » إضافة إلى أن توفر البراهين عليه لا تفصح مجالاً لـ « لا يعلمون » إلّا تجاهلاً مهما بلغ حد الجهل، فإنه جهلٌ من يعلم ! ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، (٤٥ : ٢٦) الجهل - ولا سيما المركب منه - مصدر البليات كلها، فالجاهل يسوء إلى نفسه وإلى ذويه ، وبحسب أنه يحسن صنعاً فهو من الأخسرين أعمالاً .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٦٠).

تري ومتى قال ربكم .. فهل هو قاله هنا « ادعوني .. » ؟ وهذا مستقبل و « قال » ماض ! أم هو قاله في آية المضطر : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » (٢٧ : ٦٢) ولكنها مكية كما هي ، إلا أنها علها نازلة قبلها ، لكنها تعد إجابة المضطر دون أمر بالدعاء ! أم إنه آية الفرقان المكية : « قل ما يعبدوا بكم ربي لولا دعاءكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » (٧٧) ؟ وحقاً إنها هي إذ تحوي مانحوه، وتعني ما تعنيه ، ولكنها ليست دلالة المطابقة ، إلا تضامنية بدقة !

أو أنه قاله في أم الكتاب ومحكمه ، يقوله هنا في تفصيل الكتاب ؟ أم إنه جماع آيات الدعاء مكية ومدنية ؟ وعلى أية حال « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم .. » لا ريب أنها قول ربكم !

و « ربكم » هنا دون صيغة أخرى : الله - ربي - رب العالمين ، لمناسبة الدعاء عبادة واستدعاء فإنه أمر تربوي يعم عباد الله المؤمنين .

وهل ان « ادعوني » أمر بدعاء الاستدعاء حين الحاجة والبلاء ؟ لمكان « أستجب لكم » وشطر من آيات الدعاء : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة » (٣ : ٣٨) ؟

أو أنه أمر بدعاء العبادة لمكان « إن الذين يستكبرون عن عبادتي » وشطر آخر من آيات الدعاء : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » (٧٢ : ١٨) « إن الذين تدعون من دون الله أمثالكم » (٧ : ١٩٤) « قل إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله .. » (٤٠ : ٦٦) .

أم إنه يعنيهما لشطري الآية « أستجب لكم .. عن عبادتي » وشطري

آيات الدعاء ، وان دعاء الإستدعاء لإزامة دعاء العبادة من قبل ف « الدعاء تلو العبادة »^(١) فلا يُستدعى إلا من يُعبد ولا يُعبد إلا من يُستدعى ، والثانية شرط أصيل للاولى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون » (٢ : ٤٠) و « عهدي » هو عهد العبادة « ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » (٣٦ : ٦١) و « عهدكم » هو الإستجابة ! ف « لو وفيتم لله لوفى لكم »^(٢) وكما أن دعاء العبادة عبادة كذلك « الدعاء هو العبادة »^(٣) بل هي مخ العبادة ، وكما الإستكبار عن عبادته كفر ، كذلك الإستكبار عن دعائه فانه مخ الكفر ، وعمل « عبادتي » تعني دعاء الإستدعاء كأصل بعد دعاء العبادة ، وكأنها هي العبادة لا سواه ، فإن حقيقة الدعاء هي حقيقة التعلق بالله والزلفى إلى الله وهي حصيلة العبادة ، فهي - إذا - مخ العبادة : « يا رب سميت دعاءك عبادة وتركه إستكباراً وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين »^(٤) صاغرين ، « فلا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

مركز تحقيق كاتبيوتر علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٥٥ باسناد عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الدعاء تلو العبادة ثم قرأ « وقال ربكم ... » هل تدرون ما عبادة الله ؟ قلنا : الله ورسوله اعلم قال : هو اخلاص الله مما سواه .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٢٧ القمي حدثني ابي عن محمد بن ابي عمير عن جميل عن ابي عبد الله قال له رجل : جعلت فداك ان الله يقول : ادعوني استجب لكم « وانا ندعو فلا استجاب لنا ؟ قال : لأنكم لا توفون بعهد وان الله يقول : اوفوا بعهدي اوف بعهدكم ... »

(٣) المصدر اخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الدعاء هو العبادة وقرأ « وقال ربكم ... » .

(٤) صدر من ادعية الصحيفة السجادية وقلت « ادعوني .. » سميت ...

وكما أن الدعاء تلو العبادة ، كذلك العبادة والدعاء تلو المعرفة^(١) وكما تلمح له « إذا دعان » .

« ادعوني » في دعاء الإستدعاء هنا ركن لمكان « أستجب » ولكنها تستصحب شرطها الأصيل : دعاء العبادة . ثم تتلوها « عبادتي » أنها دعاء الإستدعاء والإفتقار ، فالأخرس عن هذا الدعاء على حاجته على أية حال ، ناكراً لفقره وافتقاره إليه ، وكافر بغناه .

وهل تعني « أدعوني » بلسان القال ؟ وكثيرون يدعون ولا يستجاب لهم ، وقليل يدعون بلسان الحال وهم مستجاب لهم ! أم تعني لسان الحال دون قال ؟ والمقربون من عباد الله يدعونه بمقال مع حال !

أم تعني لسان الحال ويبرزه المقال والأعمال ، فالعناية إلى مثلث الدعاء كأكمل درجات الدعاء ، وهو الذي يضمن الإستجابة ؟ وقد تعنيه آية البقرة « فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان .. » (١٨٦) فإن « دعان » بعد « دعوة الداع » لا يعني تكرار الدعاء ، بل هو حقيقة الدعاء دونما شائبة ، ظاهرة ناطقة عن الباطنة بلسان العمل والقول .

وإذا كانت الاستجابة مضمونة بعد الدعاء فما لنا - في الأكثر - لا يستجاب لنا ؟

(١) المصدرح ١٠٤ في كتاب التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر (عليه السلام) قال : قال قوم للصادق (عليه السلام) ندعوه فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

(٢) المصدرح ٩٢ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن المؤمن ليدعوا الله عز وجل في حاجته فيقول الله عز وجل : أخرّوا إجابته شوقاً إلى صوته ودعائه فإذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل : عبدي ! دعوتني فأخرت إجابتك وثوابك كذا وكذا دعوتني في كذا أو كذا فأخرت إجابتك وثوابك كذا أو كذا قال فيتمنى المؤمن ...

« استجب لكم » و « اجيب دعوة الداع » وهما من وعده الصديق : لا يتحقق إلا على شروطه وفي زمنه الصالح ، فإذا توفرت الشروط في دعائك فالاستجابة كائنة على أية حال ، في حال أم استقبال : هنا أم في البرزخ أو الأخرى وهي أخرى وقد « يتمنى المؤمن أنه لم يستجب له دعوة في الدنيا مما يرى من حسن الثواب »^(١) ولكنك قد تدعو غير صالحك ، فالله أجل أن يغرك بجهلك صالحك عن طالحك ، وقد يعوضك صالحاً بدل ما دعوت من غير صالح وأنت لا تدري .

وقد تدعو وأنت غير صالح للإستجابة فكيف ترجوا الإجابة ؟
وقد تدعورك فيما حوله إليك أو ألزمه عليك ، وليس الدعاء إلا فيما لا تسطع أم لا تكفيه !

وعلى أية حال ليس عدم الإجابة إلا لنقص فيك أو في دعائك أم هي مستقلة قرية أم غريبة ، في دنياك أم أخرارك ، فثق بما وعدك ربك واتهم نفسك في غير إجابة ، أو انتظر مستقبلاً فيه الإجابة^(٢) .

خلف الوعد من خلفيات الجهل أو العجز أو البخل أو الخوف أماذا من نقص في الواعد يقتضي نقضاً في وعده ، وكل ذلك بعيد عن ساحته

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣١ من أبي جده عليه السلام .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٢٧ ح ٧٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال السائل : الست تقول يقول الله تعالى : ادعوني استجب لكم » وقد نرى المضطر يدعوه فلا يجاب له ، والمطيع يستنصره على عدوه فلا ينصره ؟ قال : ويحك ما يدعوه أحد الا استجاب له اما الظالم فدعاؤه مردود الى ان يتوب اليه ، واما المحق فانه اذا دعاه استجاب له وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلم او ادخر له ثواباً جزيلاً اليوم حاجته اليه وان لم يكن الامر الذي سأل العبد خيراً له إن اعطاه امسك عنه والمؤمن العارف بالله ربما عز عليه ان يدعوه فيما لا يدري اصواب فلك ام خطأ .

تعالى مستحيل، فإذا لا تستجاب دعوتك فتش نقصاً فيك أو نقضاً في شروط الدعاء .

من الحاجيات ما يعطيها ربنا دون دعاء ، ومنها ما يعطيها بدعاء فإنها شرط الإعطاء ، ليس لأن الله بحاجة إلى أن يُدعى ليعلم عن جهل أو يحفظ حظوة الإستدعاء ، وإنما حظوة القرب للعبد وليعلم أنه بحاجة دائبة إلى الله ، فيعيش الافتقار إليه في أحواله كلها ، بقلبه ولسانه وكافة وجهاته ف « ادع ولا تقل قد فرغ من الأمر فإن الدعاء هو العبادة »^(١).

أدع ربك على كل حال ، واطلب منه ما تحتاجه غير مصر ولا جازم عله لا يصلح لك وأنت جاهل ، وحتى إذا كان من صالحك ولا تستجاب فإن نفس الدعاء عبادة لا تضاحي ، كيف وربك يدعوك للدعاء ويعذك الإستجابة « و من اعطي الدعاء لم يحرم الإجابة »^(٢) وعطاء الدعاء هو حالها واستعدادها بشرائطها .

مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

وللدعاء شروط عدة هي العدة للإستجابة ، منها الوفاء بعهد الله العبادة ، ومنها حالة التضرع والخفية : « أدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » (٧ : ٥٥) ومنها ترك الإصرار الجازم عله لا يصلح له ف « عسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . . » ومن « الذنوب التي ترد الدعاء سوء النية وخبث السريرة والنفاق مع الإخوان وترك التصديق بالإجابة وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها وترك التقرب إلى الله عز

(١) المصدر ح ٨٣ القمي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول : ادع . . . ان الله عز وجل يقول : ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين .

(٢) نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام) مستشهداً بالآية .

وجل بالبر والصدقة واستعمال البذاء والفحش في القول»^(١).

إن هناك أموراً تتقدر فتقضى بحولك وقوتك ، وأمور أخرى لا تطيقها وقد أمرت فيها بدعاء ربك ، فلا تقل « قد فرغ من الأمر » فإنه قول اليهود فكيف قال : « أدعوني استجب لكم »؟^(٢).

ويا له من رحمة واسعة سابغة ، يأمرنا بدعائه ، ثم يتهددنا إن تركناها : « سيدخلون جهنم داخرين » صاغرين ، وإذا تعلم أنك فقير ضائق والله غني واسع ، يعطيك سؤلئك إذا دعوته ، فما يمنعك من دعائه إلا استكبارك ، أم سوء ظنك به كأنه غُلْفٌ وعَدَه عباده أَمَازًا من خطاً عارم ؟ !

كل سائل عبدٌ لمن يسأله مفتقراً ، فهل أنت تسأل سؤلئك عباده ، ثم تستكبر ان تسأله تعالى وهو رب السائل والمسؤول؟ ضعف الطالب والمطلوب !

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم اسلامی

(١) المصدر ح ١٠٦ في كتاب معاني الاخبار باسناده الى ابي خالد الكابلي قال سمعت زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يقول : الذنوب التي ترد الدعاء ...
(٢) المصدر ح ٩٦ في عيون الاخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع سليمان المروزي حديث طويل وفيه قال الرضا (عليه السلام) : يا جاهل ! فاذا علم الشيء فقد اراده ، قال سليمان : اجل ، قال : فاذا لم يرده لم يعلمه ؟ قال سليمان : اجل ، قال : من اين قلت ذاك وما الدليل على ان ارادته علمه ؟ وقد يعلم ما لا يريد ابدأ وذلك قوله تعالى : ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك فهو يعلم كيف يذهب به ولا يذهب به ابدأ ، قال سليمان : لانه قد فرغ من الامر فليس يزيد فيه شيئاً قال الرضا (عليه السلام) هذا قول اليهود فكيف قال : ادعوني استجب لكم قال سليمان : انما عني بذلك انه قادر عليه ، قال : أفبعد مالا يعني به فكيف قال : يزيد في الخلق ما يشاء ، وقال عز وجل : يدعو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب « وقد فرغ من الامر؟ فلم يحجر جواباً .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

الْيَلَّ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانَُوا بِعَايَةِ اللَّهِ يَجْعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ

فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَدَرَقَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

* قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُحَرِّجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ
لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا
أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١).

تعريف بـ « ربكم » الذي « قال أدعوني أستجب لكم » أنه « الله
الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً .. » نعمتان هامتان لم
يسألها الإنسان ربه وقد أعطاهما إياه قبل خلقه ، فكيف إذا سأل نعمة ؟
أتراه يبخل فيما يُسأل وهو كريم فيما لم يُسأل !

الليل هنا وفي سائر القرآن لباس^(١) وسكن لتسكنوا فيه عن حركات
التعب ونهضات النصب : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً

(١) راجع تفسير آية النبا في النوم وفي لباس الليل ومعاش النهار، الى ج(٣٠) الفرقان ص

إلى يوم القيامة مَنْ إِلَهَ غير الله يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ «
(٢٨ : ٧٢) .

صحيح أن في شغل الليل وراحة النهار سماحاً شرعياً وإمكانية كونية :
« ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاءكم من فضله » (٣٠ : ٢٣) ولكنه
تبصرة على ضوء قانون ، وسماح إذا لزم الأمر ، والأصل هو « الليل
لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » فَإِنَّ سَكْنَ الليل بنومه ضرورة حَيَوِيَّةٌ تسكن فيه
الخلايا الحية لتستمد حياتها ونشاطها في النهار ، ومجرد النوم لا يكفيها توفيراً
لهذا النشاط ، فالخلية الحية المعرضة لضوء مستمر ونهار سرمد تصل إلى
حد الإجهاد ، فتتلف أنسجتها إذ لم تتمتع بقسطها اللازم من سَكْنَ
الظلام .

كما وأن في سرمد الليل أو شغله بدل النهار إجهاداً في صورة أخرى
لهذه الخليات ، فلكل ضرورة حيوية على حدة في جذره ومده .

وهذه القاعدة تنحرف نحو الأثرية الساجقة في أمكنة هذه المعمورة ،
ففي المناطق التي يقل الليل أو النهار لساعة ونصف ساعة ، أم يطولان
لسته أشهر ، لا تنشئ هذه القاعدة إلّا بديلاً عنها بالنام في ظلام مصطنع
أو ضياء مصطنع . وعلى أية حال فراحة الظلام وإبصار الضياء أيا كان هما
فضل من الله ورحمة « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » كافرين بفضل
م غافلين !

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَارْ
تُفَكِّرُونَ ﴾ (٢٢) كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الدِّينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿ (٢٣) .

« ذَلِكُمْ » انبياء المحتد ، الكبير المتعال « رَبُّكُمْ » إذ خلقكم و « لَهُ
الخلق والأمر » لا أنتم فحسب بل و « خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » جملة وتفصيلاً ،
فلا شيء إلّا وهو حلقه بلا شيء . . . فليس مخوناً حتى يخلقه هو أو

سواء ، فالكون إما شيء خالق أو شيء مخلوق ثم لا شيء ، مستحيل ذاتياً أو مصلحياً وهو الممكن الذاتي ، فهما « لا شيء » على طول الخط ، مهما استحق الممكن إسم الشيء وجاء المستحيل الذاتي ، فإنهما لا شيء في الواقع .

ولأنه « خالق كل شيء » فهو إذاً رب كل شيء « أله الخلق والأمر » حيث الخالق أقوى وأعلم فأحرى أن يكون رباً لما هو خالقه ، ولا يأتي غيره إلا بالخسار والدمار « لا إله إلا هو » فلا خالق ولا رب ولا معبود ولا ملجأ ولا منجى إلا هو « فأنى تؤفكون » تصرفون إفكاً وزوراً عن دعوته عبادة واستدعاءً أماذا ؟

« كذلك » البعيد البعيد ، الرذيل الرذيل « يؤفك » عنه تعالى إلى سواء « الذين كانوا » بزمان بعيد « بآيات الله يمحذون » إذ أبصروا إليها ولم يبصروا بها حتى يستبصروا فعميت عليهم الأنباء فعموا وصموا فلا يفقهون حدثاً !
 ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صَوْرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢١)

أترى الأرض قراراً ساكنة لا حراك لها ؟ فماذا نصنع بآيات حراكها كالدحو والطحو والذللول والكفات والرافقة ويسبحون وأضرابها ؟ !

القرار من القَرَّ : البرد ، ما يلمح أن الأرض كانت حارة سريعة الحراك ومجنونة ، لا تقر ولا تحن لراكب كما دلت آية الذلول ، ثم ذلت بعد شمس وقرت بعد ارتكاس .

فالأرض القرار هي الباردة نسبياً بعد حرارتها البالغة ، دون برودة

مطلقة يسكن فيها الجسم عن أي حراك وهو موته وانعدامه ، إذ لا بد للمادة - على أية حال - من حركةٍ ما ، كزّية وفوق الذرية أم دونها ، حيث المادة هي الحركة ، فقرار الأرض وغيرها نسبة جانبية ، وهو هنا في بعدين ، قرّ البرودة وقرّ الإستقرار الراحة لساكنيها ، وبمجرد جعل الأرض قراراً دليل أنها كانت غير قرار ، حارة شمساً ثم قرّت وذلت بعد شمس شمس «أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً» (٢٧ : ٦١) فأنهار الأرض هي مجعولة بعد قرارها ، فلم يكن قبله ماءً أو كلاءً لشدة الحرّ الشمس .

ثم و «لكم» تدلنا على قرارها النسبي لساكنيها ، دون سكّون أصلي لها ، وعلى حدّ المروي عن الإمام علي (عليه السلام) في شأنها «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسبخ بجملها أو تزول عن مواضعها ..» وعدّل حركاتها بالراسيات من جلا ميدها وذوات الشناخيب الشّم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها^(١) .. فقد عبر عن حركتها المعدّلة بالسكون ، سكّوناً عن الميدان والإضطراب لحد لا يحس ساكنوها حركاتها ! ثم وفي بناء السماء بعد قرار الأرض لمحة ثالثة لمعنى القرار ، أنه السكّن الراحة ، وكما يستريح الإنسان في الطائفة دون صوت ولا اضطراب ، يعلم حراكها ولا يلمسه إلا أن ينظر إلى السحاب حولها والأرض تحتها ! وليس قرار الأرض لاستقرار الحياة - فقط - من خلفيات البرودة وتعديل الحركات ، فهناك موافقات كثيرة خلّفت ذلك القرار الراحة ، الممكن للحياة الناضجة المرتاحة .

(١) نهج البلاغة عنه (عليه السلام) في خطبتين .

« فلو دارت الأرض حول نفسها أو شمسها أسرع ما تدور الآن لاندثرت هي ، وتناثر ما عليها ، وقضت نحبها بمن عليها !

ولو دارت أبطأ مما هي لبطلت الحياة عليها أو صعبت ، ولولا دورانها حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها ، وتحولت الفصول إلى فصل واحد .

ولو كان الأوكسجين بدلاً عن ٢١ ٪ خمسين بالمائة تعرضت كافة المواد القابلة للاشتعال لخرقها ، ولو هبطت عن قدرها كعشرة بالمائة أو أقل لابتليت الحياة بقلّة الحرارة اللازمة لتداومها ونضجها .

وهناك آلاف الموافقات المتشابهة لا نعلمها ، خلّفت قرار الأرض كما نعيشها ، لولاها لبطلت الحياة أم صعبت على ظهرها^(١) .

ونعمة ثالثة بعد قرار الأرض وبناء السماء « وصوركم فأحسن صوركم » لا كسائر الحسن في سائر الخلق ، بل الأحسن المطلق الذي ليس فوقه حسن « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » مهما كان يساوي ويسامي في حسن : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » حيث يبقى القليل غير المفضل ولا المفضل عليه ، ولو وقفنا أمام صورة الإنسان : الجسمية - فضلاً عن صورته الروحية - وقفة دقيقة ، بل وأمام كل عضو من أعضائه أو خلية من خلياته لقضينا عجباً على عجب ، حيث يرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير !

(١) مقتطفات عن كتاب « مع الله في السماء » للدكتور أحمد زكي وكتاب « السماء » للاميان ، ترجمة محمود صالح الفنكي .

نضرب لذلك مثلاً العين مقيسة على الذبذبات الضوئية في جوه ، وأذنه مقيسة على الذبذبات الصوتية ، وكل حاسة له أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته ، لولا الموافقات بين هذه الذبذبات أو تلك وبين قُدرات العيون والسمع لاختلَّ مصلحة السمع والإبصار ولم يكن للإنسان على وجه الأرض قرار ! .

ورابعة « ورزقكم من الطيبات » ما تستطيع النفس السليمة مأكلاً وملبساً ومسكناً ومنكحاً ومنظراً أماذا من رزق مادي ، وفوق ذلك كله الطيبات الروحية والنفسية ، طيبات فوق طيبات !

« ذلكم الله ربكم » لا سواه « فتبارك الله رب العالمين » دون سواه الذي ليس رب نفسه فضلاً عن العالمين ! .

الر

تَرَى إِلَى اللَّهِ دِينَ يُجَدِّدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرُّونَ ⑥
الَّذِينَ كَتَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ⑦ إِذَا الْأَغْصَلُ فِي أَغْنَقِيهِمِ وَالسَّلْسِلُ
يُسْحَبُونَ ⑧ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ⑨
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ⑩ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا

ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْعًا كَذَلِكَ
يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٧﴾ أَدْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٨﴾
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَمَّا نُرِيتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْتَوَيْنَاكَ فَأَلْبِنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا
جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٨٠﴾
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٨١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِيَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٢﴾ وَيُرِيكُمْ

بِآيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُشْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا
 فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَانُوا أَكْثَرٍ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآ
 أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا
 ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ
 يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَتُ اللَّهُ آلِي قَدْ
 خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ ﴾ (٨١).

استفهام تقرير للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم أي من الذين
 آمنوا على الأبدال ، ثم تنكير لمن يجادلون في آيات الله ، وآيات الله من أدل

الآيات على الله دون إبقاء لأية ريبة إلا يقيناً لا شك فيه ، فكيف يجادلون فيها و « أنى يُصرفون » حيث يصرفهم الشيطان وتصرفهم أهواءهم ، وما هو إلا كبر به ينصرفون « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » - « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » ؟ ١ .

فالصرف من الحق إلى الباطل قد يكون قصوراً من المصروفين ببله أو جنون ، أم تقصيراً يضرب إلى قصور ، كأن يصور لهم الحق باطلاً والباطل حقاً وهم غافلون ، وثالثة عن بالغ التقصير كمن يجادل في آيات الله دون أي سلطان إلا لتصديقه ف « أنى يصرفون » .

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾^(٧٠) .

وعلى الكتاب هنا جنس الكتاب السماوي وكما تلمح إليه « رسلنا » دون « رسولنا » أم هو القرآن لأنه - في الحق - هو الكتب كلها كما أن رسوله الرسل كلهم ، ثم التكذيب بكتاب ورسول واحد تكذيب للكتب والرسل كلهم ، حيث المصدر واحد .

هم أولاء الحماقى وإن كانوا هنا لا يعلمون عن تعنت وتقصير ، ولكنهم « سوف يعلمون » هناك علم اليقين وعين اليقين :

﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾^(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿^(٧٢) .

و « الأغلال » هناك هي الأغلال هنا حيث ظهرت بسيرتها في الأخرى ، فأغلال العبودية للطواغيت ، وأغلال الشهوات والحيونات والإنيات ، هي التي تظهر بحقائقها يوم يقوم الأشهاد ، وكل يحس غلّه معه كما يحمل عداءه وغلّه ف « الأخلاء بعضهم يومئذ لبعض عدو إلا

المتقين ، كما ويحملون سلاسلهم المسلسلة بينهم وبين أرحمتهم ونيران شهواتهم .

ولأن الشجر هو تهيج النار وإضرارها ، فإسجارهم إذاً في النار قد يعني أنهم حطب النار ووقودها ، فهم أولاء بعد ما يُسحبون في الحميم جراً على الأرض إليه ، يُضرمون في النار حيث يزيدها تمهيجاً واضطراباً ، فيزدادون هم أنفسهم بأنفسهم تشنجاً واضطراباً :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ^(٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ^(٧٤) .

« ضلوا عنا » هنا في صفة الألوهية إذ تبين لنا أنهم ليسوا بآلهة ، أم ضلت قواهم رغم أنه الظهور تأشيراً إلى مدى دنائتها « بل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً » إذ لم يكن هناك واقع للدعوة كما للمدعوين ، وهذا ضلال لأهل الضلال فوق ضلال لمكان التلبك والتلغع الجارف حين الإجابة عن -ؤال .

﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ^(٧٥) .

الفرح بالحق حق لاسؤال عليه ، ولكنه بغير الحق فرحة باطلة وضحكة على الحق ، كمن يضحكون على المذنبين ويفرحون بدمارهم وأضرارهم ، ثم المرح هو شدة الفرح والتوسع فيه .

﴿ أَدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَيُخْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ^(٧٦) .

أبواب جهنم هي مداخلها السبع لأصحابها ، وليس « خالدين فيها »

تعنيها حيث لا خلود في المدخل وإنما هي جهنم يخلد الداخل فيها مهاناً
« فبئس مثوى المتكبرين ».

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا لُيَرْجَعُونَ » (٧٧).

عليك واجب التصبر لحق الوعد عليهم ، فسواء أريناك « بعض الذي
نعدهم » ما دمت فيهم يوم الدنيا « أو نتوفينك » إن العذاب لا محالة
واقع ، فحتى لو لم نعذبهم في الدنيا « فإلينا يرجعون » فليس أمرهم إلّا
إلينا ، فما دمت حققت واجبك الرسالي فقف عنده ، فأما النتائج فليست لك
ولا عليك وحتى شفاء صدرك أن تشهد فيهم بعض الوعيد ، فلا تعلق
قلبك بشيء إلّا بلاغ الرسالة ، ثم الأمر كله لله ، والله الأمر من قبل ومن
بعد وما أنت إلّا رسول !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّي بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٧٨).

إن من قص عليه من الرسل قليل^(١) من كثير منهم ، ولكنهم على
قلتهم عدداً يخلقون على من سواهم عدداً ، فإنهم عظماء الرسل بين من
دارت عليهم الرحي أو من ينحو نحوهم ، وعلى أية حال فالسنة الرسالية
هي ما تصرح به الآية أن الآيات الرسالية عذاباً ورحمة وإنما هي بإذن الله
ومهما كانت الآية الرحمة لإثبات الرسالة تأتي زمن الرسول ، فأية العذاب
قد تأتي بعد الرسول ، فلا تك في ضيق من تأخير آية ، ولا تذهب نفسك

(١) حيث المذكور منهم في القرآن (٢٦) رسولاً بين الالوف المشار اليهم في احاديثنا

عليهم حشرات ، فإذا جاء أمر الله في آية « قضي بالحق » على ناكريه
« وخسر هنالك المبطلون » .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ^(٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ وَلِتُبَلِّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ^(٨٠) .

وها هي آيات من الله لصالح المجموعة في الحقول المعيشية المادية ،
ليست تأتي إلا بإذن الله ، فبأحرى الآيات الرسالية أن ترتبط - فقط - بإذن
الله دون سواه .

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ^(٨١) ﴾ فالعلمون يعيشون آيات
الله في كل حلٍ وترحال وعلى أية حال ، دون أن يملكو منها أية فيأتوا
- هم - بآية ، فإنما هي من الله وبإذن الله « فأَيَّ آياتِ الله تنكرون ؟
﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ^(٨٢) ﴾

ذلك سير الأرض في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، حصولاً
على عاقبة الماضين ، ما تبقى من آثارهم في أماكنهم أو تهدم ، وما جاء في
الأثر الصحيح عنهم مهما تأخر أو تقدم ، فذلك سيرٌ يبشر المؤمنين وينذر
الكافرين ، عبرة من الغابر هي تذكرة للحاضر .

فتراهم « كانوا أشد منهم قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ » في الحياة الظاهرة
الحاضرة ، « فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » فأنتم بأحرى ، وعذاب الله
عليكم - إذاً - أشجى .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ ﴾ (٨٣)

اعتزوا بعلومهم التي كلها حلوم وظنوا أنها العلم لا سواه ، وحياتهم هي الحياة لا سواها .

« فرحوا » به ومرحوا واستهزؤا بعلوم الرسالات ، واعتبروها تأخراً عن الحياة ، فالحياة التقدمية هي العلم بالدنيا وطاقاتها وحالاتها والعمل لها ليس إلا ، فإنها هي التي تصلح للحياة حيث تصلحها ، دون العلوم الروحية التي لا تأتي إلا بأسر الإنسان وحصره عن حريته في الحياة ، ولكننا العلم دون بدن فتنه أياً كان وحتى العلوم الروحية ، فإنه يوحى بفرور ، ويبعث إلى شرور ، حيث يستخفه علمه وينسى جهله ، فلا يطمئن من كبريائه وعلويته ، إلا إذا تبناه الإيمان ، أم هو تبني الإيمان ، وما العلم الظاهر إلا وسيلة لظاهر الحياة ، ولا العلم الروحي إلا وسيلة لحقها الباطن ، فلولاً الإيمان لم يلي في العلم إلا خسران « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » (٥٣ : ٣٠) « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠ : ٧) .

ولكنهم « حاق بهم » واحاط « ما كانوا به يستهزؤن » .

كانوا يستهزؤن بمواعيد الله عليهم فحاق بهم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَانُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ (٨٣)

ونرى إيمانهم عند رؤية البأس ينفعهم وما هو بإيمان ؟

﴿ قُلْ بَلْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي

عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٤) .

سنة سنية دائبة « في عباده » ألا تُقبل التوبة عند البأس وحضور العذاب لأنها لا تمن إلى واقع ، وليست إلا خوفاً من عذاب واقع !

اللهم إلا إذا كان إيماناً بصدق وحق ، دون ممارسة ومجاعة نظيرة زوال العذاب ثم العودة ، فقد يكون الأخذ بالبأساء عذاباً لا مرد له إذ لا يضرعون مهملوا قالوا آمنا : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وذين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » (٦ : ٤٥) .

هذا - فاذا تضرعوا عند البأس وآمنوا صدقاً نفعهم إيمانهم كما في قوم يونس : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١٠ : ٩٨) .

فـ « آمنوا » هو حق الإيمان فليقبل ، و « قالوا آمنا » ليس إلا قولة الإيمان خوفاً عن البأس فلا يقبل .

الفهرس

الموضوع _____ الصفحة

سورة يس:

- محتملات من معانيها «والقرآن» حلف بالبرهان - حق القول في حق القول - السط
- خلفياً وأمامياً؟ الخشية بالغيث - امام مبین؟ ٦ - ٢٥
- كيف تكون «ربنا يعلم» برهان الرسل إلى اصحاب القرية - وحوارهم معهم؟ ٢٧ - ٣٢
- «قيل ادخل الجنة» من ادلة الحياة البرزخية، وان اهل القرية لم يؤمنوا خلافاً للرواية. ٣٩ - ٤٤
- حياة الارض بعد موتها من براهين المعاد، كما الليل والشمس والقمر، وكل في فلك يسبحون. ٤٥ - ٦٤
- من هم «ذريتهم في الفلك المشحون» كيف الى ربهم ينسلون؟ مرقد البرزخ دليل انه غرفة النوم. ٦٥ - ٧٩
- المحل هو الجزاء بملكوته البارزة في الأخرى، العهد المأخوذ علينا ألا نعبد الشيطان. ٨٠ - ٩١
- نكسة المعمر في الخلق - تكلم الأيدي وشهادة الأرجل، كيف يكون «وما علمناه الشعر» من كمالاته الرسالية، وكيف يكون هو بنفسه قرآناً مبیناً؟ ٩٤ - ١٠٢
- ما هو المعاد في المعاد؟ نار الشجر الأخضر من أدلة المعاد، خلق الأمثال في المعاد - ملكوت كل شئ. ١٠٨ - ١١٨

سورة الصافات:

ماهى الصافات الزاجرات التاليات؟ والسماء الدنيا بكواكبها- التسمع إلى الله

الأعلى ومخلفاته؟. ١٢٨-١٢٠

لماذا يحشر أزواج الظالمين معهم؟ موقف المسئولية والتساءل. ١٥٠-١٣٩

هل البشرية بعد نوح كلهم من ذريته؟ ماذا يعنى ابراهيم من «إني سقيم» ١٧٦-١٦٦

إبراهيم في مكيدة الآلهة - والنار البرد السلام - والذبيح - والذبيح العظيم؟ ١٧٧-١٩٥

«إل ياسين» أم «آل ياسين»؟ سجن يونس - تقويم «مراللم» لياسأعلى «للبث في بطنه

إلى يوم يبعثون». ٢٠٧-١٩٩

سورة ص:

ارتقاء في الأسباب - داود الحكيم بين خصمين! براءته عن تهمة امرأة

اورياء. ٢٤٠-٢١٥

نعم العبد سليمان، إذا فهل يتناسى ضلّاته لعرض الصافات، وهل إن «ردوها علي»

تعني الشمس؟ ولم يسبق لها ذكرًا قصة رد الشمس؟ ٢٥٤-٢٤١

أيوب وتصبره على أنظ البلاء وإلى أله العطايا. ٢٦٣-٢٥٤

سورة الزمر:

تكوير الليل على النهار يشير إلى كروية الأرض، كلمات ثلاث. ٢٩٤-٢٨٩

بين العلماء والجهال، واسعة الأرض للتقوى. ٣٠٤-٢٩٨

كيف «كتاباً متشابها» وفي ثانية محكم كله، وفي ثالثة منقسماً إليها؟. ٣٢٨-٣٢٣

جمعية الاختصاص يوم القيام - أليس الله بكاف عبده؟ فكيف يكفى أحد من

عباده!. ٣٤٠-٣٣٣

توفي الأنفس في الممات والنام - ومن هو المتولي؟. ٣٥١-٣٤٤

٤٩٦ الفهرس

الموضوع الصفحة

- ٣٦٤-٣٥٩ أرجى آية في كتاب الله بأبعادها.
«الله خالق كل شيء» فـ«هل من خالق غير الله»؟!
٣٨٦-٣٧٤ من هم «إلا من شاء الله» يوم الصعقة.

سورة المؤمن:

- «الذين يحملون العرش»؟ كيف «امتنا اثنين واحييتنا
٤١٣-٤٠٤ اثنتين»؟
«الروح من أمره» - «خائنة الأعين» مواقف صامدة لمؤمن آل فرعون في
٤٥٣-٤٢٠ حوار.
٤٥٧-٤٥٣ «النار يعرضون عليها» من آيات البرزخ.
حوار بين أهل النار وبين الرسل والمؤمنين بنصر الدارين كيف يلائم دار
٤٦٧-٤٥٩ البلاء.
٤٨٠-٤٧٣ قول فصل حول الدعاء.

